

ريمون نجيب شكوري
صحتي الفكرية



لَا يَفْهَمُ ظَاهِرَةَ الدِّينِ مَنْ إِعْتَنَقَ دِينًا بَلْ مَنْ إِعْتَنَقَ مِنَ الْأَدْيَانِ

مع تصدير
الدكتور مجيد القيسي

الغلافُ من تصميمِ نبيل شكُّوري

ريمون نجيب شكوري

صَوْتِي الْفِكْرِيَّةُ

لَا يَفْهَمُ ظَاهِرَةَ الدِّينِ مَنْ إَعْتَقَ دِينًا بَلْ مَنْ إِنْعَتَقَ مِنَ الْأَدْيَانِ

مع تصدير

الدكتور مجيد القيسي

المحتويات

i	تَصْدِيرُ
v	مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلِّفِ
vii	مُقَدِّمَةُ مُنِيرِ
1	النِّشَاءُ
47	أَرَاءُ وَأَفْكَارُ
269	حُجَجُ مَزْعُومَةٍ عَلَى وُجُودِ خَالِقِ الْكَوْنِ
377	الْمَلَاحِقُ

تَصْدِيرٌ

الدكتور مجيد القيسي

”صحوتي الفكرية“ كتابٌ قد يكونُ نادراً بين المنشورات العربية. مؤلفه أستاذ جامعيٌ مختصٌ في الرياضيات؛ وفي فرع متقدم منها يُسمَّى (الطوبولوجيا). وهو أيضاً ناقدٌ ودارسٌ للفلسفة وللمنطق الرياضي وحاصلٌ على الشهادة الجامعية الأولى في الهندسة المدنية. أضفت إليها لمسات من علم النفس. إنه الدكتور ريمون نجيب شكوري.

ومن خصائص هذا الكتاب أنه اعتمد في تحريره أسلوبٌ أدبيٌّ جذابٌ، يجمع ما بين السيرة الذاتية والتحاور والجدل؛ بمعناه الفلسفي. وسببُ إلتجاء المؤلف إلى هذا الأسلوب المتنوع هو طبيعته وخصوصية المسألة التي آل على نفسه إقتحامها وهي مسألة شائكة إن نظرنا إليها من خلال ما هو متاح من أدوات معرفية فكرية وعلمية. أو من خلال الظروف الاجتماعية التي نحن جميعاً جزءٌ منها؛ ولا فكاك من قيودها؛ ألا وهي مسألة (خلق) أو (وجود) هذا الكون وما يحويه من مكونات متباينة في خصائصها وطبيعتها وسلوكها، وفي مقدماتها الإنسان نفسه. وهو الكائن العاقل الوحيد بينها، (كما يُعتقد حالياً).

والواقع، فإن الإنسان قد إتخذ لنفسه سبيلين للتعايش مع تلك المسألة

العصية على الإدراك؛ أولهما التسليم المطلق بوجود خالق عاقل لهذا الكون. فوضع لذلك إطاراً فكرياً وروحياً مقدساً لا ينبغي المساس بثوابته؛ ونقصد به الدين، وغايته من ذلك الحصول على السكينة النفسية أو السلام الروحي. أمّا ثاني السبيلين فهو النظر الى تلك المسألة باعتبارها مشروعاً علمياً وفلسفياً متواصلاً ما تزال الأدوات قاصرة عن فك الغازه؛ وحتى إشعار آخر!

ولكل من هذين السبيلين سالكون من رجال الدين واللاهوت أو من الفلاسفة والمفكرين والعلماء. وكانت العلاقة المتواصلة بين الفريقين علاقة تصارع وتضاد بالغة التناقض والتنافر. وبخلاف الفريق الأول المتحفظ، فقد سمح الفريق الثاني لنفسه بأن يدرس ويناقد ويضع الفرضيات العلمية ليقدم تصوراً مقبولاً عن أصل نشأة الكون نتيجة لما إصطلحوا عليه "بالإنفجار الأعظم". وسواء أتم ذلك بفعل فاعل أم على نحو تلقائي. كما درسوا نشأة الحياة التي من أبرز معالمها المتطورة هو الإنسان.

ولم تكن أفكار ومعتقدات الأفراد المكونين لكل طرف متماثلة. فالمؤمنون بعمامة قد أجمعوا على وجود خالق عاقل واحد للكون، لكنهم اختلفوا على صفاته الكونية. بينما إتخذ الطرف الثاني مقاربات مختلفة؛ حتى تباينت آراء أفراده كثيراً أو قليلاً تبعاً لتنوع تخصصاتهم الدقيقة ما بين طبيعي أو أحيائي. ولست هنا بصدد تبين تلك الفروق. ولكن بإمكان القراء الرجوع الى آراء علماء وفلاسفة بارزين من أمثال (آينشتاين) و(برتراند رسل) و(ستيفن هوكنگ) و(ريتشارد دوكنز) و(لورنز كراوس) و(ريتشارد فينمان) و(بيتر هكز) و(فرانسس كريك) و(جيمس واتسون) وغيرهم كثر.

وقد أفاض الدكتور ريمون في وصف الحياة التي عاشها منذ الطفولة

وحتى اليوم بالتساؤل والتأمل في عالم بالغ الحيوية والنشاط؛ ومنشطر الى نصفين. وعليه أن يختار النصف الذي يجد نفسه متصالحاً معه. ولم يكن السبيل الى ذلك سهلاً ومعبداً. وبدا هذا واضحاً في جميع محاور كتابه و بأسلوبٍ ممتعٍ لا يخلو من إثارةٍ ومفاجآتٍ وتحدياتٍ.

ولعل من أبرز محاور "صحتي الفكرية" ما أطلق عليه المؤلف (آراء وأفكار). وفيه يناقش الإيمان والإلحاد وعلاقتهما بالقيم الأخلاقية وبأوسع مفاهيمها. كما ناقش مسألتَي (الحياة) و(الموت) وما إذا كانت هناك حياة بعد الموت. وقد استعان بما لديه من رصيد رياضيّاتي ومنطقيّ وفلسفيّ غزير. وكذلك بالرجوع الى أمهات المصادر والمراجع المعتمدة.

وقد أذكر هنا أثر (الطوبولوجيا) كأداة فكرية فاعلة في محاولة خوض غمار الموضوعات التي إختار إقتحامها الدكتور شكوري. ومعروف أن هذا الحقل في الرياضيات يتناول دراسة الخصائص الرياضياتية التي لا تتغير بتعرض الأشكال الهندسية الى تشويهاتٍ من مطّ ولىّ بإستثناء التمزق، وما أكثرها في عالمنا. ويتطلب هذا الحقل من الرياضيات خيالاً خصباً وتصوراً جلياً.

ولم يكن الدكتور شكوري أول من تعرّض الى تلك المسائل الخطيرة التي حيرت الإنسان منذ وعى. وقد بين ذلك بإسهابٍ ووضوح. وختاماً؛ فلست أبغي من وراء المرور السريع على المواد المثيرة في "صحتي الفكرية" مناقشة كل ما ورد فيه من أفكارٍ ساخنةٍ وبعين الناقد المحترف. وإنما لأطلق في فضاء الفكر الحرّ إطلاقاً تنبيه تلفتُ نظرَ القارئ العراقي والعربي، وخصوصاً المنفتح على الآراء

المتباينة؛ كي يقرأ هذا الكتاب ويتمعن في مواده المتشعبة ويحلل آراء الأستاذ الدكتور ريمون شكوري وأفكاره وينظر في المنهج العلمي الذي إتبعه.

الدكتور مجيد القيسي

أستاذ الكيمياء والعميد الأسبق لكلية العلوم / جامعة بغداد
الأول من كانون الثاني 2016.

مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلَّفِ

إِتَّصَلَ بِي عَبْرَ الْهَاتِفِ أَحَدُ قُرَّاءِ مَقَالَاتِي الْمُنشُورَةِ فِي مَوْقِعِ "الحوارِ الْمُتَمَدَّنِ". عَرَفَ نَفْسَهُ أَنَّهُ لِبَنَانِي الْأَصْلِ وَأَنَّهُ كَانَ طَالِباً يَدْرُسُ الْإِلَاهُوتَ فِي إِحْدَى الْمَدَارِسِ الْإِلَاهُوتِيَّةِ فِي لِبْنَانِ. ثُمَّ تَرَكَ الدِّرَاسَةَ فِيهَا قَبْلَ حَوَالِي عَشْرِ سِنَوَاتٍ لِعَدَمِ إِقْتِنَاعِهِ بِهَا. وَهَاجَرَ إِلَى الدَانِمَارِكِ حَيْثُ يَعْمَلُ الْآنَ صَحْفِيًّا فِي إِحْدَى صَحَفِ كُوبِنِهَاجِنِ.

إِقْتَرَحَ عَلَيَّ عِنْدَ إِتِّصَالِهِ الْهَاتِفِي أَنْ أَكْتُبَ سِيرَةَ حَيَاتِي مَتَمَحُورَةً حَوْلَ تَطَوُّرِي الْفِكْرِيِّ الْمُتَعَلِّقِ بِمَوَاضِيْعِ تِلْكَ الْمَقَالَاتِ وَحَوْلَ آرَائِي بِمُخْتَلَفِ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْأَدْيَانِ وَمُنَاقَشَةِ الْبِرَاهِينِ الْمَعْرُوفَةِ عَلَى وَجُودِ الْخَالِقِ.

أَبْدَيْتُ تَرَدُّدِي فِي قَبُولِ إِقْتِرَاحِهِ لِأَسْبَابِي الْخَاصَّةِ. لَكِنَّهُ عَادَ بَعْدَ أَيَّامٍ مُطَوَّرًا مُقْتَرِحَهُ بِأَنْ يُجْرِي هُوَ سِلْسَلَةَ مَقَابِلَاتٍ مَعِي عَبْرَ الْهَاتِفِ وَالْبَرِيدِ الْأَلِكْتْرُونِيِّ. رَحِبْتُ بِالْفِكْرَةِ وَشَكَرْتُهُ عَلَى إِهْتِمَامِهِ.

إِلْتَمَسَ مِنِّي أَنْ لَا يُذَكَّرَ إِسْمُهُ الْحَقِيقِي فِيْمَا يُنْشَرُ مِنَ الْمَقَابِلَاتِ. وَرَغْمَ تَفْضِيلِي ذِكْرَ الْأَسْمَاءِ الْحَقِيقِيَّةِ إِذَا لَمْ يُوَدِّ ذِكْرُهَا إِلَى إِحْرَاجِ لِأَصْحَابِهَا، إِسْتَجَبْتُ إِلَى إِتْمَاسِهِ فَأَعْطَيْتُهُ إِسْمًا مُسْتَعَارًا فِي هَذِهِ الْمَقَابِلَاتِ هُوَ "مَنِير".

تَعَهَّدَ عَلَى عَدَمِ نَشْرِ وَقَائِعِ مَقَابِلَاتِنَا فِي الصَّحْفِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ الْأَجْنِبِيَّةِ إِلَّا بِمُؤَافَقَتِي. إِسْتَمَرَّتْ مَقَابِلَاتُنَا عَابِرَةَ الْقَارَاتِ عِدَّةَ أَشْهُرٍ.

أَخَذْتُ عَلَى عَاتِقِي تَدْوِينَ، بِالْفَصْحَى بِأُسْلُوبِي الْكِتَابِيِّ الْخَاصِّ، جَمِيعَ وَقَائِعِ الْمَقَابِلَاتِ مِنْ صِيَاغَةِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي طَرَحَهَا مَنِيرٌ وَإِلَى أَجْوِبَتِي وَتَعْلِيْقَاتِ مَنِيرٍ عَلَيْهَا، مَعَ مَا أَزْتَأَى مِنْ تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ وَتَبْوِيبٍ.

وَأَعْلَنُ مَسْؤُولِيَّتِي عَنْ جَمِيعِ الْأَخْطَاءِ النَّحْوِيَّةِ وَالْإِمْلَائِيَّةِ وَالْإِنْشَائِيَّةِ.

كما أعلنُ مسؤوليتي الشخصية في "تهريب" من خلال هوامشٍ مسهبةٍ في الإسترسال، بعضَ الأمورِ غيرِ ذاتِ علاقةٍ مباشرةٍ بموضوعِ المقابلاتِ، لِشعوري بأهميةِ توثيقها.

ويجبُ عليّ الاعترافُ أنه على الرغمِ من جمالِ اللغةِ العربيةِ الفصحى، لكن، في بعضِ الأحيان، تُفقدُ الكتابةُ بها ذلكَ التدفُّقَ والحيويةَ المرتبطينِ باللهجةِ المحكيَّةِ العراقيةِ أو اللبنانيةِ حينَ كانت تُجرى بها على الهاتفِ.

ينبغي أن أوضِّحَ أنني عندَ إستعمالي كلمةَ "دين" من دونِ إضافةٍ، أقصدُ بها، في أغلبِ الحالاتِ، الأديانَ الإبراهيميةَ التوحيديةَ الثلاثَ اليهوديةَ والمسيحيةَ والإسلاميةَ.

وأقترحُ على القارئِ قبلَ بدئهِ القراءةَ، مشاهدةَ الفيديو على الرابطِ الآتي كي يتذوقَ "نكهةَ" الآراءِ والأفكارِ المطروحةِ في الكتابِ. وأتمنى أن تنالَ رضاهُ:

http://www.youtube.com/watch?v=Peh-UvZqPkE&feature=youtube_gdata_player

د. ريمون نجيب شكوري¹

مُقَدِّمَةٌ مُنِيرٌ

إن إقتراحي بإجراء مقابلاتٍ عابرةٍ للقطاعات مع الدكتور ريمون شكوري من خلال التلفون والإنترنت، نابعٌ من شعوري بافتقار الشباب - خاصةً العربي - معرفةً كيفيةً تنهيج أدمغة الأطفال لغرس فيروس الدين في عقولهم فتتفشى فيهم ظاهرة التعاطي الخرافي والغيبى . هم في حاجة إلى التعرُّض إلى آراءٍ مثل التي طرحها في مقالاته في "موقع الحوار المتمدن" .

وأتمنى أن الدكتور ريمون سوف لن يُبقي وقائع المقابلات في أدراج مكتبه بل يعمل على نشرها على الأقل في أجواء الإنترنت . وإذا تم ذلك فسأعمل - بعد أخذ الإذن منه - على ترجمتها إما إلى اللغة الدانماركية وإما إلى الإنكليزية .

تناولت المقابلات ثلاث مراحلٍ بالتسلسل الآتي :
 أولاً، الإستفسار منه مباشرةً عن تطور أفكاره بشأن الأديان منذ زمن الطفولة إلى اليوم .
 ثانياً عن آرائه حول مختلف الأمور المرتبطة بالأديان .
 ثالثاً عن مناقشته المنطقية الحجج التي يزعم أنها تبرهن بالعقل والمنطق على وجود خالقٍ للكون .

النشأة

مرحلة الطفولة

الغلاف الهندية

مرحلة ثانوية كلية بغداد

مرحلة كلية الهندسة

التفجر

مَرْحَلَةُ الطُّفُولَةِ

منير: أرغبُ بالإعترافِ بِأني لم أُعدْ مسبقاً الأسئلةَ التي أودُّ طرحَها. إذ أتوقَّعُ تَفْتِاحَ المَقَابِلَاتِ بِأسلوبٍ شبيهٍ بالتفاعلاتِ المُسلسلةِ الكيمائيةِ، أي أسئلةٌ تُثيرُها الأجابةُ وأجابةٌ تُثيرُها الأسئلةُ، وهكذا دوَالِيكَ.

لا بدُّ من سؤالٍ أولٍ يحركُ التفاعلَ. يدورُ سؤالي الأولُ حولَ الكيفيةِ التي تَمَّتْ بِها رحلتُك من موقفٍ، أثناءَ سني الطُفولةِ الذي أُرجِّحُ أنه كان يقيناً دينياً، إلى موقفك المغيرِ الحالي. هل مررتَ في رحلتك بأزماتٍ عانيتَ منها؟

أولاً، أشكركُ لِإهتمامِ بِآرائي وبِكيفيةِ تطوُّرها. حينَ أقولُ آرائي، لا أدعي أنني مبتدعُها، إنما هي نتيجةُ إطلاعٍ ودراسةٍ مؤلفاتٍ عديدةٍ لمفكرينَ كَثُرَ وقراءاتٍ كتبٍ علميةٍ وأدبيةٍ ودينيةٍ ولادينيةٍ مع تفاعلٍ وتراكمٍ خبراتٍ شخصيةٍ خلالَ سنواتٍ عديدةٍ. وفي الوقتِ نفسه لا أدعي عدمَ أهميةِ إطلاعِ الأجيالِ القادمةِ على آراءِ أولئك المفكرينَ، بل بالعكسُ أعتقدُ أن تَعَرُّفَ الجيلِ الجديدِ على آراءِ وأقوالِ ومواقفِ اللادينيينَ يُحصِّنُ البشريةَ من الإنزلاقِ إلى عصرٍ شبيهٍ بِالعصورِ المظلمةِ.

أشكركُ ثانيةً على مبادرتك.

لم تكنْ رحلتي رحلةً بِالمعنى المتداولِ للكلمةِ، فوسائلُ تحريكِها ليست سيارتٍ أو قطاراتٍ أو طائراتٍ. إنما هي سيرورةٌ مستديمةٌ متعددةُ المراحلِ، محرِّكاتُها طرائقُ وأساليبُ التأملِ المنطقيِ وأدواتِ التفحصِ في معتقداتٍ مكسوةٍ بِأوهامٍ وظنون. وأرجو ألا تتصوَّرَ أنها كانت

سيرورةً سهلةً، فقد تخللتها مطباتٌ ومثبّطاتٌ وتراكماتٌ خِبرٍ حياتيةً تتوجتُّ بحوادثٍ كانت بمثابة القش الذي يقصمُ ظَهْرَ الجملِ (كما يقولُ المثلُ الشائعُ) مغيّرةً المناحي. نعم، رحلتي سيرورةً مستديمةً وأظنها ما زالت في سيرٍ وحركة.

منير ليس من بُدُّ أن كان لها بداية. وبطبيعة الحال، تنطلقُ أمثالُ سيرورتك من بيئة العائلة أثناء سني الطفولة. إذ يولدُ الطفلُ صفحةً بيضاءً، يختمُ عليها أولياءُ أمره ببصمتهم الخاصة تاركةً أثراً يصعبُ جداً عليه عند الكبرِ إزالته إلا ما ندر.

سؤالي: هل أورتك والداك الموقفَ الفكريَ الدينيَ الذي أنتَ عليه الآن أم أنك من أولئك القلائل الذين استطاعوا إزالة ما ختمه الوالدان؟

(ضاحكاً). بالتأكيد ورثتُ من والديّ أموراً كثيرة². لكن آرائي بشأنِ المواضيع الدينية جاءتْ نائيةً عن توقعاتِهما ومخيبةً لآمالِهما³. كان والداي مؤمنينَ بالدينِ المسيحي الكاثوليكي. لكن تباينَ التزامُهما بممارسة طقوسه.

2

من الأمور التي ورثناها أنا وشقيقيّ مجلدٌ كبيرٌ عن تاريخ فرنسا باللغة الفرنسية تأليفَ ريمون پوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية أثناء الحرب العالمية الأولى. وقد سُميتُ "ريمون" تيمناً به. كما أن ريمون پوانكاريه ابنُ عمِّ هنري پوانكاريه عملاق الرياضيات في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين. كما ورثنا قاموساً فرنسي - عربي وقد خطَّ الوالدُ بخطه الجميل على غلافه التاريخ والساعة ليلا كل من أبنائه الثلاثة.

ورثنا كتباً عديدةً باللغة الإنكليزية، أذكرُ الآن منها: كتاباً من تأليفِ ونستون تشرشل وكتاباً من تأليفِ لورنس العرب وكتاباً مترجماً من الألمانية تأليفِ أدولف هتلر يحملُ العنوانَ المشهورَ به "Mein Kampf" أي "كفاحي".

3

يجب ألا يفهم من هذه العبارة أنني تعمدتُ أن أتأني بنفسي عن توقعاتِهما وأُخيبَ آمالَهما. إن المقصودُ أن الظروفَ التي مررتُ بها شاءتُ أن تخيبَ آمالَهما.

لعل من المفيد التعرف على شيء عن مواقفهما. كان والدي نجيب شكوري إنساناً فاضلاً يجيد اللغتين الإنكليزية والفرنسية إجادةً تامةً. وكان واسع الإطلاع في مواضيع متعددة. لكنه كان قليل التطرق الى المواضيع الدينية. وعند إستفساري منه عنها صرّح قائلاً:

إني أوْمَنُ بِكُلِّ ما جاءَ بهِ الإنجيل .

وكان تصريحه بإيجازٍ شبيه دبلوماسيٍ بحيث لم أشجّع عليّ الإسترسالٍ بمزيدٍ من المسألة. وبالرغم من ذلك، لا يعتريني شكٌ بصدقٍ تصريحه الذي يعزّزه حرصه على إدخالِ أبنائه الثلاثة (أي أنا وشقيقيّ فريد وصباح) في مدارسٍ خاصةٍ ذات توجّهاتٍ مسيحيةٍ⁴ لِضمانِ إغترافهم وتشرّبهم بمبادئ وسلوكيات الدين المسيحي بغض النظر عن الكلفة الباهظة لأجور الدراسة في تلك المدارس. لكن من المفارقات أنه لم يكن ملتزماً تماماً بالواجبات التي يُلزمُ الدين المسيحي معتنقيه بها. إذ لا أذكرُ أبداً أن شاهدته في يومٍ من الأيام يُصليّ أو يقرأ الإنجيل. وقلّما كان يذهبُ الى الكنيسة أيام الأحد. وفي الحالات القليلة التي كان يذهبُ إليها، يخرجُ في الغالب مباشرةً بعد سماعه تلاوة الإنجيل.

أمّا والدي وارينه رزوقي (وهي ابنة عمّ والدي) فكانت امرأةً مؤمنةً إيماناً راسخاً بالمسيحية وكانت — على عكس والدي — ملتزمةً بالواجبات التي يفرضها الدين. إذ كانت تُصليّ صلوات الصباح والمساءً وما قبل تناول الطعام، ولا تفوتُ قدايس أيام الأحد والأعياد الدينية إلا بسبب مَرَضِي، وتحرصُ على إصطحابنا معها. وتُصليّ طوال القدّاس وتنتصتُ الى موعظة الكاهن بإمعانٍ كبير.

كي أكون أكثر دقةً ينبغي الإشارة الى أنني قضيتُ الأول ابتدائي لمدة سنة دراسية وربما نصف سنة في مدرسة حكومية في مدينة الكوت حيث كان والدي المدير العراقي في الشركة البريطانية المنفذة لمشروع سد الكوت.

منير: إذن يبدو لي أن والدك قد إتفقا على تحويل مسؤولية تربيتهم الدينية الى الوالدة كي يتفرغ الوالد الى أعماله ووظيفته ومطالعته باللغات المختلفة. أليس كذلك؟

لا بد أنك درست في مدرستك اللاهوتية أساليب التحليل النفسي!! إذ لم يسبق أن خطرَ تفسيرك على بالي (ولا يبدو أنه خالٍ من الصحة). ومِمَّا يعزُّزُ رأيك حقيقةً أن قبلَ إستقرارِ عائلتنا في بغداد (أي في نهاية ثلاثينيات وبداية أربعينيات القرن الماضي) كان والدي يعملُ مع شركاتٍ أجنبيةٍ خارجَ مراكزِ المدنِ مثلَ الكوتِ وسدَّةِ الهنديَّةِ وغيرهما. وكان يأتني معظمَ الأحيانِ إلى البيتِ عندَ نهايةِ الأسبوعِ، ممَّا لا يتيحُ له الإشرافَ على التربيةِ الدينيةِ لأبنائه. وربِّمَّا هنالك تأويلاتٌ أُخرى. على كلِّ حالٍ، مهما كانت التفسيراتُ، فقد تولَّتْ الوالدةُ تلكَ المسؤوليةَ بهمةٍ ونشاط.

علَّمتني وأنا في السنةِ الثالثةِ عمراً الصلاةَ الربانية:

”أبانا الذي في السموات، ... الخ“

والصلاةَ المريمية:

”السلامُ عليكِ يا مريم، ... الخ“.

ولا يزالُ صوتُها الحنونُ يرنُّ في أُذنيَّ إلى الآن:

يا ”عذغا“⁵ حبيبي، صوتُكِ الحلو سمعيني،
لبسيني ثوبَ الطاعة، بكلِّ وقتٍ وكلِّ ساعة،
وأطلبُ منكِ الشفاعة، وفي ساعة موتي عينيبي.

التي كانت تُرنِّمها وأنا أُردِّدها بعدها قبلَ إغفائي.

لم أكنُ أفهمُ آنذاك أيّ كلمةٍ من هذه العبارات. إلا أن والدتي كانت تُبدي إفتخارها بيّ وبنجاحها بتلقيني، متصورةً أنها تغرسُ في جذورِ المسيحية. وكانت تدعوني أمامَ الزوّارِ لأتلو الصلواتِ والترنيماتِ التي لَقننتني إياها وهي مبتهجةٌ وفخورةٌ بيّ كأني بطلٌ عائدٌ من غزوةٍ في الفضاء!!! وأنا أيضاً بدوري كنتُ أنتفشُ زهواً كالطاووسِ عند إحرابي التصفيقِ والإعجاب.

منير: هذا مثالٌ نموذجيٌ حيٌ يدعمُ آراءَ ربي دارنيل في كتابه المعنون "فيروسُ الإله" الذي لخصته تحت العنوان:

"الأديانُ: كيف تصيبُ حياتنا وثقافتنا".

إن حَقَنَ فيروسُ الدينِ في عقولِ الأطفالِ وَهُمْ فِي سِنِّ مَبَكَّرَةٍ أسلوبٌ تنتهجهُ جميعُ الأديانِ. أنتَ تَسْمِيها تربيةً دينيةً، أمّا أنا فأسْمِيها "برمجةُ دماغِ الطفلِ بخوارزمياتٍ دينيةً".

هل هنالك مزيدٌ من نماذجٍ نابعةٍ من طفولتك؟

لا بدّ أنك، يا منير، ذو درايةٍ في البرمجةِ الحاسوبية. ما هي لغتُك الحاسوبيةُ المفضّلةُ (ضاحكاً). لا تُجِبُ عن السؤالِ. المفروضُ أنتَ تسألُ وأنا أُجيبُ. على كلِّ حالٍ أتفقُ معك بأن التربيةَ الدينيةَ التلقينيةَ عند تلك السنِّ المبكرةِ ليست سوى برمجةِ دماغِ الطفلِ. دعني الآنَ إكمالاً ما علّمتني الوالدةُ من أصولِ الدينِ

عندما بلغتُ الخامسةَ – حسبما أذكرُ – صرْتُ أهلاً لإعطائي دروساً في الدينِ المسيحي. فبدأتُ تروي لي، قبلَ تلاوتها الصلاةَ المعتادةً، قصصاً حول الخلقِ وأن اللهَ أوجدَ كلَّ شيءٍ: الأرضَ والنجومَ وجميعَ أنواعِ الحيواناتِ والنباتاتِ وأخيراً آدمَ وحواءَ اللذين نهاهما عن أكلِ ثمرةِ شجرةٍ معينة. إلا أن الشيطانَ اللعينَ اغواهما فطردهما اللهُ شرّاً طردةً من الجنةِ التي كانا يعيشان فيها. ممّا حتمَّ

إنزال عقابٍ ليس عليهما فحسب بل على نسليهما أيضاً.
لم أكنُ أنذاك من النضجِ الفكريِّ لِجَادَلِ فِي كَيْفِيَّةِ تَبْرِيرِ مَعَاقِبَةِ نَاسٍ
لِمُخَالَفَةِ إِرْتِكَبِهَا أَسْلَافُهُمْ.

وكانت الوالدة تُتَوَجُّ الحكاياتِ بِقِصَّةِ وِلادَةِ يَسُوعَ الَّذِي فَدى نَفْسَهُ
لِيُخَلِّصَنَا مِنَ الْعِقَابِ. وكانت تكررُ رواياتِها يوميةً تقريباً مع تغيراتٍ
طفيفة. لا حاجةً الى التأكيدِ على أنني كنتُ أتمتعُ بِسَماعِ تلكَ
القصصِ كما كان شهريرار يستمتعُ بِحكاياتِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ.

يبدو أن التكرارَ خَمَرَ في ذهني حيرةً فكريَّةً. في إحدى الليالي
حينَ كانت الوالدةُ تكررُ شرحَها أن كلَّ شيءٍ في الوجودِ من خَلْقِ
اللهِ، عبَّرتُ عن حيرتي مستفسراً:

”مَنْ الَّذِي خَلَقَ اللهُ؟“

أجابتنِي قائلةً:

يا إبني ريمون ، يجبُ أن لا تفكرَ بِمِثْلِ هذهِ الأمورِ ،
إن التفكيرِ بها يؤدي إلى الجنون .

لا ضرورةً للتأكيدِ على أنني صدقتُها دونَ ترددٍ. ومَنْ لا يصدقُ ما
توحي أُمُّه إليه وهو في سنِّ الطفولة؟

حاولتُ فعلاً طرْدَ آيَةِ فِكْرَةٍ عن هذا الموضوعِ وأمثالِه خَشِيَّةً أن أُصْبِحَ
معتوهاً مثلَ ذلكِ الملقَّبِ كَتُونَا ذا الملابسِ الممزقةِ الذي يذرغُ أزقتنا
حافِي القَدَمينِ دونَ هُدَى.

يجبُ ألا يفهمُ أبداً من سردي تصرفاتٍ وإجاباتٍ والدتي الإستهزاءُ
بها أو بآرائِها أو بتوجيهِ لومِ اليها. إنمَّا يجبُ أن يفهمَ منه أن
تصرفاتِها نماذجُ لِأَسَالِبِ التَخْوِيفِ والترهيبِ التي يلجأُ اليها رجالُ
الدينِ وتقريباً جميعُ أولياءِ أمورِ الأطفالِ لهدايتِهِم حسبَ ما تُصوِّره
لهم، معتقداتُهُم وما يملِيه عليهم فيروسُ الدينِ الجاثمُ على عقولِهِم.

دعني أروي حادثةً لها مساسٌ بِتلكِ النصيحةِ التي تذكَّرتُها بعد قرابةِ
سنتين. وهي حادثةٌ نموذجيةٌ لِتصرفاتِ رجالِ الدينِ.

كان الأبُّ لويس (يجبُ التنويهُ أن إسمه الحقيقي لم يكن لويس) يُلقنُ مواضيعَ التربيةِ الدينيةِ لِتلاميذِ الصفِّ الثالثِ الابتدائي في مدرسةِ السريانِ في بغدادِ بِإثارةِ سؤالٍ من عنده. ثم يُجيبُ عنه بِنفسه. وعلينا نحن التلاميذُ ترديدُ إجابتهِ سويةً. فسأل:

مَنْ أوجدَكَ في هذا العالم؟

ثم أجاب:

إن اللهَ أوجدني في هذا العالمِ وخلقني على صورته .

ورددنا جميعاً بصوتٍ واحدٍ العبارةَ نفسها. عند هذه اللحظة رفع أحدُ التلاميذِ إصبعه مستفسراً ببراءةِ الأطفال:

أبونا ، وَمَنْ الذي أوجدَ الله؟

إستشاطَ الأبُّ لويسَ غَضَباً وتطايَرَ الشرُّ من عينيه الجاحظتين وتناولَ مسطرةً وأخذَ يضربُ ضرباً مبرحاً بِحافتها قَفَّ يدِ التلميذِ. والمسكينُ يصرخُ مولولاً باكياً.

فوجدتُ من المناسبِ الإدلاءَ بِمعلوماتي "الموسوعيةِ القيِّمةِ" التي تعلمتها من الوالدةِ وقلتُ:

أبونا ، إن الإنسانَ الذي يفكرُ بِمثلِ هذهِ الأسئلةِ يصيرُ مجنوناً .

يبدو أن مداخلتي كان لها وقعٌ جيدٌ على الأبِّ لويسِ وكأني رميتُ له طوقَ نِجاةٍ. إذ هدأَ غضبه فجأةً وقالَ بهدوءٍ موجَّهاً كلامه الى التلميذِ الباكي:

إبني ، إن ريمونَ أفهمُ منك . أسمعتَ ما قال؟ قال إن الذي يفكرُ بِمثلِ هذهِ الأمورِ يُصابُ بالجنون . إني أضربُكَ لفائدتك . نعم لِصَلحتك كي لا تصبحَ مجنوناً . أفهمت؟

هذه اللحظة التي أتكلَّمُ معكَ الآن، يا منير، أسترجعُ الماضيَ مستعيداً ذكرياتي، أُرَجِّحُ أن سببَ غضبِ الأبِّ لويسِ إخفاؤه —

بوعي أو من دون وعي — معاناةً لاهوتيةً دفينَةً في باطنِ عقلِهِ لا يجدُ لها إجاباتٍ منطقيةً شافيةً، وفي الوقتِ نفسه لا يرغبُ في كشفِها لئلا يخسرَ مكانتهُ الإجماعيةَ ولقبه «الأب المَجَلَّ» وسلطتهُ الدينيةُ التي لا تُعوّضُ، أُسْتُنْهَضَتْ معاناتُهُ من سباتِها بِإِسْتِفْسارٍ من طفلٍ بريءٍ.

منير: أرى تعليلك لتصرف الأب لوييس معقولاً،
ويذكّرني بالأُم تريزا وبكيفية إخفائها معاناتها
الإحاديّة بابتسامة متصنّعة كما اعترفت هي في
رسائلها الى رؤسائها.

بناءً على تمتعك كمعظم الأطفال بحُبّ الإستطلاع
وعلى جرأتك في التساؤل، أتوقع أنك قد عوقبت
بعقوبات مماثلة.

أودُّ أن أسألك: هل صحَّ ظني (ليس كلُّ ظنٍّ إثماً)؟

أشكرك على تذكيري بالأُم تريزا التي وصفتها في مراجعتي لكتاب
ألفَ خصيصاً لتطويبها قديسة⁶ بأنّها «شفيعَةُ الملحدين»!!!
لنعود الى سؤالك. أقولُ ليس كلُّ ظنٍّ صحيحاً. ظنُّك نصفُ
صحيح!! قد عوقبتُ بعقوبةٍ مماثلة، ولحُسنِ الحظِّ كانت أقلُّ إيلاماً
ولأسبابٍ لا ترتبطُ بمواقفَ دينيةٍ كما بدا لك، إنما لموقفٍ شبه
سياسي!! كنتُ آنذاك في السنة الخامسة الابتدائية وكان الدرسُ
«التربية المدنية» وهو موضوعٌ تُدرّسُ فيه الحقوق والواجبات المدنية
التي على المواطن العراقي معرفتها. فتعلمنا أن دستورَ البلاد ينصُّ
على أن جلالَةَ الملك، الذي يحكُم البلادَ ويعيّنُ ويقيّلُ رئيسَ الوزراءِ
ويحلُّ مجلسَ النوابِ، والى آخرِ ما هنالك من واجباتٍ ثقيلة، يستلمُّ

.6

سلطاته الدستورية عند بلوغه سن الثامنة عشر. لكن من جهة أخرى كي يحق للمواطن العادي لمجرد الإدلاء بصوته في الانتخابات يجب أن يكون في الحادية والعشرين. بدا لي الدستور غير متوازن ولا متوائماً. وحين أبديت رأبي أثناء حصة الدرس عوقبت بضرب بالمسطرة. (وهي العقوبة التي كانت متبعة آنذاك في المدارس) بسبب إنتقادي الدستور المعصوم من الإنتقاد.

منير: تكتسب المعصومات سواء الدينية أم المدنية
ومناعة قُدسية تحميها من الإنتقاد.
إني آسف لتعليقي الجانبي. أرجو إستئنافك الكلام
عن موضوعنا الرئيسي.

ذكرت سابقاً أنه حين كنت في سن الخامسة شيئاً عن حكايات الوالدة بشأن ولادة يسوع. كانت تصفه بالطفل والحمل الوديع المحب للبشر وتقبل صورة طفل يحمل خروفاً صغيراً وتحثني على تقبيلها. لم تتشكّل في ذهني - رغم التكرار - سوى صورة ضبابية مشوهة عن ذلك الذي كانت تتكلم عنه. فإختلطت تصوراتي عنه خطأً بين طفلٍ رضيعٍ وحملٍ صغير.

في أحد الأيام إسترعى إنتباهي منظرَ والدتي وهي تُقبل في الكنيسة قدماً داميةً لتمثال إنسانٍ مُسمّرٍ على صليب.

تبلورت، بعد إستفساري منها عن الموضوع، صورةً أوضح عن يسوع بمعلوماتٍ تفصيلية. فأدركت أن اليهود اللؤماء (حسب تعبيرها) إعتقلوا يسوع وحاكموه وعذبوه وصلبوه فمات ودُفن ثم قام حياً بعد ثلاثة أيام من دفنه ميتاً.

وأتذكر في هذه اللحظة التي أتكلّم فيها معك، أن عند مشاهدتي الفيلم السينمائي "آلام المسيح" سنة 2004، كنتُ طوال عرضهِ، أتخيل أن والدتي هي مخرجة الفيلم وليس ملّ جيسون.

منير: أثارت المناظر القاسية في الفيلم إشمئزازي.

ترك عندي رسمٌ والدتي للصورة الذهنية للآلام المسيح رعباً وإحساساً بالإثم بحيث كنت أشعرُ أن أي زلّة طفولية صادرة مني تساهم في تعذيبٍ وصلبٍ ذلك الإنسانِ الحنونِ المحبِ لجميعِ البشرِ. وكانت الوالدةُ تؤكدُ عليَّ وعلى شقيقيَّ بوجوبِ أن نكونَ سعداءَ لأن الحظَّ حالفنا فولدنا مسيحيينَ وسيأخذنا مخلصنا الربُّ يسوعُ بعد موتنا الى الجنةِ إذا أطعناه. أمّا إذا عصيناه فسيرمي بنا الى نارِ جهنم.

لا بدَّ أن يُفعلَ الأذهانَ التكرارُ والتأكيدُ المتواصل. لستُ متأكداً الآنَ ماذا دارَ في عقلي آنذاك وأنا في سنِّ السادسةِ حينَ أثرتُ السؤالَ الافتراضي:

لننتصروا أننا وُلدنا مسلمينَ فهل يرمينا يسوعُ في جهنم؟

لستُ أدري الآنَ سببَ إثارتني السؤال. ربّما — أقولُ ربّما — كان عجزِي عن التعبيرِ بوضوحٍ عما خالجنِي من شعورٍ يتناقضٍ ما: فَمِنْ جهةٍ يُدعى أن يسوعُ غفورٌ رحيمٌ محبٌ عطوفٌ على جميعِ البشرِ ومن جهةٍ أُخرى، يُقالُ إنه يُنزلُ قصاصَ نارِ جهنمِ أبديِّ عقاباً على كلِّ مَنْ يعصاه.

طبعاً لم يخطرُ على بالي التساؤلُ عن مصيرنا لو وُلدنا يهوداً. إذ أن المصيرَ لِقَتلةِ يسوعُ من البداةِ بحيثِ يستحيلُ أن يقدحَ ذهني سؤالاً مناظراً عن اليهود. أمّا بخصوصِ المسلمينَ فالأمرُ مختلف.

على كلِّ حالٍ، جوابُ الوالدةِ هو المهمُّ بالنسبةِ الى هذه المقابلة، إذ

قالت:

يُدرِكُ المسلمونَ أن الدينَ المسيحيَّ هو الدينُ
الصحيح ، هو الدينُ القويم . لكنهم يتمسكون
بدينهم الباطل بعناد شديد . إن عنادهم يجرهم
بأسْتحقاقِ ألى نارِ جهنم . . وهم مراؤون
يَدْعونَ الصيامَ في شهرِ رمضان ، غيرَ أنهم يفترون
خفيةً .

أمّا أنا وبابا لسنا عنيدين مثلهم إذ حتّى ولو كنا قد
وُلدنا مسلمين لما توانينا لحظةً في إعتناق الدين
الوحيدِ الصحيحِ مهما كانت المصاعبُ والعواقبُ .

ثم أضافت قائلةً:

الحمدُ لله نحنُ مسيحيين . الحمدُ لله ألف ألف
مرة نحنُ مسيحيين .

وأخذت تكرر هذه العبارة.

أودُّ الآنَ - وأنا أتكلّمُ مسترجعاً ذكرياتِ سنّتي الطفولة - التأكيدَ
على أنني لم أكنُ مُدرِكاً آنذاك أن كلَّ دينٍ من الأديانِ المعروفةِ يدّعي
أنه هو الدينُ الصحيح . ومن غيرِ ريبٍ أن الوالدةَ كانت تُعبرُ عمّا
تعتقدُ به إعتقاداً جازماً ، وهي أيضاً غافلةٌ تماماً عن أن المسلمين
يعتقدونَ بنفسِ ما تعتقدُ هي . وربّما يعبرونَ عن معتقداتهم
وأرائهم بالعباراتِ نفسها بعد تبديلِ كلمتي "مسيحي" و "مسلم"
الواحدة في مكانِ الأخرى مع تحويراتٍ طفيفةٍ تقتضيها ضرورةُ اللغة .
ليس من بُدُّ أن يكونَ لتلك الآراءِ المبرمجةِ للعقولِ وقعاً عليّ . فبقيتُ
أشهرًا عديدةً تزامنتُ مع فترةِ الإعدادِ لتناولِي الأول ، أشكرُ الله
خلالها وأحمدُه على النعمةِ التي وهبني إياها بولادتي مسيحياً . كما
صيرتني تلك البرمجةُ العقليةُ حاقداً على اليهودِ قتلةِ يسوع المسيح
ومتعالياً على المسلمين المرائين الذين لا يعيقُ إعتناقهم الدينَ الفذَّ
الصحيحَ سوى العناد .

منير: من المؤكّد أن الأديانَ، خاصّةً التوحيديةَ، نهجتْ وتنتهجُ الأسلوبَ نفسَه في التأكيدِ على قدسيةِ عقيدةٍ واحدةٍ مطلقةٍ وعلى كراهيةِ الأخرى.

الفلافلُ الهنديَّةُ

منير: كنتُ أنصتُ اليكُ وأنا على التلفون أشعرُ
أنكُ في تفكيرٍ عميقٍ عن الأديان التوحيدية التي
تنتهجُ أسلوبَ التأكيدِ على قُدسيةِ عقيدةِ واحدةٍ
مطلقةٍ وعلى كراهيةِ الأخرى. ممَّا أدَّى الى ما
يحصلُ اليومَ من عملياتٍ إرهابيةٍ وتفجيراتٍ ومجازرٍ
متبادلةٍ بين مختلفِ المذاهبِ والطوائفِ.
تدلُّ لهجةُ كلامكُ أنكُ متأهبٌ للبوحِ بما يُثقلُ
صدركُ من حوادثٍ ذاتِ أهميةٍ بالغةٍ في حياتك. ١.
أسمحُ لي الطلبُ منكُ أن تتكلمَ عنها؟

في هذه اللحظاتِ التي أتواصلُ خلالها معكُ هاتفياً، تجولُ
بذهني إفتكاراتُ عمَّا كانَ سيؤدي بيَّ ذلكَ التعصبُ الدينيُّ
والتكلسُ الفكريُّ اللذان بُرِمجتُ عليهما وأنا في سنِّ السابعة.
ربمَّا كانا سيقوداني الى التوجُّهِ الى ديرٍ لأصبحَ راهباً
مبشراً بالمسيحيةِ في أدغالِ أفريقيا وربمَّا الى الإنتماءِ الى
جماعةٍ مثلَ جمعيةِ فرسانِ كولومبسِ لأؤديَ أعمالاً مشابهةً
ذواتِ أنشطةٍ خيريةٍ، ومَنْ يدري ربمَّا كانتِ الأمورُ تتفتحُ
بطريقٍ عكسيٍّ متعرجٍ يقودُنِي في نهايةِ الأمرِ الى نسخةٍ
مسيحيةٍ لأسامةِ بن لادن!!!

لو لم يقعَ حادثٌ بسيطٌ جداً كانَ له - رُغمَ بساطتهِ -
أعمقُ الأثرِ على جميعِ آرائي ومواقفي المستقبليةِ
المتعلِّقةِ بالدين.

يمكنُ تشبيهَ الحادثِ البسيطِ بِنقرةٍ خفيفةٍ على كرةِ ثلجٍ صغيرةٍ فوقِ
قمةِ جبلٍ شاهقٍ مغطىٍ بالثلجِ، فأخذتُ الكرةُ تتدحرجُ هابطةً من على

سَفْحِه، وَبِهِوِطِهَا إِكْتَسَبَ سَطْحُهَا مَزِيداً مِّنَ السُّمكِ الثَّلْجِيِّ فَنَمَى
حَجْمُهَا بِإِطْرَافٍ مَّتَسَارِعٍ فَغَدَتْ كُرَةً عَمَلِاقَةً مَّرْعَبَةً وَهِيَ تَهْوِي نَحْوَ قَعْرِ
الْجَبَلِ بِتَعْجِيلٍ مَّخِيفٍ . وَإِزْدَادَ زَخْمُهَا وَإِرْتِفَاعَ هَدِيرِهَا زَنْبِيراً مَّرْعَباً
فَإِكْتَسَحَتْ الْأَشْجَارَ وَالْمَبَانِي وَهِيَ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْوَادِي مُحْدِثَةً
رِعْداً مَدْوِيّاً وَسَيْلاً عَرْمِراً.

منير: لو إمتلكت قابليةً على نَظْمِ الشِّعْرِ لَنَظَّمْتُ
قصيدةً بعنوان "إنهيارٌ ثلجيٌ بسبب خفقان جناحي
فراشة". من المؤكّد أنك أكثر الماماً مني بما يُسميه
الرياضياتيون "ظاهرة الفراشة". إذ يقولون على
سبيل التوضيح بالمبالغة إن رفرفة جناحي فراشة في
الصين مثلاً قد يؤدي إلى زوبعة في كوينهاغن المدينة
التي أتكلّم منها معك الآن.
يشير وصفك الحادث شوقي وفضولي إلى معرفة
الكيفية التي مكّنت رفرفة جناحي فراشة من تغيير
منحى معتقداتك اليقينية!!!

أصبت!! الحادث بالفعل نموذجٌ لظاهرة "تأثير خفقان جناحي فراشة"
لكن عليك الحصول على المعادلة التفاضلية للمنظومة الدينامية!!!
أرى أن من المفيد، لغرض معرفة الكيفية التي مكّنت تلك الظاهرة في
تبديل إتجاه معتقداتي اليقينية، التعرف أولاً على البيئية التي وقع
فيها الحادث.

ذكرت سابقاً أن عائلتنا في نهاية ثلاثينيات وبداية أربعينيات القرن
الماضي، بعد تنقل من مدينة الكوت وسدة الهندية ومدن أخرى
إستقرت في بغداد وسكننا في منطقة تُسمى "عقد النصرى"⁷

التي معظم قاطنيها مسيحيون وقليل من المسلمين واليهود، حيث تقع كنائس جميع الطوائف والمدارس الأهلية المرتبطة بها على بُعد لا يزيد عن خمس عشرة دقيقة مشياً من الدار التي سكنها.

عشت في تلك الدار منذ كنت في الصفّ الثالث ابتدائي وقضيت فيها باقي سني دراستي وفارقتها فقط عند مغادرتي العراق الى أمريكا للإلتحاق بالبعثة الدراسية سنة 1958.⁸

أتذكر جيداً، أنه حينما كنت في الصفّ الخامس ابتدائي، فتح شخص هندي دكاناً صغيراً بالقرب من دارنا يبيع ما تشبه الفلافل المتبلة لكنها لم تكن فلافل. في الحقيقة، لا يهمني الآن ولم يكن يهمني آنذاك ما هي بالضبط سوى أنني كنت مغرماً بكنهة توابلها الهندية الى الدرجة التي كنت أذهب يومياً خصيصاً إليها لشراء واحدة أو أكثر لآمتع بطعمها اللذيذ.

من المؤكّد أنك تتوقّع أن يكون لذلك الهندي علاقة بالحادث البسيط.

8

ذا شعر القارئ أنني "أتغرّل" بتلك الدار فهو محقّ. إذ عشت فيها زهاء عشرين عاماً متمتعاً فيها بمرح الأطفال وبعبث الشباب. وأودّ الاعتراف بأن بعد مُضيّ قرابة ستين عاماً، لا زالت %90 من جميع أحلامي الليلية تدور في تلك الدار.

وكان آخر مرة شاهدتها في أواسط ثمانينيات القرن الماضي مع أحد أساتذة الرياضيات الزائرين الألمان (مع الأسف لا أتذكر إسمه الآن) فأخذته بناءً على طلبه وبمصاحبة الدكتور محمد علي علوش لزيارة الكنائس القديمة في أزقة عقدة النصارى. وفي طريقنا شاهدنا تلك الدار وقد تحوّلت الى معمل للأحذية. وبعد الإستئذان من صاحب المعمل دخلنا إليها وتفقدنا غرفها وشاهدنا على أحد الجدران الأسماء "ريمون، ألفريد، صباح" بخط يدي وأنا في الثالث الابتدائي كُتبت سنة 1939 أو ربما 1940. فتذكّرت هناك مطلع قصيدة لأبي نؤاس يقول فيها:

يا دارُ ما فعلت بك الأيام ضامتك والأيام ليس تُضامُ / عرِمَ الزمانُ على الذين عهدتهم بك قاطنين وللزمان عرامُ.

وكي أَوْضَحَ وَقَعَ الحَادِثِ البَسِيطِ تَوْضِيحاً بَلُورِيّاً دَعْنِي أَلْخَصُّ مَا ذَكَرْتُهُ سَابِقاً عَن وَضْعِي الفِكْرِي وَالدِينِي أَنْدَاك.

كُنْتُ مَا بَيْنَ الثَّامِنَةِ وَالتَّاسِعَةِ عَمراً وَمُلَقَّناً أَنَّ الدِينَ المَسِيحِي هُوَ الدِينَ الصَّحِيحُ الوَحِيدُ المُوَدِّي الِى الخَلَاصِ إِذَا أَطِيعَ الرَّبُّ يَسُوعُ المَسِيحَ وَمَعْتَقِداً بِوَجُوبِ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ لِإِلَهِ لِأَنِّي وُلِدْتُ مَسِيحِيّاً، كَمَا كُنْتُ فِي جَهْلٍ تَامٍ عَمَّا تَدَّعِيهِ جَمِيعُ الأَدْيَانِ الأُخْرَى وَلَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ شَيْئاً عَنهَا سِوَى مَا كَانَ يُثِيرُ إِسْتِعْلَائِي عَلى مَعْتَقِيهَا.

دَفَعْنِي فِضُولِي فِي أَحَدِ أَيَّامِ العَطَلَةِ الصَّيْفِيَةِ الِى أَن أُسْأَلَ ذَلِكَ الهِنْدِي:

هَلْ أَنْتَ مَسِيحِي؟

فَأَجَابَنِي بِاللُّهْجَةِ الهِنْدِيَّةِ المَتَمِيزَةِ وَبِحَزْمٍ وَعَفْوِيَّةٍ تَامَةٍ:

لا ، الهَمْدُ لِإِلَهِ مُسْلِم

وَقَعَ جَوَابُهُ عَلَيَّ كَالصَّاعِقَةِ، لَيْسَ لِأَنَّ الهِنْدِيَّ كَانَ مُسْلِماً، إِذْ كُنْتُ أَعْرِفُ مُسْلِمِينَ مِنَ الجِيرَانِ. بَلْ لِأَنَّ لَمْ يَخْطُرْ عَلَيَّ بِأَلِي مَطْلَقاً سَمَاعَ أَحَدٍ يَحْمَدُ اللهَ عَلى إِسْلَامِهِ. كُنْتُ أَتَصَوَّرُ أَنَّ شُكْرَ اللهِ وَحَمْدَهُ مَقْصُورٌ عَلى المَسِيحِيِّينَ فَقَطْ!!! وَأَنَّ المَسْلِمَ إِذَا تَكَلَّمَ عَن إِسْلَامِهِ فَيَتَكَلَّمُ بِخَجَلٍ وَتَلَعْنَم.

مِثْلَمَا حَرَكْتُ النَّقْرَةَ الكُرَةَ الثَّلْجِيَّةَ الصَّغِيرَةَ وَأَدَّتْ الِى إِنْهِيَارِ ثَلْجِيٍّ كَبِيرٍ، كَذَلِكَ أَدَّتْ العِبَارَةُ "الحَمْدُ لِإِلَهِ، مُسْلِم" الِى سَلْسَلَةِ إِنْهِيَارَاتٍ فِي "جَبَلٍ" مَعْتَقِدَاتِي دَامَتْ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ.

صُعِقْتُ بِسَمَاعِي، العِبَارَةُ "الحَمْدُ لِإِلَهِ، مُسْلِم" بِالأَسْلُوبِ القَاطِعِ التَّلَقَّائِي المُنَمِّ عَن إِيمَانٍ عَمِيقٍ وَيَقِينٍ ثَابِتٍ، دُونَ خَجَلٍ أَوْ تَرَدُّدٍ، صَعَقَةٌ كَهْرَبَائِيَّةٌ أَكْسَبْتَنِي عَلى مَدَى المَسْتَقْبَلِ القَرِيبِ وَالبَعِيدِ مَنَاعَةً ضِدَّ فَيروسَاتِ الدِينِ (كُلِّ الأَدْيَانِ).

بَدَتْ لِي العِبَارَتَانِ "الحَمْدُ لِإِلَهِ، أَنَا مَسِيحِي" وَ "الحَمْدُ لِإِلَهِ، مُسْلِم" مَتَنَاقِضَتَيْنِ مُتَعَارِضَتَيْنِ وَأَصَابَتَانِي بِحَيْرَةٍ فَأَخَذْتُ أَفْكَرُ مُتَسَائِلاً

وأتساءلُ مفكراً:

أدفعني الله إلى أن أسألَ الهنديَ كي يختبرَ مدى
إيماني بدينه الصادق؟ أم كان إندفاعي من
إغواءات الشيطان اللعين مثلما أغوى من قبل
جدينا الكبيرين آدمَ وحواءَ؟

ولعلَّ أخطرَ ما حيرني هما السؤالان: كيف يمكنني التمييزَ بين
إختبارِ إلهي و إغواءِ شيطاني؟ وهل يوجدُ محكٌ يميّزُهُما؟
تأججَ صراعُ فكري بين "الحمدُ لإله، أنا مسيحي" و "الحمدُ لإله،
مسلم". صراعٌ مؤرقٌ دام طوالَ العطلةِ الصيفية.
إنتهتُ العطلةَ دونَ حسم. لكن لم تكنُ إخفاقاتي المتواليةَ غيرَ مثمرة.
إذ أن التفكيرَ أثناءَ فصلِ الصيفِ الحار، أنضجَ ثمارها الذي إقتطفتهُ
في اليومِ الأولِ عندِ إستئنافِ الدراسة.

منير: من النادرِ أن نجدَ طفلاً في السنةِ الثامنةِ أو
التاسعةِ من عمره قادراً على الإدراكِ من عبارةِ قيلتُ
بنبرةِ قاطعةٍ أنها غيرُ متوائمةٍ مع ما تلقيناتٍ دامتُ
عدداً من السنوات.

إنني أتحرقُ شوقاً لمعرفةِ التفاصيلِ لحلِّ الصراعِ.

كان الأبُّ بطرس سابا مدرّسَ موضوعِ اللغةِ العربيةِ للصفِ السادسِ.
وهو من فطاحلِ اللغةِ العربيةِ. دخلَ الى قاعةِ الصفِ في الحصّةِ
الأولى بعد العطلةِ حاملاً كالعادةِ عصاهِ الخيزرانيةِ المشهورةِ به والتي
كان يؤدّبُ بها التلاميذَ الكُسالى والمشاكسين. كتبَ على السبورةِ
بخطه النسخِ الجميلِ البيتَ الشعريَ المشهورَ الآتي:

كلُّ يدّعي وصلاً بيلي ويلي لا تقرّ لهم بذاكا

وطلبَ منا إعرابَ البيتِ بعد أن شرّحَ مغزاه (كما يفهمه هو). إن كلَّ
إنسانٍ يدّعي الإيمانَ وأن الإِدعاءَ سهلٌ جداً.

فني تلك اللحظة، إنقذ ذهني بإمكانية جديدة لم تخطر على بالي مطلقاً طوال العطلة بأن العبارتين ليستا متناقضتين ولا متعارضتين بل متوائمتين. وأن كلا منهما صورة مرآية للأخرى. ليس هذه صادقة ولا تلك كاذبة.

كانت تلك لحظة إنعطاف فذة في حياتي. إذ لم أعد بعدها ذلك الإنسان المعتمد على غيره في تفسير أمور الحياة بل على نفسه في البحث والتحري عما هو صائب.

أدركت في تلك اللحظة إنحلال المشكلة ببساطة. ولو لا خشيتي من عصا الأب بطرس لقفزت فرحاً مهرولاً لأطلق صرخة أرخميدية:

”وجدتها، وجدتها، يوريكا، يوريكا“⁹.

تبين لي في تلك اللحظة أنني لم أكن مسيحياً بالمعنى الدقيق للكلمة إنما كنت ابن والدين مسيحيين صيراني رابوط¹⁰ (أي إنساناً ألياً) مبرمجاً ينطق بعبارات مدغدة قلوب المسيحيين وتعتّم عنه أمور الأديان الأخر. وفي الوقت نفسه تصوّرت الهندي ليس مسلماً إنما هو أيضاً ابن أبوين مسلمين حفظاه القرآن والطقوس الإسلامية وهو لم يزل يحبو وجعلاه يتصرف كرابوط لا يعرف عن الإسلام سوى ما لُقّن به.

9

يُحكى أن العالم اليوناني الرياضي أرخميدس عند إكتشافه ما يُسمى قانون أرخميدس القائل: ”يفقد الجسم المغمور في سائل وزن السائل المزاح“، خرج من الحمام عارياً يصرخ ”يوريكا، يوريكا“ (أي وجدتها وجدتها).

10

منير: أسمح لي بتعليقٍ، على سبيل المزاح
 إنني أرى في تلك "الغلاف الهنديّة" شبهاً بالشجرة
 الحرمة التي تروي الأساطير أن الله منع آدمَ وحواءَ من
 أكل ثمارها.

(مقهقهاً) نعم، فعلاً هنالك شبهة. مَنْ يدري ربّما كانت التوابلُ الهنديّةُ
 مصنوعةً من بذور شجرة المعرفة بالذات. من المؤكّد كان تناولي إياها
 المرحلة الأولى لخروجي من نفقٍ مظلمٍ الى النور. لكن في الشبه
 مواطن ضعفٍ ونقص، إذ أولاً لم يُنبّهني أحدٌ بالإمتناع عن تناولها،
 ثانياً لم أُطرد، لا من البيت ولا من المدرسة!!! ماذا عساک أن تعلقَ
 يا منير؟

منير: تعليقي إن الشبه شبه شبه، (مقهقهاً)!!!
 الآن عندي سؤالٌ جانبي: هل إستطعت إعراب ذلك
 بيت الشعر؟

بعد إخفاق أحد التلاميذ في إعرابه جاء دوري وأعربته بصورة
 صحيحة. ينبغي أن تعلم أن قواعد اللغة (أي لغة) هي تحليلٌ منطقيٌّ
 ورياضياتي. كما ينبغي أن لا تنسى أن الرياضيات نفسها هي
 اللغة الدقيقة التي تحتاجها العلوم. فهي ملكة العلوم وخادمتها في
 الوقت نفسه.

منير: آسفٌ لأسئلتني المزاجية.

أعود الآن الى أسئلتني الجديّة. يبدو لي من أسلوب
 كلامك قبل قليل، أن "إكتشافك" أشعرك بشيءٍ
 من الغضب على والديك اللذين صيراك شبه إنسانٍ
 آلي. صحيحٌ ما بدا لي؟

كلا، لم أكن غاضباً منهما. لا في ذلك الوقت ولا حالياً. لا يمكنني

أَنْ أَغْضَبَ مِنْهُمَا. وَأَجْرُمُ مَعْتَقِدًا وَأَعْتَقِدُ جَازِمًا أَنَّهُمَا كَانَا يَعْمَلَانِ بِكُلِّ حُسْنِ نِيَةٍ لِصَالِحِ أَبْنَائِهِمَا. يَجِبُ أَلَّا نَنْسَى أَنَّهُمَا كَانَا — كَمَعْظَمِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ — مَبْرَمَجِينَ أَيْضًا مِثْلَمَا كُنْتُ أَنَا. إِنْ مَا بَدَا لَكَ غَضَبًا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى التَّعْبِيرِ عَنِ الشَّفَقَةِ عَلَيْهِمَا لِأَنَّهُمَا لَمْ يَكْتَشِفَا حَقِيقَةَ أَمْرِ أَنَّهُمَا كَانَا مَبْرَمَجِينَ يُسَيِّرُهُمَا فَيُورِسُ الدِّينَ.

وَيُفَسِّرُ النَّمُودَجُ الْفَيُورُوسِي (الَّذِي نَوَّهَتْ عَنْهُ فِي سَوَائِكَ الْأَوَّلِ) كَثِيرًا مِنْ تَصْرِفَاتِ الْمَتْدِينِينَ. إِذْ يَتَصَرَّفُ الْمَتْدِينُ كَأَنَّمَا يُهَيِّمُ فَيُورِسُ عَلَى مَرَكْزِ جِهَازِهِ الْعَصْبِي فَيَتِمَكَّنُ مِنْ تَسْيِيرِ الْمَرَّةِ الْمَتْدِينِ لِفَائِدَةٍ وَإِنْتِشَارِ وَتَكَاثُرِ الْفَيُورُوسِ. إِذْنِ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَصَابُونَ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ التَّعَامُلَ مَعَ أَوْلَادِهِمْ سِوَى "إِطَاعَةٍ" إِيْعَازَاتِ الْفَيُورُوسِ، فَيَتَصَرَّفَانِ بِطَرِيقَةٍ مِمَّاثِلَةٍ لِتَصْرِفِ الْوَالِدِيِّ.

مَرْحَلَةٌ ثَانَوِيَّةٌ كَلِيَّةٌ بَغْدَاد

منير: صرّحتَ قبلَ قليلٍ أن تناولكَ ”الفلافلَ الهنديَّة“ كان المرحلةَ الأولى لخروجك من النفقِ المظلمِ الى النور. الأسئلةُ التي تطرَحُ نفسَها: متى تشكَّلتُ المرحلةُ الثانيةُ. هل كانت في سنةِ السادسِ الإبتدائي؟ وهل حدثَ شيءٌ مثيرٌ في تلكِ السنة؟

عزيزي منير، إن الأسئلةَ لا تطرَحُ نفسَها إنما أنتَ الذي تطرَحُها!! جواباً على إستفساراتك أقولُ إنني عثرتُ بِفَضْلِ الحادِثِ ونتائجِه على متعةِ الإعتمادِ الذاتيِّ في الشؤونِ الدينيةِ والدراسيةِ دونَ مساعدةِ أحدٍ. فشرعتُ في سنةِ السادسِ الإبتدائيِّ بِقراءةِ ما يُسمَّى ”الكتابُ المقدسُ“ بِذهنٍ ثاقبٍ. فوجدتُ فيه تناقضاتٍ وتضارباتٍ داخليةً لم تسترِعْ إنتباهَ كثيرٍ من المتدينين. في الحقيقةِ إن فيروسَ الدينِ يجعلُ المصابينَ به لا يفقهونَ ما يقرأونَ ولا يعونَ ما يسمعون.

منير: هذا موضوعٌ مثيرٌ جداً. إنني مشتاقٌ لسماعِ تلكِ التناقضاتِ؟

أفضِّلُ تأجيلَ الإجابةِ لطلبك الى موعدٍ مناسبٍ آخر. لأنَّ إجابتي عنه الآنَ تلزمُنِي الإقتصارَ على التناقضاتِ التي توصلتُ اليها حينَ كنتُ في المرحلةِ الإبتدائيةِ، وهي جزءٌ صغيرٌ ممَّا توصلتُ اليه في السنواتِ اللاحقة.

منير : OK... سأحاول إعادة توجيه السؤال في وقت ملائم. أمّا الآن فأسأل: ألا توجد حوادثٌ مثيرةٌ أخرى في تلك السنة الدراسية؟

لعلّ الشيء الوحيد الذي يستحقُّ ذكْرُه هو:

بعد إجْتيازي إمتحانَ البكالوريا لِلدراسةِ الإبتدائيةِ، طَرَقَ سمعي تداولٌ والمدِّي موضوعٌ إدخالِي الى كليةِ بغدادَ لِضمانِ إستمراريةِ تعرُّضي الى مبادئِ الدينِ المسيحي.

من المؤكَّد أنه لم يَدُرْ في خُلْدِهْما أن أدخَلَ فيها وأنا مؤمنٌ (وإن كان فيه شيءٌ من الإهْتزازِ) وأتخرَّجَ فيها من دونِ إيمانٍ دينيٍّ على الإطلاق.

منير: لستُ أفهم. هل من الممكن، في العراق،

الدخولُ الى كليةٍ جامعيةٍ مباشرةً بعد الإبتدائية؟

كلا. كليةُ بغدادَ لم تكنْ كُليةً جامعيةً كما يدُلُّ إسمُها، إنما مدرستهُ ثانويةٌ للبنين. وكانت مدرسةً نموذجيةً من خيرةِ مدارسِ العراق. أسسها الآباءُ اليسوعيونَ الأمريكيونَ سنةَ 1931 وإستمروا في إدارتها الى سنةَ 1969 حين إستولتْ الحكومةُ البعثيةُ عليها، والتي بدورها حاولتْ جاهدةً الإبقاءً على مكانتها المتميزة. أمّا بعد الإحتلالِ الأمريكيِّ لِلعراقِ فلا تتوافرُ لديّ معلوماتٌ حديثةٌ عنها.

أنشئتْ بناياتُها على قطعةِ أرضٍ واسعةٍ المساحةِ تسعُ ساحاتٍ مخصصةٍ للمبارياتِ الرياضية. تضمُّ مكتبتها مراجعَ من قواميسٍ وموسوعاتٍ وآلافِ الكتبِ باللغتينِ العربيةِ والإنكليزيةِ عن الآدابِ ومعظمِ حقولِ المعرفةِ العلميةِ والعلومِ الإنسانيةِ. كما إحتوتْ المدرسةُ على مختبراتٍ علميةٍ مجهزةٍ تجهيزاً جيداً.

كان معظمُ طلابِها من أبناءِ المسيحيين، ومن أبناءِ عليّةِ العوائلِ

المسلمة بأعدادٍ أقل، وفيها عددٌ قليلٌ جداً من اليهود¹¹. وكان الطلاب يطلقون على الآباءِ اليسوعيين مصطلحَ «الفاذريا» (هو صيغةُ جمعِ تكسيرٍ مُهَجَّنٍ لِكَلِمَةِ فاذر Father).

لم يكن الفاذريا يتكلمون اللغة العربية، بل الإنكليزية فكانوا يُلقونَ بها المحاضراتِ المدرسيةِ ويتفاهمونَ بها مع الطلابِ أثناءَ مشاركاتهم مختلفَ الفعالياتِ الطلابيةِ الرياضيةِ والاجتماعيةِ، ممَّا سهَّلَ على الطلابِ إتقانَ الإنكليزيةِ، ليس فقط بالدراسة المنهجية بل بالممارسة الفعلية. ومن الجدير بالذكرِ أن مواضيعَ الجغرافيةِ والتاريخِ واللغةِ العربيةِ فقط كانت تُدرَّسُ بالعربيةِ من قِبَلِ مدرِّسينِ عراقيينِ أو عربٍ، أمَّا اللغةُ الإنكليزيةُ والرياضياتُ والفيزياءُ والكيمياءُ والبيولوجيا وموضوعُ الدينِ المسيحيِّ فتُدَّرَّسُ بالإنكليزيةِ من قِبَلِ الفاذريا الذين يحملُ أغلبهم شهاداتٍ عليا كالمجستير والدكتوراه.

وبهذه المناسبةِ أودُّ تسجيلَ إمتناني الى والديِّ اللذين ضحيا مالياً بإدخالي الى كلية بغداد. فحصلتُ بفضلِهِما على ما كان من الصعبِ الحصولُ عليه في مدرسةٍ أُخرى من إتقانِ اللغةِ الإنكليزيةِ فهماً وقراءةً وكتابةً وتكلُّماً فأنَّيْحَ لي التوسعُ في الإطلاعِ على الآدابِ الكلاسيكيةِ العالميةِ وإنتاجاتِ الفكرِ العلميِّ والفلسفيِّ وتذوقها دون اللجوءِ الى الترجمات.

منير: فهمتُ أن كليةَ بغداد مدرسةٌ يديرها
مبشرون. أُرَجِّحُ أنكَ أُخْضَعْتَ فيها الى ضغوطٍ
دينيةِ عاليةِ من قِبَلِ الفاذريا ممَّا أدَّى الى ردِّ فعلٍ عندكَ
فتخرجتَ فيها وإيمانكُ أكثرُ إهتزازاً. ولعلَّهم قاموا

بأنشطة تبشيرية لغير المسيحيين أيضاً. هل أنا
مصيبٌ بترجيحاتي؟

إنني أسفُّ. لم تكن صائباً في ترجيحاتك

لم تكن هنالك ضغوطاً عاليةً، كما تصوّرت، إنما كانت إزعاجاتٌ.
مثلاً: الوقوفُ عندَ بدايةِ كلِّ حصّةٍ دراسيةٍ لتلاوةِ الصلاةِ المريميةِ تكراراً
ممل، ودرسُ الدينِ في كلِّ يومٍ من الأيامِ الدراسيةِ الستةِ في مزعجٍ.
لا أرجحُ قيامَ الفاذريا بأنشطةٍ تبشيريةٍ لغيرِ المسيحيين، لكنني لا
أستطيعُ الجزمُ بأنهم لم يقوموا بذلك بصورةٍ سريّةٍ.

أمّا في السنتينِ الأخيرتينِ من سنيِّ دراستي (التي صادفتُ بدايةَ
الحربِ الباردةِ بينِ المعسكرينِ الغربيِّ والشرقيِّ)، بدا لي أن مهامَ
الفاذريا في محاربةِ الشيوعيةِ¹² أكثرُ أهميةً من التبشير. فكانوا
يستغلّونَ أيّةَ فرصةٍ ممكنةٍ أثناءَ وخارجِ حصصِ الدروسِ الإعتياديةِ
ليُصوِّروا لنا الإنسانَ الشيوعيَّ عديمَ الضميرِ وفاسدَ الأخلاقِ وكانوا
يؤكدونَ على الفقرِ وإنعدامِ الحرياتِ في البلدانِ تحتِ الحكمِ
الشيوعيِّ وعلى ما نفذَ الشيوعيونَ من مجازرَ على المؤمنينِ المسيحيينِ.

منير: صرّحتَ قبلَ قليلٍ أنك دخلتَ هذه المدرسةَ

النموذجيةَ وأنت مؤمنٌ إلى حدٍّ ما، ولم تؤثرْ عليك

ما قام به الفاذريا من طرُقِ المفاهيمِ الدينيةِ فتخرّجتَ

أذكرُ في سنة 1948 أن فاذر مَرِك Merrik الذي كان يُدرِّسنا موضوعَ الهندسةِ الجسّميةِ، في محاضرةٍ
قبلَ يومٍ أو يومينِ من الإنتخاباتِ النيابيةِ الإيطاليةِ. حينَ كانتِ المنافسةُ على أشدها بينِ الحزبينِ
الديمقراطيِّ المسيحيِّ الإيطاليِّ والحزبِ الشيوعيِّ الإيطاليِّ الذي كانَ آنذاك في قمةِ قوتهِ بحيثِ كانَ
إحتمالُ فوزهِ في الإنتخاباتِ عالياً. أخذَ فاذر مَرِك يتحدثُ عنِ العواقبِ المترتبةِ في حالةِ فوزِ الشيوعيينِ
بإنتخاباتِ. وقالَ إنه يتوقَّعُ أوربماً كانَ يتمنى في قرارةِ قلبه، أن تشنَّ الولاياتُ المتحدةُ حرباً في حالةِ
فوزِ الحزبِ الشيوعيِّ للقضاءِ المبرمِ النهائيِّ على الشيوعيةِ.

في المحاضرةِ التاليةِ دخلَ غرفةَ الصفِّ مبتهجاً وأعلنَ فشلَ الحزبِ الشيوعيِّ في الإنتخاباتِ. فصفّقنا
نحنُ الطلابُ مدةَ خمسِ دقائقِ.

فيها وأنت غير مؤمن بصورةٍ مطلقة. هل أستطيعُ
الطلبَ منك التحدثَ عما جرى لك خلالَ سني
دراسَتِكَ فيها بحيثَ تبدَّلتَ ما يقاربُ 180 درجة؟
أستجيب بكلِّ سرور. عزيزي منير، إن الطَّرْقَ المبالغَ يؤدي في كثيرٍ
من الحالات الى نتائجَ عكس ما هو مطلوب.

بإختصار، بدَّلْتُني مكتبةُ كليةِ بغداد - 180 درجة، إذ كانت بمثابة
مضادٍ حيويِّ Antibiotic أبطلَ مفعولَ فيروس الدين. وأتاحت لي
الإطلاعَ على كتبٍ ومصادرٍ في إتجاهاتٍ متنوعةٍ وفتحتَ أفاقِي
المعرفيةِ وأزاحتَ عن ذهني ما علقَ به من أغبرة.
دعني أسترسُلُ بتفصيلٍ عن هذا الموضوع.

حين تيسرتُ لي اللغةُ الإنكليزيةُ قراءةً وفهماً في السنة
الثانية من دخولي كليةِ بغداد، حاولتُ إستعارةَ كتابٍ عنوانُهُ
"Scientific Outlook" من تأليفِ الفيلسوفِ البريطاني الشهير
برتراند رسل (Bertand Russell 1872-1970). لكن فاذر لاركن
المسؤولُ عن المكتبةِ لم يسمحَ لي بإستعارته معللاً منعه بأن المؤلفَ
"أثمٌ كبير. A big sinner" سكتُ عن مضمُن.

لكنني لم أقفُ مكتوفَ اليدينِ أمامَ المنع، وكما يقولُ المثلُ "الممنوعُ
مرغوبٌ". عُدْتُ بعد بضعةِ أيامٍ عارضاً على فاذر لاركن إستعدادِي
التطوعَ الى مساعدته في شؤونِ المكتبةِ أثناءَ فرصةِ الظهرِ التي
أمدها ساعتان ونصف حين يقضي معظمُ الطلابِ وقتهم في اللعبِ
والمبارياتِ الرياضية. رحَّبَ موافقاً على عرضي. فصرتُ مساعده
الأيمنَ طوالَ الأربع سنينِ الدراسيةِ الباقيةِ ومسموحاً لي دخول
قاعةِ رفوفِ الكتبِ وقتماً أشاء¹³.

وجدتُ فيها رفأً صغيراً عليه أربعة كتبٍ ممنوعٍ إستعارتها من قبل الطلاب¹⁴، ثلاثةٌ منها تأليفِ برتراند رسلٍ إستطعتُ إستعارةَ الكتبِ الممنوعةِ تهريباً باستغلالِ "منصبي" في المكتبة.

قرأتُ كثيراً من الكتبِ الأدبيةِ والعلميةِ. كما أعدتُ قراءةَ "الكتاب المقدس" باللغتين العربيةِ والإنكليزيةِ عدةَ مراتٍ بذهنيةٍ إنتقاديةِ. فأكتشفتُ مزيداً من تناقضاتٍ معشعشاتٍ فيه عند كل قراءة.

منير: دكتور ريمون، أسألك، من باب المزاح، ألا

تشعر بثقلٍ خطيئةٍ كبيرةٍ باستغلالِ "منصبيك" كي

تبصَّ في كتبٍ ممنوعةٍ؟!!!!

هههههههه، هي فعلاً "خطيئةٌ كبيرةٌ من إغواءِ الشيطانِ اللعين". البصُّ في الكتبِ الممنوعةِ بمثابةِ تناولِ ثمرةِ الشجرةِ الممنوعةِ، شجرةِ (المعرفةِ الممنوعةِ) في جنةِ آدمَ وحواء!!!.

قرأتُ الكتبَ الممنوعةَ. تعرَّفتُ من كتابِ "تاريخِ الفلسفةِ الغربيةِ" لبرتراند رسلٍ على مختلفِ المفاهيمِ الفلسفيةِ خاصةً على آراءِ سبينوزا وما يُسمَّى إلهَ سبينوزا. وإطلعتُ على التاريخِ الدمويِّ لجميعِ الأديانِ من الموسوعتين البريطانيةِ والأمريكيةِ.

منير: إن Das Kapital من الكتبِ التي قرأتها.

سؤالي: هل تركتُ قراءتهِ أثراً عليك؟

لا يمكن لكتاب عميقٍ إلا وأن يترك أثراً على القارئ. وداس كاپتال، من دون شك كتاب عميق. فتعلمتُ منه النظرَ على أن هنالك محرّكاتٌ ديناميّةٌ شاملةٌ Global لسيروراتِ التاريخِ الكبرى. لكنني لا أتفقُ مع إدعاءِ بعضِ الشيوعيين أن الماركسيّةَ علمٌ. إن رأيي بعد أن تبلور بقراءة داس كاپتال أن الماركسيّةَ كالتسكوب. إن التسكوب ليس علماً بل أداةٌ يُستعانُ بها في علم الفلك والكون، كذلك الماركسيّةُ ليست علماً بل "أداةٌ فكرية" يُستعانُ بها لفهمِ الحركاتِ التاريخيّةِ الكبرى.

منير: هل حدثتُ أمورٌ أخرى لها تأثيرٌ على مواقفك

الدينيّة؟

لا أذكرُ أن حدثتُ أمورٌ تستحقُّ أن تُذكرَ سوى مزيدٍ من التأكّدِ لي أن الفازريا - على الرغم من ثقافتهمِ العالية - كانوا مبرمجي الأدمغةِ المصابةِ بفيروس الدين.

كان عنوانُ الكتابِ المقرر لتدريسِ الدينِ في السنةِ الأخيرةِ "Apologetics" حسبما أتذكرُ ويؤسفني أنني نسيتُ إسمَ مؤلفه. يُعتبرُ موضوعُ الكتابِ فرعاً من الثيولوجيا المسيحيّةِ الذي يُحاولُ فيه البرهانُ على صدقِ الدينِ المسيحيِ والبرهانُ على وجودِ اللهِ بالتعويلِ على حججٍ منطقيّةٍ وعلميّةٍ بدلاً من أن يُؤسسَ فقط على الإيمان. من قالمفروضِ أن الكتابَ يُزوّدُ الطالبَ بما يُزعمُ أنها براهينٌ على وجودِ الخالقِ، جميعها براهينٌ كلاسيكيّةٌ معروفةٌ منذ قرونٍ عديدةٍ لدى الفلاسفةِ والثيولوجيين.

أرجّحُ أن الفازريا إعتبروا إختيارَ موضوعِ هذا الكتابِ ليُدرسَ في السنةِ الأخيرةِ تتويجاً لمنهاجِ تدريسِ الدينِ لغرضِ إفحامِ الطلابِ بوجودِ الخالقِ. إلا أنني لم أقمُ بأيّ من تلكِ الحججِ، بل بالعكس، إستطعتُ بفضلِ مطالعاتي ودراساتي ووضَعُ إصبعي على أماكن

الخلل في أغلبها. لكنني أثرتُ السكوتَ تجنباً من مشاكلٍ محتملةٍ،
لِعلمي المسبقِ أن لا جدوى من مناقشةِ الفازريا حول الأمور الدينية.
فأقولُ على سبيلِ المثالِ لا الحصر، سألتُ فاذر كيّلي عن فلسفةِ
سبينوزا القائلة بتماهي¹⁵ الله مع الكون، أجابني:
هذا يعني أنا جالسٌ على الله. هذا كفرٌ.

فتوضّحتُ لي سذاجته الفكرية، إذ لم يستوعبُ أنه إذا كان الكونُ هو
الله وكان الله هو الكونُ، فلا بُدَّ أن يتبدّل مفهومُ الكفرِ تبعاً لذلك.

منير: أفهم الآن أنك تخرّجت في كلية بغداد
متسلّحاً بثلاثة أمورٍ رئيسية هي أولاً معرفتك
بالتناقضات في الكتاب المقدس، ثانياً إلمامك بتاريخ
الحروب والمجازر التي تعملُ على تسببها الأديانُ
المختلفة، ثالثاً تزوّدك بنقاطِ ضعفِ البراهينِ المقدّمةِ
عادةً لإثبات وجودِ الله.

ورغم ترابطِ المواضيعِ الثلاثة مع بعضها، لكن لا
أعتقدُ بإمكانية مناقشتها سويةً.

أقاطعك. لم تكن ثلاثة أمورٍ فقط. إذ فاتني أن أذكرَ أنني تخرّجتُ
”متسلّحاً“ أيضاً بالرياضيات. فدرستُ دون مساعدةٍ أحدٍ موضوعَ
حسابِ التفاضلِ والتكامل¹⁶ وتعرّفتُ على المفاهيمِ الأساسيةِ
للهندسةِ اللاإقليدية وعلى نظريةِ الزمرِ ومظنونة¹⁷ فرما الأخيرةِ

15

التماهي Identification هو التمازج أو الترابط أو الإنصهار بين شيئين بحيث يُعتبران شيئاً واحداً.

16

لم يكن موضوع حساب التفاضل والتكامل يُدرّس آنذاك في المدارس الثانوية.

17

المظنونة (Conjecture) عبارة تتوافرُ بعضُ الأدلة على صدقها لكننا واعون أن الأدلة لا تكفي لتشكّل برهاناً كاملاً على صحتها.

التي عصى البتُّ في أمرها مدةً أربعة قرونٍ الى أن بُرهنَ عليها سنة 1995. كل ذلك بفضلِ الكتبِ والموسوعاتِ المتوافرة في مكتبة كلية بغداد¹⁸. وتعرّفتُ من مطالعتي الجديّة في كتاب المعنون: Men of Mathematics على حياةٍ ومآثرِ عمالقةِ الرياضياتِ منذ أقدم العصورِ الى هنري پوانكاريه، الذي عاشَ في نهايةِ القرنِ التاسعِ عشر وبدايةِ العشرين.

18

من أهمّ كتبِ الرياضياتِ التي أثّرتُ فيّ تأثيراً ملهماً

Men of Mathematics و Development of Mathematics

تأليف E·T· Bell

و

History of the Theory of Numbers

·تأليف Dickinson

مَرَحَلَةُ كَلِيَّةِ الْهَنْدَسَةِ

منير: أفهمُ أن عندَ تخرُجِك من الثانويّة قد تبلورت أفكارُك عن الأمورِ الدينيّةِ وغدوتَ غيرَ مؤمنٍ.

سؤالِي هل حدثَ شيءٌ مثيرٌ بخصوصِ مواقفِك الدينيّةِ خلالَ دراستِك الهندسيّةِ؟

نعم حدثَ حادثٌ مهمٌ مُكَمِّلٌ لحادثِ الفلافِلِ الهنديّةِ. تقتضي الضرورةُ قبلَ الكلامِ عن الأحداثِ المثيرةِ الإمامَ بالظروفِ.

كان معدّلي في إمتحانِ البكلوريا لِلدراسةِ الثانويّةِ عالياً يُوَهِّلُنِي القبولَ في أيّةِ كَلِيَّةٍ أُريدُ. كانت هناكَ ضغوطٌ عليّ من المجتمعِ المحيطِ بي كي أُقدِّمَ الى الكَلِيَّةِ الطبيّةِ (الكَلِيَّةُ المفضَّلَةُ في المجتمعِ العراقي). لكنني رفضتُ بإصرارٍ.

صحيحٌ أن مهنةَ الطبِّ مهنةٌ إنسانيّةٌ لكن تتطلّبُ دراسةَ الطبِّ حفظَ موضوعاتِ الدراسةِ عن ظهرِ القلبِ وهي قابليّةٌ أفتقرُها. فقررتُ التقديمَ الى كَلِيَّةِ الهندسةِ¹⁹ التي تُعتَبَرُ في المرتبةِ الثانيةِ حسبَ المعاييرِ السائدةِ. إنكشفَ لي عندَ دخولي كَلِيَّةِ الهندسةِ بأنّي كنتُ مكبلاً بقيودِ دينيّةِ وإجتماعيّةِ، لم أكنُ واعياً الى وطأتها أثناءَ مراحلِ

في الواقعِ قدّمتُ للدخولِ أيضاً الى كَلِيَّةِ التربيّةِ المسماةُ آنذاك "دار المعلمين العالِيّة" لدراسةِ اللغةِ الإنكليزيّةِ. لكنني نسيتُ موعدَ المقابلةِ فسقطَ حقي فيها. لم يبقَ متاحاً أمامي سوى دخولِ كَلِيَّةِ الهندسةِ.

لكن بعد قرابةِ سنةٍ توضّحَ لي عدمُ إنسجامِ رغباتي وميولي الفكريةِ مع طبيعةِ المهنِ الهندسيّةِ. فشعرتُ أنّي قد أخطأتُ الإختيارَ. الأمرُ الذي قادني أخيراً بعد تخرجي وعملي مهندساً فترةً سنتين، الى "الطلاقِ بالثلاث" من المهنِ الهندسيّةِ. والذي أدّى بي الى دراسةٍ ما يتواءمُ مع ميولي الفطريةِ الذهنيّةِ وهي الرياضياتُ والفيزياءُ النظريةِ بِتشجيعِ من الدكتور محمد واصل الظاهر. له مني ألفُ ألفِ شكرٍ.

دراستي السابقة. فَشَعَرْتُ كَأَنِّي سَجِينٌ مَفْرُجٌ عَنْهُ حَدِيثًا. إِذْ تَعَرَّفْتُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي حَيَاتِي عَلَى فِسْفَسَاءِ التَّشْكِيلاتِ العَرَقِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ وَالتَّبَقِيَّةِ وَالحزبية والإيمانية للطلبة بصورة خاصة وللشعب العراقي بصورة عامة. فكان هنالك:

- عربٌ • أكرادٌ • تركمانٌ • آشوريون • أرمنٌ • فلسطينيون • مسلمونَ شيعية • مسلمونَ سنة • مسيحيون • كاثوليك • مسيحيونَ أورثودوكس • يهودٌ • صابئةٌ • أغنياءٌ • فقراءٌ • طلبةٌ من طبقةٍ متوسطةٍ • شيوعيون • يساريون • مناوؤنَ للشيعوية • عفاقةٌ²⁰ • مستقلون • مؤمنون • لادينيون.

توضَّحتُ لي أمورٌ كثيرة. منها، أن جِرْصَ فاذريا كليةً بغداد على رسمِ صورٍ سوداءٍ عن الشيوعية والشيوعيين، كان مجردُ غسلٍ متعمدٍ لأدمغةِ طلابهم. إذ ظهرَ لي أن الطلبة الشيوعيين ليسوا أناساً معدومي الضمير — كما كان يحلو للفاذريا وصفَ كل الشيوعيين — بل كانوا عاديين مطَّلعين ومثقفين ثقافةً واسعة. غيرَ أن بعضهم كانوا مغسولي الأدمغة بالماركسية اللينينية مثلما كان الفاذريا مغسولي الأدمغة بالمسيحية الكاثوليكية.

ذكرتُ سابقاً أن والدتي كانت هي أيضاً تحشو أدمغتنا (أنا وشقيقيّ الإثنين) حين كنا صغاراً بأن جميع المسلمين يتظاهرون بالصيام في شهر رمضان ويفطرون خفيةً. لعلها، مثل كل شديدي التدين لم تكن قادرةً على تصوّر وجود شديدي التدين من غير المسيحيين.

20

هكذا كان يُدعى آنذاك أعضاء حزب البعث الناشئ. وقد دُهِّشْتُ أَشَدَّ دهشةً عندما علمتُ سنة 1951 مصادفةً في حفلٍ تأبين الملكة عالية والدة الملك فيصل الثاني أن فؤاد الركابي أحد زملائي في الصف هو أول أمين سر للحزب فرع العراق. وكان ذلك حين سمعته يلقي كلمة الحزب التابينية وهو لم يزل طالباً وزميلاً لي في الصف.

وفي زمن سيطرة حزب البعث، رُجَّ الركابي في السجن، ثم أُغتِيلَ هناك !!!

لكنني وجدتُ أن لا أساساً لِإلتهامِ الشاملِ. إذ لاحظتُ إمكانيةَ تصنيفِ زملائي الطلبةِ المسلمينَ حسبَ إلتهامهم بِصيامِ شهرِ رمضانَ الى ثلاثةِ أصنافٍ:

صنفٌ لا يكثرُ منتسبوه بِالإلتزامِ بِالصومِ لا قولاً ولا فعلاً، فلا داعٍ لهؤلاءِ الى التظاهرِ.

صنفٌ ثانٍ يعلنونَ خبرَ صيامهم على الملءِ ويقحمونَ الكلامَ عن صيامهم في كلِّ عبارةٍ يتفوهونَ بها، فيقولُ أحدهمُ مثلاً: "الجوُّ حارٌّ، وأنا صائمٌ عبرتُ الشارعَ".

وصنفٌ ثالثٌ لا يتكلمونَ عن صيامهم إلاَّ بهمسٍ غيرِ مسموعٍ. إذن إذا وُجدَ مَنْ يتظاهرُ بِصيامٍ كاذبٍ فأرجحُ أن يكونَ من الصنفِ الثاني.

وأودُّ الإقرارَ أنني لم أكتشفِ بِنفسي أحداً متلبساً بِالتظاهرِ.

منير: أفهمُ من كلامك أنك كنتَ قبلَ دراستك الجامعيةِ حبيبَ برجِ عاجيٍّ وكانت أفكارك وآراؤك تسبحُ في أعالي الغيومِ. لكن حينَ دخلتَ كليةَ الهندسة، نزلتَ الى أرضِ الواقعِ. فاكتشفتَ إختلافَ الواقعِ عمَّا صوَّرتُ لك سابقاً.

سؤالِي، هل عززَ الإكتشافُ آراءك السلبيةَ عن الدينِ وشجَّعك على الإعلانِ عنها؟

بطبيعةِ الحالِ، عززَ خروجي من البرجِ العاجيِّ آرائِي عن الدينِ. لكنه لم يُشجَّعني في بدايةِ الأمرِ على التصريحِ بها. دعني الآنَ أوافيك بِبعضِ التفاصيلِ.

تخرَّجتُ من مرحلةِ الدراسةِ الثانويةِ، وأنا غيرُ مؤمنٍ ولا ديني، لكنني لم أشأُ الإعلانَ عن معتقداتي. أستبقُ سؤالك، يا منير، عن سببِ ذلك. فأجيبك: أنني، في الحقيقةِ، لا أدري. ربَّما — أقولُ ربَّما —

لأنني لم أكن راغباً في صدم غيري بإراءٍ توصلتُ اليها بعد معاناة دامت عشرة أعوام. وربما لأنني كنتُ مفتقراً الى شجاعةٍ لمجابهةٍ إنتقاداتِ عساكرِ المؤمنين. لستُ أدري.

مهما كانت الأسبابُ، فقد حرصتُ في سنتي الجامعية الأولى على عدم المجاهرة بإرائي ومعتقداتي حول مواضيع الدين محتفظاً لنفسي بها في داخل أنفوخة²¹ لكن الأنفوخاتِ، - كما تعلمُ - تُفشُّ بمجردِ خرةٍ دُبُوسٍ. وهذا ما حدث فعلاً في سنتي الجامعية الثانية.

التفجّر

منير: ماذا حدثَ في السنة الثانية الجامعية؟
وكيف فُشَّتْ الأنفوخةُ التي خبَّتَ في داخلها
”كنز“ معتقداتك؟

كان لأحد زملائي في الكلية الذي أُسميه في هذه المقابلة ”جمال“
علاقة وثيقة بما حدث.

بعد إجتياز جمال مرحلة الدراسة المتوسطة في إحدى القرى في
شمال العراق، إنتقلَ مع والديه وشقيقيه وشقيقته الى بغداد وسكنتُ
العائلة البيت المقابل لدارنا في عقدِ النصارى.

كان جمال وأفرادُ العائلة مؤمنين وشديدي التدين مثل كثيرٍ من
القرويين. وكانت والدتي تذهبُ في بعض الأحيان معهم الى الكنيسة
أيام الأحد.

قُبِلَ جمال في كلية الهندسة في السنة التي قُبِلْتُ فيها أي سنة 1948.
وكان جمال معروفاً عند جميع الطلبة لأنه كان لاعباً ممتازاً في لعبة كرة
السلة.

مثلاً كان كلامُ الهندي صاحبِ الفلافل مزعزعٌ يقيني الإيمانِ أثناءَ
مرحلة دراستي الابتدائية كان جمال ذلك الدبوس المُفجَّرَ أنفوختي
وأنا في مرحلتي الجامعية.

منير: إنني مشتاقٌ لسماع جميع تفاصيل لحظة

الإنعطاف الثانية بعد سبع أعوامٍ من الأولى .

كيف تزوّدَ جمالٌ بالدبوس وكيف تم ذلك؟

نعم حدثَ بعد سبع سنواتٍ من تناولِي الفلافل الهندية. صادف أن

شاهدتُ في نادي الكلية في أحد أيام سنة 1950 جمال وزميلين مسلمين وهم في نقاشٍ حادٍ وصاحبٌ عن أمورٍ دينيةٍ وفي جوٍّ تسوده الفوضى. كانوا يتكلمون سويةً ويقاطعُ الواحدُ منهم الآخرَ باستمرار. كنتُ في بداية الأمر واقفاً بقربهم أراقبهم وأنا أرتشفُ الكوكا كولا، هادئاً الأعصابٍ متفرجاً ومستمعاً الى نقاشهم العقيم، غير آبه بهم ولا بمواضيع نقاشهم الدالة على جهلهم وتكلسهم الفكري برموز الأديان. هم في وادٍ وأنا في وادٍ آخر. أشفقُ على عقولهم المتصدئة وعلى تعاطيهم الخرافي والغيبى مع ظواهر الواقع.

لكن لا يمكنُ بقائي هناك متفرجاً وفي الوقتِ نفسه أنأى عن نقاشهم. فمن المحتمِّ إنبثاقُ لحظةٍ تفرع وإنعطافٍ أنجرُّ عندها الى نقاشهم سواءً رغبتُ أم أبيتُ. لقد كان هدوءي، ذلك الهدوء الذي يسبقُ العاصفة.

جاءتُ تلك اللحظة حين بدأ جمال يتكلم بحماسٍ منقطع النظير الى معجزة ولادة يسوع المسيح من العذراء مريم، مؤكداً حدوثها وكأنه قد شاهد بأَم عينيه دخول الملاك مبشراً إياها بحبلها من روح القدس. هبتُ العاصفة. لم إستطعُ تماكُ نفسي. تفجرتُ في تلك اللحظة معاناتي المكبوتة. طَفَحَ السيلُ الزبى بل وتعدى فخرجتُ عن طوري متفجراً صارخاً بكلماتٍ متسارعةٍ غاضبة:

لماذا تتغافلُ وتتغابى يا جمال . تصورُ افتراضاً أن شقيقتك ذات الستة عشر عاماً ادعتُ أنها حاملٌ من ملائكة الرب . إذا صدقتُها مباشرةً بناءً على مجرد ادعائها دون مساءلةٍ، فأنت أغبى من الحمار... بالتأكيد لن تأخذُ ادعاءها على علاته . أقلُّ ما يمكنُ القيامُ به أخذها الى طبيب لفحصها ، وحتى ولو ثبتت عذريتها فهناك طرقٌ أخرى للإتصال المؤدي الى حمل . فكيف إذن يسولُ لك عقلك الإيمان بقصصٍ غيرٍ موثقةٍ ، قد حدثتُ

قبل ألفي عام دون شهود ومُعتمَدة فقط على
مقولات متناقضة من الأناجيل؟ أخشى أن يكون
دماغك أصغر من دماغ عصفور كي تصدق
ذلك!!!!.

في هذه اللحظة إنبرى أحد المناقشين المسلمين مدافعاً عن موقف
جمال بتلاوة آية قرآنية:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

مريم ابنة عمران التي أحصت فرجها فنحننا فيه من
روحنا .

فصرختُ مقاطعاً بصرخة أعلى وبغضبٍ أشدٍّ وأعنف:
لا شأن لي بإلهك المصبص على الفروج لماذا
لا ينفخ في.....
وتركتهم دون إكمال جملتي يتحامقون فيما بينهم.

منير: لم أشأ يوم أمس إثقالك بمزيدٍ من الأسئلة،
وأنت تسترجع ذكريات لحظة حاسمة في حياتك .
لعل أفضل وصف لها هو

Dr. Shekoury`s Big Bang!!!

نعم، كان غضباً "تسونامياً" عفويًا من دون تخطيط.
إنني أنظرُ الآن الى الماضي وأقول بثقةٍ إنني لستُ أسفأً لحدوثِ ما
حدث. من المحتم أن يحدث مثله أجلاً أو عاجلاً. عزيزي منير، كان
أمرًا صحيحاً لي.

منير: أتفهم جيداً أن ليس من الطبيعي إخفاء ما
كان يجيشُ بصدرك من معتقداتٍ وتنحسبُ فيه الى ما

لانهائية. لا بدَّ لَلقيدِ أن ينكسر، كما يقولُ
الشاعر.

سؤالي : ماذا تركَ إنكسارُ القيدِ وتفجرُهُ. من تأثيرِ
عليك؟

كان التأثيرُ المباشرُ في اليومِ الأولِ بالغاً جداً. إمتنع، في تلك الليلة،
عني النوم. وفي اليومِ التالي لم أذهبْ الى الكلية، بل توجهتُ مبكراً
في الصباح الى شارعِ أبي نؤاس. وقفتُ عند شاطئِ دجلةَ أملاً
رئتي بهوائه النقي، وأتأملُ أمواجه الخفيفة. تركتُ العنانَ لأفكاري
تسرحُ متفجرةً على غيرِ هدىً من الماضي الى الحاضرِ ومن
الحاضرِ الى الماضي، وأنا في شبه غيبوبةٍ طوالَ ساعاتٍ لم أستطعُ
تقديرها فقد فقدتُ الإحساسَ بالزمن، غابتُ الشمسُ ولم أعِ الى
غيابها.

وعيتُ على صوتِ محمد عبد الوهاب آتياً من مقهى بعيد:

يا شرعاً وراءَ دجلةَ يجري في دموعي تجنُّبُك العوادي.

فشعرتُ بِحدوثِ شيءٍ كبيرٍ وكبيرٍ جداً. إنه إنفجارُ الى الداخل
وفي الصميم.

في صباحِ اليومِ التالي شعرتُ أنني وُلدتُ من جديد. نعم غدوتُ
إنساناً جديداً.

منير: كنتُ أصغ اليك بنوعٍ من الإجلال. ولم
أفطعُك وتركتُك تسترسلُ بسردِ ذكرياتِ مشاعرك.
الآن أطلبُ منك أن تتكلمَ عن أحاسيسِكَ في الأيامِ
التالية.

شعرتُ — كما أخبرتك — أن البالونَ الذي أخفيتُ فيه رأيي ومعتقداتي، قد انفجرَ الى غير رجعة، فإنزاحتُ أثقالُ عن دماغي، وكأني وُلدتُ من جديد. ثم أخذتُ أناجي نفسي قائلاً:

لماذا أخفي رأيي وأنا واثقٌ من صوابها؟
لماذا لا أفصحُ عما أعتزُّ به من معتقداتي؟
لماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟

إذن عليَّ الوقوفُ منتصباً ومفتخراً بما يجولُ في ذهني دون خوفٍ أو خجل، ومنادياً في كل مكان بما أرى أنه الحقيقة.

منير: أودُّ إطلاعي على إنجازاتك في المناداة بما يكمنُ في صدرك من الحقيقة.

سعتُ محاولاً العملَ على التعبيرِ بما يجولُ في ذهني وعلى المناداة بالحقيقة — كما أعرفها — لكنني أقرُّ بأنني لم أوفق في محاولاتِي، فأصببتُ بشيءٍ من الإحباط. ولعلَّ أحسنَ مثالٍ الحادثةُ التي ...

وهنا قاطعني منير قائلاً:

منير: صحيحٌ، أتذكرُ قراءتي حادثةَ النسوةِ الثلاث التي رويتها في مقالِك ذي العنوانِ ”مقترحاتُ مختصٍّ في الإرشاد النفسي“ المنشورِ في موقعِ ”الحوار المتمدن“. إسمح لي بقراءته:

كنتُ آنذاك في حوالي العشرين من عمري. وكانت فلسفتي وقناعاتي عن الدين قد تبلورت الى حد كبير. جاءت، في إحدى تلك الأيام، ثلاثُ نساءٍ من قريباتِ والدتي لزيارتنا. أسرعرتُ لإستقبالهنَّ عند الباب. لكن - قبل دخولهنَّ الدار وكين لا زلن على عتبتيه، إستعانتُ إحدهنَّ تلقائياً كعادة كثيرٍ من النساءِ بـ ”العذغا“ (أي العذراء مريم) فعلقتُ على الفورِ تعليقا قائلاً ببساطةٍ: ”إنها لم تكن عذراء“.

جاء تعليقي عفويًا ولم أكن أنوي جرحَ مشاعرهنَّ
ولا إغضابهنَّ .

في تلك اللحظة بالذات إستدرنَ راجعات على
أعقابهنَّ هاريات مني دون أن تتفوهنَّ بأيِّ كلمةٍ
كأنَّ ثعبانًا قد لدغهنَّ . لم تدخلْ - بعد تلك
الحادثة - أيُّ منهنَّ عتبةَ دارنا أبدًا .

شكرًا، منير، على قراءةٍ مقالِي المنشورِ في موقعِ الحوارِ المتمدنِ
سنةَ 2012. لكن عندي سؤالٌ بخصوصِ قراءتِك أوجهُ اليك: هل
كنتِ قد حفظته على ظهرِ القلبِ؟

منير: كلا، لقد قرأتُ المقالَ. من ملفٍ خاصٍ
أحتفظُ به لجميعِ مقالاتِك المنشورةِ في موقعِ
”الحوارِ المتمدنِ“ .

أشكركُ على إهتمامِك بآرائِي.

دعني الآن أن أستأنفُ الكلامَ عن مزيدٍ من محاولاتِي في التعبيرِ عن
آرائِي في أمورِ الأديان. أودُّ الإقرارَ ثانيةً بحقيقةٍ أن لم تحالفِ الموقفيَّةُ
محاولاتي. فأدِّي الى الأحباط.

فقد توضَّح لي أن معظمَ المؤمنينَ يعارضونَ الدخولَ في مناقشةٍ
منطقيةٍ جدِّيَّةٍ حولَ مواضيعٍ تمسُّ معتقداتِهِم الدينية. أرجحُ السببُ
الى إهتزازاتٍ في إيمانِهِم على عكسِ إدعاءاتِهِم بثباتِها.

إن ردةَ الفعلِ على محاولةٍ مناقشةٍ إنسانٍ مهزوزٍ إيمانياً، إمَّا أن
تكونَ رفضاً باتاً في الدخولِ فيها، وإمَّا غضباً وزعلاً، وإمَّا تحويراً
للمعاني الإعتيادية للكلمات. وكمثالٍ على مقولتي:

أثناءَ دعوةٍ لِلعشاءِ أقامها صديقٌ أمريكيُّ، دعا إليها عدداً من
أصدقائِهِ، لمَحَّتْ تلميحاتٌ خفيفةً بعدمِ توافرِ برهانٍ علميٍّ على وجودِ
خالقٍ للكون، ولم أزدُ بكلمةٍ أُخرى.

صرختُ في الحالِ إحدى المدعواتِ بأعلى صوتِها: ”إنني أرفضُ
تناولَ طعامٍ على مائدةٍ يجلسُ عندها ملحدٌ“ وخرجتُ مسرعةً بغضبٍ

مثال آخر يدورُ حولَ سيدةٍ أتملتها إنتقاداتُها للإسلامِ والمسلمين شهرةً عالميةً إقترحتُ عليها إقتراحاً نصائحياً وبأسلوبٍ مهذبٍ بأن تكونَ إنتقاداتُها أكثرَ موضوعيةً وأكاديميةً بإشارةٍ ولو خفيفةٍ بوجودِ مواقفٍ لأمثال إنتقاداتِها عند الأديانِ الأخرى. لكنني فوجئتُ بردها لي صفةً من وابلِ الشتائمِ اللاذعة.

لم تكنْ حادثةُ النسوةِ الثلاثِ قريباتِ والدتي أولَ ولا آخرَ الحوادثِ المثبِّطةِ، لكنها كانت أشدها إيلاماً، لأنهنَّ – بسببي – قاطعنَ والدتي التي لا شأنَ لها بالموضوعِ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ سوى أنها أنجبتُ ”ملحداً كافراً“ كما نقلَ قولهنَّ عنها.

لم تُثنِ تلكَ المُحيطاتِ عزمي عن التعبيرِ بما يجولُ في ذهني، وعن المناذاةِ بما أرى أنه الحقيقةُ. فعولتُ على الكتابةِ بدلاً من الحديثِ أو الكلامِ عنها. إذ غالباً ما يقاطعُ المتناقشون الواحدُ منهم الآخرَ ممّا يؤوّلُ في كثيرٍ من الحالاتِ الى خلافاتِ. إضافةً الى ذلك، تُوفّرُ الكتابةُ التعبيرَ الدقيقَ وتزوّدُ القارئَ نصاً متكاملًا عن الي المطروحِ وقابلاً للرجوعِ اليه وقراءتهِ مراتٍ عديدةً، كما يُنرِّكُ له الأمرُ بقبولِ الرأيِ أو رفضه من دونِ إحتكاكاتٍ مزعجةٍ

منير: ولهذا بادرتُ بالطلبِ اليك إجراءَ المقابلاتِ هذه وكلي أملٌ أن ترى النورَ بكتابٍ يقرؤه الجيلُ الصاعد.

أعلمُ أننا أنتهينا في مقابلاتنا من مرحلةِ النشأةِ وعلى وشكِ الدخولِ الى مرحلةٍ ثانية. فعلياً، إذن الإستعدادُ بأن أقصُرَ أسئلتي على مواضيعِ المرحلةِ القادمة. لكن ما زال عندي سؤالٌ عالِقٌ في ذهني. إذ أنني أحبُّ الأستفسارَ منك عن زميلِك جمال

وزميليك الآخرين. فإسمح لي بالسؤال: ما
علاقتك الحالية معهم وعمّا حلّ بهم؟
علمتُ أن زملائي السابقين الثلاثة أنهم وصفوا غضبي حماقةً متهورة.
لا أرغبُ في الحكمِ على مصداقية وصفهم، لكني، - كما ذكرتُ
عدة مرّاتٍ - أقرُّ ضرورةً غضبي سواءً صحَّ وصفهم أم لم يصح.
بعد تخرجي من كلية الهندسة "طلّقتُ مهنة الهندسة" عند قبولي
طالباً في كلية العلوم، ولذلك فثّرتُ علاقتي بالمهندسين كافةً.
من المؤسفِ أن جاري جمال رفضَ الكلامَ معي منذُ لحظةِ انفجاري
عليه. ويبدو أنه كي يبتعدَ عني، أقنعَ عائلتهِ بنقلِ سكانها من
منطقتنا الى الكردية الشرقية.
أمّا الآن فلا أعلمُ عنه شيئاً سوى ما تسرّبَ لي من نياً هجرته قبلَ عدة
سنواتٍ الى كندا حيثَ عملَ مهندساً في إحدى الشركات في أونتاريو.
وأرجحُ الآن أنه متقاعدٌ.
أمّا الزميلين الآخرين فلم ألتقِ بهما بعد تخرجي ولا أعرفُ أيّ شيءٍ
عنهما.

منير: أنتقلُ الآن بأسئلتني الى المرحلةِ
التالية من اللقاء.

آراء وأفكار

الإلحاد

هل الإلحاد دين؟

الإلحاد والقيم الأخلاقية

هل الأخلاق نابعة من الدين؟

حركة برائت

تناقضات في الكتاب المقدس

تناقضات قرآنية

التواءات لغوية في النصوص الدينية

الدين يذكي التكرار والتباغض والتخاصم بين البشر

حروب وأعمال وحشية بسبب الأديان

مكانة المرأة في الأديان التوحيدية

مقاومة الدين لمستجدات العلوم

تأملات حول الحياة والموت

يسوع الناصري والمسيحية

To Be or Not to Be Christians, THIS IS THE QUESTION

الإقتداء بالمسيح

هل حمل المسيح سيفاً؟

إنجيل يوحنا يروي قصة إحياء يسوع لعازر من الموت

محمد نبي الإسلام

القرآن

مسيحيو الشرق الأوسط بعد الفتوحات الإسلامية

الإلحاد

منير: صرحتَ قبلَ قليلٍ أنكِ غدوتَ بعدَ التَّفَجُّرِ
إنساناً جديداً تقفُ مفتخراً بما يجولُ في ذهنك دون
خوفٍ أو خجلٍ ومنادياً في كلِّ مكانٍ بما تراه أنه
الحقيقةُ .

سؤالي : هل تمنعُ بأن تُنعتَ بالصفة التي نُسبتُ
اليك والتي بسببها قاطعتُ السيدات الثلاثُ
والدتك؟

إنني لا أفهمُ لماذا تسألُ بطريقةِ اللَّفِّ والدورانِ . هل تخشى يا منير
أن تسألَ بقولٍ مباشرٍ؟ "هل تصفُ نفسك ملحداً؟".
على كلِّ حال جوابي: نعم ولا . معتمداً على السياقِ الذي تُستعملُ
فيه الكلمة.

تعلمتُ من والدي ضرورةَ الإِستعانةِ بالمعاجمِ والموسوعاتِ لِغرضِ
تحديدِ أيِّ إلتباسٍ أو إختلافٍ في المعنى أو في التَلَفُظِ الصحيحِ أو
التهجي المضبوطِ لكلمةٍ سواءً كانتِ عربيةً أو أعجميةً.

إذن لنَعوِّلَ على ما تقولُ موسوعهً ويكيبيديا عن مفهومِ "المُلحدِ".

المُلحدُ هو مَنْ لا يجدُ أدلةً كافيةً تجعله يؤمنُ
بوجودِ إلهٍ ، (أي إلهٍ سواءً سُمي اللهُ ، أو يهوا ، أو
God ، أو زيوس ، أو أفروديت ، أو بعل أو باكوس ،
أو أثينا ، أو أبولو ، أو ثور ، الى آخرِ ما هنالك من
آلهة) .

الملحدُ لا يختارُ إعتقادهً بسببِ جهلٍ أو رفضٍ متأتٍ
من تمردٍ ضدَّ مؤسسةٍ دينيةٍ ، إنما بقناعتته
وبإختياره . والملحدُ لا يدَّعي عدمَ وجودِ إلهٍ . إنه
فقط لا يؤمنُ بوجودِ إلهٍ . هنالك فرقٌ بين عدمِ

الإيمان بوجود شيء ونكران وجوده . (أهم الآلهة التي لا يؤمن بوجودها الملحدون المعاصرون هي تلك المسماة "الله" أو "يهوا" أو "الحي العظيم" أو "God" التي يعبدونها معتنقو الديانات الإبراهيمية التوحيدية ، لكن لا تقتصر بالضرورة على تلك الديانات فقط) .

بعد أن عرفنا مفهوم "ملحد" أقول مجيباً سؤالك: في الوقت الذي لا أنفي إنطباق تعريف "ملحد" علي شخصياً ، أضيف أن ليس من النادر أن تستعمل كلمة بغير معناها المعجمي. هذا ما حصل ويحصل فعلاً بالنسبة الى كلمة "ملحد". إذ يُعد الوصم بالإلحاد، عند كثير من الناس، شتيمةً على من يوصم به وإنتقاصاً منه.

شعرتُ بوجود مسامحة النسوة الثلاث لشتيمتهن حين سمعتُ، ممن هو أكثر ثقافة وأكثر مسؤولية منهن، ألا وهو الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب سنة 1989، يهين الملحدين الأمريكيين إهانةً بالغةً بتصريحه:

لا أعلم بوجود أن يكون الملاحدة مواطنين ، ولا ينبغي أن يكونوا محبي وطنهم . إن هذه أمة تحت راية الله!!!!

ليس هذا فقط، بل تنص دساتير ولايات أمريكية²² على عدم أحقية من يعلن عن إلحاده في تبوء منصب حكومي في الولاية. كما لا يحق للشباب الملحدين الإنتماء الى الكشافة في جميع الولايات الأمريكية. لكل هذه الأسباب، عندما أتكلّم أو عندما أكتب أنا عن معتقدي، أفضل أن أقول إنني "غير مؤمن" أو "لاديني" أو "Irreligious". وفي الوقت نفسه لا يهمني مطلقاً أن أنعت بـ"ملحد" ما دام ليس المقصود بالنعيت إزدراءً أو إنتقاصاً.

منير: إضافة إلى ما ذكرت بأن إسباغ صفة الإلحاد على شخص يعتبره كثير من الناس مسبةً وتحقيراً. أتذكر حديثك عن السيدة التي رفضت تناول الطعام على مائدة يجلسُ عندها ملحد.

هل تفضل بالكلام عن هذا التصور وأسبابه؟

قد ترسخ في أذهان معظم الناس أن الإيمان بالله ضروري لِكَبْحِ البشر من ارتكاب الجرائم. فيزعمون - بناءً على هذا التثبيت السايكولوجي - أن الملحد بسبب إنكاره الله لا يخشى من أي عواقب من ارتكاب جريمة الكذب أو الإحتيال أو السرقة أو القتل أو الإغتصاب أو ممارسة الجنس في الشوارع. لكن ما يزعمون ليس سوى أوهام أوجه إلى المؤمنين الإستفسارات الآتية:

- ألم يرتكب بعض المؤمنين أحياناً جريمة السرقة؟
- لم يرتكب بعض المؤمنين أحياناً جريمة الإحتيال؟
- ألم يرتكب بعض المؤمنين أحياناً جريمة القتل؟
- ألم يرتكب بعض المؤمنين أحياناً جريمة الإغتصاب؟

من المؤكّد ستكون أجوبتهم بالإيجاب.

إذن لم يكن الإيمان بالله - الذي يعتقدون بوجوده وبقدرته غير المنتهية على العقاب - رادعاً كافياً بمنع بعض المؤمنين من ارتكاب السرقة والإحتيال وبفشل في منع جرائم السرقة والقتل والإغتصاب وغيرها.

لكن على الرغم من عجز إيمان المؤمنين بالله في كبح الجرائم، فقد اعتاد أغلب الكهنة والوعاظ في مواعظ أيام الأحد ومشاركة آخرين كثيرين بوصف الإلحاد بألفاظ إستهزائية ومُهينة وينعت الملحد بأنه محبّد للفجور والفسق وذو سلوك فاسد وأثم.

يدعون كلّ تلك الإدعاءات دون تقديم أي دليل إحصائي عليها. ولو

كان لإدعاءاتهم مثقالُ صدقٍ لإمتلائتُ السجونُ بالملاحدة، ولتناسبِ عددِ المساجينِ في الدولِ متناسباً طردياً مع عددِ الملحدينِ فيها. لكننا نجدُ الواقعَ يدحضُ إدعاءتهم، إذ أن النسبةَ على عكسِ ما يدَّعون.

منير: الأمور تختلف عندنا في الدانمارك الدول الإسكندنافية. قد قضى أستاذُ علمِ الاجتماعِ في كلية بيتزر الأمريكية فلُ زُكرمن Phil Zuckerman أربعة عشر شهراً خلالَ الفترة 2004-2005 في الدانمارك والسويد حيث أغلبيةُ السكانِ غير متدينين. وأجرى مقابلاتٍ حول المعتقدات الدينية مع مختلف الطبقات الاجتماعية والثقافية وإنتماءاتهم الدينية. ونشر نتائجَه في كتابٍ عنوانه: Society Without God منشور سنة 2008.

أشكرُك، يا منير، على هذه المعلومات القيمة.

نعم، من المعلوم يوجدُ الآن عددٌ من المجتمعات التي تركتُ الأغلبيةُ السكانيةُ فيها التدينَ والإيمانَ بالله، بكاملِ حريتها، لكن بدلاً من أن تكونَ مرتعاً للجرائمِ نجدُها من أنجحَ وأسعدَ وأكثرَ المجتمعاتِ أماناً في العالم. وأن أغلبيةُ سكانِ تلك المجتمعاتِ لا يذهبونَ الى الكنيسة، ومع ذلك فإن نسبةَ الجرائمِ الكبرى فيها أوطأ نسبةً في العالم. وتكادُ سجونُهم أن تكونَ خالية. وذكرَ أيضاً أن من النادرِ أن يرى المرءُ وجوداً للشرطة في الشوارع.

أمّا في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكية، التي تتمتعُ بأعلى نسبةٍ في التدينِ بين المجتمعاتِ الغربية، فالأمورُ تجري بأسلوبٍ معاكس. إلا أن فيها أعلى نسبِ جرائمِ القتلِ والإغتصابِ وحوادثِ الحملِ في سن المراهقة والحكمِ بالسجنِ المؤبد. وتُشيرُ الإحصائياتُ الرسميةُ الأمريكيةُ الى خلوِ سجونها تقريباً من الملحدين.

إذ أن نسبَ المقرَّينَ ذاتياً بأنهم كاثوليك أو معمدانيون أو إنجيليون أو مسلمون أو أتباعَ أديانٍ أُخرى تتساوى تقريباً مع نسبهم في مجمل السكان. أمّا مجموعةُ الملحدينَ واللادَريينَ، الذين يكوّنونَ حوالي 9% من نفوسِ الولاياتِ المتحدة، فتقدَّرُ نسبةُ السجناءِ منهم قرابةً 0.5% فقط من السجناءِ في السجونِ الفدراليةِ الأمريكيةِ، أي أقلَّ بـ 18 مرةً من المتدينين. تشيرُ الإحصائياتُ بوضوحٍ إلى أن اللادَينيينَ مُمثّلونَ تمثيلاً ضعيفاً في السجونِ الأمريكيةِ²³!!!

لكن يتجاهلُ الإدلةُ والحقائقُ الكهنَةُ والوعاظُ الإنجيليونَ على المنابرِ وفي الأوساطِ الإعلاميةِ.

هَلْ الْإِلْحَادُ دِينٌ؟

منير: يبدو لي أن المقارنة بين القيم الأخلاقية للمؤمنين وقيم الملحدين تعزز إستمرارية بقاء الفكرة، التي يعتقدُ بها بعضُ الناس، أن الإلحاد نفسه نوعٌ من الدين.
هل تشاركونهم هذا الاعتقاد؟

لعلَّ أبلغَ جوابٍ عن السؤالِ عبارةُ كلارك آدمز المشهورة:

لو كان الإلحادُ ديناً لكانت
الصحةُ مرضاً، وعلامةُ الـ off على أزرارِ التلفزيون قناةً
تلفزيونية.

تعلمتُ – كما ذكرتُ سابقاً – من الوالدِ بوجوبِ الإستعانةِ بالمعاجمِ
والموسعاتِ لتحديدِ معاني المفاهيمِ المتداولةِ، قبلِ الشروعِ بالنقاشِ.
دعنا نقرأَ ما وَرَدَ عن مفهومِ الدينِ في موسوعةِ الفلسفة:
يمتلكُ الدينُ عموماً أبعاداً متعددةً منها:

أولاً: إيمانٌ بوجودِ كائناتٍ فوقطبيعيةٍ تُسمى
الْهةَ .

ثانياً: رموزٌ مقدَّسةٌ تشملُ من ما بين ما تشملُ
مؤسساً وكتباً تُعتبرُ مقدَّسةً وأماكنَ
مخصَّصةً للعبادةِ وأياماً للأعيادِ .

ثالثاً: طقوسٌ وشعائرٌ تتمحورُ حولَ تبجيلِ
الرموزِ المقدَّسةِ .

رابعاً: إشاراتٌ لمُشاعرِ الرهبةِ والغموضِ السريِّ

تجربى خلال ممارسات الطقوس ، مثل قرع
أجراس ، ونشر شذى البخور ، وتلفظ
تعويذات .

خامساً : شرائع لمبادئ أخلاقية موعزة من
الآلهة غرضها تنظيم حياة الناس
حسب منهج معين .

سادساً : صلوات الى الآلهة لإظهار التبجيل
والخنوع لها والتضرع منها .

سابعاً : رؤية كونية عن العالم تضع هدفاً عاماً
للوجود وتحدد موقع الإنسان في العالم
وتنظم حياته وفقاً لها .

ثامناً : روابط من الأفكار والممارسات تربط زمر
المعتنقين بعضهم مع بعض .

دعنا نرى هل يحقق الإلحاد أيّاً من هذه الشروط؟

لا يعترف الملاحدة إلا بوجود العالم الطبيعي فقط. هذا يعني أنهم لا
يؤمنون بوجود كائنات فوقطبيعية، وليس لهم مؤسس يبجلونه، ولا
كتب يُقدسونها، ولا دور يُجرون فيها طقوساً خاصة بهم، وهم لا
يجتمعون أسبوعياً في أيام محددة يستمعون فيها الى مواعد
إلحادية، ولا يحتفلون بأعياد خاصة بهم، ولا يتفقون جميعاً على رؤية
كونية مشتركة، إنما يستطيع كل منهم تبني الرؤية المناسبة له ما
دامت لا تدعو الى غيبات بوجود كائنات فوقطبيعية، ولا يتحلق
الملاحدة بحلقات يقدمون البخور على أنغام موسيقية تنويمية مُصلين،
مرتلين ومرددين:

يا إمام الملحدين والملحدات ، نحن المساكين
والمسكينات ، نقف أمامك خاشعين وخاشعات ،
نستعين بك من الشياطين لتخلصنا من
خزعبلات الملائعين وإغواءات المؤمنين ، ... آمين ،
... ، آمين!!

كيف إذن يمكن أن يكون الإلحاد ديناً؟

منير: بيّنت أن الإلحاد ليس ديناً. لنفترض أن شخصاً لم تعجبه جميع الأديان أتاك ملتمساً منك إن ترشده إلى أفضل سبيل للإلحاد. فما عسى أن تجيبه؟

لا أظن بوجود مَنْ يسعى إلى الإرشاد ليكون ملحداً. طريق الإلحاد، عزيزي منير، طريق ذاتي. لكل ملحد قصة يرويها عن سيره على درب ذاتي أوصله إلى إلحاده.

اليك قصة وصول ديفيد ميلس David Mills مؤلف كتاب المعنون: Atheist Universe إلى الألحاد كما يرويها في كتابه:

كنت في المدرسة الثانوية أمارس التبشير لهداية وكسب الطلبة إلى الطائفة الإنجيلية. كان معظم الطلبة الذين أقرأ لهم نصوصاً من الكتاب المقدس، ينصتون باحترام إلى ما أقرأ عليهم وكانوا قليلي التساؤل، باستثناء طالب واحد غير مسيحي، لم يكن يتقبل تقبلاً أعمى كل عبارة أقرأها عن المسيح صانع المعجزات. وكان يصرح إنه سوف يسعد إعتراف المسيحية إذا استطعت إقناعه بالبرهنة على صدق الدين المسيحي. كنت أقول له إنني أشهد يسوع حقيقةً وأحس بوجوده في قلبي. لكنه لم تقنعه أحاسيسي بل كان يطالبني ببراهين ذات طبيعة علمية. وكي أرقى بخدماتي للرب إلى الأفضل، بدأت بدراسة كتب الثيولوجيا المسيحية الساعية في دفاعها عن الدين المسيحي لا بالإيمان الأعمى، إنما بالإعتماد على المنطق والعلم. لكن بان لي أنه كلما قرأت أكثر عن المنطق المسيحي بعقل متفتح كلما ازداد تحريري من الأوهام. وسرعان ما أدركت أن حججهم تنحل

الى تحصيلِ الحاصلِ : أعلمُ أن الكتابَ المقدَّسَ
صَادِقٌ

لأنه الكتابُ المقدَّسُ
بما حملني أخيراً على تحوُّلي الى الإلحاد .

(إنتهتُ واحدةً من قصصِ الدروبِ المؤديةِ الى الإلحاد)

ولا أعتقدُ أن يفوتُ إنتباهَ القارئِ أن هذا الكتابَ الذي يقرؤه يحوي قصةً لِتحوُّلِ كاتبه الى الإلحاد . وأما إذا افترضنا افتراضاً أكاديمياً وُجودَ مَنْ يسعى الى إسترشادِ دربِ الى الإلحادِ ، فسأقولُ له إن الإلحادَ ليس ديناً يُنظَّمُ المُعْتَنَقُ فيه رجلُ دينٍ بتعميده وبتلقيه تعاليم الإلحاد . إنما هو إنعتاقُ من خرافاتٍ معشعشةٍ في العقول . إستعملُ عقلك وفتِّشْ عن خرافاتٍ وغيبياتٍ تعيشُ مرتاحةً فيه ، وإستعنْ ، حين تجدها ، بعقلك أيضاً لِلتخلصِ منها .

النصيحةُ الوحيدةُ التي ربّما يمكنني تقديمها إليك هي أن تُوسِّعَ أفقَكَ المعرفيَ بدراسةِ العلومِ والمنطقِ . ومثلما لا أستطيعُ مَضْعُ الطعامِ بدلاً عنك ، كذلك لا أستطيعُ التفكيرَ بدلاً عنك ، ولا أستطيعُ إتخاذَ قرارٍ بعينك بدلاً عنك .

منير : سؤالٌ مكملٌ لسؤالي السابق . إذا علمتَ أن

شخصاً يرغبُ إعتناقَ دينٍ غيرَ الدينِ الموروثِ من أبويه ، فهل تحاولُ أن تُثنيه عن رغبته وتصحِّه أن الأفضلَ له التخلصُ جملةً وتفصيلاً من جميع

الخرافاتِ والغيبياتِ دفعةً واحدةً

كلا لن أقومَ بذلكَ . أتوقَّعُ أن يتخلصَ بنفسه ويجهدُه الذاتية من جميعِ الخرافاتِ والغيبياتِ

دعني أروي قصةً حقيقيةً عن أحدِ طلابي سنةَ 1994 في قسمِ الرياضياتِ / كليةِ العلومِ / جامعةِ بغداد ، يعيشُ والداهُ المسلمان

الشيعة في جنوب العراق. إسمه في هذا المقال "صالح" حفاظاً على سرية هويته.

كان صالح يتردد على مكتبي بين حينٍ إلى آخر وينقل لي أخبار قساوسة الكلدان في بغداد: القس فلان ألقى محاضرةً شيقاً، وقس ثانياً أنتخب رئيساً للجمعية الفلانية، وثالث سافر إلى روما، وإلى آخر ما هنالك من أمثال هذه الأخبار. كنت أتركه يتكلم وأنا أستمع إليه دون تعليق لأن لا شأن لي بأخبار القساوسة.

استمرت تردده قرابة ستة أشهر. كنت أشعر خلالها أنه ينوي البوح لي بشيء ما، ربّما يكون أنه قد وقع في حُب فتاة مسيحية.

لكنه جاء في أحد الأيام وأبلغني صراحةً إعتناقه المسيحية. لم أسأله الأسباب لكنني شعرت بالشفقة عليه لإستبداله خرافةً بخرافةً وغيبياتٍ بغيبيات. ولم أحاول ثنيه عن قراره لأن القرار شأنه. علقت بمجرد سؤال واحد:

أتعرف موقفي من الأديان؟

أجابني بالإيجاب. فسألته:

لماذا لم تتكلم عن موضوعك مع الأستاذ الفلاني؟

أجابني بقوله إنك تتفهم هذه الأمور أفضل منه. أجبتُه ربّما يكون أفضل مني. كيف تعلم إذا لم تُحاول؟ لم يُجب عن سؤالي.

في الحقيقة حيرني جوابه ولا زال يحيرني لعدم معرفتي كيف أنا أفضل من ذلك الأستاذ في مثل هذه الأمور إذ تتشابه مواقفنا الدينية (وغير الدينية).

بعد إعتناق صالح الدين المسيحي، بدأ ينشر مقالاتٍ وأشعاراً في المجالات الدينية المسيحية عن حبه للمسيح مستعملاً إسماً مستعاراً خشيةً أن يهدر دمه. وما إنفك الآن يتواصل معي بانتظامٍ عبر الإنترنت وما زال باقياً على مسيحيته، وربما أصبح كاهناً.

الإلحاد والقيم الأخلاقية

منير: فهمتُ من حديثك أنك تعتقد، بصورة عامة، أن التزام اللايدينيين بالقيم الأخلاقية أعلى من التزام المتدينيين بها
سؤالِي: كيف ترى القيم الأخلاقية للإنسان اللاديني؟

قبل أن أُلبي طلبك أرى أن من المفيد أن أنقل اليك حديثاً جرى لي مع صديقٍ أردني قديمٍ عن إنطباعه عن أخلاق شخصٍ لاديني يعرفه هو، وليس لي معرفةً به.

جرى الحديث سنة 1984 حسبما أذكر، حين إستقبلني في مطار عمان. وأثناء إنتظارنا وصولَ لحقائب. قال لي مؤشراً الى شخص:

يشيرُ ذلك الإنسانُ إستغرابي وتعجبي الشديدين. إذ أنه لا يؤمنُ بوجود الخالق العظيم، لا يعتقدُ بوجود حياةٍ أخرى بعد الموت. ولا يذهبُ الى الكنيسة، لكنه رغمَ عدم إيمانه رجلٌ مستقيمٌ جداً. إنني لا أترددُ إذا قلتُ إنه أكثرُ إلزاماً بالمسيحية وأكثرُ إستقامةً حتّى من نيافة المطران.

وأخذَ صديقي يسترسلُ بوصفِ سموِّ أخلاقِ ذلك الملحدِ وحُسنِ خصاله، كيف أنه نزيهٌ في معاملته ومتواضعٌ ويساعدُ الفقراءَ ولا يسرقُ ولا يرتشي ولا يكذبُ ولا يخونُ زوجته. وأتوسمُ به الإقتداءً برَبنا يسوع.

توقَّفَ صاحبي عن الكلامِ حوالي دقيقةٍ متأملاً وموجهاً أنظاره نحو ذلك الشخص، ثم إستاتفَ حديثه قائلاً:

لا بدُّ أن الله قد خلقه لحكمة ما. ربّما كي يبينَ عدمَ إعتِقادِ الأخلاقِ على الدين.

تصوّرتُ أن صاحبي قد وضع إصبعه على الموضوع الصحيح. لكن خيبَ ظني. إذ أردفَ بعد لحظةٍ قائلاً:

مستحيلٌ وجودُ أخلاقٍ من دون دين .
ذلك مستحيل .

أُصِبتُ بخيبةِ أملٍ، وكُدتُ أن أعلّقَ متسائلاً:

ألا يعلمُك إلحادُ ذلك الإنسانِ درساً بضرورةِ مَسْحِ
دماغك من أغبرةِ الخرافاتِ العالقةِ به كي يستقيم
تفكيرُك؟

لكنني وجدتُ أن من غيرِ اللائقِ جرحَ مشاعرِ صديقٍ قديمٍ خرجَ
لِاستقبالي. فخففتُ من لهجتي وسألتُه:

أتعرفُ ملحداً آخرَ يتمتعُ بسماتٍ مشابهةٍ؟

يبدو أنه لم يفهمُ من سؤالي أنه تلميحٌ بإنقاذٍ مبطنٍ. إذ أجابني:
لا أعرفُ أيَّ ملحدٍ آخر. ولا أعتقدُ بوجودِ ملحدٍ آخرٍ متسمٍ بصفاتٍ
حسنة.

علّقتُ على كلامه بقولٍ صريحٍ عن وجوبِ عدمِ إصدارِ أحكامٍ من دون
تعزيزٍ بأدلةٍ إحصائيةٍ. في هذه اللحظة وصلتُ الحقائقُ. فتوقّفَ
نقاشنا.

من المؤكّدِ أن لم يدرُ في خُلدِ صديقي أن معظمَ (لا أريد أن أقولَ
جميعَ) اللادينيين يتسمونَ بأخلاقٍ ساميةٍ مماثلةٍ إلى حدٍ كبيرٍ لأخلاقِ
ذلك الملحد. 24

ينبغي ألا يفهم من كلامي أن لا يوجد مؤمن حسن الأخلاق، وأن لا يوجد ملحد سيء الأخلاق.
إنما المقصود أن:

نسبةُ (الملاحدة ذوي أخلاقٍ حسنة / جميع الملاحدة).

أكبرُ بكثيرٍ من

نسبةُ (المؤمنين ذوي أخلاقٍ حسنة / جميع المؤمنين).

أدعو المهتمين بعلم الاجتماع وضع أساليب لقياس هذه النسب كي يُعزَزَ أو يُدحضَ إدعائي

الآن أُلبي طلبك عن رأيي للقيّم الأخلاقية عند الإنسان اللاديني. من الواضح أن المرء اللاديني²⁵ لا يعترف بوجودٍ مشرّعٍ عظيمٍ فوقبشري في أعالي السماءٍ يشرّع له ما يجب وما لا يجب العمل به. ولاحتياجٍ الى واعظٍ أو كاهنٍ أو مرجعيةٍ أو إمامٍ كي ينهي عنه السرقة والنهب والاحتيال والكذب والإغتصاب والقتل، وكي يحثه على الصدق والأمانة في الإلتزامات والمعاملات والتفاعلات اليومية مع الناس. لذلك يشعر اللاديني أنه مالكٌ نفسه، والمسؤول شخصياً عن تنمية مدى قيمه فيما يخصه. كما أن الشعور الواضح بأنه هو شخصياً المسؤول الوحيد عن جميع أعماله يمنحه ميزةً تُتيح له إختزانَ عواطفٍ وطاقةٍ مفيدةٍ في معالجة أمورٍ كبيرةٍ الأهمية في حياته اليومية.

لا ينتاب الإنسان اللاديني أيُّ قلقٍ من إلهٍ يسترقُّ السمع والنظر من خلف كتفه حين تخطر على باله فكرةٌ مثيرةٌ لغضبِ الله (حسبَ تصورٍ مؤمنٍ). كما يلتزم اللاديني عادةً بمبادئ السلوك الإجتماعي المتعارف عليها، التي ربّما تأثرت بها أو تعلّمها كلياً أو جزئياً من والديه (مهما كان إيمانها أو عدم إيمانها). وبما أنه مواطنٌ في مجتمعٍ متحضرٍ فمن المرجح أن الإلتزام بها لا يُشكّل له صعوباتٍ كبيرةٍ في أغلب الحالات.

ويُخضع معظم اللادينيين أنفسهم الى مساءلاتٍ ذاتيةٍ، فتنمو عندهم القدرة على البت في إختيار المسالك الأخلاقية إعتماًداً على أنفسهم فقط دون تعويلٍ على إيعازاتٍ صادرةٍ من إلهٍ فوقبشري، أو إعتماًداً على تعليماتٍ من كتابٍ مقدّسٍ أو غير مقدّس. لذا

أتوقع أن لا يُخفى على القارئ اللبيب أن المقصود بالتعبير "المرء اللاديني" هو "معظم اللادينيين". وينبغي أن لا يُفهم من التعبير "جميع اللادينيين من دون إستثناء". أعتقد أن إستعمال كلمة "معظم" أو مرادفاتها في كل مكان يجعل النصّ مملأً.

يكتسبون "بوصلةً أخلاقيةً" تُوجِّههم نحو العملِ على مراعاةِ حقوقِ ومشاعرِ الآخرين وعلى إتخاذِ قراراتٍ صعبةٍ.

يحاولُ اللادينيُّ، في حالاتِ حدوثِ خلافاتٍ مع غيره (سواءً كان الغيرُ مؤمناً أم لا)، جُهدَ إمكانه وَضَعَ نفسه مكانَ الآخرِ وكما يقولُ المثلُّ بالإنكليزية (Put yourself in his shoes) وأن يضعَ رجله في جزمةِ الآخرِ، ويستعيرُ منه مَخَه قدرَ المستطاعِ كي يسعى الى الشعورِ بِمشاعره والتفكيرِ بِأطُرِ منظوراته وليس الأمورِ من وجهةِ نظرِهِ، عندئذٍ يحصلُ اللادينيُّ على تفهُمٍ أفضلٍ لموضوعِ الخلافِ، وبالتالي قد يسهلُ معالجته.

توجد نقطةٌ أُخرى أرغبُ تناولها من خلالِ مثالٍ واقعي. إستضافني صديقٌ كان زميلاً لي في كليةِ الهندسة. عند خروجي من منزله شكرتهُ على حُسنِ ضيافته. أجبني:

هذا واجبٌ يأمرني به نبيُّنا محمدٌ رسولُ الله الذي

أوصى :

مَنْ كَانَ يَوْمًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فليكرمُ ضيفَهُ.

قلتُ

"إذن إسمح لي أن أسحبَ شكري اليك . وأعيدُ

توجيهه الى محمد الذي لو لم يأمر بما أمر لما

أستضفتني".

ضحكُ صديقي عالياً معتبراً ردِّي نكتةً. لكن لم أقصدُ أن يكونَ كلامي نكتةً.

هنالك في مواقف كثيرةٍ قد يتطابقُ تصرفُ مؤمنٍ مع تصرفِ شخصٍ لاديني. لكن تتباينُ مبرراتهما، يعزو الأولُ سلوكه الى أنه أوامرٌ من الله أو من نبيٍّ أو من كتابٍ مقدسٍ، (مثل صديقي الأتف ذِكْرُهُ) أمَّا الإنسانُ اللادينيُّ فيعزو سلوكه الى قناعةٍ ذاتيةٍ نابعةٍ من صميمه.

مثلاً، المرءُ اللادينيُّ الذي يترفعُ عن الخيانة الزوجية، لا بسببِ أوامرٍ

ربّانية ولا خوفٍ من عذابِ جهنم، بل لأنه يحبُّ زوجته التي تعهدَ لها بحبه ولا يرغبُ جرحَ مشاعرِها. أمّا السبُّ الرئيسي لعدم الخيانة عند عدوِّ ليس بقليلٍ من المؤمنين الملتزمين فهو أن الخيانة الزوجية بمثابة زنا الذي تحرّمه وصايا الله العشر "لا تزني". أو أنها تضرُّ بالمكانة الفرد الإجماعية. شتّانَ بين المواقف!!!

منير: في الوقت الذي أشكرك على ما أرفدتني بمعلوماتٍ جديدة بالمعرفة عن القيم الأخلاقية التي يتمتعُ بها معظمُ اللادينيين. لكني، في الحقيقة، كنتُ أقصدُ بسؤالِي، الإستفسارَ عن مدى تأثيرِ موقفك اللاديني على قيمك الأخلاقية.

إن هذا السؤالُ "ترك". إذ لستُ معتاداً كيّل المديحَ لنفسِي. لكن هناك إستثناءً واحدٌ من الممكن التطرّق إليه.

بعد إجتاحِ قواتِ صدام دولة الكويت ونهبِ وزاراتها ودوائرها وكلياتها ومكتباتها ومدارسها ومخازنها وإستباحة ممتلكاتها، إمتلأت الأسواق العراقية بأشكالٍ وأنواعٍ وألوانِ المسروقاتِ من سياراتٍ وثلاجاتٍ ومكيّفاتٍ وحواسبٍ وأجهزةٍ مختبريةٍ وطبيةٍ وأثاثٍ منزليةٍ وغيرها. وصارتُ السلعُ المنهوبةُ تُباعُ بأسعارٍ مخفضةٍ جداً. فأقبل كثيرون على شراءٍ ما يحتاجون، ويخزنون في مساكنهم أو في بساتينهم ما لا يحتاجون كي يبيعونها في وقتٍ لاحقٍ بأسعارٍ عالية.

ومن الجدير بالذكر أن أعداداً ليست قليلةً من مؤمنين شديدي التدين شاركوا فعلياً بعمليات النهبِ والسلب. ممّا يؤيدُ الإعتقاد أن الإيمان بوجودِ الله وبقدراته اللامنتهية على العقابِ لم يكفِ لردع المؤمنين من إرتكابِ الجرائم.

لكن كان هنالك قلةٌ من الناس (تشملُ جميع ما أعرفُ من اللادينيين ومن بعض المؤمنين) قاطعتُ البضائعَ المسروقة.

أما بالنسبة لي شخصياً فكنْتُ أُنْفُ ممتنعاً عن إقنناء أيِّ منها سواءً كنتُ في حاجة إليها أم لم أكنْ. كما لم أستعزُ أيُّ كتابٍ مسروقٍ على رفوف مكتباتِ كليةِ العلومِ والكلياتِ الأخرى إنني لم أمتنعُ عن ذلك خشيةً عذابِ أبدي بعد الوفاة، لكن لسببٍ نابع من الصميم بأن المساهمة المباشرة وغير المباشرة بهذه الجرائمِ وأمثالها تجعلُ هذه الحياة هنا على الأرضِ دروباً مؤديةً الى بؤسٍ وتعاسةٍ لجميعِ البشر.

لكن لم تبالِ أغلبيةُ المؤمنين في التكالبِ للحصولِ على السلعِ المسروقة، مختلقين بسهولةٍ مبرراتٍ لأفعالهم بحججٍ واهيةٍ ومتنوعةٍ يُقنعون بها أنفسهم، شأنهم شأن كثيرٍ من المؤمنين. ويسندُ بعضهم مبرراتهم على حججٍ من خلفياتهم الدينية، منها ما يأتي:

- يثيرُ أحدهم أن الحصولَ على البضائعِ المسروقة ضرورةُ التجارة التنافسية .
- ويدعي ثان أنه لا يستطيعُ التمييزَ بين السلعةِ المسروقة وغيرِ المسروقة .
- ويستبقُ ثالثُ بأنه ستُجرى محادثاتٌ للتعويضات ، فستنتفي صفة السرقة .
- ويعولُ رابعٌ على الشرعِ الذي يُحللُ تقاسمَ غنائمِ الحرب .
- ويعتمدُ خامسٌ ، وهو مسيحي ، على الإعرافِ عند الكاهنِ ليحصلَ على الغفرانِ!!!!

هَلْ الْأَخْلَاقُ نَابِعَةٌ مِنَ الدِّينِ؟

منير: يسودُ إعتقادٌ عندَ كثيرٍ من الناسِ أن الأديانَ تُشكِّلُ الأسسَ الرئيسيَّةَ للقيِّمِ الأخلاقيةِ وللسلوكاتِ البشريةِ. وبناءً على هذا الإعتقاد يتخيلُ كثيرون أنه إذا ذهبَتْ جميعُ الأديانِ مع الريحِ فَسرعانَ ما ستبْعُها الأخلاقُ، عندئذ لن يبقى رادعٌ يمنعُ الإنسانَ من القتلِ والسَّرقةِ ولا وأعزُّ يحرمُ الإعتداءَ والإغتصابَ. هل لك تعليقٌ على هذا الموضوع؟

يكبحُ هذا التصوُّرُ التفكيرَ العقلانيَّ المنطقيَّ الإنتقاديَّ للأديانِ خشيةً إضعافٍ وزعزعةٍ نسيجِ المجتمعِ وبُناه الأخلاقيةَ.

وقد سمعنا - ونحنُ صغارٌ - من أولياءِ أمورنا أو مرشديننا أو معلمينا ينبهوننا الى أن التفكيرَ العميقَ بِأُمورِ الدينِ يُوْدِي الى الجنونِ. لا بُدَّ أن تذكُرَ - يا منير - حديثي عند لقاءنا الأولِ عن أن والدتي حذرتني من الجنونِ حين سألتها "مَنْ خَلَقَ اللهُ؟"!!!

ورغمَ شيوعِ الرأيِ القائلِ إن الدينَ هو المصدرُ الرئيسيُّ لسلوكِ البشرِ الأخلاقيِّ، لكنه يفتقرُ الى تعزيزٍ بأدلةٍ إحصائيةٍ. إذ لو صحَّ هذا الرأيُ لإمتلأتُ السجونُ باللاديينين. لكن تتوافرُ لدى دائرةِ السجونِ الفدراليةِ الأمريكيةِ إحصائياتٌ تدلُّ على العكسِ تماماً. أقترحُ على مَنْ يعتقدُ بِالرأيِ القائلِ: "من دونِ دينٍ تنعدمُ الأخلاقُ" أن يبذلَ جُهداً بسيطاً بِالرجوعِ الى الرابطِ المشارِ اليه في الهامشِ المرقم 23.

إضافةً الى هذا يدَّعي رجالُ الدينِ إمتلاكهم الحقَّ في تلقينِ وتعليمِ جميعِ الآخرينَ طبيعةَ الخيرِ والشرِّ وكأنَّهم محتكرونَ بِحكمِ عملهم خطأً تفونياً خاصاً بهم يربطهم بِالمنابعِ الإلهيةِ حيث يُعرَفُ الخيرُ والشرُّ!!!

يهدف هذا المقال الى:

أولاً تبيان أن العاملين الرئيسيين لإستنبات القيم الأخلاقية هما ديمومة بقاء مجتمع وإستقراره ، ثم يتبعهما الدين للعمل على تشريع القيم وتنظيمها وتنسيقها .

ثانياً تبيان بطلان إدعاءات رجال الدين بإستحالة وجود معايير للأخلاق إلا تلك الصادرة من إله أو أنبياء أولئك الوعاظ .

لا يحتاج بنو البشر الى وحي إلهي ولا الى وعاظ دين كي يدركوا لأخلاقية السرقة والقتل.

يمكن التوصل الى مصداقية هذه المقولة بقليل من التأمل.

دعنا نتصور مجتمعاً تُسمح فيه السرقة والقتل والإغتصاب لكل فرد. أيمكن إستمرار بقاء مجتمع من هذا النمط؟ طبعاً لا. إذ لو وُجد، فمن المحتم أن ينهار عاجلاً أو أجلاً من داخله.

إذن تولد إستقرارية المجتمع وديمومته بقاءه لدى أفرادهِ شعوراً بأن القتل والسرقة وغيرهما أعمال إذا أُبيحت على نطاق واسع تؤدي الى زعزعة المجتمع وثم إنقراضه.²⁶ ونتيجة لذلك يتكُون عندهم واعزُّ بتجنبها فينعتهوا بنعوتٍ غير حميدة (مثلاً أنها لأخلاقية). ثم يأتي مشرّع يضع تشريعات، مدعياً أن إلهاً قد أمر بها، تنصُّ بلغة أمر: لا تقتل . و لا تسرق .

دعنا نترك الأمور الإفتراضية ونتناول بدلاً منها المجتمعات عند فجر التاريخ (أو ما قبل التاريخ). من المرجح، في حُقب الثورة الزراعية

قبل مئات آلاف السنين، بعدما ترك الإنسان حياة الصيد وانتقل الى الزراعة، مُنشئاً على ضفاف الأنهار الكبرى تجمعات سكنية التي تحولت مع مرور الزمن الى قرى ثم مدنٍ و ثم دول. إنهارت بعض من تلك التجمعات القديمة وصمدت أخريات. ويرجح أن ظهر خلال إحدى تلك حلقات السيرورة الحضارية الممتدة آلاف السنين مُنسقٌ ينظم ويُدوّن حاجات المجتمع بصيغٍ وصايا، يُحرّم ما هو متجنباً بصورة عامة في واقع المجتمع، ويدّعي صدورها أوامراً علياً من ربٍ أو إله. هكذا تسلسل الدين بالتدريج، وصار يُدّعى أنه مصدر الأخلاق.

لعل خير مثالٍ معاصرٍ على مصداقية مقولتنا الوصية الجديدة للكنيسة الكاثوليكية التي تنصّ على:

يجب أن لا تلوّث كوكب الأرض .

لو كان الدين منبعاً أو مصدر الأخلاق لوضعت الكنيسة هذه الوصية قبل ظهور الخطر البيئي على الأرض لا بعد تفاقمه

من ناحية أخرى، تحوي الكتب المسماة مقدّسة عند الأديان الثلاثة التوحيدية نصوصاً عديدة على بعض القيم والمثل النبيلة التي يحسنُ بالبشر إتباعها. لكن التاريخ يُشير الى أنها لم تنبثق من الأديان التوحيدية كما يُدّعى إنما تعلمتها أو اقتبستها من حضاراتٍ ومجتمعاتٍ سابقةٍ أو من أديانٍ أكثر قديماً. لكن لا يمتلك رجال الدين أسساً للإدعاء أن مصدر المبادئ النبيلة التي يطالبون البشر إتباعها هو وحيٌ من آلهتهم أو من وضع أنبيائهم. فمثلاً: أن المبدأ المسمى "القاعدة الذهبية" للأخلاق القائل بوجوب أن يعمل المرء للآخرين ما يشتهيهِ هو لنفسه، يُعزى في الأوساط المسيحية الى تعاليم يسوع الناصري. لكن في الحقيقة أن يسوع نفسه لم يدع أن المبدأ يعود له بل أشار الى من سبقوه بقوله:

وكلُّ ما تريدون أن يفعل الناسُ بكمِ إفعالوا
هكذا أنتم أيضاً بهم لأن هذا هو ناموسُ الأنبياءِ .

إذ سبقَ كونفوشيوس المسيحَ بخمسِ مئةِ سنةٍ قائلاً:

إن ما لا تريدون أن يفعله الآخرون بكمِ لا تفعلوه
للآخرين .

أما المقولةُ الأَمْرَةُ بِحُبِّ الأعداءِ التي تُعتبرُ من مآثرِ الدينِ المسيحي
فأمرَ بها بوذا بالصيغةِ الآتية:

تغلبْ على الغضبِ بالمحبةِ، وتغلبْ على الشرِّ
بالخيرِ، وتغلبْ على البخلِ بالعطاءِ، وتغلبْ على
الكذبِ بالصدقِ .

يدَّعي بعضُ المؤمنينَ أن دعوةَ جميعِ الكتبِ المقدَّسةِ الى نفسِ القيمِ
الأخلاقيةِ مؤشِّرُ الى وحيِ إلهيٍّ أَملى تلكَ الكتبِ، فيسعونَ –
إستناداً على إدعائهم – الى الإِسْتِنْتاجِ أن اللهَ هو مصدرُ الأخلاقِ .
لكن هنالك أدلَّةٌ تُشيرُ الى أن تلكَ القيمِ نشأتُ في مجتمعاتٍ موعِلةٍ
في القِدَمِ ثمَّ تطورتْ تدريجياً خلالَ عصورٍ طويلةٍ الى المُثُلِ الأخلاقيةِ
التي جعلتْ المجتمعاتِ الحديثةَ أكثرَ تحضراً وعقلانيةً وإنسجاماً في
تعايشها مع بعضها .

يدَّعي المؤمنونَ عدمَ إمتلاكِ الإنسانِ محكاً لتمييزِ الخيرِ من الشرِّ .
إذن على الإنسانِ – حسب إدعائهم – الإِعْتِمَادُ على تعاليمِ
مؤسسِ دينهم وآراءِ مرشديهم الروحيين . لكن لا تنسجُمُ الممارساتُ
الواقعيةُ للبشرِ مع إدعائاتهم . إذ يمارسُ كثيرٌ من المؤمنين ما
أُسْمِيهِ "أُسْلُوبِ الإِيْمَانِ الإِنْتِقَائِي" يختارون ما يُلائمهم ويُناسبهم
من تعاليمِ مؤسسِ دينهم أو ممَّا مُدُونُ في كتبهم التي يُقدِّسونها أو
من إرشاداتِ رجالِ دينهم ويغضون النظرَ عمَّا لا يروقُ لهم .

إِنْ إِيْمَانٍ أَحَدِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَثْرِيَاءِ الْمَعْرُوفِينَ إِنْتِقَائِيٌّ. إِذْ سَمِعْتَهُ يُصْرِحُ قَائِلًا: إِنَّهُ يُوْمَنُ حَرْفِيًّا بِكُلِّ مَا فِي الْكِتَابِ الْمَقْدَسِ بِإِسْتِثْنَاءِ مَقُولَةِ الْمَسِيحِ بِأَنْ أَصْعَبَ عَلَى الْغَنِيِّ دَخُولَ مَلَكُوتِ اللَّهِ مِنْ دَخُولِ الْحَبْلِ (أَوْ الْجَمَلِ) فِي خَرَمِ الْأَبْرَةِ.

لَعَلَّ أَفْضَلَ أَمْثَلَةَ أُسْلُوبِ الْإِيْمَانِ الْإِنْتِقَائِيَّ مِمَّا سَأَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَاثُولِيكِ الْمَعَاصِرِينَ. إِذْ لَا تَتَمَاشَى التَّعَالِيمُ الْفَاتِيكَانِيَّةُ الرَّاهِنَةُ مَعَ إِيقَاعِ مَسِيرَةِ الْحَيَاةِ الْمَعَاصِرَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ، أَهْمُهَا الطَّلَاقُ وَالْإِجْهَاضُ وَإِسْتِعْمَالُ مَوَانِعِ الْحَمْلِ وَبَحُوثُ الْخَلَايَا الْجَذَعِيَّةِ. لَكِنْ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْهُمْ يَتَجَاهَلُ تِلْكَ التَّعَالِيمَ فِي الْحَالَاتِ غَيْرِ الْمَتَلَاْمَةِ مَعَ حَيَاتِهِمْ الْخَاصَّةِ، مِنْ دُونِ إِحْدَاثِ ضَجِيحٍ فِي الْمَجْتَمَعِ وَمِنْ دُونِ أَنْ تُؤَخَّرَهُمْ ضَمَائِرُهُمْ لِخَالَفَتِهِمْ قَوَانِينِ إِيْمَانِهِمْ. فَهُمْ — عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ — إِذَا وَجَدُوا مِنَ الضَّرُورِيِّ إِعْتِمَادَ مَوَانِعِ الْحَمْلِ فَيَسْتَعْمَلُونَهَا، وَإِذَا وَجَدَ زَوْجَانِ أَنَّ الطَّلَاقَ حَلًّا لِشَاكِلِهِمَا الْعَائِلِيَّةِ فَيَتَطَلَّقَانِ، وَإِذَا وَجَدَتْ نِسَاؤُهُمُ الْإِجْهَاضَ مَخْفِفًا لِأَتْعَابِهِنَّ فَلَا يَمْتَنِعْنَ عَنْهُ. إِذِنْ هُمْ مِمَّا يُلَاْمُهُمْ يَنْتَقُونَ وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ بِأَقْوَانِ.

يَقْرَأُ مَنْ يُوْمَنُ بِوُجُودِ اللَّهِ، أَنَّ اللَّهَ يَتَصَرَّفُ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ بِأَسَالِيْبِ غَامِضَةٍ يَعْصِي تَفْسِيرُهَا عَلَى الْفَهْمِ الْبَشَرِيِّ وَعَلَى الْإِخْضَاعِ إِلَى الْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ²⁷. فَيُحَاوِلُ الْمُؤْمِنُونَ إِقْنَاعَ أَنْفُسِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِعَقْلَانِيَّةِ هَذَا التَّصَرُّفِ وَذَلِكَ بِالْحُجَّةِ اللَّاعِقْلَانِيَّةِ: لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ عَلَى مَنْ خَلَقَ الْكُونَ وَمَا فِيهِ تَبْرِيْرٌ تَصَرُّفَاتِهِ لِخُلُوقَاتِهِ، بَلْ بِالْعَكْسِ يَجِبُ عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ — حَسَبَ إِعْتِقَادِ الْمُؤْمِنِينَ — تَنْفِيْذَ وَإِطَاعَةَ أَوْامِرِ الْخَالِقِ

سؤال مُوجَّه إلى المؤمنين: إذا كانت تصرفات الله غير خاضعة للعقل والمنطق فلماذا زوّد الله الإنسان عقلاً يمتلك القابلية على التساؤل ولم يخلق له عقلاً بمستوى حيوان كالشمپانزي مثلاً يفتقد القدرة على إخضاع تصرفات الله على عقله الصغير؟

أستطيع إستبأق جوابهم: "لا تسأل مثل هذا السؤال لأن تصرفات الله لا تخضع لعقلك ومنطقك!!!!"

والإذعانِ إليها بلا تحفظٍ سواءً إقتنعوا بها أم لم يقتنعوا!!!!
 إن النموذجَ الأمثلَ للسلوكِ الذي يدعو إليه المؤمنون هو أسلوبُ إبراهيمَ
 في إطاعةِ أوامرِ اللهِ العادلِ الرحيمِ دونَ ترددٍ بالشروعِ بذبحِ ابنه
 أسحق!!!
فَمُنِحٌ وَسَامَ النُّبُوَّةِ مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى!!!!

دعنا نفترضُ لغرضِ النقاشِ الأكاديمي أن الكتبَ المقدَّسةَ عندَ الأديانِ
 التوحيديةِ الثلاثةِ تحوي أهمَّ منابعِ قيمِ الأخلاقِ. فيكونُ اللهُ — بناءً
 على هذا الافتراضِ — مصدرَ الأخلاقِ.

سؤالِي اليك — عزيزي منير — هل ترضى أن تكونَ قيمُ أخلاقك
 صادرةً من إلهٍ سادِّيٍّ ومُنزَهٍ من الخطأِ ذي أخلاقٍ تسمَحُ له:

إبادةِ جميعِ البشرِ حتَّى الأطفالِ بإستثناءِ نوحِ
 وعائلتهِ بطوفانِ عالميٍّ و... و... تحوِيلِ زوجةِ لُوطَ
 الى تمثالٍ ملحيٍّ لمخالفتها أمره بعدمِ الإلتفاتِ الى
 الوراءِ و... و... وإصدارِ أمرٍ الى موسى بقتلِ جميعِ
 النساءِ غيرِ العذارى من سَكْنَةِ فلسطينِ آنذاك، ...
 و... هددِ المدنَ التي لا تستقبلُ تلاميذَ المسيحِ
 بعقابٍ أشدَّ من عقابِ صادومِ وعامورا .

أتركُ الجوابَ لك.

أودُّ تنبيهَ المؤمنينِ شديدي الإيمانِ أن إيمانهم بوجودِ اللهِ يُثيرُ لهم
 مشكلةً خطيرةً. إذ أنهم معرَّضون الى إختبارٍ إلهيٍّ بِصَلابةِ إيمانهم
 مشابهِ الى ما أُخضِعَ اليه النبيُّ إبراهيمِ. فما المانعُ من أن يُكرِّرَ اللهُ
 القادرُ على كلِّ شيءٍ الإختبارَ ويأمرُ بذبحِ الأحفادِ مثلاً؟ أعتقدُ، يا
 منير، أنك وجميعِ القراءِ أُسمى خلقاً من أن تُنفَّذَ أمرَ اللهِ.

إختصاراً:

القيمُ الرئيسيةُ للأخلاق ليست مبنيةً بالدرجة الأولى على الدين ولا منبثقةً منه بل في بعض الحالات تُنسخُ الأوامرُ الصريحة للدين.

حَرَكَةُ بَرَايَتِ

منير: على الرغم من توافر أدلة كثيرة على بطلان إدعاءات رجال الدين بالفساد الأخلاقي للملاحدة، هنالك تعميم وتشويه عليها بحيث لا زال عدد ليس بقليل من الناس يستعمل كلمة "ملحد" شتيمة لمن ينعت بها.

سؤالي: هل تتوافر وسيلة لتوعية الناس بفساد تصوراتهم عن الإلحاد والملاحدة؟

ظهرت منذ أكثر من عشرة أعوام حركة على الإنترنت تسعى الى التوعية الجماهيرية عن مفهوم الإلحاد والى اعتبار الملاحدة مواطنين محترمين. تُسمى حركة برايت.

الإلحاد كأي مفهوم يُمثّل لفظاً وكتابةً بمفردة لغوية. والمفردات بدورها تتطور مثلما تتطور الكائنات الحية. إذ ليس من النادر أن تُزاح مفردة من الإستعمال في تمثيل مفهوم ما بسبب ظهور مفردة ثانية مستحسنة أكثر على السمع أو الوقع المجتمعي من المفردة الأولى. لعل أحسن مثال على ذلك هو التغيير الذي طرأ في حوالي سبعينيات القرن الماضي على وصف من كان يُنعت بمفردة إزدرائية أنه شاذ جنسياً "Homosexual" فصار يُوصف بالمفردة الحيادية "Gay"²⁸. وتبعت اللغة العربية النهج نفسه، فمن كان يُدعى "شاذاً أو منحرفاً جنسياً" أصبح يُوصف بأنه "مثلي". وربما حدثت

إن كلمة "gay" تعني بالأصل فرحان. ثم تغير معناها. لم يأت التغيير بقرار بين ليلة وضحاها إنما يتطور بطيء متعرج. ويمكن مراجعة المقال: How `gay` came to mean Homosexual ` على الإنترنت. للإطلاع على التطور

تحوّلاتٌ مشابهةٌ في اللغاتِ الأخرى.

منير: لا زالت تستعملُ "Homoseksuel" للدلالةِ

على المثليين في اللغة الدانماركية .

هنالك نماذجٌ أخرى لهذه الظاهرة التطورية للمفردات اللغوية. فمثلاً تحوّلت المفردة من زنجي "Negro" الى "Black" وأخيراً الى تعبيرٍ يحملُ في طياته تقديراً "African American" من الطبيعي لم تحدث تلك التغييراتُ وأمثالها جزافاً بل بعد نضالٍ المعنيين.

حَثَّتْ تلك النجاحاتُ بعضَ المتألمين من الإستعمالِ الشائعِ الإذرائيِّ لكلمةِ "Atheist" - حثّتهم - على التفكيرِ بتبني مفردةٍ جديدةٍ خاليةٍ من النعرةِ الشارعيةِ المرافقةِ لكلمةِ "Atheist" ومستساغةٍ في المجتمعِ ولها وقعٌ إيجابيٌّ على السمع.

في سنةِ 2002 وضعَ پولَ غايسرت، أستاذٌ في العلومِ البيولوجيةِ، مواصفاتِ المفردةِ المطلوبِ تبنيها. هي أن تكونَ - من ناحيةِ النحوِ اللغوي - إسماً يُصاغُ من صفة. فأقترحَ كلمةَ "Bright"²⁹.

يُمكنُ إنشاءُ عباراتٍ على غرارِ "He is Bright" غيرِ المُثقلَةِ على السمع، بدلاً من العبارةِ "He is an atheist" المشحونةِ بالسلبيات. كما أقترحَ أن لا تشملَ "Bright" وصفَ الملاحظةِ فقط إنما اللاأدريين والإنسانيين والمتشككين أيضاً، لتكونَ الكلمةُ "مظلةً" يستظلُّ تحتها "كلٌ من له رؤيةٌ عالميةٌ طبيعيةٌ خاليةٌ من عناصرِ فوقطبيعيةٍ وتصوفيةٍ.

نالَ الإقتراحُ إستحسانَ كثيرٍ من ذوي الإهتمام. ففي سنةِ 2003 شكّلتُ حركةً على الإنترنت سُميتُ "Bright Movement" التي ينصُّ

موقعها على الإنترنت على أهم أهدافها:

أولاً: التوثيق لقبول وتفهم الرؤية الطبيعية الى العالم الخالية من العناصر الغيبية والتصوفية .

ثانياً: الإقرار بإمكانية مساهمة ذوي تلك الرؤية بأعمال مهمة مبنية على أسس مبادئ عالية ذوات فائدة لجميع المواطنين .

ثالثاً: العمل على تثقيف المجتمع على القبول الكامل لجميع أمثال أولئك الأفراد في مساهماتهم المدنية .

تتميز هذه الحركة عن غيرها بإحتوائها على قاعدة واسعة من الذين يمكن تصنيفهم تحت أنماط ومجموعات أكثر تحديداً مثل الملاحدة واللاأدريين والإنسانيين والمتشككين. إضافة الى هذا لا تخول الحركة أعضاء فيها بالتكلم عن الكل. إذ يمكن كل منتم اليها التعبير عن نفسه، وقد يوافقهُ المنتمون الآخرون وقد لا يوافقونه.

منير: لم أسمع من قبل عن هذه الحركة. هل أنت

منتم اليها؟ أرجو إعلامي. هل من الممكن إنتمائي

اليها؟ كما أرجو تزويدي بعنوانها.

نعم. إنتميتُ الى هذه الحركة بعد فترة وجيزة من البدء بمقابلاتنا العابرة للقارات. لا يوجد ما يمنعك من الإنتماء اليها. واليك موقعها الإلكتروني

<http://www.the-brights.net>

تَنَاقُضَاتُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ

منير: تدلُّ إطلاعاتك المبكرة، إضافةً إلى عشيقك
إلى الرياضيات، ووضَعَ الفكر المرتبط بالأديانِ على
طاولة التشريح بالمنطق.
أرجو السماح لي بالطلبِ ثانيةً عن تناقضات الكتابِ
المقدس التي أجَلْنَا في لقاءنا السابقة التطرقَ إليها.
وقد ”طال إنتظاري“ إلى سماعها.

ليس من الغريبِ إحتواءُ كتابٍ وضعه بشرٌ على بعضِ التناقضات،
لكن التقديسَ هو المشكلة الحقيقية. الكتابُ الذي يعتبره قومٌ أنه
موحىٌ من قِبَلِ ”روح القدس“ أو أنه ”مُنزَلٌ“ من الله مباشرةً يجب
أن يكونَ معصوماً من أيِّ تناقض. الأمرُ الذي يجعلُ أولئك القومَ
يتعامونَ بل يتغابونَ عمَّا فيه من تضارباتٍ وخرعلات. وإذا حدثَ
ولسَ بعضهم جزءاً منها فيخترعونَ تبريراتٍ لتفسيرها. فمثلاً يعملونَ
على لِيِ الكلماتِ عن معانيها الإعتيادية كي تنسجمَ مع ما يدغدغُ
عقولهم.

ربَّما يفهمُ المسيحيون المعاصرون أهدافَ الأناجيلِ المكتوبة في القرونِ
الأوَّلِ، فهما أفضلُ إذا نظرُوا إليها على أنها كانتَ آنذاك بمثابةِ
الدعاياتِ التلفزيونيةِ المعروفةِ في عصرنا الحالي الهادفةِ إلى التسويقِ
البضائعي. كذلك كانَ غرضُ الأناجيلِ ”تسويقٌ“ يسوعَ الناصري
على أنه المسيحُ المرتقب. إذن ليس من الغريبِ أن يجدوا فيها
تناقضاتٍ ومبالغاتٍ ”ومفبركات“.

وكانَ الفيلسوفُ اليونانيُّ فرفيروسُ الصُورِيُّ قد أَلْفَ في القرنِ الرابعِ
كتاباً عنوانه ”فسادُ العقيدةِ المسيحية“ جمعَ فيه تناقضاتٍ داخلية في
”الكتابِ المقدس“، ويُقالُ إن الإمبراطورَ قسطنطينَ قد منعَ تداوله.

أَتفقُ تماماً مع ما قاله إسحق أزيموف كاتبُ قصصِ الخيالِ العلمي المشهور:

إذا أُحسِنَ قراءةَ الكتابِ المقدَّسِ فهو أفضلُ كتابٍ أُوصي به لتعزيرِ الإلحاد.

من الواضح لمن يقرأ "الكتاب المقدس" ويدرسُه بعنايةٍ ويعقل متفتحٍ يجد أنه:

- أولاً متناقضٌ ذاتياً (أي مع نفسه) .
- ثانياً متعارضٌ مع العلوم .
- ثالثاً حاو قصصاً خرافية .
- رابعاً متضمّنٌ إقتباساتٍ مأخوذةٍ من أساطيرٍ وادي الرافدين³⁰ .

فيما يأتي عددٌ قليلٌ من تناقضاته. أُوردها عشوائياً كما تردُّ الى ذاكرتي أثناء الكتابة:

- ينصُّ سفرُ التكوين 126 على أن الله خلق آدمَ وحواءَ في نفس الوقت . أمّا سفرُ التكوين 1 / 1 فينصُّ على أن الله خلق آدمَ أولاً وبعدئذٍ خلق حواءَ من إحدى أضلاعِ آدمَ بعد أن أوقع المسكينَ آدمَ في سباتٍ عميق .

30

أوصي القارئ المهتمُّ بالإطلاع على تناقضات العهد القديم قراءة الكتاب المنشور سنة 2009 ذي 397 صفحة والمعنون: "التوراة: بين الحقيقة والأسطورة والخيال" تأليف إبراهيم ناصر أستاذ الفيزياء في كلية التربية /جامعة بغداد . يشتمل الكتاب على دراسة معمّقة وموضوعية يستثمر المؤلف خبرته في الفيزياء . فيضع تحت المجهر مواطن الخلل في التوراة ويكشف التناقضات المعشعشة فيها والإقتباسات من آداب وادي الرافدين.

هذا تناقضٌ داخليٌّ. وهو مُضحِكٌ. إذ لم يجدُ اللهُ — الذي من المفروض أن يكون قادراً على كلِّ شيءٍ — وسيلةً أُخرى سوى أن يُخدِّرَ المسكينَ آدمَ فيضعه في سباتٍ عميقٍ كي "يسرق" منه ضلعاً. إن دَلَّ هذا على شيءٍ فيدلُّ على الهيمنة الذكورية على المجتمع.

- ينصُّ سفرُ التكوين 1/31 على أن الله إستحسن خلقه. لكن سفرُ التكوين 6/5 يقولُ العكس، إن الله تأسَّفَ وحَزَنَ في قلبه على خلقه.

أولاً: ليس هذا مجردُ تناقضٍ ذاتيٍّ فحسبٍ إنما تعارضٌ صارحٌ مع صفاتِ الله الذي يؤمنون به. ألا يتساءلُ أولئك المؤمنون — بوجودِ إلهٍ ذي قدرةٍ لامتناهيةٍ ومعرفةٍ شاملةٍ عن كلِّ ما حدثَ وما يحدثُ وما سيحدثُ — كيف يخلقُ إلهُ كهذا شيئاً يعلمُ مسبقاً أنه سوف يتأسَّفُ لخلقه؟! ثانياً: هل يملكُ اللهُ قلباً؟!!!!

- تروي الأصاحيخُ السادسةُ والسابعةُ والثامنةُ من سفرِ التكوين قصةَ نوح 31

يُبلِّغُ اللهُ نوحاً بِنَيْتِهِ إهلاكَ جميعِ البشرِ باستثناءِ نوحٍ وعائلتهِ بسببِ فسادِ باقيِ البشرِ. وأبلغَ اللهُ نوحاً أنه سوف يُمطرُ على الأرضِ مطراً شديداً مدةً أربعين يوماً ويمحوُ من على وجهِ الأرضِ كلَّ المخلوقاتِ التي عليها.

كيف يمكنُ وصفَ اللهُ أنه غفورٌ حكيمٌ وهو ينوي إبادةَ البشرِ حتَّى الأطفالِ الأبرياءِ؟ ألا يُعتبرُ واحدٌ من ألفٍ بمثلِ ذلك الإجراءِ جريمةً

ضدَّ الإنسانية إذا نفذها بشر؟ هل يمتلك الله حصانة؟!!!

أمر الله نوحاً ببناء سفينة ذات مواصفات وأبعاد معينة كي يدخل فيها هو وعائلته وأزواج من جميع البهائم والطيور لإستبقاء نسلهم على الأرض. ثم نسى الله قوله "زوجاً زوجاً" فبدل العدد الى سبعة !!. ألم يكن من الممكن لـ الله الكلي القدرة إعادة خلق البهائم والطيور مُجدداً، بدلاً من إجهاد المسكين نوحٍ بعناءٍ بناء سفينة ضخمة تتسع آلافاً من تلك الأنواع ومن عناءٍ تجميعهم؟!!!! وبعد أن أنجز نوح صنع السفينة، دخل فيها هو وعائلته والبهائم والطيور حسب التعليمات الإلهية، فأمطرت السماء مطراً شديداً مدة أربعين يوماً متواصلةً وغطت المياه جميع أجزاء الأرض بإرتفاع أعلى من قمم الجبال. أسئلةٌ يتوجبُ طرحها:

هل أهلكت الأسماك والحياتان والحيوانات التي تعيش تحت الماء؟ كيف تم نقل الحيوانات التي لا تعيش عادةً في الشرق الأوسط، كالدب القطبي مثلاً؟ وهل أدخلت الداينوسورات الى السفينة؟ وهل كانت الحيوانات المفترسة تجلس جنباً الى جنب الحيوانات الأليفة، مثلاً هل كان الذئب ينام بقرب الخروف؟!!!!. مَنْ كان ينظف السفينة من أطنان الإفرازات ويرميها الى الخارج من النافذة الوحيدة في السفينة؟

وبعد مئة وخمسين يوماً توقّف المطرُ وأخذت المياه بالإنخفاض تدريجياً فظهرت قمم بعض الجبال. أين تسربت المياه؟ لا يمكنها التسرب الى البحار والمحيطات لأنها مملأى بإرتفاع أعلى من قمة أيفرست. ولا يمكن أن يُعزى تسربها الى التبخر، إذ أن التبخر يُحوّل المياه الى غيوم تنزل مزيداً من المطر!!!!..... ربّما تحلّت المياه الى غازي الأوكسجين والهيدروجين دون أي تأثيرٍ على البيئة بقدرة الله اللانهائية!!!

ثم أرسل نوح الغراب ليتطلّع على حالة الأرض. لكنه لم يعد.

فَأرْسَلَ بَعْدَ أُسْبُوعٍ حَمَامَةً لِتَرَى مَدَى إِنْخِفَاضِ الْمِيَاهِ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ فَلَمْ تَجِدْ مَقَرًّا لِرِجْلِهَا فَرَجَعَتْ إِلَى السَّفِينَةِ. إِنْتَظَرَ نُوحٌ سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَأَرْسَلَهَا ثَانِيَةً، فَرَجَعَتْ تَحْمِلُ وَرْقَةً زَيْتُونٍ خَضِرَاءَ فِي مَنقَارِهَا فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْمِيَاهَ قَدْ إِنْخَفَضَتْ.

أَيَعْقَلُ أَنْ تَنْبَتَ شَجَرَةٌ زَيْتُونٍ خِلَالَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ؟ أَلَا يَعْتَرِفُ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ هَذَا تَضَارُبٌ مَعَ الْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْبَسِيطَةِ؟ الْأَنْكَى مِنْ ذَلِكَ، لِمَاذَا إِنْقَطَعَ اللَّهُ عَنِ التَّحَدُّثِ مَعَ نُوحٍ وَلَمْ يَرشُدْهُ عَنِ مَدَى إِرْتِفَاعِ الْمِيَاهِ عَنِ سَطْحِ الْأَرْضِ، جَاعِلًا الْمَسْكِينِ نُوحًا مَعْتَمِدًا عَلَى الطَّيُورِ الصَّمَاءِ؟ أَغَضِبَ اللَّهُ مِنْ نُوحٍ؟ أَمْ أَنَّ الْأَسْلَاكَ التَّلْفُونِيَّةَ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِسَبَبِ الْفَيْضَانِ؟!!!!

يَدْعِي سَفَرُ التَّكْوِينِ أَنَّ اللَّهَ تَعَهَّدَ لِنُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُبِيدَ الْحَيَاةَ مَرَّةً ثَانِيَةً بِطُوفَانٍ شَامِلٍ. وَكَيْ يَخْتَمَ اللَّهُ «الْإِتْفَاقِيَّةَ» مَعَ نُوحٍ خَلَقَ الْقَوْسَ قَرَحًا. أَوَّلًا: لِمَاذَا تَعَهَّدَ اللَّهُ بِأَنْ لَا يُبِيدَ الْحَيَاةَ بِطُوفَانٍ آخَرَ؟ هَلْ إِسْتَيْقَظَ ضَمِيرُهُ وَشَعَرَ بِإِرْتِكَابِهِ جَرِيمَةً ضِدَّ الْإِنْسَانِيَّةِ؟ ثَانِيًا: مَنْ سِيحَاسِبُ اللَّهَ إِذَا نَقَضَ وَعْدَهُ؟!!!!

ثَالِثًا: تَعَهَّدَ اللَّهُ بَعْدَ إِبَادَةِ الْحَيَاةِ بِطُوفَانٍ آخَرَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَعَهَّدْ بِإِبَادَةِ الْحَيَاةِ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَى!!!

رَابِعًا: يَبْدُو — حَسَبَ إِدْعَاءِ سَفَرِ التَّكْوِينِ — عَدَمُ وُجُودِ إِظْهَارَةِ قَوْسِ قَرَحٍ قَبْلَ حَدُوثِ الطُّوفَانِ!!!. هَذَا يَنَاقِضُ الْمَعْرِفَةَ الْعِلْمِيَّةَ.

● يَنْصُ سَفَرُ التَّكْوِينِ 30 / 32 أَنَّ يَعْقُوبَ دَعَا إِسْمَ الْمَكَانِ فَنَيْلَ

قَائِلًا

لَأَنْبِي نَظَرْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَجْهًا لَوَجْهِ وَنَجِيتُ بِنَفْسِي.

لَكِنْ إِنْجِيلَ يُوْحَنَّا فِي 1/12 يَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا ابْنَ الْوَحِيدِ الَّذِي فِي
حِضْنِ الْآبِ هُوَ خَيْرٌ.

هل شوهدَ وجهُ الله أم لم يُشاهدْ من قِبَلِ بشرٍ ما عدا الإبن؟

● يأمرُ اللهُ من خلالِ موسى في سفرِ الخروجِ 15/ 20 قائلاً

بعبارةٍ صريحةٍ لا لبسِ فيها:

لَا تَسْرِقْ.

لكن من ناحيةٍ مغايرةٍ يأمرُ موسى بني إسرائيل في سفرِ الخروجِ من
12/35 – الى 12/36 بأن يطلبوا من المصريين أمتعةً فضيةً وأمتعةً ذهبٍ
وثياباً. وأعطى الربُّ نعمةً للشعبِ في عيونِ المصريين حتى أعاروهم.
فسلبوا المصريين.

لكن الربُّ الذي حرَّم السرقةَ، هو نفسه سهَّلَ سلبَ المصريين من قِبَلِ
بني إسرائيل!!!!. أليس السلبُ سرقةً؟ ونجدُ في العهدِ الجديدِ
موقفاً مشابهاً. إذ يقولُ لوقا في إنجيله في 19/29 – 19/36: ما يلي:

أرسلَ يسوعُ اثنين من تلاميذه قائلاً: "إذهبا
إلى القريةِ التي أمامكما، وحين تجدان جحشاً
مربوطاً لم يجلسْ عليه أحدٌ من الناسِ قطُّ فحلاه
وأثيابه به، وإن سألكما أحدٌ: لها نحلانهُ، فقولا
هكذا: "إن الربُّ محتاجٌ إليه".

فمضى المرسلان ووجدا كما قال لهما. وفيما
هما يحلان الجحشَ قال لهما أصحابهُ: "لماذا نحلان
الجحش؟".

فقالا: "الربُّ محتاجٌ إليه".

أليستُ السرقةُ أخذُ شيءٍ من دون إذنِ صاحبه؟ هل السرقةُ
مسموحةٌ للربِّ؟ !!!

- يقول سفر الملوك الأول 7/23 عن الملك سليمان إنه عمل البحر حوضاً مستديراً قطره من حافة الى حافة عشر أذرع بإرتفاع خمس أذرع ومحيطه ثلاثون ذراعاً. يدعي سفر الملوك أن نسبة محيط الوعاء الدائري الى قطره تساوي 3. أي أن ما يسمى النسبة الثابتة هي 3.

إن النسبة الثابتة في الواقع – كما يعرف معظم تلاميذ مرحلة الدراسة الابتدائية – هي 3.14596 تقريباً. هل يحتاج روح القدس (الذي يُفترض أنه أوحى كاتب سفر الملوك الأول) الى بشر لتصليح هفواته الحسابية؟ ألم يكن بإستطاعته أن يأمر الكاتب إضافة كلمة "تقريباً" كي يُجنبه فضيحة سرقة فكرية من بلاد وادي الرافدين بالوقوع في خطأ حسابي!!! إذ ظهر في الألواح الطينية البابلية القديمة أن العدد ثلاثة هو النسبة الثابتة. (لكن ألواحاً أكثر حداثة أظهرت أن لدى البابليين دقة أعلى لهذه النسبة).

منير: إن جميع التناقضات التي أوردتها من العهد القديم. يُثير فضولي التساؤل: ألا توجد تناقضات في كتاب العهد الجديد؟ نعم، بالتأكيد تُوجد تناقضات عديدة. وفيما يلي بعض منها:

- يقول إنجيل متى في 20/1:

إن يوسف فيما هو متفكر بالتخلي عن خطيبته مريم بسبب حبها، ظهر له ملاك الرب في الحلم قائلاً: "يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ

مريم إمرأتكِ لأن الذي حبلَ به فيها هو من الروح
القدس“.

لكن إنجيل لوقا يقولُ في 1/26 – 1/31

في الشهر السادس أرسلَ الله الملاكَ جبرائيلَ الى
مدينة في الجليلِ اسمُها الناصرة الى عذراءَ
مخطوبةٍ... إلخ... فدخلَ اليها الملاكُ وقال:
”سلامٌ لكِ أَيَّتْهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا. الربُّ معكِ مباركةٌ
أنتِ في النساءِ... إلخ...“

أولاً: أيُّ إنسانٍ ساذجٍ يُعوّلُ على حَسْمِ موضوعٍ مهمٍّ كحبلِ خطيبتهِ
على مجردِ رؤيةٍ في حلمٍ؟!!! ثانياً: لِمَنْ ظهَرَ الملاكُ؟ أظهِرَ الى
يوسفَ؟ أم الى مريمَ؟ أم الى كليهما؟
ألا يشعرُ المسيحيونُ أن ركناً أساسياً من أهمِّ أركانِ الدينِ المسيحيِ
ألا وهو قضية حبلِ مريم لا يستندُ إلا على هشاشة قولٍ غيرِ موثِقٍ،
وعلى حلمٍ ليليٍّ؟!!!!

● يروي إنجيل متى عن المجوسِ قائلًا في 2/11

وأثوا الى البيتِ، ورأوا الصبيَّ مع مريمَ أمه فخرُّوا
وسجدوا له ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له ذهباً
ولباناً ومرّاً.

غير أن إنجيل لوقا يروي عن مريمَ في 2/7 قائلًا:

وكدتُ ابنها البكرَ وقمطته وأضجته في المدوَدِ،
إذ لم يكنْ لهما موضعٌ في المنزلِ

هل وُلِدَ يسوعُ في بيتِ أم في مدوَدِ؟³²

● يقول الإنجيل في أعمال الرُّسل 9/3 – 7/9 أن شاول (أي

بولص) وهو في طريقه الى دمشق :

أَبْرَقَ نَوْرٌ مِنْ السَّمَاءِ وَسَمِعَ صَوْتًا . أَمَّا الرِّجَالُ
المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوتَ
ولا ينظرون أحداً .

لكن، وَرَدَ فِي أَعْمَالِ الرُّسُلِ 22/9

إنهم نظروا النورَ وإرتعبوا . لكنهم لم يسمعوا
صوتَ الذي كلمني .

هل سمعَ المسافرونُ مع بولص لكنهم لم يشاهدوا ؟ أم شاهدوا
لكنهم لم يسمعوا ؟ تناقضٌ !!!

● يقول يسوعُ حسبَ إنجيل يوحنا 10/30 :

”أنا والآبُ واحدٌ“

لكن يسوعُ في نفس إنجيل يوحنا 14/28 – 14/31 يقول:

”لو كنتمُ نحبونني لكنتمُ تفرحون لأنني قلتُ
أمضي الـ الآبُ لأن أبي أعظمَ مني لكن ليفهم
العالمُ أنني أحبُّ الآبُ وكما أوصاني هكذا
أفعل“ .

ألا يتعارضُ كلامُ يسوعُ مع أُسسِ الدينِ المسيحي بأنه هو اللهُ –
كما ينصُّ قانونُ الإيمان:

”... أو من بربٍ واحدٍ يسوعُ المسيحُ، ... إلهٌ من إلهٍ، نورٌ
من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، ... مساوٍ للآبِ في
الجوهرِ ...“

يعززُ يسوعُ المسيحُ كلامه مرةً أخرى بتصريحه أنه لا يعلمُ متى يكونُ
يومُ القيامةِ، قائلاً حسبَ إنجيل لوقا الإصحاح 13 الآية 32:

أما ذلك اليومُ وتلك الساعةُ فلا يعلمُ بها أحدٌ ولا
الملائكةُ في السماءِ ولا الابنُ إلا الآبُ

كيف يُدعى أن المسيح هو الله، وهو ينفي ذلك بنفسه؟

● حسب إنجيل متى 28 – 18 / 20 يأمر المسيح تلاميذه بقوله:

إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب
والابن وروح القدس.

هذا يعني أن دعوة يسوع موجهة الى جميع الأمم، وليست مقصورة على بني إسرائيل فقط لكننا نجد أن للمسيح موقف مغاير في قصة الإمرأة الكنعانية التي يرويها إنجيل مرقس في 31 – 7 / 24

ثم خرج يسوع من هناك وانصرف الى نواحي صور
وصيدا وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم
صرخت اليه: "إرحمني يا سيد يا ابن داود. ابنتي
مجنونة جداً".

فلم يجبها بكلمة. فتقدمت تلاميذه وطلبوا
اليه قائلين: "إصرفها لأنها تصيح وراءنا".
فأجاب: "لم أر سل إلا لخراف بيت إسرائيل الضالّة".
وسجدت له قائلة: "يا سيد أعني".
فأجاب: "ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح
للكلاب".

فألت: "نعم يا سيد. والكلاب أيضاً تأكل من
الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها"
قال يسوع لها: "يا امرأة، عظيم إيمانك. ليكن
لك ما تريدين".

فشفيت ابنتها من تلك الساعة.

يرفض يسوع تلبية طلب المرأة بقوله الصريح: "لم أرسل إلا لخراف بني إسرائيل الضالّة" لأنها غير يهودية. كما نعت غير اليهود بالكلاب، وهو وصف لا يليق صدوره من يسوع، وغير منسجم مع ما يدعيه المسيحيون أن رسالة المسيح هي المحبة الشاملة لكل الأمم

والشعوب. صحيحٌ أن المسيح إستجاب أخيراً الى طلبِ المرأةِ الكنعانية، حسبما نصّت عليه الأناجيلُ التي تدّعي الشفاءَ المباشرَ للبنت، لكن بعد أن أفحمتُ المرأةُ الكنعانيةُ يسوعَ بمنطقِها القويم. سؤال: هل يحتاجُ مَنْ يدّعي أنه إلهٌ الى منطقٍ قويمٍ كي يفهمَ!!!

● هنالك مفارقةٌ غريبةٌ في القصصِ التي ترويها الأناجيلُ عمّا حدثَ بعد صلبِ وموتِ ودفنِ يسوعَ. إذ يروي إنجيلُ متى في 66_62 / 27:

إجتمعَ رؤوساءُ الكهنةِ والفريسيين الى بيلاطس، قائلين يا سيد قد تذكرنا أن ذلك المظلّل قال وهو حيُّ إنني بعد ثلاثة أيامٍ أقوم. فأمرُ بضبطِ القبرِ الى اليومِ الثالثِ لئلا يأتي تلاميذهُ ويسرقوه — ... فقال لهم بيلاطس: عندكم حراسٌ ... فمضوا وضبطوا القبرَ بالحراسِ وختموا الحجر.

”غريبٌ أمورٌ عجيبةٌ قضية“ . يتذكّرُ أشدُّ ناكري يسوعَ تنبؤاته، في حين لا يتذكّرُها أقربُ المقربينِ اليه؟ كما سوف نبيّنُ بعد قليل.

إن قيامةَ يسوعَ من الموتِ — حسبما يعتقدُ المسيحيون — تُثبتُ ألوهيتهَ بشكلٍ قاطع. يُوكّدُ القديسُ بولص — المؤسسُ المشاركُ للمسيحية — أن من دونِ القيامةِ لا وجودٌ للمسيحية. ومع ذلك، تروي الأناجيلُ عن القيامةِ قصصاً متناقضة.

يقولُ إنجيلُ متى 2/28:

وإذا زلزلةٌ عظيمةٌ حدثتْ لأن صلاكَ الربِّ نزلَ من السماءِ وجاءَ ودحرجَ الحجرَ وجلسَ عليه.

فيها حين نجد قصةً مختلفةً في إنجيل مرقس في 16 / 5 حول ذهاب مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة ليدهن جسد يسوع بدهن الحنوط.

ولمَّا دخلنَ القبرَ، رأينَ شاباً جالساً عن اليمينِ لبساً حلتاً بيضاءَ فإندهشنَ.

ونجدُ قصةً ثالثةً في إنجيل لوقا في 4-26 / 3 حيثُ يقولُ: عن نساءٍ ومعهنَّ ناسٌ آتينَ الى القبرِ في أولِ الأسبوعِ عندِ الفجرِ يحملنَّ حنوطاً وأطيباباً. فوجدنَّ الحجرَ مدحرجاً عن القبرِ.

فدخلنَ ولمْ يجدنَ جسدَ الربِّ يسوعَ. وفيما هنَّ محتاراتٌ في ذلكِ. إذا رجلانِ وقفا بهنَّ بثيابِ براقَةٍ. وإذ كنَّ خائفاتٍ ومنكصّاتٍ وجوهنَّ الى الأرضِ، قالَ لهنَّ: "لماذا تطلبينَّ الحيَّ بينَ الأمواتِ"

يُزودنا إنجيل يوحنا في 20 / 12 – 15 بقصة ذات تفاصيلٍ مختلفة. ذهبت مريم المجدلية بمفردها في بداية الأسبوع الى القبر باكراً وكان الظلام باقياً. نظرت الحجر مرفوعاً عن القبر. فركضت الى بطرس لتبلغه بالأمر العجيب. أسرع بطرس مع تلميذ آخر الى القبر... أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجاً تبكي. وفيما هي تبكي إنحنت الى القبر:

فَنظرتُ ملاكينِ بثيابِ بيضِ جالسينِ، واحداً عندِ الرأسِ والآخرَ عندِ الرجلينِ، حيثُ كان جسدُ يسوعَ موضوعاً. فقالتُ لهما: "يا امرأة، لماذا تبكين؟". قالتُ لهما: "إنهم أخذوا سيدي. ولستُ أعلمُ أين وضعوه".

ولمَّا قالتُ هذا إلتفتتُ الى الوراءِ فَنظرتُ يسوعَ واقفاً. ولمْ تعلمْ أنه يسوعُ. قالَ لها يسوعُ:

”يا مريم“.

فالتفتت تلك، وقالت له: ”ربُّوني“ ...

الخ.

أتساءل: هل يعتقد المسيحيون أن يقبل قاضٍ في المحاكم المدنية تصديق وقوع حادثٍ ما بشهودٍ شهاداتٍ متناقضةٍ كتلك التي روتها الأناجيل؟!!!!! لا أتخيلُ أحداً يجيبُ بالإيجاب. فكيف يتخذ المسيحيون القيامة التي تُشكّلُ الحجرَ الأساسَ لدينهم بناءً على شهاداتٍ تصرحُ بالتناقض؟!!!!!

- تتضمن القصة التي إنفرد يوحنا بالكتابة عنها في الإصحاح الحادي عشر من إنجيله ”معجزة“ إحياء لعزار على يد يسوع الناصري، والتي من الواضح أن التصديق بحدوثها لا يتركُ أيَّ مجالٍ بالشكِّ في ألوهية يسوع. لكن يبدو أن روح القدس قد نسي أن يوحى بها الى كتبة أنجيل متى ومرقس ولوقا فجاءت أناجيلهم خاليةً من أيِّ كلمةٍ عنها. مفارقةٌ عجيبةٌ غريبة.

منير: إن الإنسان الذي لا تهزُّه ولا تسفزُّ تفكيره هذه المجموعة من تناقضات الكتاب المقدس، سوف يتغابى ويتعامى ويتصامم عند قراءته أو سماعه مزيدٍ منها.

أصبت يا منير. أعتقدُ أنني سجَّلتُ ما يكفي من أمثلةٍ على تناقضات ”الكتاب المقدس“. ومن المؤكِّدُ هناك كثيرٌ غيرها. لكنني أفضلُ التوقفَ هنا عن إعطاء مزيدٍ منها كي أتركُ للقارئِ الراغبِ

بالأستزادة، متعة إكتشافها بنفسه بعقلٍ متفتح.
في الحقيقة، لا أجدُ ضرورةً منطقيَّةً الى إعطاء المزيد.

إذ أن وجود مجرد تناقض واحد فقط في كتاب يُفترضُ
أنه "موحى من روح القدس" أو أنه "منزل مباشرة من
الله" يُقوّض الإدعاء بالإيحاء وبالتنزيل وبالتقدّيس.

تَنَاقُضَاتُ قُرْآنِيَّةٌ

منير: حين كنتُ أنصتُ اليك متحدثاً باسترسالٍ عن التناقضات في الكتاب المقدس تكوّنتُ عندي ملاحظتان. أولاهما: تذكّرتُ حديثك عن والدك بأنه كان غالباً يخرجُ من الكنيسة مباشرةً بعد سماعه تلاوة الإنجيل. أرى تعليلاً لتصرفه، أرجو السماح لي بعرضه.

كان والدك بسبب سعة إطلاعه بالتناقضات وربما لم يكن قادراً على تحمّل سماعٍ مزيدٍ منها فيخرجُ من الكنيسة.

لا أظنُّ أن تعليقك صحيحٌ. لا أتذكّرُ سماعي منه أيّ تلميحٍ يدلُّ على صحة ظنك. يقول المثل الشائعُ: «الإناء المغطى ينضحُ بما فيه». ما هي ملاحظتك الثانية؟

منير: إسترعى إنتباهي عدمُ تطرّقك الى تناقضاتٍ في الكتب المقدسة للديانات الأخرى، كالقرآن على وجه التحديد.

فهل يعني أنك لم تتطلع على القرآن. أو أنك لم تكثرُ الى تناقضات فيه؟ أم ماذا؟

ركّزتُ في سنواتِ دراستي الجامعية على قراءة «الكتاب المقدس». ولم أكن كثيرَ الإهتمامِ آنذاك بدراسة القرآن. لكن بعد مضي قرابة خمس سنواتٍ بدأتُ بقراءة القرآن وما كُتِبَ عنه في الأدبيات الإسلامية وغير الإسلامية. فتوافرتُ عندي مجموعةٌ من تناقضاته. لم أكن أنوي التطرّق إليها الآن. لكن بعد إثارتك الموضوع فلا مانعُ

لديّ الآن من عرض ما أتذكّر منها.

القرآن يشبه "أخوته وأخواته" المسميات الكتب المقدسة، تناقضاته كتناقضاتها. آيات تتعارض بعضها مع بعض، وإقتباسات من "أخوته وأخواته" مع مزيد من آيات يكذبها العلم. وأتمنى أن لا أُعتبر من "المفترين" إذا أتيت ببعض منها:

● تنطوي الآية الآتية على تناقضات وأوهام.

ويحملُ عرشَ ربِّك فوقهم يومئذ ثمانية. الذين
يحملون العرشَ ومن حوله يسبحون ربهم ويؤمنون
به.

أولاً. هل السماء منطقة مادية تتوافر فيها قوة تجذب العرش الى الأسفل ممّا يستدعي وجود حمّالين كي لا يسقط؟ أم هي منطقة لامادية خالية من الجاذبية؟ هل من المنطق - كما يعتقد بعض المسلمين - أن الله خلق جاذبيةً إصطناعيةً حول عرشه؟

ثانياً. الإيمان هو القبول بقضية ما من دون دليل كافٍ. فلماذا يحتاج الحمّالون الإيمان بالرب؟ أ يوجد دليل أقوى من وجود الرب نفسه متربعاً على العرش الذي يحملونه؟!!!

تناقضات وتخبّطات فكرية

ثالثاً. ما أهمية الثمانية؟

يبدو لي أن الذي أنزل القرآن قد شاهد ملكاً متربعاً فوق عرشٍ يحمله ثمانية حمّالين يُرْمونَ له. فثبتت الصورة في عقله الباطن. وتخيّل الله بالصورة نفسها.

● الآية الآتية تناقض تناقضاً واضحاً مع المعرفة العلمية

بالتصوّر أن الأرض مستوية لها طول وعرض.

وجنة عرضها كعرض السماء والأرض. أعدت للذين آمنوا بالله.

● آية أخرى تتناقض مع العلم. من المعروف أن الأرض وجدت بعد وجود النجوم في السماء.

هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم أستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات بكل شيء عليم.

● تناقض الآيتان الآيتين الواحدة الأخرى.

● لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي.

و

● وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب.

● يقول القرآن في سورة "المؤمنون" متحدثاً عن خلق الجنين:

فتبارك الله أحسن الخالقين.

هل هناك أكثر من خالق؟ من يبارك الله؟ لا بد أن يكون هناك إله أعلى منزلة من الله، كي يبارك الله!!!!

● الآتية الآتية تناقض واضح مع العلم:

الله الذي جعل لكم سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً.

ألا يعلم الله "العليم" أن القمر دوار حول الأرض ونوره مجرد انعكاس ضوء الشمس، فكيف ينير القمر السموات "السبع" بأسرها؟ ألا تتماشى هذه الآية مع التصورات الساذجة لسكنة الجزيرة العربية

وتعزُّزُ نرجسيَّتِهِمْ؟!!!!

● آيتان تتناقضان . تقولُ إحداهما لا تبديلٌ وتقولُ الأخرى

هناك تبديل !!!

لا تبديلٌ لكلماتِ الله .

و

إذا بدلنا آيةً مكانَ آيةٍ واللَّهُ أعلمُ بما ينزلُ قالوا
إنما أنت مفتريٌ بل أكثرهم لا يعلمون .

● يدَّعي القرآنُ أن الله يقولُ أنه لا يأمرُ بالفحشاء .

إن الله لا يأمرُ بالفحشاءِ أتقولونَ على الله ما لا
تعلمون .

لكن يبدو أن الله أُصيبَ بداءِ الزهايمير . فهو — حسبَ الآيةِ
الآتية — إذا أرادَ فيأمرُ بالفسق .

وإذا أردنا أن نهلكَ قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا
فيها فحَقَّ عليها القولُ فدَمَرناها تدميراً .

تتناقضُ واضحٌ بين الآيتين .

إضافةً الى التناقضِ، يعترفُ القرآنُ أن إهلاكَ القرى يعتمدُ على
مزاجِ الله . فهو يلهو بالقرى كما يشاء . إذا أرادَ تدميرَ قريةٍ يأمرُ
مترفيها بالفسق فيدمرها . أين العدالةُ التي يُسبغُها المؤمنون على
الله؟!!!!

● يقولُ القرآنُ في الآيةِ الآتية :

إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابونَ والنصارى
مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً ، فلا خوفٌ
عليهم ولا هم يحزنون .

لكنه يقولُ في آيةٍ أُخرى :

مَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ
فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

● يقدم القرآن في الآية الآتية نصيحة مهمة:

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

لكنه يأمر النقيض في الآية الآتية:

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ، وَحَرِّضْ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ.

● ورد في القرآن أن الله يُخاطبُ فرعونَ بعدَ مطاردته
اليهودَ قائلاً إنَّ اللهَ نجى فرعونَ من الموتِ ليعلمَ فرعونَ ولمن
يُخلفه درساً:

فَالْيَوْمَ نَنْجِيكَ بَبَدْنِكَ لَتُنَكِّلَ لَمَنْ خَلَقَكَ آيَةً.

لكنه يقول النقيض في الآية الآتية:

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ. فَأَغْرَقْنَاهُ
وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً.

● يقول القرآن عن الأرض والجبال:

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً.

تناقض مع العلم. لا توجد أوتاد للجبال.

● ويقول عن ذي القرنين:

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا مِنْ عَيْنِ حَمِئَةٍ

تناقض صارخ مع المعرفة العلمية. كيف تغرب الشمس في عين

ماء؟!!

● ويوجه القرآن في الآية الآتية الكلام الى محمدٍ ويتحدث عن المشركين قائلاً:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ فَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .

تؤكد الآية أن الله جعل على قلوب الكافرين أغشية كي لا يفهمون القرآن وجعل آذانهم صمماً لا يسمعونهُ. كيف يكون الله مسبباً لعدم هداية الكافرين ثم يعذبهم على ذلك؟ كيف من الممكن أن يهتدي الكافرون والله يمنعهم من الهداية!!!

● يظهر أن الله أصيب بداء النسيان مرةً أخرى . فعندما يقول:

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .

نسى أنه قد خلق كائناتٍ وحيدة الجنس وكائناتٍ خنثى حيث الذكور والأنثى في نفس الكائن !!!

● يقول القرآن إن الله وضع النجوم كمصابيحٍ لزينة السماء الدنيا .

وقد زيناً السماء الدنيا وجعلناها رجوماً للشياطين .

إذن النجوم خلقت للزينة . لا يعلمنا القرآن مقدار بعدها عن الأرض ، ولا كيف تُرجمُ بها الشياطين!!!!

● إن الآية الآتية ليست متناقضةً فحسب إنما مضحكةٌ لسذاجتها بديع السماوات أنس يكون له ولدٌ ولم يكن له صاحبةٌ وخلق كل شيءٍ وهو بكل شيءٍ عليم .

فهي تؤكد على أن ليس لله ولدٌ لسببٍ غيرٍ مقنعٍ ولا عقلائي ومضحكٍ لسذاجته . السببُ هو أن الله لم يكن له زوجة .

مسكينٌ هذا الإله لم يكنْ له صاحبة!!!. سؤالٌ يجب أن يُثارَ: لماذا لم يكنْ له زوجة؟ هل لأنه، رغم قدرته على كلِّ شيء، لم يقدرْ على دفعِ المهرِ!!!

إضافةً الى ذلك، من الملاحظ أن القرآنَ والكتبَ "المقدَّسة" الأخرى تستخدمُ صيغَ المذكرِ عند كلامهم عن الله. سؤالٌ ينبغي أن يُثارَ: كيف من الممكن أن يكونَ لِلهِ جنسٌ وهو — حسبَ وصفِ القرآنِ — نورُ السمواتِ والأرضِ؟

هنالك مزيدٌ من التناقضاتِ. لكن يكفي ما قدمته. أعيدُ ما كتبته سابقاً:

إن مجردَ وجودِ تناقض واحدٍ فقط في كتابٍ يُفترضُ أنه "منزَّلٌ مباشرةً من الله" أو أنه "موحىً من روحِ القدس" كافٍ كي يُقوِّضَ الإدعاءَ بالتنزيلِ وبالإيحاءِ وبالتقدیسِ.

إِلْتَوَاءَاتُ لُغَوِيَّةٌ فِي النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ

منير: قلتَ قبلَ قليلٍ أن المؤمنَينَ الذين يدركونَ التناقضاتِ في كتبِهِم التي يُقدِّسونَها يخترعونَ تبريراتٍ لتفسيرِها فيعملونَ مثلاً على لَوَيِ الكلماتِ بإضفاءِ معانٍ غيرِ إعتياديةٍ عليها لتنسجمَ مع ما يدغدغُ عقولَهُم .
أرجو أن تُزوِّدني بِأمثلةٍ على تلكِ الإلتواءاتِ .

هذا صحيح . إن الكتبَ المسماةَ "مقدسةً" وما يدورُ حولَها من كتبٍ أُخرى ملأى بِتناقضاتٍ حتَّى مع تعاليمِ الدينِ الذي تدعو إليه أو غيرِمنسجمةٍ معه . فيضطرُّ بعضُ المؤمنينَ الى أن يدلَّو بِدلالتهم كي يبرروها بِالْتَوَاءَاتٍ لُغَوِيَّةٍ ومطباتٍ فكريَّةٍ تقلِّبُ معانيها ومضامينها وربَّما تفرِّغها من المعنى . وفي أغلبِ الحالاتِ يزيدُ المفسرونَ الأمورَ غموضاً ولُبساً بعد لفِّ ودوران .
إنني سأعزِّزُ مقولتي بِجملةٍ أمثلةٍ مقتبسةٍ من الأديانِ المسماةِ التوحيدية³³ .

لعلَّ خيرَ مثالٍ أبدأ به العبارةُ

"صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ" .

التي يكتبُها ويُردُّها جميعُ المسلمينَ تقريباً بِتلكِ الكثرةِ بحيثُ أضطروا الى إختصارِها الى "صلعم" . لستُ أدري هل فكَّرَ المرءونَ بِتناقضِها مع معتقداتهم؟ يقولُ القرآنُ إن اللهَ نورُ السمواتِ والأرضِ . كيف يصلِّي نورُ السمواتِ والأرضِ؟ أيركعُ

النور متعبداً؟ أم يسجدُ خاشعاً؟ ولنْ يصلِّي؟ أيجادُ إلهٍ أعظمُ منه؟!!!!. هنا يدخلُ المفسرونَ على الخط. فيعملونَ على لَوِي المعنى الأصلي لكلمة "يصلِّي" مدعينَ أن المقصودَ بِالصلاةِ في العبارة هو البركةُ وليس العبادة. إذا صحَّ هذا التفسيرُ، فلماذا إذن اللَّفِّ والدوران؟ ألم يكنْ الأجدرُ بِهِم منذُ البدايةِ ترديدَ "بارك اللهُ مُحَمَّدًا؟"

حسناً. كيف سلّمَ نورُ السمواتِ على مُحَمَّدٍ؟ هل بمصافحةٍ؟ أم بِتحيّةٍ مثل "هلو محمد" أم "هاي محمد"؟

تعكسُ تخبّطاتُ الذين صاغوا تلكَ العباراتِ وأمثالها تذبذبَ تصوراتهم عن الله. فتارةً يقولون عنه إنه نورُ السمواتِ والأرضِ وتارةً يتصورونه كإمبراطور "يستوي على العرش" كما يصرّحُ القرآن - ويُسَلِّم على رعاياه في بعضِ الأحيان.

يثيرُ إستغرابي قولُ بعضِ من المسلمين ذوي ثقافةٍ عاليةٍ إن "رتقاً ففتقناهما" الواردة في الآيةِ الآتيةِ تشيرُ الى نظريةِ الانفجارِ العظيمِ عن نشأة الكون.

أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون.

نلاحظُ أولاً أن الضميرُ "هما" يعودُ الى السمواتِ والأرضِ أي أنهما حسب قولِ القرآنِ كانتا ملتصقتين فَفصلهما اللهُ. لكن العلمُ يُخبرنا أن عمرَ الكونِ حوالي 14 مليار سنة بينما عمرُ الأرضِ 4.5 مليار سنة أي توجد فترة زمنية حوالى 5.9 مليار سنة بين تكوّن الأرضِ بعد الانفجار العظيم.

يعتقدُ كثيرٌ من المسلمين إعتقاداً راسخاً أن القرآنَ يحوي كلَّ المعارفِ العلمية، منها النظرياتُ الحديثةُ في نشأة الكون. فيدعون أن لفظة "دخان" الواردة في الآيةِ التاليةِ تشيرُ الى ما يدورُ

من نظرياتٍ معاصرةٍ عن نشأة الكون.

”ثم إستوى السّماءِ وهي دُخانٌ فقال لها وللأرضِ
إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين“.

يلوي المفسرون الكلمات كعادتهم فيُصِفونَ عليها معانٍ بعيدةً عن معناها الأصلي كي تنسجمَ مع ما يعتقدونَ به من إعجازِ القرآنِ بإحتوائه على كلِّ المكتشفاتِ العلميّةِ الحاليّةِ والمستقبليّةِ. ويجرؤونَ عن جهلٍ أو تجاهلٍ حتّى على تبديلِ التركيبِ الكيميائيِّ للدخانِ مدعينَ أنه غازيّ الهيدروجين والهيليوم وبلازما التي كانت موجودةً فقط بعيدَ نشأةِ الكون، — حسبَ نظريةِ الانفجار العظيم. علماً أنه لم تتوافرْ آنذاك الغازاتُ المكوّنةُ للدخانِ مثلُ ثاني أوكسيد الكربون. وربّما يستمرُّ أولئك المفسرون مدّعينَ بعنادٍ أن البحوثَ المستقبليةَ سوف تُثبتُ صحّةَ آرائهم.

إذا سُمِحَ تغييرُ معنى أو أسلوبِ إستعمالِ كلمةٍ مثلُ ”الدخان“ (وهو رمادُ كربوني) لتعنيَ غازاتٍ أساسيةٍ فيمكنُ أيضاً تغييرَ معنى أيّ كلمةٍ في أيّ كتابٍ كي يُبرهنَ على أيّ نظريةٍ نشاء!!!!

مثالٌ ثانٍ: يُرددُ المسلمون بعد تلاوةِ القرآنِ العبارة:

”صدقَ اللهُ العظيم“

هذه العبارةُ مشحونةٌ بتخبيطٍ تناقضيّ وبتناقضٍ تخبيطيّ.

تكونُ العبارةُ ”صدقَ منير“ ذات معنى واضح لأن منير قادرٌ على الصدقِ وعلى الكذب. أمّا إذا سُئِلَ المسلمونُ ”هل هناك احتمالٌ أن يكذبَ اللهُ“ فيجيبونَ بالنفيِ القاطع. عندئذٍ تفقدُ العبارةُ مضمونها وتغدو تحصيلٌ حاصل كالقولِ ”اليومِ إمّا جمعة وإمّا ليس جمعة“. ليس هذا فقط. إنما يقعونَ في مأزقٍ. بما أن من المستحيلِ أن يكذبَ اللهُ فهو غيرُ قادرٍ على الكذب، وهذا يتناقضُ مع قدرته على كل شيء.

إذا سمحتُ لِنفسي أن أقترحَ عبارةً بديلةً فأقولُ:
صدقنا قولَ الله العظيم .

التي تحملُ معنى نحن بشرٌ قادرين على أن نُصدِّقَ أو لا نُصدِّقَ
الأقوالَ التي نسمعُها، لكننا صدَّقنا ما سمعنا من قولِ الله العظيم

مثالٌ ثالثٌ: هنالك عبارةٌ يردُّها المؤمنون المسيحيون هي:

”المسيحُ ابنُ الله“

تقعُ هذه العبارةُ كالصاعقةِ على مسامعِ غيرِ المسيحيين. فيندفعُ
التبريريونَ والمفسرونَ مسرعينَ الى الإدعاءِ بأن ليس المقصودُ بها
أن الله قد تزوجَ وأنجبَ المسيحَ إبناً له. فيقولونَ متخططينَ إن معنى
كلمةِ ”إبن“ ليس مقصوراً على الإنسانِ المنجَبِ بالزواجِ فقط. إذ أن
لها معانٍ مجازيةً. كالقولِ مثلاً ”إبنُ دجلةَ والفراتِ“ أو ”إبنُ
الصحراءِ“ أو ”إبنُ العشرين“ أو ”إبنُ الشوارعِ“ أو غيرها من
الإستعمالاتِ المجازيةِ.

هذا صحيح. لكن الإستعمالَ المجازيَ لكلمةِ ”إبن“ في هذه الأمثلةِ
واضحٌ لا يدعو الى أيِّ إلتباسٍ ولا غموضٍ.

السؤالُ المهمُّ الذي على أولئك التبريريينَ الإجابةُ عنه ماذا يخدمُ
إستعمالُ مجازيِّ لِفردةٍ لغويةٍ مُحَمَّلةٍ بالدرجةِ الأولى بِمفهومِ الإنجابِ
وفي سياقِ الإنجابِ والإنجابِ ليس مقصوداً بها؟ هل يدلُّ
إستعمالُها على عجزٍ لغوي، أم شطحةٍ فكرية، أم تشبهِهٍ بِآلهةِ
السومريينَ والبابليينَ والإغريقِ والرومانِ الذين كانوا يتزاوجون
وينجبون؟

إني أُرَجِّحُ أن العبارةَ حشرٌ قسريٌّ لغرضِ صياغةِ العقيدةِ الثيولوجيةِ
بأن لم يكنِ للمسيحِ أبٌ بشري. إذا صحَّ ترجيحي فمن الأجدِرِ بهم
إعتمادُ صياغةٍ على غرارِ:

”يسوعُ المسيحُ إبنُ مريمِ المنبثقُ من الله“ .

بدلاً من عبارة مختصرة إستفزازية.

مثال رابع: إستفزازي آخر في مستوى المثال السابق. إذ يصلي ملايين البشر يومياً الصلاة المريمية التي مطلعها:

”السلام عليكِ يا ... مريم والدة الله ...“

كيف يُبرزُ القبولُ بهذه العبارة المثيرة لِغضبِ غيرِ المسيحيين وبعضِ المسيحيين أيضاً؟ تُفسَّرُ على أنها نتيجةُ إستنتاجٍ منطقيٍّ من العبارتين:

”مريم والدةُ المسيح“. و ”المسيحُ هو اللهُ“

اللتين أرمزُ إليهما في هذه المقابلةِ للإختصارِ بالحرفين A و B على التوالي. هذا الإدعاءُ مؤشِّرُ الى سذاجةٍ مَنْ يدَّعيه. كما يشكُّلُ مغالطةً منطقيةً. صحيحٌ، يمكنُ بالإستنتاجِ المنطقيِّ الحصولُ على عبارةٍ مثلُ ”ليلي والدةُ الملكِ“ من عبارتين شبيهتين شكلياً بالعبارتين المذكورتين:

”ليلي والدةُ حسن“

و

”حسنُ هو الملكُ“.

إذ يستقيمُ هذا الإستنتاجُ بسببِ حقيقةِ وجودِ والدةٍ للملك.

لكن إستنتاجاً مناظراً من العبارتين A و B لا يستقيمُ أبداً، لعدمِ وجودِ والدةٍ لـ اللهُ (حسبَ ما هو مفهومٌ عن اللهُ عندَ المؤمنين بوجوده في الأديانِ الإبراهيمية التوحيدية). وبما أن العبارة B المشحونةً ثيولوجياً (التي تشكُّلُ ركناً أساسياً للإيمان المسيحي لكنها من ناحيةٍ أُخرى تُعتبرُ كفراً لدى أديانٍ وطوائفٍ أُخرى كما ناقشناها قبل قليل) لا تنالُ القبولَ الإجماعيَ بِصدقِها كمنظيرتها ”حسنُ هو الملك“.

إن إستنتاجَ العبارة ”مريم والدةُ اللهُ“ من A و B فاسدٌ وغيرُ مقبولٍ منطقياً. والعبارةُ المزعومةُ إستنتاجُها تصعقُ المشاعرَ وتستفزُّ

الكراهية وتثيرُ التخاصمَ مع معتنقي أديان أُخرى وتبعثُ على إنشاقاتٍ طائفيةٍ في الدين المسيحي نفسه.

سؤال: ألم يكن الأخرى على واضعي هذه العبارة التعبيرُ عن المعتقدِ الديني بتبني عبارتين إثنيتين وعدم إختزالهما الى واحدة إستفزازية؟ ربّما يكونُ الجوابُ أنها صيغتُ خصيصاً للإستفزازِ وربّما أيضاً للإلنسجام مع معتقداتِ قدامى الرافدينيين والرومان والإغريق.

مثالٌ خامسٌ: ينصُ قانونُ الإيمانِ المسيحي على:

“المسيحُ صعدَ الى السماءِ وجلسَ عن يمينِ الله”

يعتقدُ المؤمنونَ بوجودِ إلهِ الأديانِ التوحيدية، أن الله موجودٌ في كلِّ مكانٍ منذ الأزل. لكن مفرداتِ قانونِ الإيمانِ تنمُّ عن إلتواءاتٍ لغويةٍ وتخبطاتٍ فكريةٍ تجعلُهُ غيرَ منسجمٍ حتّى مع كثيرٍ من معتقداتِ الدين المسيحي نفسه. وفيما يأتي بعضها:

● إذا كانَ اللهُ كَلِّيَ الوجودِ، فلماذا قيلَ عن المسيح أنه “صعد” ولم تُستعملَ كلمةٌ منسجمةٌ مع الوجودِ الكلي لـالله، مثلاً كلمةٌ “تمازج مع الله”؟

● تشيرُ كلمةٌ “صعودٌ” الى الأعلى في بقعةٍ صغيرةٍ من الكرة الأرضية. لم يدرك واضعو قانونِ الإيمانِ عدمَ وجودِ أعلى مطلقٍ للكرة الأرضية. هل يقولُ سكانُ أستراليا: “نزل الى السماء”؟

● تدلُّ المفرداتُ المستعملةُ على تصوّرٍ أن الله جسمٌ ماديٌّ يأخذُ حيزاً محدداً في الفضاءِ وله يمينٌ وشمالٌ وكرسيٌّ أو عرشٌ يجلسُ فوقه !!!

- إذا كان المسيحُ هو اللهُ - كما يعتقدُ المؤمنونُ
بالمسيحية - أيَعقلُ "صعودُ" الله إلى نفسه وجلسه إلى
يمينِ نفسه؟ نعم يعقلُ ذلك العقلاءُ جداً من رجالِ الدين!!!
- يبدو - حسبَ الأديانِ التوحيدية - أن الجنةَ مركبةٌ فضائيةٌ
تدورُ حولَ الأرضِ أو حولَ أحدِ الكواكبِ. إذ لا تسكنُها -
كما قيلَ لنا - أرواحُ البشرِ الخيِّرينَ فقط بعد
وفاتهم، بل هي أهلةٌ بأجسامٍ جسديةٍ أيضاً. فقد "صعد"
إليها المسيحُ جسماً وانتقلت إليها والدته مريمُ روحاً وجسماً
أيضاً - حسبَ إعتقادِ رسميِّ حديثِ نسبياً أعلنته الكنيسةُ
الكاثوليكيةُ سنة 1950 - وسبقها هناك النبيُّ التوراتيُّ
إيليا. (وبطبيعة الحال لا بُدَّ أن يسكنها عددٌ كبيرٌ من
حورياتِ باكراتٍ ليستقبلنَّ ويحتضننَّ الجاهدينَ
والإنتحاريينَ المسلمين!!!).

تَعكُّسُ اللُّغَةُ المُستعمَلَةُ فيما يبدو عَوَازاً في الحنكةِ اللغويةِ والمنطقيةِ
والفلسفيةِ عندَ الذين صاغوا قانونَ الإيمانِ مما جعلهم عاجزينَ
عن تصوُّرِ اللهِ إلا كَمَلِكٍ أو كإمبراطورٍ جالسٍ على عرشٍ في مكانٍ
ناءٍ وعالٍ يصعبُ الوصولُ إليه إلا بصعودٍ مضمَّنٍ³⁴ وهو تصوُّرٌ مناقضٌ
للمفهومِ الثيولوجيِّ لـ اللهُ.

منيرٌ وما دُمنَّا في موضوعِ قانونِ الإيمانِ المسيحيِّ أودُّ
أن أسمعَ رأيك في موضوعِ وِردٍ في كتابٍ للتعليمِ

المسيحي للأطفال في الدائمك من تأليف أحد الكهنة
المسيحيين (الذي من المفروض أن يكون مُلمّاً
بأصول دينه). يقول فيه عن قيامة المسيح من الموت:
”إن الله أقام المسيح من بين الأموات
وبمساعدة روح القدس.“

أشكرك عزيزي منير على هذا المثال. إنه إلتواءٌ فكريٌّ يتعارضُ مع
قانون الإيمان المسيحي الذي ينصُّ بصراحةٍ واضحةٍ أن المسيح قامَ
(نقطة وإنتهى). أي أنه قامَ بنفسه دون أيِّ مساعدة. ولذا
تُعتبر القيامةُ – وفق رأيِ المؤمنين المسيحيين – المعجزةُ
القصوى والبرهانُ الساطعُ على ألوهية المسيح. ليس في نيتي في
هذا المقالِ تناولُ موضوعِ مصداقيةِ القيامةِ أم عدمها. إنما أتفقُ معك
على ضحالةِ إلمامِ ذلك الكاهنِ بدينه المُؤسسِ أصلاً على قيامة
المسيحِ بنفسه. لعله كان يتصورُ أن الله وروح القدس (الذي هو اللهُ
أيضاً!!) أتيا برافعةٍ لنجدةِ المسيح ليقمياه من موته.
إذا صحَّ تصوُّره فلن تكونَ هنالك معجزةُ قيامةِ المسيح من الأموات.
إذ أن الله يستطيعُ إن شاء (وفق ما يعتقدُ المؤمنون بوجوده وبقدرته
اللانهائية) أن يقيمَ من الموتِ أيَّ إنسانٍ من ضمنهم ذلك الكاهنِ بعد
وفاته. ويستطيعُ أيضاً أن يقيمَ حتىَّ أسامةَ بن لادن من الأمواتِ
دون الإستعانةِ بغواصةٍ يأتي بها روحُ القدس!!!!

أمثلةٌ من العهد القديم:

إن الذين يؤمنون بوجود الله يعتقدون أنه مسالمٌ عادلٌ محبٌ غفورٌ
رحيمٌ عليمٌ. إلا أن أساطيرَ العهد القديم تُصوِّره في أكثر من مئة
وخمسين موقِعٍ ككائنٍ مختلفٍ تماماً ذي صفاتٍ ذميمةٍ وكريهةٍ من
أمثالِ ماكرٍ وساديٍّ ومراهنٍ وقاسٍ وغيورٍ. لنضربَ قليلاً من
الأمثلة:

سمح الله للحية بخداع آدم وحواء ليأكلا من شجرة معرفة الخير والشر، فطردهما الله من الجنة شر طردة وحرّمهما ومعهما الجنس البشري بأجمعه من الخلود وجعل معصيتهما خطيئة يتوارثها جميع البشر (باستثناء مريم والدة المسيح حسب ما يعتقد الكاثوليك المعاصرون) ولعل الله أدخل المعصية كجزيء في ال DNA البشري!!!.

إذا كان الله راغباً في أن يكون آدم وحواء خالدين لن يذوقا الموت، فلماذا خلق "شجرة معرفة الخير والشر"؟ هل مجرد إغوائهما وهو يعلم مسبقاً أنهما سيغويان؟! هل من الممكن أن يكون الله عادلاً وهو يعاقب أحفاد آدم لجريمة لم يرتكبوها ولا لذنب إقترفوه؟ هنا يدخل التبريريون ليدلوا بدلائهم مفسرين بمثال ساذج قائلين إذا ما عصى ابن والده فيحرم ليس فقط الابن لوحده من الميراث إنما أيضاً جميع المنحدرين منه.

يخبط التبريريون الأمور خبط عشواء. الموضوع هو جريمة وليس ميراثاً. هل من العدل أن يعاقب ابن لجريمة ارتكبها والده؟ طبعاً لا. حتى في موضوع الميراث، أن الحفيد يخسر فقط ميراثه من حصة أبيه التي فقدها.

سؤال موجه الى أولئك المفسرين التبسيطيين: مَنْ يقتدي بمن؟ الله بالبشر؟ أم البشر بالله؟!!

ويقول العهد القديم مضيافاً إن الله منع إستعادة آدم وحواء الحياة الأبدية بوضعه حراسه حول شجرة الحياة الأبدية. سؤال: ألم يكن في مقدرة الله القدير والعليم بالماضي والمستقبل وضع حراسة مماثلة منذ البداية حول تلك الشجرة. إذ لو فعل لمنع سقوط الإنسان وضرورة الخلاص وصلب يسوع المسيح والى آخر ما هنالك من أمور (حسب الـثيولوجيا المسيحية). لكنه لم يفعل. ما سبب

الإغفال، أهونسيانٌ أو هو مكرٌ؟ كما يُدعى في القرآن أن الله يصفُ نفسه بأنه أمكرُ الماكرين!!!

يظهرُ اللهُ، في العهد القديم، ليس ماكرًا فقط إنما أيضًا مراهناً ومع مَنْ؟ مع الشيطان!!!

أيعقلُ أن الله يجالسُ الشيطانَ ويتراهنُ معه حولَ إنسانٍ معينٍ إسمُه أيوبَ ويتركُ للشيطانِ اليدَ الطولى لإيذاءِ أيوبَ؟

يبدأُ سفرُ أيوبَ في العهدِ القديمِ بوصفِ أيوبَ بأنه إنسانٌ كاملٌ ومستقيمٌ وثرِيٌّ ووجيهُ يساعِدُ الفقراءَ. وفي ذاتِ يومٍ (وهنا أنقلُ نصاً حرفياً من سفرِ أيوبَ):

جاءَ بنو الله لِيَمَثِلُوا أمامَ الربِّ وجاءَ الشيطانُ أيضاً في وسطهم فقالَ الربُّ للشيطانِ من أين أتيتَ فأجابَ الشيطانُ الربَّ وقالَ من الجولانِ في الأرضِ ومن التمشي فيها. فقالَ الربُّ للشيطانِ، هل جعلتَ لا تمدُّ قلبك على عبدي أيوبَ، لأن ليس مثلهُ في الأرضِ رجلٌ كاملٌ ومستقيمٌ يتقي اللهَ ويحيدُ عن الشرِّ. فأجابَ الشيطانُ الربَّ وقالَ هل مجاناً يتقي أيوبُ اللهَ؟ أليسَ أنكَ سيَّجتَ حولهَ وحولَ بيتهِ وحولَ كلِّ ما له من كلِّ ناحيةٍ باركتَ أعمالَ يديهَ فانتشرتْ مواشيه في الأرضِ ولكن إبسطَ يدك الآنَ ومسَّ كلَّ ما له فإنه بوجهك مجدِّفٌ عليك. فقالَ الربُّ للشيطانِ ها أنا أجعلُ كلَّ شيءٍ له في قبضةِ يدك ولكن إليه لا نهدُّ يدك. ثم خرجَ الشيطانُ من أمامَ وجهِ الربِّ.

(هنا ينتهي الإقتباس).

فتتابعتُ المصائبُ على أيوبَ. سُرقتْ أبقارُهُ ومواشيهُ وجمالهُ ثم جاءتْ ريحٌ عاتيةٌ ضربتْ البيتَ الذي كان فيه أبناؤه وبناته فسقطَ عليهم

وَقَتَّلُوا جَمِيعاً. جَنَّ جَنُونَ أَيُوبَ وَمَزَّقَ مَلَابِسَهُ لَكِنَّهُ بَقِيَ صَامِداً
إِيمَانِيّاً وَلَمْ يَجِدْفْ.

وعندَ مواجهةٍ ثانيةٍ لِلشَّيْطَانِ معِ اللَّهِ مُشَابِهَةً لِلأُولَى سَمَحَ الرَّبُّ
لِلشَّيْطَانِ عَلى أَثَرِهَا بِإِجْرَاءِ مَزِيدٍ مِنَ التَّعْذِيبِ الشَّخْصِيِّ وَالْجَسَدِيِّ
عَلى أَيُوبَ. فَأُصِيبَ الْمَسْكِينُ بِشَتَّى أَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ. لَكِنَّهُ بَقِيَ
صَابِراً وَلَمْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَصَمَدَ الِى الْأَخِيرِ عَلى تَقْوَاهِ.

أَيُمْكِنُ تَصَوُّرُ أَنَّ اللَّهَ (الَّذِي) — حَسْبَمَا يَعْتَقِدُ الْمُؤْمِنُونَ بِوُجُودِهِ —
يُفْتَرَضُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مُحِبّاً رَوْفاً مُتَسَامِحاً يُوعِزُّ الِى الشَّيْطَانِ كِى
يَلْهُو بِإِنْسَانٍ لَهْواً سَادِيّاً نَتِيجَةً رَهان؟!!!!

وَكَيْفَ يُمْكِنُ وَصْفَ ذَلِكَ الْإِلَهِ الَّذِي يَخْتَبِرُ إِيْمَانَ إِبْرَاهِيمَ فَيَأْمُرُهُ بِذَبْحِ
إِبْنِهِ كِى يَقْدِمَهُ ذَبِيحَةً لِلرَّبِّ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ مُوَافَقَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلى
الشَّرُوعِ بِالذَّبْحِ؟ هَلِ الْقَسَاوَةُ السَّادِيَةُ الْإِجْرَامِيَّةُ غَيْرُ الْمُنْتَهِيَّةِ سَمَةٌ
مِنَ سَمَاتِ اللَّهِ وَسَمَاتِ النَّبِوَةِ؟

رُبَّ قَائِلٍ يَدَّعِى إِنْ هَذِهِ أَسَاطِيرٌ قَدِيمَةٌ وَقَدْ عَفَى عَنْهَا الزَّمَنُ.
صَحِيحٌ أَنَّهَا أَسَاطِيرٌ قَدِيمَةٌ، لَكِنِ لَمْ يَعْفِ عَنْهَا الزَّمَنُ. فَمَا زَلْنَا
نَسْمَعُ صَدَىً مَدْوِيّاً لِهَذِهِ النَّزْعَةِ فِي الصَّلَاةِ الرَّبِّيَّةِ الَّتِي يَرُدُّهَا
يَوْمِيّاً مَلَائِكِينَ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ:

أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ ... لَا تُدْخِلْنَا فِي التَّجْرِبَةِ

لِمَاذَا يَمِيلُ اللَّهُ الِى إِدْخَالِ الْبَشَرِ فِي تَجَارِبٍ وَمَكَائِدَ وَإِخْتِبَارَاتٍ وَهُوَ
عَلِيمٌ بِالْمُسْتَقْبَلِ؟ هَلِ فَقْدَ قَابِلِيَّتِهِ بِمَعْرِفَةِ الْمُسْتَقْبَلِ؟ أَمْ أَنَّهُ لَا يَزَالُ
يِرَاهُنُ الشَّيْطَانَ؟

منير: تُذَكِّرُنِي هَذِهِ الصَّلَاةُ بِقِصَّةِ قَرَأْتُهَا فِي جَرِيدَةِ
The Copnhagen Post عَن زَوْجَةٍ تَرِيدُ إِخْتِبَارَ مَدَى
إِخْلَاصِ زَوْجِهَا لَهَا فِإِسْتَأْجَرَتْ حَسَنَاتٍ لِيُغَازِلَنَّهُ
وَيُغْرِبَنَّهُ.

أعتقد أنه رغم أن عمل تلك الزوجة مقيتٌ إلا أنه أفضل من إدخال البشر في تجارب. فهي ليست عليمَةً بالمستقبلِ مثل الله الذي يدعى أنه عليمٌ بالماضي والحاضر والمستقبل.

يروى سفرُ التكوين، كما هو معروفٌ - في العهد القديم أن الله غضبَ على البشرِ بسببِ شرورهم وقررَ أن يصلحَ الأوضاعَ (التي يُفترضُ محاسبةُ الله الذي أوجدها وخلقها). كان قرارُهُ حازماً بإبادةِ جميعِ الحياةِ على وجهِ كوكبِ الأرضِ من البشرِ والحيواناتِ والنباتاتِ بإستثناءِ عائلةِ نوحِ وأزواجِ من الحيواناتِ بطوفانٍ هائلٍ شاملٍ. فاستحقَّ اللهُ نيلَ لقبِ أعظمِ مبيدٍ للحياةِ إذ لم يرافُ لا بجنينٍ ولا بطفلٍ ولا بحيوانٍ ولا بنباتٍ!!!!

ويروي سفرُ التكوين أيضاً قرارَ الله إبادةِ جميعِ مَنْ يسكنُ مدينتي سدوم وعمورة بإستثناءِ لوطٍ وعائلتهِ، لأن بعضَ سكانِ تلك المدينتين كانوا مثيليين، فأمرَ اللهُ لوطَ وعائلتهِ بالهربِ منها وأن لا يلتفتوا نحوها.

وحانت، أثناءَ الهروبِ إلتفاتةٌ من زوجةِ لوط نحو المدينتين المدمرتين فحوَّلها اللهُ بِـ "رحمتهِ الواسعةِ واللامنتهيةِ" حالاً الى عمودٍ من الملح!!!

يحاولُ التفسيريون التبريرَ بأن اللهَ منحَ الإنسانَ حريةَ الإختيارِ بين الخيرِ والشرِ. وبناءً عليه يُحاسبُ اللهُ المرءَ على أفعاله. وهنا يقعُ المؤمنونَ التفسيريون بمطبٍ منطقيٍّ فلسفيٍّ. إذ لا يمكنهم إمتلاكِ الدربِ بإتجاهيه.

الإنسانُ إمَّا أن يكونَ حراً وقادراً على التمييزِ بين الخيرِ والشرِ، وأن اللهَ ليسَ عليمًا بالمستقبلِ، وإمَّا أن يكونَ اللهُ عليمًا والإنسانُ ليسَ حراً.

العقابُ الجماعيُّ الذي مارسه اللهُ في كثيرٍ من المواقفِ الواردةِ في العهدِ القديمِ ما زالَ يَقتدي به الحكامُ المستبدونَ في دولِ الشرقِ الأوسطِ ودولِ أُخرى عند عقابِهم الشاملِ لمدنٍ معارضي حكمهم. كيف لا؟ وهو إقتداءٌ باللهِ "العادِلِ الرؤوفِ المتسامح"!!!!

طلَعَ على التلفزيونِ القسُّ پات روبرتسون، مرشحُ رئاسيٍّ سابقٌ لولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ والمشهورُ جيداً بِمواقظِهِ الإنجيليةِ التلفزيونيةِ قائلاً: إنه يعزو سببَ الإعصارِ الذي ضربَ مدينةَ نيواورلينزِ الأمريكيةِ، الى أن ممثلةً معروفةً بِمِثاليَّتِها تعيشُ فيها، فجاءَ عقابُ اللهُ "العادِلِ" على المدينةِ بكاملِها!!!!

الدِّينُ يُذَكِّي التَّكَاوُهَ وَالتَّبَاغُضَ وَالتَّخَاصُمَ بَيْنَ الْبَشَرِ

منير: لقد تكلمت عن أهم الكتب المقدسة وبيّنت أنها ملامى بتناقضات يغفل أو يتغافل عنها المتدينون فيبررونها بمطّ ولّوي لغوي تعسفي .
أود الآن الانتقال بالأسئلة الى موضوع آخر ألا وهو الحروب والمجازر التي تتم بإسم أو بسبب الدين .

الأديان كالسيارات. مثلما هنالك سيارات من أنواع وأشكال مختلفة ومن صنع مصانع وشركات متعددة ومتنافسة، لكن عند رفع أغطيتها المعدنية نجد تشابهاً كبيراً في محرّكاتها وطرائق تشغيلها. كذلك الأديان، على الرغم من إختلافاتها الظاهرية فإن محرّكاتها وأساليب إنتشارها متشابهة الى حد كبير.

لكن ينتهي التشابه حين نفكر في حقيقة أن تصاميم السيارات تتبدل سنوياً وأن التنافس بين مختلف أنواع السيارات سلّمي لا تتبادل فيه إهانات ولا تراق قطرة دم واحدة. أمّا الأديان فلا تتغير خلال آلاف السنين إلا قليلاً جداً. والتنافس السلّمي بالمعنى الإعتيادي للكلمة معدوم بين الأديان، بل يأخذ شكل تصادم. كل دين يحاول القضاء على الآخر بشتى الوسائل المتاحة له. منها: بث الكراهية نحو الآخر، والتعقيم والتجهيل على مآثره، المؤدية بالنهاية الى تخاصم وحتى الى مجازر وحروب وإراقة دماء.

دعنا نرى كيف ولماذا يتم ذلك؟

المشاكل المرتبطة بالدين متعددة. وهي ليست نتائج تعاليم دين معين كالإسلامي أو المسيحي أو اليهودي أو البوذي. إنما هي نتائج

النُهْجِ والأَطْرِ الفكرية التي يكوْنُها الدينُ في عقلياتِ البشرِ.
الدينُ ظاهرةٌ إجتماعيةٌ ذاتُ سيرورةٍ ديناميةٍ متعددةِ الأبعادِ.
أبعادُها: مبادئٌ وغيبياتٌ وتنشئةٌ وتعميةٌ وتعليمٌ وإستقطابِ.
يحتاجُ مجتمعٌ في حقبةٍ زمنيةٍ قديمةٍ الى تغييرٍ فيما يسوده من
مبادئٍ أو آراءٍ أو أحكامٍ كي يتواءمَ مع مستجداتٍ تتطلبُها تلكِ الحقبةِ.
يبرزُ في الغالبِ شخصٌ يعي بِضرورةِ التغييرِ ويشعرُ شعوراً قوياً
ومُلحاً، وكانَ قوياً غيرَ مفهومةٍ قد إختارته لِيأخذَ مسؤوليةَ أمرِ
المناداةِ بالتغييرِ على عاتقه والعملِ على تحقيقه بِكلِّ همةٍ وعزيمةٍ
ونشاطٍ وتضحيةٍ.

منير: لماذا لا يُكْتفى بتطبيقِ المبادئِ مباشرةً دون

اللجوءِ الى الغيبياتِ؟

من الممكنِ أن تكونَ المبادئُ لِوحدِها أهدافَ حزبٍ أو تجمعٍ سياسيِ
أو إجتماعيِ. فَقدُ تتعارضُ مع مصالحَ طبقةٍ إجتماعيةٍ فيُرفضُ بشدةٍ
القبولُ بها، وقد تتماشى مع مصالحَ طبقةٍ أُخرى فتتأيدُها.

بعبارةٍ أُخرى تكونَ المبادئُ قابلةً لِلإخضاعِ الى تساؤلاتٍ ونقاشاتٍ
من قِبَلِ ذوي المتضررينَ من تطبيقِ المبادئِ المقترحِ تطبيقها. ومن
المرجَحُ أن يتساءلوا مَنْ هو هذا الإنسانُ الذي جاءَ فارضاً آراءه
الخاصةً على مجتمعنا والهادفةً الى تمزيقِ نسيجهِ الإجتماعيِ، أليس
هو واحداً منا؟ كيف نسمحُ لأنفسنا بأن يعلو فوقنا ويغيرَ تقاليدنا
الموروثة؟

سرعانَ ما يكتشفُ ذلكِ الإنسانُ بوعيٍ أو دون وعيٍ أن أسهلَ أسلوبِ
لِقْطعِ الجسورِ على النقاشاتِ والتساؤلاتِ والإعتراضاتِ الإدعاءُ أن
قوةً فوقبشريةٍ تتصلُ به وتأمُرُ بالتغييرِ وربما تمنحُ وعوداً بمكافآتٍ لِمَنْ
يتبعَ المبادئَ الجديدة.

على كلِّ حالٍ تكونُ المحصلةُ النهائيةُ عَرْضُ المبادئِ التي يُعْتَقَدُ أن

المجتمع بحاجة اليها مغلفةً بغلافٍ تتمازجُ فيه المبادئُ مع الغيبياتِ تمازجاً من الصعب فصلُ الواحدةِ عن الأخرى.

وما أن يحصلَ هذانِ البُعدانِ على موطنٍ قدمٍ لهما في المجتمعِ سرعاناً ما تتفتحُ الغيبياتُ على البُعدِ الثالثِ وهو بُعدُ أُسميه بُعدُ التنشئةِ والتعميةِ والتعيمِ.

كي يُضمنَ إستدامةَ الغيبياتِ وعدمُ إندثارها مع مرورِ الزمنِ يتوجبُ تربيةَ الأجيالِ الناشئةِ على تقبلها وتقديسها. وبناءً عليه يُربى المرءُ منذ طفولته وهو ما زالَ يحبو تربيةً تقديسٍ وتبجيلٍ للغيبياتِ التي يؤمنُ بها والداه، فيُلَقِّنُ أن تلكَ المبادئُ والأحكامُ مقدسةٌ وأن واضعها ذوي قدسيةٍ عظيمةٍ يتوجبُ تبجيلهم أعظمَ تبجيلٍ وأن تلكَ المبادئُ والغيبياتِ ليستُ حقائقٌ فحسب إنما هي حقائقٌ مطلقةٌ أزليةٌ لا يأتيتها الباطلُ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ. ويُعتمُّ عن المرءِ كلُّ ما هو ضعيفٌ تاريخياً أو إيمانياً في تلكَ الغيبياتِ ويُلقِّنُ بل يُبرمجُ على الردِّ المناسبِ على بعضِ مواطنِ الضعفِ التي قد يثيرها خصومُ لعقيدته، كما تُنعتُ الأديانُ الأخرى والعقائدُ المناوئةُ بكلماتٍ تثيرُ حقدَه عليها.

هذا المرءُ، المبرمجُ بهذه الطريقةِ، سيرى معتقداته واضحةً ووضوحَ الشمسِ، وأن مَنْ يخالفه الرأيَ مصابٌ بنوعٍ من العمى لعجزه عن رؤيةِ الشمسِ الساطعةِ، لكنه يشاهدُ المرءَ الذي يخالفه ليس بأعمى العينين. فلا بدَّ إذن أن يكونَ أعمى القلبِ وفاقدَ الضميرِ. وربما تختمرُ في ذهنه تساؤلاتٌ ألا يستحقُّ عميانُ القلوبِ وفاقدو الضمائرِ التصفيةَ الجسديةَ؟

لا يحتاجُ هذا المرءُ إلا إلى شرارةٍ بسيطةٍ ليستجيبَ الى مَنْ ينادي بالتصفيةِ. وليس غريباً أن تتزامنَ نشأتهُ مع وجودِ جموعٍ من منغسلي الأدمغةِ وفاقدِي العقلانيةِ ومصابينِ بنفسِ فيروسِ الغيبياتِ

المصابُ هو به. كما أنه ليس من النادر أن تستقطبه تلك الجموعُ لينضمَّ اليهم.

وهكذا تتكون مجموعاتٌ بشريةٌ متناوئةٌ أو متخاصمةٌ أو متعاديةٌ. كلُّ منها تتصورُ أنها حاملةٌ رايةَ الحقِّ المطلق. فيسهلُ على رجالِ الدينِ المُسييسينَ ورجالِ السياسةِ المتخذينَ الدينَ وسيلةً لوصولِ الى مآربهم مناورةً تلكِ المجموعاتِ وتحريكها وإستغلالَ إندفاعِها لِتحويلِها الى رعا ع متوحشةٍ تُقادُ كقطعانٍ إماماً الى حروبٍ مَن يخالفونهم الرأيَ وإماماً الى إرهابٍ مَن يتصورونهم عميانَ قلوبٍ يفتكونَ بهم ويغتصبونَ نساءهم ويدمرونَ معابدهم ومنازلهم.

يقول قولتير إن الذين لهم القدرةُ في جعلك تعتقدُ بما هو مخالفٌ للعقلِ قادرونَ أيضاً على جعلك ترتكبُ حماقات.

حُرُوبٌ وَأَعْمَالٌ وَحَشِيَّةٌ بِسَبَبِ الْأَدْيَانِ

منير: سمعتُ تعليلَكَ لنشوءِ الأطرِ الفكريةِ لنزعةٍ
تخاصمِ معتنقي مختلفِ الأديانِ والطوائفِ. الآنَ
ينبغي عليّ أن أطلبَ منك تعريزاً مقولتكِ بأمثلةٍ عن
تلكِ التصارعاتِ والتخاصماتِ.

سوف أسردُ فيما يأتي قليلاً جداً من كثيرٍ من حروبٍ أو أعمالٍ
إجراميةٍ تُسندُ إلى جميعِ الأديانِ خصوصاً الإبراهيميةِ
التوحيديةِ، وقعتْ في عصورٍ متفرقةٍ منها عصرنا الراهنِ.
أسردها عشوائياً حسبما تتواردُ إلى ذهني أثناءَ الكتابةِ.

أقولُ لولا الأطرِ الفكريةُ للدينِ لَمَا:

- تقاتلَ الكاثوليكِ والبروتستانتِ في إيرلندا لسنواتٍ طويلةٍ.
- تذابحَ وتهاترَ السنةُ والشيعةُ في عراقِ الأُمسِ وعراقِ اليومِ
وفي بلادٍ أُخرى.
- أضطهدَ اليهودُ المعاصرونَ بإعتبارهم قتلَ المسيحِ.
- تحاربَ الهنودُ الهندوس معِ الباكستانيين المسلمين.
- احتلَّت الجيوشُ الإسلاميةُ أقطاراً ونعتوا إحتلالهم فتحاً.
- دعى كثيرٌ من خطباءِ مساجدِ إلى قتلِ الكفارِ
اليهودِ والنصارى.
- مزَّقَ رعاغُ مسيحيون في الإسكندرية سنة 415 جسدَ
هيباتيا الرياضيةِ والفلكيةِ والفيلسوفةِ إرباً إرباً
بشكلِ هستيريٍّ داخلَ كنيسةٍ بتحريضٍ من مطرانِ
الإسكندريةِ.
- هاجمَ ويهاجمُ بعضُ وعَّاظِ الطائفةِ الإنجيليةِ
الإسلامَ على القنواتِ التلفزيونيةِ الأمريكيةِ.

- وَجِدَتْ محاكمُ التفتيش.
- حوكمَ غاليلو لِآرَائِهِ العلمية.
- قامَ رعاغٌ بمظاهراتٍ صاخبةٍ في كثيرٍ من أنحاء العالمِ الإسلامي حرقوا خلالها سفاراتٍ وهاجموا كنائسٌ وقتلوا راهباتٍ، إمَّا لِعبارةٍ لم يسمعوها وإمَّا لِصوَرٍ لم يشادوها وإمَّا لِروايةٍ لم يقرؤها.
- حُرِّقَ الفيلسوفُ برونو حياً بسببِ آرائِهِ الفلسفية.
- إحتلَّ العبرانيون قبلَ آلافِ السنين، بعد خروجهم من مصر، - إحتلوا - الأراضيَ الفلسطينيةَ وقتلوا سكانها بحجةٍ أَنَّ اللهَ (وكأنه مديرٌ طابو) وهبها لهم - كما يدَّعون - فَخَلِقْتُ القضيةَ الفلسطينيةَ الراهنة.
- حوِّلتُ مساجدُ الأندلسَ الى كنائسَ بعد تحريرِ إسبانيا من المسلمين.
- حوِّلتُ كنائسُ في إسطنبولَ الى مساجد.
- فُجِّرَ تمثالُ بوذا في أفغانستان من قبَلِ الطالبان المسلمين.
- حدثت حرب الثلاثين عاماً في أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت.
- وقعتُ الحربُ الأهليةُ اللبنانية.
- حدثتُ الحملاتُ الصليبيةُ بِقيادةِ البابا (المفترض فيه أن يكون نابذاً العنْفَ لكونه ممثلاً المسيح على الأرض) وعرَّجتُ جيوشُهُ في طريقها لِتحريرِ القدس من المسلمين الى اليونانَ وأوكرانيا والقسطنطينية كثيران هائجةً حاملين إشاراتِ الصليبِ على صدورهم وقتلوا إخوانهم في الدين المسيحي الأرثوذكسي وعاثوا فساداً لم يُنسَ وقعهُ حتَّى الآن.
- صدرتُ فتوىٌ بهدرِ دمِ الروائيِ سلمان رشدي.
- وقعتُ أحداثُ الحادي عشرَ من سبتمبر.
- ذَبَحَ الأتراكُ الأرمنَ ومسيحيين آخرين في بدايةِ القرنِ الماضي.

منير: يدعي المسيحيون أن القائمين بالأعمال الوحشية التي ذكرت بعضاً منها ليسوا مسيحيين بالمعنى الدقيق للكلمة. بل هم مسيحيون بالإسم فقط ما داموا غير نابذين العنف الذي أمر به المسيح. لقد سئمتُ من كثرة ما سمعتُ عن الدفاع الهزيل عن المسيحية، بالإدعاء أن القائمين بالأعمال الوحشية ليسوا مسيحيين سوى بالإسم ما داموا لا يتبعون تعاليم المسيح بالتسامح ومحبة الأعداء. إنه دفاع هزيل. إذ يمكن إستعمال نمط التفكير نفسه في الدفاع عن أي دين أو مبدأ من قبل معتق ذلك الدين أو المبدأ مهما ارتكبوا من أعمال وحشية. مثلاً: إذا كنت ميلاً الى الإسلام فتصفُ الانتحاريين مفجري أنفسهم أنهم ليسوا مسلمين حقيقيين بل منحرفين عنه. إذ لا توجد آية قرآنية ولا حديث نبوي يأمر أو يبرر تفجير مسلم لنفسه. وإذا كنت شيوعياً فتعزو الأعمال الإجرامية الستالينية الى إنحراف عن الماركسية اللينينية التي لا تتضمن كتبها نصوصاً تدعو الى تلك الأعمال.

من المؤكّد أن يعتبر دعاة ذلك الدفاع أنفسهم مسيحيين ملتزمين بالتعاليم السمحاء للمسيح. ولهذا أود توجيه سؤال اليهم: كم منكم يدير لي خده الأيمن إذا لطمتُ خده الأيسر؟

لا أنتظر جواباً، لكنني أحبُّ أن أذكّرهم بأن لا يشكّل سمو أو قدسية المبادئ محكاً حقيقياً لتقييمها، بل أن المحك هو مدى نجاح تطبيقها على نطاق واسع.

ربّما من المُجدي أن أُلّمح لهم أن التاريخ يبين أنه منذ إعتناق الإمبراطور قسطنطين الدين المسيحي الى هذا اليوم - سيان إن أوصى المسيح ببثُّ حبِّ الأعداء أم بالعكس أوصى بإبادتهم فإن رعاغ

المسيحيين بتشجيع كبار رجال دينهم تصرفوا بنفس همجية رعا ع الأديان الأخرى أو مماثلة له.

ومن المجدى أيضاً أن أشير لهم الى أن برمجة الأدمغة على إمتلاك الحقيقة المطلقة، التي تقوم بها جميع الأديان، هي التي تدفع الناس، سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين، الى القيام بأعمال وحشية معتقدين أنهم يرضون بأعمالهم الإله الذي يعبدون غير مبالين الى النصوص الدينية سواء كانت مشجعة أم ناهية.

بإختصار

إن الدين بطبيعته، وبسبب تلك البرمجة للعقول، يكون من أهم العوامل الرئيسية في شرذمة البشر الى فئات متعادية ومتخاصمة

منير: ركزت على الجوانب السلبية للأديان، لكن ألا تتفق معي أنه ليست كل جوانب الأديان سلبية. فلا بد أن يكون لها بعض الإيجابيات، وإلا لما إستدامت طوال آلاف السنوات في مختلف المجتمعات؟

نعم أتفق معك. لكن بدوري أود أن أسمع من خبرتك الشخصية، يا منير، ماذا يعتقد معظم الناس عن أهم إيجابيات الأديان؟

منير: أشكرك لإتاحة فرصة لي أن أعرض شيئاً من خبرتي المحدودة. أجد أغلب الناس المتدينين يعتقدون أن أهم إيجابيات الدين هي إستنبات القيم الأخلاقية في البشر. إذ يفترضون أنه لو لاجود الدين لساد الفساد والتفسخ الأخلاقي في

المجتمع وأُبيحَ القتلُ والإغتصابُ و السرقةُ والكذبُ
غيرها من الجرائم والموبقات، ممَّا يؤدي إلى إنهياره
هذا ما يعتقدُه معظمُ المتدينين .

لا أعتقد أنك تمنع في سماع رأيي الشخصي بشأن ما
يسودُ من معتقدات . إنني لا أرى أيَّ دليلٍ يدعمُ
إفتراضات المتدينين، بل هنالك أدلَّةٌ على العكس .

أُنني مثلك لا أتفقُ مع تلك الإفتراضاتِ . وقد ناقشناها سابقاً . أمَّا
الآن سأتحدثُ عن ناحيةٍ إيجابيةٍ أُخرى للأديان (خاصةً المسيحية).

إن الكنيسة قد رعتُ وشجَّعتُ خلال العصورِ الوسطى جميعَ الفنونِ
الجميلة، فأثَّرتِ الحضارةُ البشريةُ ثراءً لا يُنسى .

تصيينا الدهشةُ لِروعةِ وجمالِ الكاتدرائياتِ التي شيَّدها كبارُ
المعماريين، وتسلبُ عقولنا كمالُ وجمالُ التماثيلِ التي نحتها مايكل
أنجيلو، ونقفُ مبهورينَ أمامَ اللوحاتِ الفنيةِ المثيرةِ للعواطفِ التي
رسمتها ريشُ ليوناردو دافنسي وروفايليل، ومسحورينَ بِسَماعِ
الموسيقى الكنائسيَّةِ التي لحنها الموسيقارُ باخ وغيره . جاءت كلُّ تلكِ
الروائعِ من وحيٍ مشاعرٍ دينيةٍ عميقة .

كانت العصورُ الوسطى مفتقرةً الى مجالاتِ العملِ لخياراتٍ واسعة
أمامَ الفنانينِ الموهوبينَ وزملائهم لِكسبِ عيشهم . وكانت الكنيسةُ
آنذاك ذات هيمنةٍ ونفوذٍ والراعيةُ الرئيسيَّةُ للفنون، فمن المحتمُّ أن
تجذبَ أولئك الفنانينَ اليها وهم بدورهم ينجذبونَ نحوها لِلعملِ
لِحسابها وهم سعداءُ لِإتاحةِ فرصٍ لهم لِإفصاحِ عن قدراتهم الخلاقيةِ
الرائعةِ . شأنهم شأنُ كبارِ شعراءِ العربِ إذ لم يكنُ لديهم خياراتٌ
واسعةٌ ومثمرةٌ ومُثريَّةٌ سوى مدحِ الملوكِ والسلاطينِ والمتنفذينَ
بروائعِ قصائدهم الخالدات .

إضافة إلى ذلك تقدِّمُ المؤسساتُ الدينيةُ خدماتٍ جلييلةً للمجتمعِ منها:

- إنشاءُ مستشفياتٍ يُعالجُ في بعضها الفقراءُ مجاناً .

- إنشاءً دورٍ لإيواءِ العجزةِ والمشردين.
 - القيامُ بأنشطةٍ ثقافيةٍ وترفيهيةٍ للشباب.
 - إنشاءً مدارسٍ وكلياتٍ وجامعاتٍ أهليةٍ عاليةٍ المستوياتِ علمياً وثقافياً.
- مما لا ريب فيه أن رغم وراء هذه الخدماتِ دوافعٌ لنشرِ فيروس الدين، لكن يجبُ الإقرارُ أنها لا تخلو من فوائدٍ للمجتمع.

مَكَانَةُ الْمَرْأَةِ فِي الْأَدْيَانِ التَّوْحِيدِيَّةِ

منير: مسكينةُ المرأةُ. جميعُ الأديانِ ومعظمُ المجتمعاتِ. تنقلُ من دورها في الأسرةِ والمجتمعِ، بل تحطُّ من منزلتها. أرجو أن تزوِّدَ القارئَ بنبذةٍ عن معاملةِ المرأةِ في الأديانِ الإبراهيميةِ التوحيديةِ.

تشيرُ نصوصُ قرآنيةٌ وأحاديثُ نبويةٌ وسلوكُ المجتمعاتِ الإسلاميةِ الى الحطِّ من منزلةِ المرأةِ فتصفها أنها ناقصةُ عقلٍ ودينٍ وإذا مرَّتْ أمامَ المصلينَ الذكورِ تُفسدُ صلاتهم، ولا تُعتبرُ شهادتها أمامَ المحاكمِ مكافئةً لشهادةِ الرجلِ، وميراثها الشرعي لا يساوي ميراثَ أخيها الرجلِ.

في المملكةِ العربيةِ السعودية تُحكَّمُ بالجُلْدِ المرأةُ التي تسوّلُ لنفسِها مخالفةَ الدينِ والتقاليدِ بسياقتها سيارةً!!! وهو حُكْمٌ — طبعاً — عادلٌ ما دامَ عقلُها ناقصاً!!!

وكنتيجةً طبيعيةً لكلِ ذلك تُحرَّمُ من حقِّ التصويتِ والترشيحِ في الإنتخاباتِ البرلمانيةِ. كيف يمكنُ أن تصوّتَ وهي ناقصةُ عقلٍ!!! كأن جميعَ المصوتينَ والمرشحينَ من الرجالِ كاملو العقول!!!³⁵

ولا بدَّ أيضاً حفاظاً على بنيةِ المجتمعِ فصلِ الجنسينَ عن بعضهما في مراحلِ الدراسةِ كافةً كما هو متبعٌ في بعضِ الدولِ الإسلاميةِ.

وتُعتبرُ المرأةُ في المجتمعاتِ الإسلاميةِ موضعَ إثارةٍ للشهواتِ الجنسيةِ الجياشةِ للرجلِ. لا أحدٌ يعلمُ — سوى الشيطانِ

اللعين - ماذا سيحدثُ إذا ما وقعَ نظراً الرجلِ المسكينِ على
التضاريسِ الفاتنةِ لجسدها. فَيَتَّوَجَّبُ عليها - كي لا تُثِيرَ غرائزه
- تغطيةً جسمها كاملاً!!!

ويبدو أن المرأةَ تمتلكُ شحنةً كهربائيةً يمكنُ بمجردِ مصافحةِ رجلٍ
متزمتِ إسلامياً تفريغها صعقةً مدوّخةً تبطلُ وضوءه !!! كما يكمنُ
بين ساقها شرفُ العائلةِ أو العشيرةِ بكاملها. فلا بد إذن أن
يصاحبها "مَحْرَمٌ" عند سفرها خارجَ البلادِ صوتاً لذلك الشرف!!!!

منير: يُؤكِّدُ منتقدو الإسلام، على توافرِ آياتِ
قرآنيةٍ وتفاسيرٍ إنتقاصيةٍ من منزلةِ المرأة. لكن
أجدُّهم يتجنبونَ التنويهَ عن مكانةِ المرأةِ لدى
أديانهم.

هل ترفدنا بأمثلةٍ من الكتابِ المقدسِ تبينُ أن منزلةَ
المرأةِ أدنى من الرجلِ في المسيحيةِ واليهودية؟
يبتعدُ منتقدو الإسلامِ الذين لا ينوّهون عن المكانةِ المتدنيةِ للمرأةِ في
الأديانِ الأخرى عن الموضوعيةِ الأكاديمية.

سأطرحُ في هذهِ المقابلةِ بعضَ المقولاتِ من العهدينِ الجديدِ والقديمِ
التي تنصُّ على أن منزلةَ المرأةِ في الديانتينِ المسيحيةِ واليهوديةِ
أدنى من منزلةِ الرجلِ لا دفاعاً عن الإسلامِ ولا تحيزاً له ولا تماشياً
معه، إنما إبتغاءً للموضوعيةِ وعلى تعزيزِ رأيي - الذي أنفكُ أُعبرُ
عنه - بوجودِ تشابهٍ بين الأديانِ المختلفةِ.

يقولُ القديسُ بولص - المؤسسُ المشاركُ للمسيحيةِ - في رسالتهِ
الى أهلِ كورنتوس:

أريدُ أن تعلموا أن رأسَ كلِّ رجلٍ هو المسيحُ وأماً
رأسُ المرأةِ فهو الرجلُ... لأن الرجلَ ليس من

المرأة بل المرأة من الرجل ولأن الرجل لم يُخلق
من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل.

يردُّ الكاهنُ هذه العبارة – حتى في القرنِ الحادي والعشرين –
أمام العروسين عند إجرائه المراسيم الدينية لعقد الزواج كي يُذكَّر
العروس بمنزلتها الأدنى أمام زوجها المستقبلي، لكنها في أغلب
الحالات تسمع ولا تعي ما تسمع.

وفي رسالة أُخرى للقديس بولص الى أهل كورنتوس يقول:

فَلتصمتن نساؤكم في الكنائس لأنه ليس ما ذونا
لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس
أيضاً. ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئاً
فليسالن رجالهن في البيت لأن قبيح بالنساء أن
تتكلم في الكنيسة.

لماذا لا يؤذن للمرأة الكلام والإستفسار في الكنيسة؟ أليس معناه أن
المرأة تُعتبر في المسيحية – كما في الإسلام – ناقصة عقل
وإيمان؟

أصرت الكنيسة الكاثوليكية ولا زالت تصرُّ على عدم السماح مطلقاً
للنساء أن يرسمن كاهنات ولا حتى شماسات. أليس السبب نفسه
الذي يُقدِّمه الدين الإسلامي نقصاً في عقلية المرأة ونجاستها؟

في إنجيل توما – وهو إنجيل يقتصرُ فقط على أقوال المسيح ولا
يتطرق الى أعماله ولا الى "المعجزات" المنسوبة اليه – نجد
المحادثة الغريبة الآتية:

قال لهم شمعون بطرس: 'دع مريم تتركنا لأن
الإناث لا يستحقن الحياة. قال يسوع: 'أنظر
ساقودها لأجعل منها ذكراً حتى تغدو هي أيضاً'

روحاً حياً مثلكم، أنتم الذكور. لأن كل أنثى
التي نجعل من نفسها ذكراً ستدخل ملكوت
السموات.

من المرجح أن المقصود بـ "مريم" هي مريم المجدلية. ومن الجدير بالذكر أن مريم المجدلية كانت "مقربة قرابة حارة من يسوع".
The especially close and warm relationship Jesus had with this woman.

حسب تعبير البابا بنديكس السادس عشر³⁶ وهناك تلميحات في الأناجيل عن وجود نوع من الغيرة عند تلاميذه بسبب قربها منه.

يختلف نمط قول يسوع الناصري عما معهود عنه.

ومن المستحيل فهم معناه دون الإلمام بمدرجات عالم ذلك العصر ويحتاج الى شرح مطول عما كان سائداً من مفاهيم وتصورات في تلك الحقبة من الزمن ليس فقط في الشرق الأوسط إنما في بلاد الإغريق والرومان.

كان الناس ينظرون الى الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) نظرة مختلفة تماماً عما يُنظرُ اليه اليوم. إننا الآن نرى الإنسان إما ذكراً وإما أنثى. لكن في العالم القديم الإغريقي والروماني لم يكن الناس يتصورون الجنسين بهذه الصيغة. لم يكن الذكر والأنثى عند أولئك الأقدمين نوعين متكاملين من البشر إنما كانا درجتين مختلفتين من الكمال.

إن الكون بكامله كان يجري - حسب الاعتقاد السائد آنذاك - على طيف من درجات الكمال: الجماد كان أقل الأشياء كمالاً تليه الأشياء الحية، النباتات أقل كمالاً من الحيوانات، يليها البشر، والنساء أقل كمالاً من الرجال، والرجال أقل كمالاً من الآلهة.

إننا نعلمُ من كتاباتِ الفلاسفةِ والشعراءِ الأغريقيِّ والرومانِ أن النساءَ كُنَّ يُعتبرنَ رجالاً ناقصينَ أو غيرَ مكتملينَ، إذِ إعتقدوا أنهن لم يكتملنَ نضوجهنَّ بما هو كافٍ في أرحامِ أمهتهنَّ!!!. ولذا لا تنمو عند الكِبَرِ عضلاتُهُنَّ ولا الشعرُ على وجوههنَّ ولا تتعمَّقُ نبراتُ أصواتهنَّ.

تلك الآراءُ، – في عالمِ تسوده آيدولوجيةُ القوةِ والهيمنةِ – جعلتُ النساءَ خانعاتٍ وبالتالي مستسلماتٍ الى الرجال. إن المرأةَ التي تبغي الوصولَ الى الكمالِ عليها أن تمرَّ الى المرحلةِ التالية خلالَ ذلك الطيفِ لتصبحَ بمثابةِ رجلٍ. فلا عجبَ أن تتماشى النصوصُ الإنجيليةُ والآياتُ القرآنيةُ – التي إنبعثتْ في تلك العصورِ – مع هذه التصورات فتقول إن المرأةَ ناقصةُ عقلٍ!!!

يفسِّرُ المؤرِّخُ الإنجيليُّ بارْتُ أهرمانُ قولَ يسوعَ الناصريِّ أن المعرفةَ التي يكشفُها يسوعُ الى مريمَ المجدليةِ تمنحُها ذلك التغييرَ المطلوب. فيمكنُ لكلِ امرأةٍ من خلالِ فهمِها لِتعاليمِهِ أن تصبحَ بمثابةِ ذَكَرٍ يؤهلُها دخولَ الجنةِ!!!!

من الجديرِ بالذكرِ أن إنجيلَ توما يُعتبرُ من الأناجيلِ المنحولةِ، وقد أُكتشِفَ مخطوطُهُ في مصرَ سنةَ 1945. ينبغي التشديدَ عليَّ أن عدمَ الإِعتِرافِ الكنسيِّ بِالأناجيلِ المنحولةِ لا يعني مطلقاً أن كل ما تحويه باطلٌ ومتعارضٌ مع تعاليمِ الكنيسةِ كما يحلو أن يتصورَ بعضُ المسيحيين. في الحقيقةِ، إن بعد أن بلورتُ الكنيسةُ معتقداتها في القرونِ الأولِ إكتفتْ بِالإِعتِرافِ بِالأناجيلِ الأربعةِ مرقسٍ ومتيِّ ولوقا ويوحنا وأعمالِ الرسلِ ورسائلِ بولصٍ وتركتُ الأناجيلَ الأخرى ونعتتها منحولةً. أمَّا بالنسبةِ الى إنجيلِ توما فحوالي نصفُ الأقوالِ الواردةِ فيه مألوفةٌ في الأناجيلِ المعترفِ بها كنسياً.

منير: تكلمت عن مكانة المرأة لدى الدينين الإسلامي والمسيحي. إني أعلم، من دراستي اللاهوتية في لبنان، توافر تعابير في العهد القديم مهينة للمرأة.

من أغرب الأمور في العهد القديم أن الله نفسه الذي من المفروض قد خلق المرأة يعتبرها نجسةً دورياً إضافةً الى أنه يجعل فترةً نجاسة المرأة عندما تلد أنثى ضعف الفترة عندما تلد ذكراً!!! إذ يقول:

كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
إِذَا حَبِلَتْ امْرَأَةٌ وَوَلَدَتْ ذَكَرًا تَكُونُ نَجِسَةً
سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَإِنْ وُلِدَتْ أَنْثَى تَكُونُ نَجِسَةً
أُسْبُوعَيْنِ.

لماذا هذه التفرقة الإلهية!!!!. يبدو أن كروموسومات وجينات حواء الملوثة بالخطيئة الأصلية ما زالت تتوارثها النساء!!

يقول العهد القديم في نصوصٍ مختلفةٍ بشأن المرأة:

- المرأة بلا حياءٍ سوف تُعتبرُ مثل الكلب.
- من الملابس يأتي العثُ ومن النساء تأتي الشرور.
- أيُّ وباءٍ ما عدا الوباء للقلبِ وأيُّ فجورٍ ما عدا الفجور للمرأة.
- من المرأة جاءتُ بداية الخطيئةِ ومن خلالها نموتُ جميعاً.

لكن العهد القديم لا يقول عباراتٍ مماثلة بشأن الرجل.

هل يختلفُ هذا عن موقف الإسلام من المرأة؟

أكرر، إن الأديان متشابهةٌ الى حدٍ كبير.

أما نظرة الرجل المعاصر في الغرب الى المرأة فهي – على الرغم ما يُقال العكس – متدنية أيضاً، لكن بصيغة معاكسة ومختلفة عن نظرة أخية الشرقي، فالغربي يوظف تضاريس جسدِها كسلعة يتاجرُ بها على المستويات كافة بهدف التكسب.

إن إلقاء نظرة على خطوط الأزياء النسائية ومسابقات ملكات الجمال والإعلانات التلفزيونية والمجلاتية والكثير من الأعمال الفنية تبين تسخير الرجل الغربي جسم المرأة للأستمتاع الذكوري.

ومن التقاليد المرعية عند مراسيم الزواج لدى المسيحيين في الغرب والشرق أن يقود الوالد (أو كبير العائلة) العروس ويسلمها بيده الى عريسها (بعد أن أهداها العريس ذهباً وماساً)، كأنما هي بضاعة أُشترت وبيعت ويسلمها كبير العائلة على شكل Delivery الى العريس. ونتيجة لهذه الصفقة التجارية، تغدو ملكاً لزوجها وعائلته، فتأخذ – في أغلب الأوساط الغربية – اللقب العائلي لزوجها.

في الوقت الذي أتفهم أن هذه تقاليد توارثناها من عصور المجتمعات الزراعية الغابرة، لكنني لا أستطيع تفهم كيف أن لا تشعر إبنة القرن الحادي والعشرين أن تلك التقاليد البالية تنم في عصرنا الراهن عن حط في مكانتها. إلا أن ما هو أشد غرابة هو أن المرأة نفسها تعتبر تلك التقاليد تكريماً لها وإعتزازاً بها!!!

بإختصار

إنني لا أرى إختلافاً كبيراً وجوهرياً بين مواقف الأديان فيما يتعلق بمعالجاتها موضوع منزلة المرأة بالنسبة الى الرجل. الإختلاف فيما بينها تباين في الدرجة. ولعل أوطأها درجة، في الوقت الراهن، موقف الإسلام.

مُقَاوَمَةُ الدِّينِ لِمُسْتَجَدَاتِ الْعُلُومِ

منير: قاومتْ معظمُ الأديانِ عبرَ العصورِ ولا زالتْ تُقاومُ تطوراتِ في عِلْمِ الفلكِ والجِولوجيا والوراثةِ والتطوُّرِ وعلومِ الحياةِ والطبِّ وغيرها من العلومِ .
سؤالِي : ما هي - بِإِعتقادِك - أسبابُ تلكِ المقاوِمةِ؟

الخوفُ والتخويفُ من أهمِّ الأسبابِ. إذ أنهما إستراتيجيَّابُ أساسيَّهٗ تعتمدُها معظمُ الأديانِ للسيطرةِ على عقولِ البشرِ.

أعتقدُ أغلبُ المتدينينِ خلالَ الأزمنةِ المنصرمةِ (والحاليةِ الى حدِّ ما) بِدرجاتٍ متفاوتةٍ أن الأمراضِ والأوبئةَ دلائلُ إِمَّا على عقابِ إلهيِّ لِحطِيبةٍ أُفترقتْ وإمَّا نتيجةَ عملِ الشيطانِ اللعينِ. فيتوجبُ (بناءً على هذا الإعتقاد) إسترضاءَ الآلهةِ بِدفعِ أموالِ الى رجالِ الدينِ أو الى المؤسساتِ الدينيةِ لهدفِ الصلاةِ من أجلِ تجنُّبِ أو شفاءٍ من مرضِ.

هكذا إستطاعَ فيروسُ الدينِ إستحداثَ حلقةٍ تخويفيةٍ مغلقةٍ تربطُ الدينَ بِالخطيئةِ، والخطيئةَ بِالمرضِ، والمرضَ بِالدينِ. لكن عندما إكتشفَ العلماءُ أن المسبباتِ الحقيقيةَ للأمراضِ ليست عقوباتٌ تُنزلُها الآلهةُ ولا أعمالُ شيطانيةٌ، إنما هي جراثيمٌ وفيروساتٌ وطفيلياتٌ ومخاطرٌ بيئيةٌ، حينئذٍ أخذتْ تضعفُ حلقةُ "الدينِ - الخطيئةِ - المرضِ - الدينِ". وتعلَّمُ الناسُ تدريجياً وسائلَ التحفظِ من الإصاِبةِ بِالمسبباتِ الحقيقيةِ لِلأمراضِ. وتعودوا على غسلِ أياديهمِ بدلاً من الخوفِ من اللهِ والإعتمادِ على الصلاةِ، وأخذوا يدفعونَ أُجورَ الأطباءِ ويشترونَ الأدويةَ عوضاً عن أن يدفعوا أموالاً الى الكهنةِ. هكذا فيروسُ الدينِ يجدُ العِلْمَ تهديداً لِوجودِهِ. هذا أحدُ أسبابِ الصراعِ بينِ العِلْمِ والدينِ.

أما في هذه الأيام فقد وعى معظم الناس الى الأسباب الحقيقية للأمراض، وأصبح المغالون في التدبير يراجعون الأطباء ويشترون الأدوية ولزید من الإحتياط والسلامة يعولون على الصلاة في الوقت نفسه!!!

سارت عملية إستبدال الخرافة بالعلم في معالجة البشر من الأمراض الجسمية والعقلية ببطئ شديد.

في القرون الوسطى أُعْتَبِرَت الأوبئة دلائل على إستياء إلهي، يُسجَل التاريخ مواقف قد نطنها، في وقتنا الحاضر، ضرباً من ضروب المزاح والخيال:

● كانت تُعزى - حتى الى وقت قريب - أسباب أنواع من الجنون الى إمتلاك الشيطان للمريض مثلما كان الحال في قصص الإنجيل. وكان العلاج بأسلوب تعذيب المريض جسدياً، معتقدين أن تعذيب المريض يُزعج الشيطان فيهرب مولياً الى خارج المريض!!!

● كانت تُؤول أمراض كثيرة الى السحر. أُحْرِقَتْ - حتى في زمن قريب نسبياً أي عند نهايات القرن السابع عشر - ما لا يُحصى من نساء بريئات على أنهن ساحرات إعتماًداً على نص في الكتاب المقدس الخروج 22/18 حيث يقول:

لا تدعُ ساحرةً تعيش.

● أُعْتَبِرَ إستعمال التخدير في البداية حراماً خاصةً على النساء عند الولادة لأن "الكتاب المقدس" نصَّ على أن آلام الولادة عقوبةً أنزلها الله الرحيم الغفور على المرأة لسبب خطيئة جدتها الكبرى حواء!!!! ويروي المؤرخون أن في سنة 1598 حُرِقَتْ سيدة إسكتلندية وهي حية لسعيها الى الحصول على إسعافٍ للتخفيف من آلام الولادة.

● يمنعُ شهود يهوا نقل الدم الى مريض في حاجة الى دم حتى ولو أدى الى وفاته. والمخالف يطرد من الشهود بناءً على سفر أعمال الرسل 20/15 الذي ينصُّ على:

بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخروق والدم

- شجب كثير من المتدينين في القرن التاسع عشر الجراح سمپسون لإكتشافه وإستعماله الكلورفورم للتخدير. لكنه إستطاع بدهائه إفحامهم بأن إستعمال التخدير في العمليات الجراحية على الرجال (في الأقل) لا يتعارض مع الدين. إذ أن الله حين أراد خلق حواء، وضع الله آدم في سبات عميق قبل عملية إستئصال أحد أضلاعه. فصرخ سمپسون على رجال الدين قائلاً: "أليس هذا الإجراء الإلهي تخديراً؟ فلماذا إذن أيها السادة الميجلون تعارضونه؟" لاذ المتدينون بالصمت.

ورغم تلك "الفتوى" إستمر الذكور منهم في معارضة التخدير على النساء أثناء الولادة!!!!

منير: من المؤكد أن واضعي قائمة "أسماء الله الحسنى" لم يطلعوا على هذه الفتوى ولذا أقترح إضافة "الخدير" إليها.

إقتراح ممتاز يا منير.

هنالك كثير من أمثال هذه المعتقدات المعمول بها حتى في القرن الحادي والعشرين.

منير يميل كثير من المسيحيين الذين لا زالوا مؤمنين بإحتواء "الكتاب المقدس" على كلمة الله - يميلون - الى تناسي وفاة آلاف من الأبرياء وفاة مُمضة بسبب أن الناس في وقت ما إتخذوه دليلاً لسلوكهم.

دعنا الآن نتناول معتقدات المتدينين بصورة عامة والمسيحيين منهم

بصورة خاصة قبل عصر تفجر التقدم الهائل للعلوم في القرن السابع عشر.

من المعتقدات التي سادت في تلك العصور عند كل الأديان تقريباً أن الأرض مركز الكون وهي محاطة بدوائر عديدة من الأجسام السماوية، وتوجد الى خارج الدوائر السماء العليا حيث يسكن الله وملائكته.³⁷

كان الاعتقاد الشائع عند المسيحيين بصورة خاصة أن الكون بأجمعه قد خلق قبل حوالي ستة آلاف عام، وبالضبط في سنة 4004 قبل الميلاد. وأن الله خلق الإنسان على صورته ومنحه إرادة حرة، رغم معرفة الله العليم المسبقة أن إمتلاك الإنسان إرادة حرة ستؤدي به الى الخطيئة، ويقتضي العدل الإلهي معاقبة الخطاة. وكان الله قد أبلغ آدم وحواء ألا يأكلا ثمرة شجرة معينة. لكنهما فعلا بإغواء شيطاني. فأستحقا عقاباً أبدياً، ليس لهما فقط بل لنسلهما أيضاً!!!! لكن الله غير رأيه بعد أربعة آلاف سنة!!!

منير أباد الله خلال الأربعة آلاف عام - حسب

الأساطير التوراتية - بطوفان شامل لجميع البشر
باستثناء ثمانية أشخاص.

كنت أقول قبل أن تقاطعني يا منير، إن الله غير رأيه بعد أربعة آلاف عام فقرر - حسب معتقدات المسيحيين - بعدله غير المنتهي إتباع سيناريو شديد التعقيد، وبدافع حبه اللانهائي للبشر، أرسل الى

من أشد ما يدعو الى الإستغراب ما قرأت عن المملكة العربية السعودية بأن المملكة إهتزت في بداية ثمانينيات القرن الماضي بسماعها أن الأرض تتحرك والشمس ثابتة. فقد صرح الشيخ بن باز مفتي السعودية في ذلك الوقت قائلاً: "يقول كثير من مدرسي علوم الفلك بثبوت الشمس ودوران الأرض. هذا كفر وضلال وتكذيب للكتاب والسنة وأقوال السلف". ثم يحاول عرض أدلته الساذجة على تناقضات حسية فيما لو كانت الأرض تدور. ويضيف مستطرداً إن تدريس دوران الأرض للتلاميذ على أنها حقائق ثابتة يؤدي الى أن يتدرع بها أولئك التلاميذ على الإلحاد..... ثم يستشهد بآيات قرآنية معززة لموقفه.

الأرض "الله - الإبن" ليتكفل العقوبة الإلهية المفروضة على جميع البشر بتحملها بمفرده تعذيباً وإهانةً وصلباً وموتاً ودفناً وشمّ القيامة، فداءً لهم من الخطيئة الأصلية الموروثة من جدّيهما الأكبرين آدم وحواء. ويُعفى نتيجةً لِفداءِ الإلهي منها كل مَنْ آمَنَ بِـ "الله - الإبن" مخلصاً ويكافؤ نتيجةً إيمانه بنعيمٍ أبديٍّ في الجنة.

إعتقدَ أغلبُ المسيحيين في تلك العصور أن "الكتاب المقدس" يحوي حقيقةً جميعِ الأمورِ الدينيةِ المهمةِ لأن كلماته أملاها الله على مؤلفيه البشر. لكن بعد مضي ستة قرونٍ إكتشفَ اللهُ - حسبما يعتقدُ المسلمون - أن البشرَ لا يُعولُّ عليهم في حفظِ ما يُملَى عليهم، فكَتَبَ اللهُ كتاباً بنفسِهِ وأنزله قرآناً على محمد!!!!

لا يُؤمنُ أغلبُ المسيحيين المعاصرين إلاّ بقليلٍ جداً من تلك المعتقدات. فأهملَ التعويلُ على التاريخ 4004، إهمالاً تاماً بناءً على إكتشافاتِ الجيولوجيين حَوْلَ عمرِ الأرض. لم يعدُ يُؤمنُ المسيحيون المعاصرون بِأن كل ما وَرَدَ في "الكتاب المقدس" حقيقةً صادقةً حرفياً. لكنهم لم يدركوا إدراكاً تاماً أن زخمَ التقدم العلمي شكّلَ العاملَ الرئيسيَّ المؤدّيَ الى موقفهم الحاليِّ العقلانيِّ نوعٍ ما.

منير أرجو أن تلقي نظرةً عاجلةً على أهم الثوراتِ

العلمية المؤديةِ موقفنا الراهنِ الأكثر عقلانية

من أهمِّ معتقداتِ كل الأديانِ مبدأً مركزيةِ الإنسانِ أي أن الهدفَ الرئيسيَّ لوجودِ الكونِ يكامله هو الإنسان. (Anthropocentrism)

من النتائجِ المباشرةِ لهذا الاعتقادِ النرجسيِّ إستحواذُ التصوّرِ على العقلِ البشريِّ بِأن الأرضَ مركزُ الكونِ. إذ لو كان حقاً أن الهدفَ المحوريَّ لِخلقِ الكونِ هو الإنسانَ لَحَتَمَ المنطقُ أن يكونَ مكانُ وقوفِ

وحركة "الهدف (أي الإنسان)" مركزاً للكون.

يقول الفيلسوف برتراند رسل:

تلَقَّى الإعتقادُ بمركزية الإنسان خلالَ مسيرة التقدم
العلمي منذَ القرنِ السادسِ عشرِ ضرباتَ عديدة .
كانت أشدّها الأولى تلكَ التي جاءتهُ منَ علمِ
الفلكِ الكوبرنيكي .

يدعو علمُ الفلكِ الكوبرنيكي أن الأرضَ ليستَ مركزَ الكونِ إنما هي
كوكبٌ دَوَّارٌ حولَ الشمسِ كسائرِ الكواكبِ الأخرى . وحتى الشمسُ
نفسها ليستَ مركزَ الكونِ، إنما هي مركزُ ذلكَ الجزءِ من الكونِ الواقعِ
في جوارنا القريبِ، ورغمَ أنها من الكَبَرِ بحيثُ يَسَعُ جوفُها أكثرَ من
مليونِ كوكبٍ بحجمِ أرضنا، إلا أنها مجردُ نجمةٍ متوسطةِ الحجمِ من
بين نجومٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى.

في الحقيقة لم يكنْ هذا الرأيُ بجديدٍ في القرنِ السادسِ عشرِ . إذ
كان معروفاً إلى حدٍّ ما لدى الإغريقِ، فكان بعضُ منتسبي المدرسةِ
الفيثاغورية يُدرِّسونَ ظاهرتي دورانِ الأرضِ اليوميِّ حولَ نفسها
ودورانِها السنويِّ حولَ الشمسِ . لكن لم يلقَ هذا الرأيُ – كما يبدو
– الدعمَ العلميَ والفلسفيَ في العصورِ الإغريقيةِ، فنُسِيَ تماماً
إلى أن بعثَ كوبرنيكسُ فيه الحياةَ . يظهرُ أن كوبرنيكسَ (1473-1543)
كان يتوقَّعُ ردَّ فعلِ الكنيسةِ السلبيِّ على آرائه . فتعمَّدَ بحكمته أن لا
يدفعَ كتابهَ للنشرِ إلى أن قاربَ من نهايةِ حياته . وفعلاً استلمَ النسخةَ
الأولى منه سنة 1543 وهو على فراشِ الموتِ . تقادى كوبرنيكسُ أثناءً

حياته الإدانةَ لأنه عرَّضَ نظريتهَ كفرضيةٍ مثيرةٍ للإهتمامِ فقط ولم
يدعمها بأدلةٍ وبراهين . لكنه أخذَ نصيبه من الإدانةِ بعد وفاته من قبل
زعماءِ الإصلاحِ الدينيِّ، وقد هرطقتُه الكنيسةُ الكاثوليكيةُ بعد أن عززَ
كيلر وغاليليو آراءه بأدلةٍ.

منذ بدايةِ نشرِ الفرضيةِ الكوبرنيكيةِ وحتى قبل دخولِ براهين كيلر
وغاليليو إلى مسرحِ الأحداثِ، عارضَ الكوبرنيكيةُ كبارُ زعماءِ

الإصلاح الديني أشدَّ معارضة. مثلاً نددَ المُصلِحُ الدينيُّ مارتن لوثر بقوله:

يرغبُ كوپرنيكسُ هذا الفلكيُّ المخادعُ الساذجُ
قَلْبَ نظامِ الفلكِ العلميِّ رأساً على عقبٍ ، ألا
يعلمُ بما أبلغنا الكتابُ المقدَّسُ أن يشوعَ بن نون
أمرَ الشمسَ وليس الأرضَ بالتوقفِ عن
الدورانِ؟

وشجب المُصلِحُ الدينيُّ جون كالقن قائلاً:

مَنْ الذي يتناولُ وَضَعَ سلطةِ كوپرنيكوس فوق
سلطةِ روحِ القدس؟

من الملاحظِ أن الكنيسةَ الكاثوليكيةَ ورجالَ الدينِ الآخرين تجاهلوا آراءَ
وكتابَ كوپرنيكس في بداية الأمرِ ، إمَّا لإعتقادِهِم بإمكانيةِ غُضِّ النظرِ
عنها لخلو كتابِهِ من حججٍ معرِزةٍ لآرائِهِ ، وإمَّا لأنَّهُم لم يكونوا بعدُ
واعينَ الى الوُقوعِ الكبيرِ لِأفكارِهِ. غيرَ أن الكنيسةَ سارعتْ الى إعلانِ
هرطقةِ كوپرنيكوس وآرائِهِ سنةَ 1616 حالما نشرَ غاليليو بحوثَهُ المتعلقةَ
بدورانِ الأرضِ حولِ الشمسِ ، فكان هجوُّمُ الكنيسةِ على الكوپرنيكيةِ
في غايةِ العنفِ. إذ قال أحدُ زعماءِ المهاجمين من الآباءِ اليسوعيين:

الإعتقادُ بحركةِ الأرضِ هو الهرطقةُ
الأكثرُ حُبثاً والأكثرُ قبحاً والأكثرُ خزيًا من
بين جميعِ الهرطقاتِ . إن ثباتَ الأرضِ
حقيقةٌ ثلاثيةُ التقديسِ .
أمَّا الإعتقادُ بدورانِها فيشكلُ حجةً ضدَّ
وجودِ اللهِ وضدَّ خلودِ الروحِ وضدَّ سرِّ
التجسدِ .

أصابَ هذا الأبُّ اليسوعي كبدَ الحقيقةِ بأن ليس هنالك أيُّ شيءٍ
يُزعزَعُ العقيدةَ الدينيةَ بقدرِ ما زعزعَ علمُ الفلكِ الكوپرنيكي.

حُرِّقَ الراهبُ الإيطاليُّ الكاثوليكيُّ الرياضيُّ والفيلسوفُ والمنجِّمُ والفلكيُّ جوردانو برونو سنة 1600 لمساندته الكوبرنيكية ولإدعائه وجودَ شمسٍ عديدةٍ مثل شمسنا وترجيحه إمتلاكها كواكبَ تحومُ حولها وإحتمالِ بعضها مأهولٌ بكائناتٍ شبيهةٍ بشرية.

وُلِدَ غاليليو غاليلي في إيطاليا سنة 1564. وكان رياضياتياً وفيزيائياً وفلكياً وفيلسوفاً ومخترعاً. ساهم مساهماتٍ كبيرةٍ في كل من تلك الحقول، ومن مخترعاته المحرارُ المتوافرُ الآن في بيوتنا. وقد صنعَ لنفسه تلسكوباً ودعى بعضَ رجالِ الدين لِيشاهدوا بأعينهم من خلاله عجائبَ الكون، منها ما إكتشفَ من أقمارٍ تدورُ حول كوكبِ المشتري ووجودَ جبالٍ ووديانٍ تُشوّهُ منظرَ سطحِ قمرنا الجميل، لكنهم إمتنعوا النظرَ فيه خشيةً أن يهتَزَّ إيمانهم.

أُحِيلَ غاليليو سنة 1632 في شيخوخته وهو فاقدُ البصرِ لِلمثولِ أمامَ محاكمِ التفتيشِ متهماً بِالهرطقةِ لِِدَعْوَتِهِ ودفاعه عن الكوبرنيكية ولإسنادها بِالبراهين. أُرْغِمَ وهو راکعٌ على التصريحِ علناً بِثباتِ الأرضِ عن الحركة، ويُقالُ إنه تمتمَ بعد تصريحه بِصوتٍ خافتٍ: "لكنها تدور". وبما أنه كان صديقاً لِلبابا أوربان الثامن حُكِمَ عليه حكماً مخففاً بِالإقامةِ المنزليةِ الجبريةِ وَبِتلاوةِ مزاميرِ التوبةِ أُسبوعياً!!!! توفى سنة 1642.

منير يُحكى أن أبنته الراهبة كانت تتلو مزاميرِ التوبة بدلاً عنه. أتذكر الى الآن ما درسته في الثانوية أن إسحق نيوتن، عملاقُ العلم، وُلِدَ سنة وفاة غاليليو. أليس كذلك؟

نعم، وُلِدَ نيوتن سنة وفاة غاليليو. ولذا كان يقولُ إنه يرى أبعدَ من غيره لأنه يقفُ على أكتافِ العمالقة. عملاقُ يقفُ على كتفِ عملاق!!!. إسحق نيوتن كما صرّحتَ — عملاقُ العلمِ لكنه كان عند ولادته من

صغر الحجم بحيث وصفته والدته أن من الممكن أن يوضع في داخل قنينة حليب!!!

بين نيوتن مستعيناً "بمدفعية" رياضيات جديدة³⁸ وبنظرية الجاذبية (اللتين هو الذي إكتشفهما) أن مسار أي كوكب حول الشمس يُشكّل شكلاً بيضوياً تقع الشمس عند إحدى بؤرتيه، (وليس دائرة كما تصوّر غاليليو. إذ أن للدائرة قدسيّتها بفضل كمالها الهندسي).

إن التجاذبات المتبادلة بين الكواكب الدوّارة حول الشمس تؤوّل - حسب نظريات نيوتن - إلى اضطرابات بسيطة في مسار كل منها، ورغم بساطة تلك الاضطرابات لابدّ أن تتراكم خلال بلايين سني وجود المنظومة الشمسية وتؤدي إلى زعزعة النظام الشمسي بكامله، فتتصادم قسم من الكواكب بعضها ببعض وتبتلع الشمس بعض توابعها وتهزّم كواكب أخرى من سيطرتها. وفي نهاية المطاف تُصبح الشمس نجمةً من دون كواكب تدور حولها.

لكن لم يحدث هذا خلال تلك البلايين من السنين. إذن لابدّ من سبب خفي يمنع تلك الاضطرابات البسيطة من التراكم خلال العصور الفلكية.

بعبارة أخرى: لابدّ من تمتع النظام الشمسي بالاستقرارية.

منير سبب خفي؟ إنها معضلة عميقة. لا يمكن

إلا أن تستثير تفكير العلماء وتأمل الفلاسفة.

إنني لا أدري بتأملات الفلاسفة. لكن من المؤكّد أن نيوتن كان مدركاً إدراكاً تاماً بهذه المعضلة المقلقة وأنه حاول جاهداً معتمداً على نظرياته وأدواته الرياضياتية بالكشف عن تفسير علمي لإستقرارية النظام الشمسي خلال بلايين السنين.

لكن نيوتن — رغم عبقريته — أخفق في مسعاه. فإضطرَّ أخيراً الى إقحام الله في الموضوع مُسَلِّماً أن سبب الإستقرارية يكمن في تدخُّل القدرة الإلهية بصورةٍ دوريةٍ لتعديل الانحرافات في مسارات الكواكب حفاظاً على إستقرار مسالكها وإعادة النظام الشمسي الى نصابه³⁹.

نجح نيوتن بتزويجه القدرة الإلهية مع الكوبرنيكية في تفادي إتهاماً بالهرطقة.

من مفارقات القدر أن نيوتن — ذلك العبقرى العظيم الذي أغلق بنتائج إكتشافاته وبحوثه المتعددة فجوات في المعرفة العلمية أكثر من أى عالمٍ آخر — إضطرَّ الى إقحام الله لتفسير مشكلةٍ علميةٍ لم يجد لها تفسيراً.

لا يخفى عليك أن الإفتراض بتدخل الهي مدغدغ لأحاسيس البشر النرجسية فيشعر كثيراً منهم أن الله يحرص على إستقرارية النظام الشمسي لأجلهم كي يضمن أن يكون للإنسان (الذي ينوي خلقه) مأوىً مستقراً على كوكبٍ مناسب.

بعبارةٍ أخرى يُعززُ التدخلُ الإلهيُ الغرورَ الذاتيَ الخادع.

منير من المؤكِّد أن أغلب رجال الدين طاروا فرحاً بإعادة الإعتبار الى مركزية الإنسان. لأن أي قشة تدل على أن الإنسان محور الكون تُشير الى أن هنالك "مُصم" قد فصل الكون لأجل البشر.

لا أعلم — يا منير — مَنْ طارَ فرحاً ومَنْ لم يطر. لكني أعلم أن كل مَنْ طارَ سقط. بعد قرابة قرن من تقدّم في الرياضيات النيوتنية وتطورها، برهن رياضياتياً على إستقرارية النظام الشمسي

رياضياتياً على إستقرارية النظام الشمسي الرياضياتي الفرنسي
 پيير سيمون لاپلاس (1749-1827) (Pierre-Simon Laplace) في كتابه
 "الميكانيك السماوي" ذي الأجزاء الخمسة البرهنة.

أهدى لاپلاس كتابه الى الإمبراطور ناپليون بوناپرت (ذي الإطّلاع
 الواسع في الرياضيات والفيزياء) الذي سأله:

مسيو لاپلاس لا أجد في هذا المجلد الضخم أي
 ذكرٍ للخالق .

فأجاب لاپلاس بمقولته المشهورة:

سيدي ، لا أحتاج الى هذه الفرضية .

فأغلق لاپلاس الفجوة العلمية التي أقلت نيوتن "بصمام" رياضياتي
 وليس إلهي. النظام الشمسي مستقر. فلا حاجة الى تدخل إلهي بين
 حين وآخر لتعديل الاضطرابات التي تحدث في النظام الشمسي.

قلنا أن الضربة الأولى على الاعتقاد بمركزية الإنسان جاءت من علم
 الفلك. أمّا الضربة الثانية فقد جاءت من علم الحياة، حين نشر
 تشارلس دارون (1809 - 1882) كتابه "أصل الأنواع" سنة 1859،
 الذي يقول فيه باختصار أن الحياة على الأرض تطوّرت بسيرورة
 الإصطفاء الطبيعي الذي بواسطته تتغير النباتات والحيوانات (ومن
 بينهم البشر) للتكيف مع بيئاتهم. وهو رأي يتعارض مباشرة مع ينص
 عليه سفر التكوين بأن الله خلق الإنسان على صورته، وأنه خلق كل
 نوع من الأنواع الحياتية خلقاً مستقلاً. لم يتحفظ سوى قليل من
 البيولوجيين آنذاك على التطور ضمن نفس النوع الحياتي.

إغتاظت الكنيسة وغضبت لأن كل آراء دارون تناقض "الكتاب المقدس"
 وأعلنته كافراً. شارك دارون في بداية الأمر في نقاشات علنية حول
 نظريته مع رجال الدين ومعارضين آخرين لنظريته. غير أنه أثر

الإنسحاب من النقاشات العقيمة مفضلاً للإنكباب والتركيز على إنجاز كتابه الثاني. لكن لم تكن مشكلة دارون معارضة الكنيسة، بل كانت إيما المرأة المؤمنة التي ما إنفكت تذكره بعذاب جهنم وتحاول أن تُثنيّه وتُعرقله عن العمل في تأليف كتابه. لكنه، بالرغم من ضغوطها، استطاع إكمال "أصل الإنسان Descendent of Man" سنة 1871. ولم تكن أيما سوى زوجته وأمّ أولاده العشرة.

بين دارون بوضوح أن النوع البشري Homo Sapiens منحدرٌ من جدٍّ مشتركٍ مع القردة العليا. جرح الغرور الذاتي لبني البشر جرحاً في الصميم. الإنسان المخلوق على صورة الله المتغطرس بآدميته والذي يذبح الحيوان لطعامه ويُدجنه لأعماله الشاقة ويصطاده للمتعة بمشاهدته في حدائق الحيوان، كيف يقبل أن يُقال عنه إنه من نسل حيواني؟

لا مناص من أن ترفض جميع المؤسسات الدينية فكرة التطور الدارويني. كيف يمكن أن يقبله الثيولوجيون وهم يؤمنون أن البشر — وليس القردة — يملكون أرواحاً خالداً وإحساساً بالصواب والخطأ مُستزراً فيهم بقدرة إلهية، بينما القردة يُوجه سلوكهم بالغرائز وحدها، وأن المسيح مات من أجل خلاص البشرية وليس من أجل خلاص القردة؟ صرخ أحد الأساقفة بوجه دارون مندداً:

إذا تطور البشر من القردة بخطوات صغيرة غير محسوسة بسبب صغرهما، فبأي لحظة اكتسبوا فجأة تلك السمة ذات الأهمية الكبرى ثيولوجياً؟

وتتوضح الفجوة الشاسعة التي وضعها الثيولوجيون بين الإنسان والحيوانات بموقف البابا پيوس العاشر عندما طلب منه دعم نظرية التطور أجاب قائلاً:

لا يمكن للكرسي البابوي الاعتراف بهذا الترابط
المؤسس على خطأ ثيولوجي للمسيحيين مدينين
بواجب الاحترام للحيوانات .

منير تناولت. في حينه وسائل الإعلام قسطها
بالتنديد والسخرية من دارون . ونشرت
إحدى الجرائد الإنكليزية كاريكاتيراً نال شهرة
واسعة، يُبين فيه رأس دارون فوق جسم قرد .
أعتقد أن من المفيد أن يشاهده قراء كتابك المرتقب .
فأرجو أن توافق على أن يكون متضمناً فيه .



أشكرُك على حرصك، يا عزيزي منير، سأعمل على تحقيق طلبك.

يجب الإقرارُ أنه كان من الصعبِ أنذاك على مَنْ يُؤيدُ نظريةَ التطوُّرِ الإستمرارَ في الدفاعِ عنها أمامَ وجهةِ نظرِ المعارضين لها. إذ إقتصرَت الأدلَّةُ الداعمةُ في نهاياتِ القرنِ التاسعِ عشرِ على الحوافرِ بصورةٍ رئيسيةٍ. وهي أدلَّةٌ يسهلُ الطعنُ بها. إلا أن النظريةَ تعززتْ خلالَ القرنِ العشرينِ بظهورِ أدلَّةٍ بوسائلٍ جديدةٍ، مثلاً بالإستعانةُ بالـ DNA . فَوُجِدَ على سبيلِ المثالِ تطابقٌ %99 من الـ DNA البشري مع مثيله للشimpanزي.

أخيراً بناءً على الأدلَّةِ المتراكمةِ إضطرتْ الكنيسةُ الكاثوليكيةُ على التراجعِ عن معارضتها للتطوُّرِ. إذ أعلنَ البابا جون بولص الثاني سنةَ 1992 إعترافَ كنيستهِ بها كحقيقةٍ علميةٍ مَثَلُها مثلُ نظريةِ الجاذبية، وأقرَّ بما تدَّعي نظريةَ التطوُّرِ من أن جسمَ الإنسانِ يتشاركُ مع القرودِ العليا في تطوُّره من جدٍ مشتركٍ منقرضٍ على الأرجح. لكن البابا خطى خطوةً تراجعيةً يُعيدُ للبشرِ بعضَ غرورهم الذاتيَ بأن ما زالتْ لهم مكانةٌ خاصةٌ عند "رَبِّ العالمين" فقال:

إن اللهَ يخلقُ الروحَ عندَ الإنسانِ بتدخلٍ مباشرٍ .

أوقعَ البابا بخطوتهِ التراجعيةِ نفسه في مأزقٍ. فهو لا يستطيعُ الجوابَ عن السؤالِ الآتي:

من أي نوع من أشباه البشر بدأ اللهُ يخلقُ لأفرادِهِ أرواحاً هَلْ من:

Homo-Sapiens أم Homo Habilis أم Homo

Erectus من أم غيره من الأنواع؟

بسببِ عدمِ وجودِ خطوطٍ حادةٍ وواضحةٍ فاصلةٍ بينِ مختلفِ أنواعِ أشباه البشرِ.

ورغمَ التقدمِ العلميِّ الداعمِ لِنظريةِ التطورِ وإعترافِ الكنيسةِ الكاثوليكيةِ بها، لا زالَ الأصوليونِ الدينيونِ يهاجمونها مراراً وتكراراً ولكن يندُرُ أنْ تُصدِرَ هجماتُهم من مواقفَ تدلُّ على فهمٍ حقيقيٍّ لِلنظريةِ وإستيعابِ الی كيف يتمُّ التغيُّرُ التطوريُّ في الكائناتِ الحيةِ. ولا زالتُ تُجرى محاولاتٌ جديَّةٌ لِعرقلةِ تدريسِ النظريةِ الی يومنا هذا في المدارسِ الأمريكيةِ

تأملاتٌ حولَ الحَيَاةِ وَالْمَوْتِ

منير: صرّحتَ سابقاً أنَ الثيولوجيينَ يُؤمنونَ بِإملاكِ
البشرِ أرواحاً خالداتٍ. يؤوّلُ خلودُ الروحِ الى أن
هنالك حياةً بعد الموتِ.
سؤالِي: مارأيك حولَ وجودِ حياةٍ بعد الموتِ؟

لا يوجدُ أيُّ سببٍ أو دليلٍ ماديٍّ علميٍّ منطقيٍّ يدعمُ فكرةَ وجودِ
حياةٍ - بعدَ - الموتِ.

سوفَ أسعى في الجزءِ الأولِ من إجابتي الى تبيانِ أسبابِ نشوءِ
هذه الفكرة. ولن أسعى الى إقناعِ القارئِ برأيي. كي أوضحَ الأطرَ
الفكريةَ والبوصلةَ العقليةَ التي أوصلتني الى رأيي، أعتقدُ أن من
المفيدِ البدءَ بتثبيتِ شروحٍ موجزةٍ عن حقائقٍ معروفةٍ في الوسطِ
العلميِّ عن الحياةِ والموتِ.

يملكُ كلُّ نوعٍ، من عشراتِ الملايينِ من أنواعِ الأحياءِ التي ظهرتْ
على كوكبنا الأرضي، وسيلةً تساعدُه على الكفاحِ في سبيلِ بقائه
كفردٍ وعلى ديموميةِ وجودِ النوعِ بكامله. ولهذا توافرَ لبعضها زعانفٌ
ولأخرى أجنحةٌ وبعضها الآخرُ مخالبٌ. كما تطوّرتْ بعضُ الكائناتِ
لتمتلكَ أشكالاً مختلفةً من "جيلٍ" فيزيائيةٍ وكيميائيةٍ. وتطوّرتْ لِنوعِ
مُسَمّى علمياً "النوعِ العاقلِ" Homo Sapiens دماغاً معقداً أشدَّ
تعقيداً من أيِّ من أدمغةِ أفرادِ الأنواعِ الأخرى. فصارَ دماغُه من أهمِّ
أسلحتهِ في سبيلِ البقاءِ، إن لم يكنْ أهمُّها على الإطلاقِ. إذ أصبحَ
بواسطتهِ قادراً على التفكيرِ والتأمّلِ والتخيلِ وحلِّ المشاكلِ والسيطرةِ
جزئياً على البيئَةِ. وإستطاعَ - بإستثمارِ قابلياته العقليةِ خلالَ
المئةِ أَلْفِ سنةٍ الأخيرةِ من وجوده - على النظرِ الى نفسهِ وإكتشافِ
كيفيةِ تطوره، ثمَّ وطأَ بِقدمه سطحَ القمرِ.

لا أدعي أبداً بأنني أقول شيئاً جديداً، إن الهدف من تأكيدي عليها تبيان أن هذه القابلية العقلية نفسها سيف ذو أكثر من حدين. وهي قد أدت ولا زالت تؤدي بنا نحن البشر الى ظاهرة نفسية جماعية سميتها في مقابلة سابقة "خداع غرور العقل".

خداع غرور العقل هو - حسب رأيي - مفتاح الموضوع المطروح.

مثلاً، السراب هو خداع البصر يوهم الناظر بوجود ماء لا وجود له، كذلك غرور البشر بقابلياتهم العقلية خدعهم في مواقف ليست قليلة الى مسير في دروب خاطئة معتقدين أنهم سائرين على جادة الصواب، فتجذرت المسيرات في وعي الإنسان الى درجة تتطلب تعديلها جهداً كبيراً وزمناً طويلاً وفي الغالب تضحيات عديدة.

منير: أرجو أن تزودني بأمثلة عن كيف أدى ما

سميته "خداع غرور العقل" بالبشر الى المسير في

دروب خاطئة كلفت البشرية تضحيات جسيمة.

ينبغي، قبل الدخول في صلب الموضوع، أن أبين - لغرض

التوضيح - من خلال مثال أو مثالين أن ظاهرة خداع غرور العقل⁴⁰

أوقعتنا نحن البشر في مازق.

نظر البشر قبل مئات آلاف السنين الى السماء. رأوا الشمس

المتوهجة تنير لهم نهرهم⁴¹ والقمر الساطع يضيء لهم بعض لياليهم

40

من الأمثلة الأخرى: إدعاء اليهود أنهم شعب الله المختار، وإدعاء العرب المسلمين أنهم خير أمة أخرجت للناس، وإدعاء النازيين أن الجنس الآري أفضل الأجناس البشرية، وإدعاء أن الشعب

الأمريكي متميز Exceptional

41

نهر جمعُ نهار.

والنجوم قناديل متلألئة تُهديهم في أسفارهم، فتصوروا منخدعين أو إنخدعوا متصورين أن الكون بكامله وُجد من أجلهم. وكنتيجة حتمية لوهمهم إعتقدوا أن على الشمس والقمر الدوران حول المكان الذي يقفون عليه. ودونوا تصوراتهم النرجسية في كتب أضفى بعضهم عليها قدسية عظيمة فعدت مصدراً على تجذّر وإستدامة الإنخداع طوال آلاف السنين. لكن عندما أعلن كوپرنيكس سنة 1543 إكتشاف دوران الأرض حول الشمس على عكس مما أُعتقد سابقاً، شعر البشر بإنطواء إكتشافه على تدنٍ في سمو منزلتهم الكونية. لم يصدق معظمهم إمكانية زيف حواسهم. فجرح غرورهم بالصميم. ولس رجال الدين⁴² المهيمنون على تلك "الكتب المقدسة" بتناقض هذا إكتشاف تناقضاً صارخاً مع ما تنص عليه كتبهم، فمُنع كتابه وحُرب دعاة الإكتشاف وسُجن العالمُ غاليليو وحُرق الفيلسوفُ برونو.

لكن بفضل جهود العلماء والمفكرين إقتنعت أغلبية البشر بعد عدة قرون أن موقع الإنسان ليس مركز الكون وأن الشمس والقمر والنجوم لم تنوجد لأجل إمتاعهم. أخيراً وبعد مضي أكثر من أربعة قرون من الإكتشاف إعتذر البابا يوحنا بولص الثاني سنة 1992 عن أخطاء وتصرفات كنيسته لمواقفها من أولئك العلماء الكبار.

أمّا المثال الثاني الذي أودُّ طرحه عن خداع غرور العقل فقد تطرقتُ إليه بصورة أو بأخرى في مقابلة سابقة. لكن لأبس من الإعادة. يقول المثل في الإعادة إفادة.

من المفارقات شعور كثير من الناس بالشفقة على أرنب مسكين إذا إقتنصه نسر، وعلى غزال إذا إصطاده أسد. لكن لا يشعر معظم الناس بالشفقة عند ذبحهم أرنباً أو غزالاً ليكون طعاماً لهم. إن ما يعتبره الإنسان حلالاً له يُحرّمه على الحيوان ويعتبر النسر

والأسد معتديين.

نصّب الإنسان نفسه ملكاً نرجسياً على جميع الأحياء، منخدعاً بعقله وسيطرته على الحيوان والنبات، فراح يوزع النعوت جزافاً فيصف العقرب بأنها حشرة مضرّة يجب سحقها ويصف الذئب بأنه آثم يجب القضاء عليه.

لقد نسي الإنسان أو تناسى أن لدغة العقرب أسلوب للدفاع عن نفسها مثلما يدافع هو عن نفسه، وأن سرقة دجاجة يقوم بها ثعلب لتكون طعاماً له مثلما هي طعام للإنسان. إلا أن أعداداً غير قليلة من البشر لم تدرك تمام الإدراك بأن جميع أنواع الأحياء (ومن ضمنها الإنسان) في تنازع على البقاء. كل نوع "مبرمج بالتطور" للدفاع عن نفسه ولتكون أنواع أخرى من الأحياء طعاماً له كي يستطيع البقاء كغيره وكي يستديم النوع بكامله على البقاء⁴³.

لكن عندما جاء دارون بكتاب "أصل الإنسان" سنة 1871 شارحاً فيه نظرية التطور ومبيناً بأدلة علمية أن جميع الأنواع ومن ضمنها الإنسان هي نتاج سيرورة تطورٍ إستغرقت ملايين السنين. صُعب معظم الناس. كيف يمكن إنحدار الإنسان من أصل حيواني؟ هذا مستحيل!! جرحت هذه النظرية العلمية غرور البشر وخذشت نرجسيتهم وتعارضت مع الأساطير التي كتبها بعضهم وأسبغوا عليها قداسة مدعين أن الله أنزلها أو أوحى بها والتي تنص أن الكون بكامله قد تم خلقه خلال ستة أيام فقط. كيف إذن يتناول هذا المدعو دارون مدعياً إستغراق عملية التطور والتكوين ملايين السنين وجاعلاً البشر منحدرين من نسل حيوانٍ منقرض؟

قام رجال الدين على إختلاف أديانهم وطوائفهم يسخرون من فوق منابرهم على دارون بشتى أنواع السخريات ومن المرجح أن أغلبهم

لم يقرأ لدارون شيباً.

مُنِعَ تدريس النظرية في بعض المدارس الأمريكية الأمر الذي أدى الى دعوة قضائية ضد مدرس كان يُدرّسها فأجريت المحاكمة المشهورة في ولاية تنسي الأمريكية سنة 1925، سُميت Monkey Trial ونالت شهرة عالمية ثم أصبحت موضوع فيلم سينمائي رائع تحت عنوان Inherit The Wind

عُزِزَت نظرية التطور خلال القرن العشرين بمزيد من أدلة علمية دامغة ويوسائل متعددة ومختلفة منها الإعتماد على الـ DNA. إضطر البابا جون بولص الثاني سنة 1992 بالإقرار أن نظرية التطور ليست مجرد تخمينات إفتراضية أو إفتراضات تخمينية - كما يحلو لكثير وصفها - إنما هي حقيقة ثابتة وأن جسم الإنسان يتشارك مع القردة العليا في تطوره من جدٍ مشترك⁴⁴.

لكن على الرغم من كل تلك الأدلة وإعتراف الكنيسة الكاثوليكية بنظرية التطور؛ لا زالت تُجرى محاولات جديّة لعرقلة تدريس النظرية الى يومنا هذا في كثير من المدارس الأمريكية.

أشعر، يا منير، أنك بدأت تتصور أنني نسيت الموضوع الرئيسي وأخذت أشط مبتعداً عنه. كلا، إنني لم أنس. في الحقيقة أنني أهدفُ تبيان أن وجود فكرة حياة بعد الموت هي - على غرار الأمثلة المطروحة - أيضاً خدعة غرورنا بامتلاك العقل.

منير: كلاً لم أتصور ذلك. فقد فهمت أنك تريد الإستقراء من تلك الأمثلة، بأن فكرة الحياة - بعد - الموت هي نتيجة لإستعلاء البشر على الكائنات الحية الأخرى وإستنكافهم من الإنتهاء بالموت كالحوانات الأخرى. أليس كذلك؟

بالضبط، إنني أسعى الوصول الى هذا الهدف.

تتشارك جميع الأنواع الحياتية في ظاهرة الموت. لكن هنالك فرق كبير بين وَقَع الموتِ على الإنسان ووقعه على الحيوان. الإنسان يُفكِّرُ فيُخَدَعُ، الحيوان لا يُفكِّرُ ولا يُخَدَعُ.

قال ديكارت "أفكر فأنا موجود"، كان عليه أن يقول "أُخَدَعُ فأنا موجود"!!!!

لموت وقع شديد المرارة على أفكار الإنسان منذ عصور ما قبل ظهور النوع العاقل. فعندما يفقد المرء شخصاً عزيزاً عليه يُرغمُ على التألم الشديد والتأمل العميق في معاني وأبعاد وعواقب ونتائج الموت.

موت عزيز يجعل المرء عاجزاً عن التخيل بأن فراق العزيز فراقٌ أبدي، والعجز يؤدي بالمرء الى أن يكون سريع التصديق بمن يأتي بديل، خاصة إذا كان البديل يدق على طبلٍ مثيرٍ لغرورٍ نرجسيٍّ مُطمئن.

بعبارة أخرى، بدأ الإنسان منذ ذلك الزمن السحيق أن ينخدع بوجود حياة - بعد - الموت.

إن فكرة الحياة - بعد الموت - مُطمئنة نفسياً ومواسية ومُخففة من ألم الفراق لكثير من البشر ولأشباه البشر. إذ تجعل من الموت فراقاً مؤقتاً. ولهذا يضع الناس زهوراً عطرةً أمام قبور موتاهم.

ضافة الى كل ذلك يعجز أغلب الناس عن تخيل حالة ينعدم وجودهم. فيتشبثون بأي قشة وهمية يتعكزون بخيالاتهم عليها ليمطوا نهاياتهم مطاً يصل الى اللانهاية أو ما يقاربها. أودُّ بهذه المناسبة الإقرار صراحةً بعدم إدعائي المعصومية من هذا العجز. إذ أجد صعوبة

بالغةً في تصوّر عالمٍ لستُ أنا فيه. لكنني وجدتُ وجهةَ نظرٍ
تساعدني على تقبُّلِ وجودِ لحظةٍ يكونُ ريمون شكوري بعدها "ماكو"
الى أبدِ الأبدِين.

منير: د. ريمون، أخشى أنكِ إستعجلتَ في
إستقرائكِ أو إستنتاجكِ. إذ أني أرى أن ما
توصلتَ اليه هو أن البشرَ وأشباههم قد إنخدعوا
بسذاجةٍ وليس بغرورِ العقلِ كما ذكرتَ قبلَ قليلٍ.
إنني لا أرى "غروراً" بل "سذاجةً".
ما رأيك؟

لا يخلو رأيك من بعضِ المصادقية. لكنني أفضلُ إكمالَ حديثي لأعودَ
بعدئذٍ الى مناقشةِ رأيك.

دعني أقولُ إن فكرةَ حياةٍ بعدَ الموتِ المطمئنةِ نفسياً والمخففةِ لآلامِ
الفراقِ متواءمةٌ مع ما لدى النوعِ البشريِّ من نزعةٍ الى الخلودِ.
عبّرَ الإنسانُ عنها منذُ القدمِ بأساطيرٍ مثلَ ملحمةِ گلگامش
والأنثشودةِ التمزويةِ وغيرهما من الإساطيرِ السومريةِ. ويكادُ من
المؤكِّدِ أن نشوءها قد سبقَ حضاراتِ واديي الرافدين والنيل بمئاتِ
آلافِ السنين، كما نجدُ التعبيرَ عن نزعةِ الخلودِ في جميعِ العصورِ
الغابرةِ والحديثةِ بِشتى الأنشطةِ الفكريةِ: مثلاً في قصصِ الخيالِ
العلميِّ وفي الموسيقى والشعرِ والأغاني وفي السعيِّ الحثيثِ المتأبِرِ
الى محاولاتٍ علميةٍ عديدةٍ لإستحداثِ عقاقيرٍ تضمنُ عيشَ حياةٍ أبديةٍ
أو على الأقلِ لإطالتها الى سنينَ عديدةٍ جداً.

إستغلَّ مختلفُ رجالِ الدينِ نزعةَ الشوقِ الى الخلودِ وسيلةً للترغيبِ
وللترهيبِ كي يدعموا مساعيهم الى الهيمنةِ على عقولِ البشرِ
والسيطرةِ على حياتهم. فنادوا بآراءٍ متوائمةٍ مع التوقِّ الى الخلودِ
معززينَ إنخداعِ النوعِ العاقلِ بحياةٍ - بعد - الموتِ.

الآن أعودُ الى تعليقك لأعقبَ عليه.

لم تكن كفاءة عقلية الإنسان العميق في القَدَمِ كافيةً للتأمل العميق في ظاهرة الموت. وأرجحُ أن فكرته عن وجود حياةٍ - بعد - الموت نتجت - كما أدليت قبل قليل - ليس من غرورِ عقلٍ بل من سذاجةِ عقلٍ. وربما أنه قد ورثها من شبه الإنسان.

لكن حين إنتقل الإنسانُ من كونه صياداً مُجمَعاً طعامه الى مُزارعٍ مُنتجِ الطعام، بدأ يدركُ تدريجياً وجودَ تشابهٍ واضح بينه وبين الحيواناتِ ليس فقط فسيولوجياً إنما أيضاً في ميكانيكيةِ ضروراتِ الحياةِ كالأكلِ والشربِ والنومِ وممارسةِ الجنسِ والمرضِ والموتِ. ولابدُّ تُجسّمُ تأملاته حقيقةً أن كلاً منا نحن البشرُ فانٍ عاجلاً أو آجلاً. ولا بدُّ أنه قد وعى أن الجسمَ بعد الموتِ يبدأُ بالإنحلالِ والتفسخِ مثلما يحدثُ للحيوانِ. لكنه كان ينظرُ الى نفسه مغترّاً بعقله ومتعالياً على الحيواناتِ بأنه أسمى من أن تكونَ نهايتهُ نهايةً حيوانيةً، ولم يستطعْ عقله المغرورُ إستيعابَ أن تكونَ نهايتهُ كنهايتهم. فأخترقَ فكرةَ إمتلاكِ كلِّ فردٍ من النوعِ البشريِ كياناً غيرَ ماديٍّ وغيرَ قابلٍ للفناءِ يعيشُ بطريقةٍ ما في جسمه ويستمرُّ على البقاءِ فيه ما دامَ الفردُ حياً. لكنه يخرجُ من جسمِ الفردِ عند وفاتهِ محتفظاً بالوعيِ ومدركاً بشخصيةٍ مَنْ كان يتقمصُ فيه وينتقلُ متحركاً في الفضاءِ كالسحابِ أو الضبابِ هذا الكيانُ هو الخالدُ الباقي بعد الموتِ حسبما يزعمون. باختصار:

أوقعتُ القابلياتُ العقليةُ الفذةُ التي يملكها الإنسانُ في فحِّ الغرورِ الذاتي، فميزتُ نفسه عن باقي الأنواعِ الحياتيةِ متعالياً عليها وإبتدعَ لنفسه خلوداً بعد الموتِ على هيئةِ روحٍ.

منير : صرّحتَ في بدايةِ النقاشِ أنك لن تسعى الى إقناعِ القارئِ. برأيك بل ستعرضُ فقط رأيك في العواملِ المؤديةِ الى نشوءِ فكرةِ الحياة - بعد - الموت . يبدو لي أنك وضّحتَ توضيحاً كافياً بما تعتقد .
أما الآنَ، فأودُّ معرفةَ رأيك الشخصيَ حولَ الحياة - بعد الموت .

بطبيعةِ الحالِ إن رأييَ الشخصيَ عن فكرةِ حياةٍ - بعد - الموتِ مبنيٌّ على ما طرحْتُ من آراءٍ حولَ نشأتِها.

يمكنُ أن يُعذَرَ إنسانٌ حقّبَ ما قبلَ نظريةِ التطوُّر - لُوهمِهِ. إذ لم يكنُ يعلمُ آنذاك أنه من "نسلِ القرود" حسبَ تعبيرِ الشاعرِ إيليا أبو ماضي⁴⁵. فقد كان الإنسانُ يتشبَّثُ بالأوهامِ التي ربّما ساعدتهُ على الكفاحِ في سبيلِ البقاءِ. أمّا اليومَ، في عصرِ العلومِ والتقانةِ، فقد أنَ الأوانُ لإهمالِ الأوهامِ. إذ لا يوجدُ أيُّ دليلٍ علميٍّ ولا بيّنةٍ موثّقةٍ على وجودِ حياةٍ - بعد - الموتِ. أمّا ما وردَ من - دعمٍ لها في الكتبِ القديمةِ المضىفَى عليها التقديسُ فقد كتبَها أناسٌ هيمنتْ عليهم الخرافاتُ في زمنٍ تفشى فيه الجهلُ.

إذن تنتفي - بفضلِ نظريةِ التطوُّر - الحاجةُ والحجّةُ بأن يوهلَّ الإنسانُ لنفسِهِ حياةً أُخرى في مستوٍ أو في بُعدٍ آخرٍ باعتبارِ إختلافِ موتهِ إختلافاً جوهرياً عن فناءِ الحيوانِ.

الواقعية. مثلاً إذا كان الاعتقادُ، بأن القمرَ مأهولٌ بكائناتٍ شبيهة بشريةٍ طولُ كلِّ منها عشرة أمتار، يجلبُ السعادةَ والراحةَ الى مليون إنسانٍ فلن يؤدي الى أن القمرَ فعلاً مأهولٌ بمثل تلك الكائنات. الراحةُ المنوَّهةُ عنها تشبهُ الى حدٍّ كبيرٍ ذلك الإرتياحَ الذي يشعرُ به طفلٌ حين يحتضنُ دُميَّته عند النومِ وينزعجُ حين لا يعثرُ عليها. إلا أنه بعد بضعةِ سنواتٍ عند كِبَرِه ونُضجِه سوف لن يبالي بها بل تغدو ذكرياتُهُ عنها مواضيعٍ للتسليَةِ والضحك.

إذن لنرميَ جانباً أفكارَ النوعِ البشريِ عندما كان في بداياته الطفوليةِ ولنصغيَ سويةً الى صدى ما قاله بولص المؤسسُ المشاركُ للمسيحية في (كورنثوس الأول 11،13):

لما كنتُ طفلاً، كطفلٍ كنتُ أتكلمُ، وكطفلٍ
كنتُ أدركُ، كطفلٍ كنتُ أفكرُ. ولما صرتُ
رجلاً، تركتُ ما هو للطفل.

إضافةً الى هذا، ليس الشعورُ بالإرتياحِ لوجودِ حياةٍ - بعد - الموتِ بريئاً دائماً من عواقبٍ وخيمةٍ. إذ يسهلُ على رجالِ الدينِ المُسيحيينَ والسياسيينَ المستغلينَ الدينَ لمأربهم إغتنامَ الاعتقادِ الجازمِ عند بعضِ المؤمنينَ بحياةٍ - بعد - الموتِ ليدفعوا بهم الى القيامِ بعملياتٍ جنونيةٍ إرهابيةٍ.

من الأمثلةِ المعروفةِ بتطرفها في أن وهَمَ الحياةِ - بعد - الموتِ قادَ بعضَ الفئاتِ الى أعمالٍ جنونيةٍ.

يا أيها المعتقدونَ بوجودِ خالقٍ للكونِ المترامي الأطرافِ الحاوي على بلايينِ المجراتِ والنجومِ التي يفصلُ بعضها عن بعضِ آلافِ السنينِ الضوئيةِ، أيعقلُ أحدكم أن الخالقَ مهتمٌ إهتماماً كبيراً بالأعضاءِ الجنسيةِ لكائناتٍ على نُقيطةٍ في هذا الكونِ الشاسعِ ليوفّرَ لهم

حورياتٍ باكراتٍ⁴⁶ كي يتمتعوا بهنَّ في حياتهم بعد الموت؟!
 ينبغي أن أسارع لئلا يساء فهمي الى القول إن من الواضح، ليس
 كل مَنْ إعتقد بحياةٍ - بعد - الموت يتصرف تصرفاً متهوراً
 جنونياً. لكن أمثلة الأعمال الإنتحارية تبين أن الإعتقاد بحياةٍ -
 بعد - الموت يمكن تنغيص الحياة قبل الموت. ولعل ترك القلق حول
 ماذا سيحدث بعد الوفاة ونبد التفكير بالحياة - بعد - الموت يجعل
 الحياة الآن وهنا على كوكب الأرض أكثر متعةً.

من المعلوم لدى جميع الناس أنه عند وفاة شخص يتوقف قلبه عن
 النبض ودماعه عن العمل بوظائفه. وينتهي المرء.

منير: هل تعتقد أن هذه هي النهاية؟

يؤسفني أن الجواب قد يحزن بعض القراء. نعم، رأيي هذه هي
 النهاية الحتمية. Good bye. وليس هنالك بعدها See You.

سرعان ما يبدأ الجسم الكائن الميت (سواء كان إنساناً أم حيواناً أم
 نباتاً) بالإنحلال والتعفن وتأخذ جزيئاته بالانتشار تتقاذفها الرياح
 هنا وهناك. وربما تعود بعضها مستقبلاً بشكل أو بآخر الى كائن
 حي. هذه هي المنظومة الدينامية لسنة الحياة التي عبر عنها الشاعر
 والرياضياتي والفلكي عمر الخيام أروع تعبير في إحدى رباعياته
 بقوله:

أوجها كالشموس ذات بهاء

كل ذرات هذه الأرض كانت

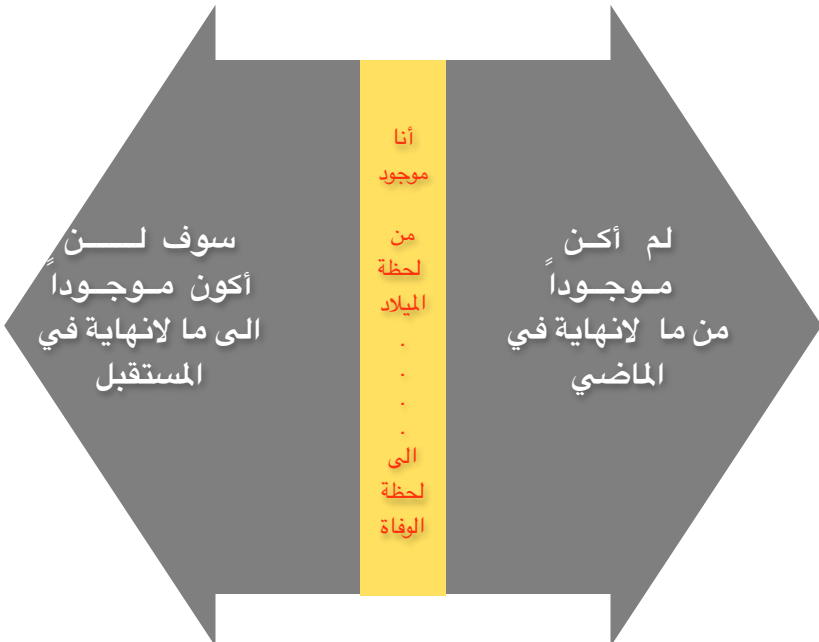
فهو خد لكاعب حسناء

إجل عن وجهك الغبار يرفق

أَقْرُ أَنْ هَذِهِ الصُّورَةُ لَيْسَتْ جَمِيلَةً وَلَا مَحَبَّةً وَتَدْعُو إِلَى الْكَابَةِ، لَكِنهَا صُورَةٌ سُنَّةِ الْحَيَاةِ. يَنْبَغِي الْإِدْرَاكَ أَنَّ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَكُونَ الْوَاقِعُ جَمِيلًا أَوْ مَحَبَّاءً، رَبَّمَا يَكُونُ مُرًّا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

منير: صرّحتَ قبلَ قليلٍ أنكَ تجدُ صعوبةً بالغةً في تصوّرِ عالمٍ لستَ أنتَ فيه، وقلتَ أنكَ وجدتَ طريقةً للنظرِ إلى الأمورِ تساعدُك على تقبُّلِ وجودِ تلكِ اللحظةِ الحاسمةِ التي لا تكونُ بعدها موجوداً إلى أبدِ الأبدِينِ.

هل في نيتك الاحتفاظ بطريقتك لنفسك؟ كلا، أتعجبُ كيف تتصوّر، يا عزيزي منير، أنني أحتفظُ بمثلِ هذه الأمورِ سراً؟ اليك الشكل أدناه الذي يوضّحُ وجهةَ النظرِ التي نوّهتُ عنها قبلَ قليلٍ والتي تُعيّنني على تصوّرِ عالمٍ خالٍ من وجودي فيه.



تُسَهِّلُ الصَّوْرَةَ عَلَيَّ تَقَبُّلَ أَنْ لَا أَكُونَ شَيْئاً طَوَالَ حَقْبَةِ زَمَنِ مَبْتَدِءٍ مِنْ لَحْظَةِ وَفَاتِي وَمَمْتَدٍ إِلَى مَا لِانْهَائِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ، مِثْلَمَا لَمْ أَكُنْ شَيْئاً طَوَالَ حَقْبَةِ زَمَنِ مُمْتَدٍ إِلَى مَا لِانْهَائِي فِي الْمَاضِي وَمُنْتَهٍ عِنْدَ لَحْظَةِ وُجُودِي بِتَخْصِيْبِ حَيْمَنْ بُوَيْضَةَ.

دعنا الآن نفترض، لغرضٍ مزيدٍ من النقاش، وجودَ حياةٍ — بعدَ - الموت. ونتساءلُ كيف ستكونُ الحياةُ الجديدة؟

- هل سيمتلكُ المنبعثُ الجسمَ والعقلَ اللذين كان يمتلكُهُما عندَ لحظةِ وفاته، أم عندما كان في قمةِ صحته؟
- هل سيكونُ للمنبعثِ وعيٌ من دونِ جسمٍ؟ أم تكونُ العودةُ بشكلٍ آخر؟
- هل سيتذكرُ المنبعثُ حياته السابقة؟
- هل سيستطيعُ التعرفَ على أقربائه وأصدقائه ومعارفه؟

يشعرُ المرءُ بمجردِ التفكيرِ بِالْإِحْتِمَالَاتِ الْمُمْكِنَةِ شعوراً بِسَدَاجَةِ وَبِإِعْقَالِيَّةِ فِكْرَةِ الْحَيَاةِ - بعد - الموت. وقد أبدعَ الشاعرُ المهجريُّ إيليا أبو ماضي في قصيدتهِ الفلسفيةِ الرائعةِ «الطلاسَم» بتساؤلاتِهِ العميقةِ حَوْلَ تِلْكَ الْإِشْكَالِيَّاتِ وَأَمْثَالِهَا فأنشدَ قائلاً:

إن أكنُ أبعثُ بعدَ الموتِ جثماناً وعقلاً أتري أبعثُ بعضاً أم تری أبعثُ كلا
أتري أبعثُ طفلاً أم تری أبعثُ كهلاً ثم هل أعرفُ بعدَ البعثِ ذاتي

لستُ أدري!

يا صديقي لا تعللني بتمزيق الستور عندما أقضي فِعقلي لا يُبالي بالقشور
إن أكنُ في حالة الإدراك لا أدركُ مصيري كيف أدري بعدما أفقدُ رشدي

لست أدري!

منير : أشعرُ أن بعضَ القراءِ المتدينينَ سيعترضونَ

عليك عند قراءتهم هذه الأبيات قائلين :

يعترف هذا الشاعرُ بنفسه أنه لا يدري .
فكيف تعبيرُ أنتَ - أيها الكاتبُ - وزناً
لكلامه ؟ لكننا ندري أن حياةَ الإنسان بعد
الموت سَوف تكونُ على مستوى الروح لا الجسدِ
" المادي " .

ماذا تردُّ عليهم؟

إنني أيضاً مثلك تخيلتُ، وأنا جالسُ أمامَ الكمبيوتر أنقرُ على لوحةِ
الحروفِ بأصبعٍ واحدةٍ أبياتِ إيليا أبو ماضي، سماعِ أحدِ القراءِ
يصيحُ من بُعدٍ معترضاً. عليّ لإعتمادي على آراءِ شاعرٍ يُقرُّ هو بجَهله.

عزيزي القارئُ المفترضُ أقولُ:

أولاً عليك أن تدركَ أنني لم أتبنَ آراءَ الشاعرِ، إنما إستحسنْتُ
أسلوبَه البديعَ في عرضِ آرائي وآراءِ كثيرين. ولو كنتُ أكتبُ باللغةِ
الإنكليزيةِ لإقتبستُ مقولةً معبرةً من شيكسبير أو من الشاعرِ والطِ
ويتمن أو من غيرهما.

ثانياً لا أعتقدُ أن الشاعرَ غير مدركٍ فعلاً بالأُمورِ المطروحةِ في
قصيدته، فهو على أغلبِ ظني يريدُ إستفزازَ تفكيرِ القارئِ وحثه
على التأمل، وأنه لا يريدُ إعطاءَ رأيه مباشرةً.

ثالثاً على الرغمِ من أهميةِ هذه الأُمورِ لكن لا شأنَ لنا بها في هذا
المقال. الموضوعُ ذو شأنٍ لنا هو ذلك الذي زجَّ به القارئُ (المفترضُ)،
ألا وهو "الروح".

ما هي الروح؟ 47.

في الأوساط الفلسفية والسيكولوجية يُستعمل مصطلح "روح" أمرًا مابمعنى مجموعة أفكار ومشاعرٍ وذكرياتٍ وعواطفٍ المرء. أيّ أن المصطلح مرادفٌ لكلمة "العقل" لكن إستعماله في الأوساط الدينية يختلفُ إختلافاً جذرياً.

أمّا حسبَ إعتقادٍ معظمِ الأوساطِ الدينيةِ التوحيدية، فيُفترضُ أن كلَّ فردٍ من النوعِ البشريِ يمتلكُ كياناً غيرَ مادّي مرتبطاً بجسمه بطريقةٍ ما. وبما أنه غيرُ مادّي فلا يُمكنُ أن يُدركَ بالحواس، لكنه قادرٌ على الإدراكِ والوعيِ الذاتيّ!!!!. ويُعتقدُ أن اللهَ يخلقه مباشرةً في كل فردٍ من البشرِ عند لحظةِ الإخصاب. تطلقُ الأوساطُ الدينيةُ كما تدّعي تلك الأوساطُ أن عند وفاة الفردِ تخرجُ الروحُ من جسمه حاملةً سماته الجوهريّة، وتبقى خالدةً في موقعٍ "فوقطبيعي".

لا يمكنُ توافرُ أيّ دليلٍ على وجودِ كيانٍ مرتبطٍ بالجسمِ وغيرِ مُدركٍ بالحواسِ. ويخرجُ بشكلٍ ما من جسمِ الشخصِ المتوفى منتقلاً الى مستوٍ آخر الذي بدوره لا دليلٌ على وجوده. هذه الاعتقاداتُ نماذجٌ أُخرى لما سميتُ "خداعُ غرورِ العقل". ألم يسائلُ المتدينونَ ودعاةَ الدينِ أنفسهم:

لماذا لم يخلقْ إليهم أروحاً مخلوقاتهِ الأخرى ،
كالشimpanزي والغوريلا والفيل والحوت وغيرها؟

ولماذا يميز ويفرقُ إلههم بين مخلوقاته؟ ألا يشعرون
أن إدعاءهم نرجسية بشرية وغرور ذاتي خداع؟

منير: أذكر من فترة دراستي اللاهوتية في لبنان أنه
حين أبدتُ شكوكي بوجود الروح، طالبني الأبُ
”ميشيل“ (الذي لا أودُّ أن أذكرَ إسمه الصريح) بأن
أبرهنَ على عدم وجود الروح. فسكتُ عن مضى
لإفتقاري الى برهان يعززُ شكوكي.

هذا تكتيكٌ يتبعه غالباً السياسيون ورجال الدين، يطالبون المتشكك
(الذي يُؤخذُ على حين غرة) ببرهانٍ وهو غيرُ مستعدٍ للردِّ عليهم. وهم
يجهلون أو يتجاهلون أن عبأ البرهان يقعُ على الذي يدّعي وليس على
المتشكك.

كان عليك، عزيزي منير، أن تُفحِّمَ الأب ميشيل ”بسحبِ البساطِ من
تحت قدميه“ بإثارة موضوعٍ مثل الآتى:

”أبونا، يجب على المصاب بالإنفلونزا وضعَ كمّامة
على أنفه حين يتراسلُ مع أصدقائه عبر الإنترنت
ليجنّبهم العدوى لأن قد ثبت أن بكتريا الإنفلونزا
تنتقلُ عبر الإنترنت“.

بطبيعة الحال لن يصدّقكَ الأبُ ميشيل ومن المؤكّد أنه سيثيرُ
إعتراضاتٍ وجيهةً متعددةً من جوانبٍ مختلفة. لكن عليك الإستمرارُ
في الأصرارِ على إدّعاءك الى أن تستدرجه يقول بإستحالة إنتقال
البكتريا بواسطة الإنترنت. عندئذٍ بادره بالقول

”أبونا، إني أحترمُ منطقتك، لكنك أعلمُ مني
ولا أعتقدُ أنك نيستَ أن الله قادرٌ على كل شيءٍ،
ولهذا إنني واثقٌ من قولي. أمّا إذا لا تصدقني
فبرهنْ على الإستحالة“.

من المرجحُ أنه سيردُ بقولٍ مشابهٍ لما يأتى:

” O. K. صحيح إن الله قادرٌ على كل شيء ، لكنني أريدُ برهاناً مادياً علمياً أو على الأقل زودني بمقال في مجلة علمية محترمة ومُحَكِّمة تعززُ أقوالك “ .

أنت، في هذه اللحظة، أن تضربَ ضربتك القاضية:

”هل أدركت الآن حضرة الأب أن البرهان على المدعي . إذن ينبغي أن لا تطالبني ببرهان على عدم وجود الروح ، بل عليك أنت أيها الأب المبجل أن تأتي ببرهانٍ مادى على وجودها الفعلي“ .

منير : أشكرك . لقد تعلمتُ درساً لن أنساه أبداً .

أمّا الآن إسمح لي أن أوجهَ الإهتمامَ بأسئلتني الى نشأة فكرة ”الروح“ .

من المرجح أن فكرة الروح نشأت عند الإنسان البدائي كتفسيرٍ ساذجٍ لظاهرة الموت، بأن الموت ليس سوى خروج نسمة ريح من الجسم. ثم إستزرع رجال الدين الفكرة في العقول، لغرض الهيمنة على الكثير من البشر.

منير : إسمح لي بأدلي بـخبرتي الشخصية في مثل هذا المضمار . أتذكرُ فترة طفولتي وأحلامي ببابا نوئيل أو سانتا كلوس . لكن بعد بضع سنوات أدركت أنه وهمٌ .

في تلك اللحظة إتضح لي أن ليس بإستطاعة الرنا الطيران وليس بإستطاعة الإنسان التزحلق في المداخل ولا توجد طريقةٌ لحمل كل تلك اللُّعب لجميع أطفال العالم . عندئذ أدركت أن بابا نوئيل خيال محض أُبتدعَ ونُسجَ لإلهاء الأطفال .

شكراً . يا منير للإسراع الى إسعافنا بذكرياتك . الروح أيضاً نسجٌ

من الخيال. مثلما أُبتدِعَ بابا نوييلٍ لِإلهاءِ الأطفالِ، أُبتدِعَتِ "الروح" لسيطرة رجال الدين على عقول ومصائر البشر. ومثلما يكتشفُ الطفلُ، بعد بلوغه، أن الرنا لا يطير وأن الإنسان (حتى لو كان بابا نوييل) لا يمكنه دخول البيوت من مداخلها، كذلك سوف يدرك الإنسان الواعي استحالة أن يسكن الجسمَ كيانٌ غيرُ مادي.

يَعْلَمُ الإنسانُ غيرُ المكثرِ بموضوعِ الحياةِ - بعد - الموتِ أن الموت واقعٌ لامحالة ويعلمُ أن الشيءَ الوحيدَ الذي يأملُ الحصولَ عليه بعد الموتِ هو الإرثُ الذي يتركُه وراءه ويذكرُه الناسُ الذين حرَّكَ فيهم أثناء حياتِه مشاعرَ جميلةً إمَّا بعلمِه وإمَّا بكتاباته وإمَّا بفنِه وإمَّا بموسيقاه وإمَّا بخدماتِه للبشرية.

هذا هو الخلودُ بأسمى معانيه وليس بحياةٍ أخرى في مكانٍ مجهول.⁴⁸

إن بيتهوفن ، باخ ، المتنبي ، الجواهري ، المعري ، شيكسبير ، تولستوي ، ابن سينا ، كوبرنيكس ، غاليليو ، ليوناردو دافنشي ، مايكل أنجيلو ، نيوتن ، غاوس ، هنري پوانكاريه ، إفلاطون ، أرسطو ، أرخميدس ، ابن رشد ، برتراند رسل ، عمانويل كانط ، مدام كوري ، أينشتاين ، غاندي ، نيلسون مانديلا ، مارتن لوتر كنگ ، تشارلي چاپلن ، أديسون ، فرانك ، وبنگ كروسبي وغيرهم غادرونا بأجسادهم لكنهم بقوا خالدين في قلوبنا لآلافِ السنين بأفكارهم وبمآثرهم وبما قدموه من تركاتٍ تراثيةٍ جعلت البشرية أفضلَ وأكثرَ ثراءً عند إنقضائهم عمَّا كانت عليه عند ميلادهم.

إنني لا أجراً أبداً، مهما بلغ بي الغرورُ، بمقارنةٍ نفسي مع أولئك

العظماء الأفاضل. لكنني أشعرُ بسعادةٍ غامرةٍ إذ أجدُ أنني قضيتُ معظمَ حياتي أنقرُ على صخرةِ الوجودِ بنقراتٍ بسيطةٍ وبسيطةٍ جداً قدّمتُ فيها الى رفيقةِ حياتي وإبني وعائليهما وأحفادي وطلبتي السابقين بقدرِ ما يوسّعي تقديمه من سعادةٍ لهم.

وأتمنى راجياً وأرجو متمنياً أن تستطيع العائلة البشرية التسامي فوق إنتماء نوعها الحياتي فتلقي نظرةً شموليةً على الحياة والموت ليدرك جميع أفرادها أن ليس لنوع العاقل مكانة متميزة في الكون، فيتخلون عن غرورهم.

لعل ما يساعدننا نحن البشر في إدراك أننا لسنا هدف الوجود، أن نضع نصباً أعيننا ونتأمل صورة فناء الحياة فناء تاماً بإرتطام نيزك عملاق في ضخامته بكوكب الأرض مبيداً الحياة عليها دون تمييز بين نبات وحيوان ولا بين البكتريا والإنسان.

”كلنا في الفنا سوا“.

(مع الاعتذار الى فريد الأطرش).

يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ وَالْمَسِيحِيَّةُ

منير: بعد أن غدوتَ غيرَ مؤمنٍ، أظنُّ أن رأيك
عن يسوعَ الناصريِّ مختلفٌ عمَّا يسودُّ من آراءٍ عنه
عند المؤمنين المسيحيِّ إذا صحَّ ظنِّي، فهل تفضِّلُ
بإبداءِ رأيك؟

يسرُّني إبداءَ رأيي في هذا الموضوعِ المهمِّ والمثيرِ للجدلِ.
مهما كانت معتقداتُنَا أو تصوراتُنَا عن يسوعَ الناصريِّ ينبغي
الإقرارُ بهيمنةِ إسمِهِ على مجرى التاريخِ خصوصاً الغربيِّ خلالَ
القرونِ الواحدِ والعشرينِ. إذ يبدأُ معظمُ البشرِ تأريخَ تقاويمِهِم من
السنةِ المفترضةِ لولادتهِ. وغدتْ المقولاتُ المنسوبةُ اليه والداعيةُ الى
المحبةِ والتسامحِ ونبذِ العنفِ وغفرانِ الأعداءِ سمةً متميزةً لوصفِ الدينِ
الذي يُنسبُ اليه. ويُقسِمُ باليمينِ كثيرٌ من الناسِ بإسمِهِ.
ويتضرَّعُ يومياً بالصلاةِ اليه ملايينُ البشرِ. ويتناولُ كثيرٌ منهم
تذكُّراً به وهُمُ في غايةِ الخشوعِ ما يؤمنونَ حقاً أنه جسدهُ
ويرتشفونَ ما يعتقدونَ حقاً أنه دمه.⁴⁹

رغم كلِّ ذلك لا يُعرفُ عن الحياةِ الشخصيةِ لیسوعَ الناصريِّ إلاَّ
شيءٌ قليل. كل ما هو معروفٌ عنه قد كُتِبَ في الأناجيلِ وفي
الأناجيلِ فقط،⁵⁰ بعد موتهِ على الصليبِ بعدةِ عشراتِ السنينِ.
ويكادُ من المؤكِّدِ أنه لم يكنْ كتبهُ الأناجيلِ (باستثناءِ يوحنا)

إذا كانوا حقاً يؤمنونَ بذلك فلستُ أدري ألا يشعرونَ أنهم قد غدوا من أكلةِ لحومِ البشرِ وشاربي
دمائِهِم

تحلو الأناجيلُ من إنسجامٍ فيما بينها. كما ذكرنا سابقاً.

معاصرين له ولا شهودَ عيانٍ للمعجزاتِ التي قيلَ أنه أجزاها، ولما نُسِبَ إليه من تعاليم، بل كانوا مجردَ مُدَوِّنِينَ في كتاباتهم الإنجيلية ما تناقلتهُ المحكِّياتُ المتداولة. ومن الواضح لمن يقرأ الأناجيل أنه لم يكن توثيقُ السيرة الشخصية وشؤون الحياة اليومية لیسوع من أولويات إهتمامات أولئك الكتبة، بل أن التبشير بتعاليمه وأقواله وأعماله الإعجازية وبإنطباع نبوات العهد القديم عليه، قد شكّل معظم أهدافهم الرئيسية، وليس من المستبعد — بل من المرجح — أنهم بالغوا بسرد أعماله الإعجازية إن لم يكن قد اخترعوها جزئياً أو كلياً. ومما يجدرُ ذكره أن كلمة "إنجيل" تعني بشري أي أخباراً سارة. إذن كان كتبة الأناجيل يُبشرون بني البشر بجنة يخلد فيها من يؤمن بيسوع الناصري مسيحاً ويطيع ويتبع تعاليمه خلوداً أزلياً بعد الموت.

ربما يفهم المسيحيون المعاصرون فهماً أفضل لمكانة ولوقع الأناجيل في زمن القرون الأولى، إذا نظر المعاصرون إليها أنها كانت آنذاك بمثابة الدعايات التلفزيونية المعروفة في عصرنا الحالي التي تهدف الى تسويق بضاعة ما. كذلك الأناجيل كانت تهدف الى "تسويق" يسوع الناصري على أنه المسيح المنتظر.

كان صدى البشريات مسموعاً سمعاً مؤثراً على مجتمعات عصور القرون الأربعة الأولى بعد الميلاد (كما سنشرح بعد قليل).

نجد يسوع الناصري — لهذه الأسباب — إنساناً لا يُعرف عن حياته سوى أمور قليلة. لا يُعرف تاريخ ولادته بالضبط ولا عن كيفية كسبه قوته اليومي (وإن كان هنالك تلميح بسيط بأنه ابن نجار)، ولا يُعلم في أي مدينة كان يعمل، ولا عن حالته الزوجية، وهل كان متعلماً جيداً القراءة والكتابة. أضحك أو ابتسم يوماً؟ (يذكر إنجيل

يوحنا أنه بكى مرةً) أغضبَ أو تشاجرَ مع أحدٍ في يومٍ ما؟⁵¹ أرقصَ أو غنَّى في حفلةِ عرسِ قانا في الجليل؟ أكان نباتياً في طعامه؟ هل سافرَ خارجَ الأراضي الفلسطينية (باستثناءِ سفرةِ الى مصرَ أثناءَ طفولتهِ مع والدتهِ مريم ويوسف النجار)؟ ولم تروِ لنا الأناجيلُ أنه تكلمَ - هو بنفسه - عن ولادتهِ المفترضِ أنها معجزةٌ كبرى.

ويجدُ المنتبِعُ لحياةِ يسوعَ المبكرةَ حسبَ ما وردَ في الأناجيلِ فجوةً زمنيةً أمدها قرابةُ ثماني عشرة عاماً لم يتطرقَ إليها أيُّ من الأناجيلِ حتَّى ولو بكلمةٍ واحدة. إذ ذَكَرَ إنجيلُ لوقا في 2:52 شيئاً عن يسوعَ حين كان عمرهُ إثنتي عشر سنةً. ثم لاذَ لوقا بِصمتٍ مطبقٍ. وفجأةً يُعلنُ لوقا إطلالَ يسوعَ رجلاً متكاملاً ذا الثلاثين سنةً عمراً مطالباً يوحنا المعمدان أن يتعمدَ عنده. وبعد ذلك بِقليلٍ تُنبئنا الأناجيلُ بدءَ يسوعَ مسيرتهِ الوعظيةِ والتعليميةِ والإرشاديةِ والإعجازيةِ.

أثارَ مؤخراً عدمُ ورودِ أيِّ ذِكرٍ في الأناجيلِ عن الفترةِ الطويلةِ لغيابِ يسوعَ تكهناتٍ قصصيةً غيرَ موثقةٍ، منها أنه قد قضى فترةً غيبتهِ في الهند أو في التبت وتتلذذَ هناك على الرهبانِ البوذيين، ثم عادَ الى فلسطينَ وهو ابنُ الثلاثين عاماً.

منير: لا بدَّ أن تقاريرَ الأناجيلِ عن المعجزاتِ العظيمةِ التي أجراها يسوعُ أثناءَ حياته وعن معجزةِ قيامتهِ من الأموات، قد أحدثتْ جلبةً كبيرةً في فلسطينَ والمناطقَ المجاورة. أليس كذلك؟

ولم يتطرق أيُّ من المؤرخين الذين عاشوا في ذلك العصر من يهودٍ أو رومانٍ أو إغريقٍ إلى يسوع إلا بعد قرابة ثلاثين عاماً أو أكثر من وفاته. لعلَّ المؤرخَ اليهوديَّ يوسيفوس (38 - 10) الذي عاش في القدس أولَ مَنْ جاءَ بفقرتين يتيمتينٍ مقتضبتين عن "المسيح والمسيحيين" في سنة 67 بصورةٍ عابرةٍ في كتابه التاريخي الضخم (يعتقدُ بعضُ المؤرخين أن النقلةَ أقمومها فيه بعد مدةٍ طويلة). ومن المرجح أن المواطنَ الرومانيَ الإعتياديَّ لم يكن يعلمُ حتى بوجودِ شخصٍ بإسمِ - يسوع الناصري إلا بعد صلبه بسنواتٍ عديدة.

مضتْ عشراتُ السنين بعد وفاة يسوع حين ظهرَ تأثيرُ يُذكرُ للتعاليم المسيحية على المجتمع الروماني، ولم يصبحْ تعذيبُ وقُتلُ معتنقي المسيحية عند مدرجاتِ الكولوسيوم متعةً جماهيريةً إلا بعد مرورِ أكثرَ من قرنين وبعد بلورة الكنيسة معتقداتها.

منير: إن عدمَ ورودِ ذكرٍ للمسيح ومعجزاته في الوسط الإعلامي خارج الأناجيل عند ذلك الزمن أحدثَ إنقساماً في آراء مؤرخي المسيحية. يدَّعي قسمٌ منهم أن المسيح لم يكن إنساناً تاريخياً بل أسطورة. وينفي قسمٌ آخر هذا الإدعاء.

هل لديك رأيٌ في موضوع تاريخية المسيح؟

صحيحٌ، كما قلت يا منير. يدَّعي بعضُ المؤرخين أن يسوع الناصري الذي صُوِّرته الأناجيل ليس إنساناً تاريخياً، إنما بطلٌ أسطوريٌّ مثلُ گلگامش أو غيره من أبطال الروايات الأسطورية. لكن لا يميلُ معظمُ المؤرخين إلى تأييد هذا الإدعاء، لأسبابٍ عديدةٍ أحدها العبارةُ التنبؤية التي ادَّعى يسوع أن نهاية العالم وشيكة الوقوع إلى درجة أن سيشهدها بعضُ المستمعين إلى موعظته:

وقال لهم: والحق أقول لكم: في الحاضرِين هنا
مَنْ لا يذوقون الموت، حتّى يُشاهدوا مجيئ
ملكوتِ الله في مجدٍ عظيم.

التي جاءت في متى 16:27 ومرقس 9:1 ولوقا 9:27، على لسان يسوع في إحدى مواضعه. لكن لم تتحقق تلك النبوة بعد إنقضاء وقت واف لتحققها، ولم تتحقق حتّى الى القرن الحادي والعشرين. من الواضح أن ليس من المعقول أن تحشر الأناجيل نبوة لم تتحقق لشخص أسطوري. لا يترك هذا الإخفاق مجالاً للشك بوجود شخص حقيقي قد نطق بها، وإلا لما نقلتها الأناجيل المكتوبة بعد مرور زمن كافٍ لتحققها. إذن لا بد من أن الشخص المدعو يسوع الناصري قد مشى على التراب الفلسطيني ودعى الى إرساء مبادئ لإصلاحات دينية وإجتماعية اجتذبت في حينه بعض الأتباع فعدت بنظر الجهات الرسمية الدينية والسلطات السياسية "مبادئ هدامة" تعمل على تقويض المجتمع !!! الأمر الذي آل بيسوع في النهاية - كما هو متوقع في أمثال هذه الحالات - الى الإعتقال والصلب.

منير: كيف ولماذا تحوّل الإنسان يسوع الناصري بعد

صلبه إليها يعبدّه ملايين البشر؟

طرأت بعد تلك النهاية المأساوية ظروف سياسية وإجتماعية وإقتصادية قلبت المأساة إنتصاراً لمبادئه وجعلت من شخص يسوع نواةً حيكّت حولها روايات وقصص عن معجزات تعاضمت بإطراد خلال القرنين أو الثلاثة التالية لصلبه، وربما أضفيت عليه سمات أقنست من آلهة الوثنيين القدامى الإغريقي والرومان⁵². وصارت التعاليم التي نادى اليها المعلم اليهودي يسوع الناصري ديناً وأسبغت عليه هالات من القداسة جاوزت اللانهاية، وغدا ابن الله وفي

الوقتِ نَفْسِهِ اللهُ. وصَارَ يَعْبُدُهُ بِإِلْيَيْنِ الْبَشَرِ وَفُسِرَتْ مَأْسَاءُ صَلْبِهِ
أَنَّهَا فِدَاءٌ إِلَهِيٌّ ذَاتِي لْجَمِيعِ الْبَشَرِ كِي تُغْفَرَ خَطَايَاهُمْ الْأَصْلِيَّةُ
الْمُورُوثَةُ مِنْ جَدِّي الْبَشَرِ الْأَكْبَرَيْنِ، أَدَمَ وَحَوَاءَ (حَسَبَ الْأَسَاطِيرِ
التَّوْرَاتِيَّةِ). وَأَنْ يَسُوعَ قَدْ بَعَثَهُ اللهُ خَصِيصاً لِغَايَةِ الْفِدَاءِ. وَبِمَا أَنْ
يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ اللهُ — حَسَبَ الْمَعْتَقَدَاتِ الْمَسِيحِيَّةِ — فَمَعْنَى ذَلِكَ،
أَنْ اللهُ بَعَثَ نَفْسَهُ لِفِدَاءِ الْبَشَرِ لِلْخَطِيئَةِ الَّتِي إِتَّهَمَهُمْ هُوَ بِهَا !!.

لَا أَوْدُ مَنَاقِشَةَ هَذَا التَّوَاشِحِ مِنْ تَنَاقُضٍ دَاخِلٍ تَنَاقُضٍ مَحْشُو
بِتَنَاقُضٍ مَلْفُوفٍ بِتَنَاقُضٍ وَمِبْطُنٍ بِتَنَاقُضٍ، سِوَى التَّسَاوُلِ: بَدَلًا
مِنْ لَفٍ وَدُورَانٍ بِسِينَارِيُو، وَوَلَادَةٍ إِعْجَازِيَّةٍ وَتَعْذِيبٍ وَصَلْبٍ وَمَوْتٍ وَدَفْنٍ
ثُمَّ قِيَامَةٍ، أَلَمْ يَكُنْ اللهُ قَادِرًا عَلَى مَخَاطَبَةِ الْبَشَرِ قَائِلًا لَهُمْ
بِكُلِّ بَسَاطَةٍ:

يَا بَنِي الْبَشَرِ، وَرَثْتُمْ مِنْ جَدَيْكُمْ أَدَمَ وَحَوَاءَ
خَطِيئَةً. وَلِأَنِّي، أَلَهُ غُفُورٍ رَحِيمٍ، قَرَرْتُ مَغْفِرَةَ
خَطِيئَتِكُمُ الْمُورُوثَةَ.

مَنِيرُ: قَبْلَ أَنْ أُوجِّهَ سَؤَالِي، أَرْجُو السَّمَاحَ لِي
بِتَعْلِيْقٍ جَانِبِيٍّ عَلَى كَلَامِكَ. إِذَا صَحَّ تَفْسِيرُ الْكَنِيسَةِ
بِأَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ صُلبَ فِدَاءً لْخَطَايَا الْبَشَرِ، فَيَنْبَغِي
أَنْ لَا يَحْزَنَ الْمَسِيحِيُّونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْعَظِيمَةِ، يَوْمَ
ذَكَرَى صَلْبِهِ وَأَنْ لَا يَحْمَلُوا الْيَهُودَ مَسْؤُولِيَّةَ صَلْبِهِ.
أَمَّا سَؤَالِي: مَا هِيَ الظُّرُوفُ الْإِجْتِمَاعِيَّةُ وَالْإِقْتِسَادِيَّةُ
وَالسِّيَاسِيَّةُ الَّتِي حَوَّلَتْ مَأْسَاءَ الصُّلْبِ إِنْتِصَارًا؟

تَعْلِيْقُكَ فِي مَكَانِهِ يَا مَنِيرُ. يَدَّعِي الْمَسِيحِيُّونَ أَنْ صُلبَ الْمَسِيحُ كَانَ
فِدَاءً لِلْبَشَرِ، لَكِنْ لَا تَنْسَجُمُ تَصْرِفَاتُهُمْ مَعَ إِدْعَائِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ لَا
يَصَدِّقُونَ مَا يَدَّعُونَ.

قَبْلَ أَنْ أَتَنَاوَلَ مَوْضُوعَ سَؤَالِكَ، أَرْغُبُ التَّعْرِيْجَ قَلِيلاً إِلَى مَوْضُوعِ

جانبي لإلقاء نظرة عاجلة ومبسطة على إنبثاق الثورات الاجتماعية والدينية.

من المعلوم لدى المهتمين بالتاريخ ويعلم الاجتماع أن شرائح المجتمع المحتاجة التي تغيير في أوضاعها لا تكون في كثير من الحالات واعية تمام الوعي الى التغيير الذي تحتاجه. لكن غالباً ما يظهر من يدرك تلك الحاجات وأبعادها ويكون مستعداً الى الأخذ على عاتقه الجهاد في سبيل تحقيق ما تصبو اليه تلك الشرائح. حدثت مثل هذه الظاهرة في الثورات الكبرى كالثورتين الفرنسية والبلشفية.

الآن أعود الى سؤالك لأقول كانت المسيحية، عند نشأتها، حركة ثورية أكبر وأعمق مما يتصور كثير من الناس، وقد سلكت سلوكاً مشابهاً لتلك الثورات، لكنها ثورة من نمط مختلف تماماً

كانت الشعوب المتنوعة القاطنة في الشرق وفي المدن الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط تزخر من وطأة إستبداد وظلم الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية العظمتين آنذاك. وكانت الشعوب مستسلمة الى واقع حياتها المر كقدر محتوم لا مفر منه، وما عليها سوى تحملها الإضطهاد.

من المرجح أنه لو لم تنقذ شرارة في أوساط تلك الجماهير المسحوقة من عبيد وأسرى لبقت خانعة الى واقعهامئات السنين. يقول المثل "تكفي شرارة واحدة لإحراق غابة بكاملها".

منير: يبدو لي أنك تريد أن تحمّل مسؤولية إحراق الغابة على شخص يسوع الناصري. لا يمكنني تصديق ذلك. إذ لا يملك يسوع عود ثقاب فكيف يمكنه إحراق غابة.

كلا يا منير. لم يحرق يسوع الناصري الغابة بعود ثقاب، بل بما نطق من كلمات. تُورد الأناجيل — كما هو معروف — مواظته الأمرة

بالمحبة والتسامح ومغفرة الأعداء وغيرها من تعليمات مثالية لا تؤدي الى ثورة، لكن أهم ما جاء يسوع به هي بشرى عظيمة رائعة، هي بعث حياة بعد الموت، حياة جديدة، حياة لخلود أبدي أفضل من هذه الحياة الأرضية الزائلة، حياة فيها الأغنياء والفقراء، المضطهدون والمضطهدون، الأحرار والعبيد يكونون جميعاً ذوي منزلة واحدة وعلى قدم المساواة. هذه هي

الشرارة التي لولاها لما إنتشر الدين المسيحي.

بعد موت يسوع الناصري على الصليب، نقل رسله الشرارة الى جميع أرجاء الأرض المعروفة آنذاك. فإتسع الحديث بين الأوساط الشعبية عن ذلك المعلم اليهودي المسمى يسوع الذي جاء بالبشرى الرائعة والذي صلب بسبب الدعوة اليها.

ما أسهل حصول تلك الأوساط المسحوقة على حياة أزلية بعد الموت بمجرد الإيمان بيسوع مسيحاً ومخلصاً. فأسبغت عليه هالات من التقديس التي ذكرتها آنفاً.

أخذت الشرارة - خلال القرون الثلاثة الأولى بالإننتشار. وبعثت تنوهج نيران حماس آمال المسحوقين في أنحاء الإمبراطوريتين. وصار الأيمان بتعاليم يسوع على أنه الوسيلة المثلى للخلاص من الإضطهاد والإنعتاق من العبودية. وغدت بمثابة قنابل قوية تتفجر ليس على مضطهديهم بل تتفجر في دواخل نفوسهم وفي بواطن عقولهم محدثة ثوراناً وإنقلابات في أفكارهم، وتغير مناحي وجهات أنظارهم وتقلب أطر تفكيرهم ومعتقداتهم رأساً على عقب. فصاروا مستعدين بل تواقين الى الإستشهاد في سبيل معتقداتهم

وتصوراتهم الجديدة للوصول إلى الجنة الموعودة حيث الحياة الأزلية⁵³.

عانى معتنقو المسيحية الأوائل خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد كثيراً من الإضطهاد والتعذيب: هُدمت مساكنهم وحُرقت كتبهم المقدسة عندهم وأستشهد أعداد كبيرة منهم بشجاعة نادرة. وغدا شهداؤهم قدوة يُقتدى بها مما شجّع مزيداً من المسحوقين إقتصادياً وآخرين غيرهم إلى إعتناق المسيحية. و بمرور الزمن تكاثرت أعدادهم وأصبحوا في عصر الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول قوة لا يُستهان بها ويحسب لها ألف حساب.

لا بد أن الإمبراطور قسطنطين بدأ يشعر بإستحالة إيقاف موجة المد المسيحي. فأخذت تختمر في ذهنه فكرة إستغلال تلك الموجة لمصلحته الشخصية ولأغراض السياسية لإمبراطوريته. فأنقدحت في ذهنه فكرة ركوب تلك الموجة العاتية وتسييرها بنفسه حسب مصالحه وأهوائه.

وهذا ما قام به فعلاً. إذ أعلن في سنة 311 إعتناقه الدين المسيحي وإلغاء جميع قوانين الإضطهاد ضدها وعيّن مسيحيين في مناصب هامة كانت محرمة عليهم سابقاً. وفي سنة 324 أعلن أن المسيحية الدين الرسمي الوحيد للإمبراطورية الرومانية. وصار يتدخل في شؤون الكنيسة ويتراأس مؤتمراتها الأيمانية. فكافأته الكنيسة بعدئذ بتسميته هو ووالدته قديسين!!!

53

عن الجدير بالذكر أن الإسلام ساهم بأسلوب له شبه ليس بقليل مع ما قدمته المسيحية. فأغرى الدين الإسلامي الرجال المتعطين إلى الجنس ولا زال يُغري أتباعه الذكور بحياة أزلية ملى بإمتاع غير منته لغرائزهم مع حوريات الجنة الباكرات والتمتع بكل ما هو محرّم على الأرض من إحتساء الخمر وغير الخمر!!! هكذا، نجد الغيبات تتماثل متشابهة إلى حد كبير في مختلف الديانات كأن كلاً منها صورة كاريكاتورية للأخرى.

منير: ماذا ترجحُ كان سيحدث لو لم يعتنقُ

الإمبراطور قسطنطين الدين المسيحي؟

من المرجح أنه لو لم يعتنق قسطنطين المسيحية، أن يعبدَ معظم البشرِ إمَّا زيوسَ وإمَّا أبولو وإمَّا فينوس وإمَّا ثور وإمَّا... وإمَّا... وأن تحتوي دُورَ عبادتنا على تماثيلهم وصورهم وأيقوناتهم وعلى سبيل المثال لإرتفعت مطارقُ الإله ثور فوق المعابد بدلاً من الصلبان. إضافةً الى كل ذلك، لما وقعت حروبٌ دينيةٌ بين من يعبدُ أبولو مثلاً وبين من يعبدُ زيوس، ولما اضطهد اليهودُ بسببِ أن أجدادهم صلبوا المسيحَ ولما حدثتُ المحرقة. هل هذا فرقٌ كبير؟

ينبغي عليك يا منير ألا تُخرجنني بسؤالٍ عن موقفٍ إفتراضي تكون الإجابةُ عنه بالتخيُّل والتخمين والترجيح. بل من المفضل أن تسأل سؤالاً يُجابُ عنه بمراجعة المصادر التاريخية.

منير: إني لا أرى ضرراً في أ سئلةٍ إفتراضيةٍ إذ أنها

تحفزُ الخيال. على كل حال إليك سؤالي الذي يفني

بشرطك:

ماذا حدثَ بعد إعتناق قسطنطين المسيحية؟

جيد تُعتبرُ لحظةُ إعتناقِ الإمبراطور قسطنطين الدين المسيحي لحظةً تحولٍ كبرى في التاريخ خاصةً التاريخ الأوروبي. إذ كان المسيحيون قبلها مضطهدين (بفتح الهاء) وأصبحوا بعدها مضطهدين (بكسر الهاء).

في عهد الإمبراطور "القديس" قسطنطين وإيعازاتٍ منه عذبَ المسيحيون كهنةً وثنيين حتى الموت، وهجروا كل من هو غير مسيحي من كثيرٍ من المدن ودمروا المعابد اليهودية والوثنية في القدس وبعلبك وفينيقيا، وصلبوا السحرة والعرفانين واضطهدوا

اليهود. ونهب رعاغ مسيحيونَ ذخائرَ وتماثيل معابد الوثنيين الإغريق لتزين بها شوارع القسطنطينية المدينة الجديدة التي أنشأها الإمبراطور قسطنطين وأطلق إسمه عليها.

إستمر معظم الأباطرة بعد قسطنطين على النهج نفسه في التشجيع على القيام بمثل تلك الأعمال الوحشية وبأبشع منها. إذ أمر بإغلاق جميع المعابد الوثنية ودُنست بعضها بتحويلها الى إسطبلات أو الى دورٍ للبعاء. وأمر الإمبراطور جوفيان بحرق مكتبة أنطاكيا، وقد حُرقت أطنان من الكتب في ساحات المدن الشرقية للإمبراطورية البيزنطية (الأناضول أي تركيا اليوم).

بتحريض من مطران الإسكندرية سنة 410 أمسك رعاغ مسيحيون بالفيلسوفة والرياضياتية والفلكية هيپاتيا المشهورة بِبُحُوثها ومؤلفاتها وسحلوها في شوارع الإسكندرية الى الكنيسة وقطعوا جسمها إرباً إرباً وطاقوا بالقطع حول المدينة وتم حرقها مع كتبها⁵⁴ لا لسبب سوى رفضها إعتناق المسيحية لأنها لا ترى فرقاً بين الوثنية والمسيحية.

هذه بعض الأمثلة للأعمال الوحشية التي قام بها مسيحيو ذلك العصر وفي كثير من العصور التالية. هنالك تعتيم على معظم المسيحيين المعاصرين بشأن تلك الأعمال الوحشية وأمثالها. إذ أن معظمهم في جهل تام عنها. على الرغم من توافر مجلدات عن تصرفات المسيحيين في مختلف العصور.

لا أرى ضرورة الى سرد المزيد فأتوقف كي أترك لمحبي الإطلاع عليها متعة مراجعة كتب التاريخ والموسوعات.

منير : لم تُسجَلْ - بقدرِ علمي بالتاريخ - أعمالٌ
بربريةٌ وحشيةٌ إرتكَبَها مسيحيو الشرقِ مثلما إرتكبَ
مسيحيو الغربِ .

سؤالي : لماذا - على ما يبدو - أن مسيحيي الشرقِ
أشدُّ تمسكاً بتعاليمِ المسيحِ من إخوانهم في الدينِ
بالغربِ ؟

أشكركُ يا منير على هذه الملاحظة العميقة.

إنني لستُ ميّلاً الى أن أعزو ذلك الى أن مسيحيي الشرقِ أشدُّ
تمسكاً بتعاليمِ المسيحِ من مسيحيي الغربِ . بل أعزوها الى أسبابٍ
أخرى ، سأحاولُ تبيانها بعد قليل.

أقرُّ بأنني لم أكن واعياً الى وجودِ فرقٍ في أسلوبِ إنتشارِ المسيحيةِ
في الغربِ وبين أسلوبِ إنتشارها في الشرقِ ، الى أن إسترعى
إنتباهي الى الفرقِ مقالٌ لأحدِ المسيحيين الكلدان قرأته قبلَ حوالي
شهرين من كتابة هذا الرد . جاء فيه قوله بأن الكنيسةَ الشرقيةَ لم
تنتشرْ بالسيفِ مثلَ إنشارها في الغربِ . وهو أولُ إعترافٍ أقرؤه
لمسيحيٍّ عراقيٍّ يُقرُّ بإنتشارِ المسيحيةِ بالسيفِ في أيِّ مكانٍ في
العالمِ

منذ سقوطِ الإمبراطورية الكلدانية سنة 539 قبلَ الميلادِ ، عانى سكنهُ
وادي الرافدين كثيراً من وطأة الحكمِ الفارسيِّ رغمَ أن الديانةَ السائدةَ
آنذاك في كلا البلدين كانت الزارذشتية . إزدادَ الإضطهادُ حينَ حلَّ
القرنُ الأولُ الميلادي وإنتشرَ تلاميذُ المسيحِ مبشرين به في كلِّ أنحاءِ
المعمورة.

إتجهَ الرسولُ توما مبشراً الى البلدانِ الشرقيةِ بدءاً بالعراقِ والبحرينِ
والهند . نجحَ تبشيرُهُ في بلادِ وادي الرافدين نجاحاً كبيراً . لكن لم
ينلُ سوى قليلٍ من النجاحِ في بلادِ الفُرسِ .

منير: ما هي - حسب ظنك - مسببات التباين

في مدى تفاوت نجاح تبشيري في بلدين متجاورين
ومتشاركين في الزاردشتية ديناً رئيسياً؟

صحيح، إن البلدين متجاوران وغير مختلفين كثيراً في الدين، لكنهما مختلفان عرقياً ولغوياً. الرافدينيون قوم ساميون يتكلمون الآرامية التي هي إحدى فروع عائلة اللغات السامية، أما الفرس فهم من العرق الهندي - الآري ولغتهم من عائلة اللغات الهندية - الأوروبية. لكن ما هو أكثر تأثيراً - فيما يخص التبشير - من دينك الفرقين هو أن سكتة وادي الرافدين كانوا يعانون من وطأة الأضطهاد الفارسي عليهم.

من الملاحظ بصورة عامة، أن يميل المضطهدين في حالات كثيرة الى إعتناق دين مختلف عن دين مضطهدهم، ليكون لهم هوية خاصة تميزهم عن مضطهدهم وتوطد تماسكهم. فمثلاً، عانى سكان الجزر الإندونيسية خلال ثلاثة قرون كثيراً من مظالم الإستعمار الهولندي، فتحوّل الأندوسيون من البوذية والوثنية الى الدين الإسلامي ليس بالسيف إنما بتأثير تبشير من تجار مسلمين. وأندونيسيا اليوم أكبر دولة إسلامية سكاناً. ونجد مثلاً آخر في الأمريكيين من ذوي جذور أفريقية، يتحوّلون بأعداد ليست قليلة الى الدين الإسلامي، كما يغيرون أسماءهم الى أسماء متداولة عند المسلمين كي يميزوا أنفسهم - ليس فقط بلون الجلد بل بالعقيدة الدينية وبالإسم أيضاً عن الذين إذاقوهم العذاب طويلاً.

لهذه الأسباب وأمثالها، وبالإضافة الى ما سبق ذكره عن إستنبات المسيحية في العقول فكرة أمل بحياة أزلية بعد الموت يتساوى فيها المرء المضطهد مع مضطهده، وجد التبشير بالمسيحية في بلاد الرافدين تربة خصبة لإنتشارها، مكتسحة الزاردشتية والأديان الوثنية. فعدت نسبة عالية من الشعب الرافديني معتنقة الدين

المسيحي عند حلول القرن الثاني. ورغم ذلك النجاح التبشيري على المستوى الشعبي في وادي الرافدين لم ينجح خلال الستة أو السبعة قرون من بدء التبشير الى الغزو الإسلامي، في إستقطاب ملك فارسي يفكر، بإستغلال العنقوان الإيماني لخدمة مصلحته الخاصة ومصلحة مملكته مثلما فعل الإمبراطور قسطنطين. وفي أعقاب إعلان أن المسيحية هي الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، إشتد بطش ملوك الفرس وظلمهم بالرافدينيين المسيحيين، على أساس أنهم أصبحوا طابور جواسيس للرومان.

منير: يتضح من تعليقك أنك تعزو سبب عدم إرتكاب مسيحي الشرق أعمالاً وحشية كتلك التي إرتكبتها مسيحيو الغرب ليس تمسكاً بتعاليم المسيح، بل لعدم إدراك ملوك الفرس أو غيرهم من الحكام للإمكانيات الرعاعية الكامنة للمصابين بفيروس دين جديد.

هذا هو بالضبط ما يدور في ذهني. البشر بشر. ليس من منطوق أحداث الواقع أن يقتدي طرف منهم بتعاليم المسيح ويخالفها طرف آخر. لو قدر أن سار ملوك الفرس على النمط القسطنطيني لكان من المرجح أن يكون ذلك تحولاً جذرياً في مجرى التاريخ... فمثلاً، بدلاً من أن يكون مسيحيو بلاد الرافدين خصوماً للفرس أثناء غزوات العرب المسلمين، كان من الممكن أن يكونوا سنداً لهم يقلب خسارتهم إنتصاراً.

منير: وربما كان الفرس، في بداية الرسالة الإسلامية، يجيشون جيشاً من مسيحيي بلاد

الرافدين لإحتلال (ونهب) الجزيرة العربية وكوئد
الدين الإسلامي في مهده .
كفاك، يا منير، من خيالات أحلام النهار.

To Be Or Not To Be Christians, This Is THE Question

منير: تحدثتُ يومَ أمسٍ معَ مجموعةٍ من أصدقائي المسيحيينَ شديدي الإيمان. تَطَرَّقَ الحديثُ حولَ الأعمالِ الهمجيةِ الوحشيةِ التي قامَ بها رعاغُ من المسيحيين. إنقسمَ الحاضرونَ الى قسمين. نفى القسمُ الأولُ وقوعَ تلكِ الحوادثِ مدَّعينَ أن التوثيقاتِ التاريخيةِ لحدوثها ليست سوى إختلاقاتِ يهوديةٍ غرضُها الإساءةُ الى المسيحية. أمَّا القسمُ الثاني فلم ينفِ حدوثها، بل نزعوا صفةَ الإنتماءِ المسيحي للقاءمينَ بها مدَّعينَ أن أولئكِ مسيحيونَ بالإسم فقط لمخالفتهم تعاليمَ المسيحِ المتسامحةِ والنابذةِ للعنف.

لأُعتقدُ أن هنالكِ جدوى في مناقشةِ المنتمينَ الى الفئةِ الأولى. لكن هنالكِ إمكانيةٌ مناقشةِ توضُّحِ عقمِ التبريراتِ التي يقدمُها المنتمونَ الى الفئةِ الثانيةِ ماذا تُعلِّقُ على تلكِ المحاولاتِ التبريريةِ التفسيريةِ؟

ملاحظة مهمة: بعد الإعتذار الى شيكسبير. أقولُ لئلا يُساءَ فهمي، أودُّ توضيحَ رأيي قبلَ البدءِ بتعليقي. إن الرعايةَ ليست حكرًا لدينٍ محددٍ. بل هي صفةٌ لصيقةٌ بكلِ الأديانِ (خاصةً التوحيدية). لا يوجدُ سببٌ للتركيزِ في هذا المقالِ على المسيحيةِ سوى الردِّ على أصدقاءٍ صاحبينَ منير. إذ أن إجراءَ تحويرٍ على تعليقي بتبديلِ بعضِ الكلماتِ والرموزِ الدينيةِ بما يقابلُها من دينٍ آخرٍ ينتجُ - حسبَ رأيي - مقالًا صادقًا عن الرعايةِ في الدينِ الآخرِ.

إن الإِدعاء، بأن عدمَ التّزام أولئك الرعا ع بتعاليم المسيح المسألة الداعية الى نبذ العنف يجعلهم مسيحيين بالإسم فقط، هو إدعاء تبسيطي يدل على سذاجة منطقية.

إسمحوا لي أن أسأل حضرات المستبسطين:

- أتعلمون أم لا تعلمون من كان يُحرّض ويقودُ الرعا ع الذين تصفونهم أنهم "مسيحيون بالإسم فقط"؟ إذا كنتم لا تعلمون وعلى إستعداد أن تسمعوا فأقول إن أغلبهم باباوات ومطارنة. هل يا ترى تنعتون أولئك أيضاً بأنهم مسيحيون بالإسم فقط؟
- كيف تُميزون المسيحي الحقيقي الممن هو مسيحي بالإسم فقط؟ أتملكون محكاً تميزون به المسيحي الحقيقي من المتظاهر بالمسيحية؟ هل تعتقدون حقاً أنه إذا لطم البابا مثلاً على خدٍ ولم يعط خده الآخر، يغدو مسيحياً بالإسم فقط؟
- ألا تثير غضبكم وإشمئزازكم أعمال رعا ع من أديان أخرى مماثلة في وحشيتها بما يقوم به رعا ع تنعمونهم "مسيحيين بالإسم فقط"؟ من المرجح أن لا يخطر على بالكم أن في معتنقي الأديان الأخرى مستبسطون مثلكم يعللون أعمال رعا عهم بسذاجة منطق يماثل منطقكم، لكنكم تعزون أعمال رعا عهم الى نصوص وردت في ما يقديسون من كتب أو الى سوء في السلوك الشخصي لأنبيائهم
- إذا كان محك المسيحية الحقّة هو الإلتزام الكامل بتعاليم المسيح فلن يبقى على سطح الأرض سوى حفنة آلاف من مسيحيين.

وأرجو أن يتسع أفقكم لتدوير وجهة أنظاركم بزاوية 180 درجة كي تستطيعوا التأمّل في الموقف الآتي:

انتم تسنكفونَ من الرعا ع الذين تسمونهم "مسيحيين بالإسم فقط" لقيامهم بأعمال همجية إستكفافاً بحيث تودون سلخهم عن المسيحية لأن المسيح نادى بنبذ العنف. الآن أسألكم كم تكون درجة وحشية أولئك الرعا ع لو نادى المسيح بعكس ما نادى؟ أترك لكم الجواب.

منير: د. ريمون أعتقد أنك تتكلم عن عهد من بدء المسيحية الى القرون الوسطى. أمّا الآن فقد تبدلت الأمور نحو الأحسن على الأقل بالنسبة الى المسيحيين.

كلا يا عزيزي منير. لا زالت أعمال الرعا ع المسيحيين (وغير المسيحيين قائمة) خلال القرنين الماضي والحالي. لا بد أنك تتذكر الأعمال الدموية التي حدثت في أيرلندا بين طرفي النزاع الكاثوليكي والبروتستانتى. ومما لا شك فيه أنك قد شاهدت على شاشات التلفزيون الصور المروعة لعمليات المذابح والمجازر التي جرت في دويلات يوغسلافيا السابقة (صربيا، وبوسنا والهرسك وكرواتيا). عمليات تناولت المسلمين نفذها مسيحيون من الطوائف الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية بمباركة رجال الدين من مختلف الطوائف المسيحية. والأدهى من ذلك أن أعداداً ليست قليلة من رجال الدين المسيحي قد شاركت فعلياً بالأعمال الإجرامية. وينبغي ألا ننسى أعمال المسيحيين النازيين ومحرقتهم الشائنة (وهي أعمال رعاعية على المستوى الدولي).

منير: فهمت أن الأعمال الوحشية لا زالت قائمة على قدم وساق في القرنين الأخيرين. وأتطلع الآن الى سماع رأيك بشأن الأعمال الرعاعية بصورة عامة.

إنني أرفض التفاسير التبسيطية وأمثالها. وكى أنظر الى الأمور

بِمَوْضُوعِيَّةٍ أُحَاوَلُ جُهْدَ إِمْكَانِي أَنْ أُنْثِي بِنَفْسِي عَنْ جَمِيعِ الْمَجْمُوعَاتِ
الدينية والسياسية، وأتصورُ نفسي كأنما أني واقفٌ على سطحِ
كوكبِ المريخِ أتفرِّجُ بحيادٍ تامٍّ عما يجري على كوكبنا الأرضي.

أرى مجموعاتٍ — من جميع المذاهبِ والأديانِ والأصولِ من النوعِ
البشري الذي يُفترضُ إمتلاكهُ العقلِ. أراها عندَ ظروفٍ ليست نادرةً
تفقدُ عقلانياتها وتتصرفُ كأنها مصابةٌ بجنونِ البقرِ. فقد إستولتُ
فيروساتُ الغيبياتِ الدينية على أدمغةِ أفرادِ تلكِ المجموعاتِ منذُ
طفولتِهم فأضفيتُ هالاتُ من القدسيةِ والقداسةِ على أشخاصٍ أو
نصوصٍ أو مبادئٍ. وكأني أسمعُ من ذلكِ البُعدِ تبادلَ التهمِ المتماثلةِ
وتقاذفِ الشتائمِ المتشابهةِ بينِ مجموعةٍ وأخرى، لا فرقٌ بينِ هذهِ
المجموعةِ وتلكِ، الجميعُ سواسية.

منير: سألتَ المستبسطين قبلَ قليلٍ كيف ستكونُ
شراسةُ همجيةِ الرعاعِ المسيحيين لو أوصى المسيحُ
بعكسِ ما هو معهودٌ عنه. . . سألتَ السؤالَ وتركتُ
الإجابةَ عنه للمستبسطين.

لكني أودُّ معرفةَ إجابةِ الدكتور ريمون عن سؤاله.

أظنُّ أن يرفضُ غلبةُ المستبسطين بمجردَ التفكيرِ بالسؤالِ، أمَّا
الأقليةُ التي تفكرُ به ستجيبُ بِحدوثِ إرتفاعِ في الهمجية. لكنك
ترغبُ في معرفةَ إجابتي عن سؤالِي. أُجيبُك إنني لا أتوقعُ حدوثِ
إرتفاعِ في وحشيةِ أعمالِ الرعاعِ المسيحيين، كما لا أتوقعُ هبوطاً في
مستوىِ وحشيةِ الرعاعِ المسلمين لو أوصى القرآنُ ومحمدُ نبيُّ
الإسلامِ بالتسامحِ بكلِ وضوحٍ وصراحة.

منير: فهتُمُ أنك تعتقدُ بعدمِ حدوثِ إرتفاعِ في
همجيةِ الرعاعِ المسيحيين. غيرَ أني أرى أنه لو نصَّتْ

الآياتُ القرآنيَّةُ على التأكيدِ على التسامحِ كان سيكبحُ كثيراً من وحشيةِ الرعاعِ المسلمين .
 طبعاً من المستحيلِ التأكيدُ من صحةِ توقعاتِك ولا من صحةِ توقعاتي في مواقفِ إفتراضيةِ .
 بالطبع ، لا يمكنُ الجزمُ بما سيحدثُ فعلاً في المواقفِ الإفتراضيةِ .
 لكنني سأعملُ على تعزيزِ رأيي من منطلقِ الأحداثِ .
 إن من بين ما أهدفُ اليه في هذه الإجابةِ هو التوصلُ الى المقولةِ الآتيةِ :

لا يقتدي رعاغُ الأديانِ بأنبيائهم ، على عكسِ ما يتصورُ معظمُ الناسِ ، إنما يُقادون كقطعانِ ماشيةٍ بفعلِ ما يُضفي رجالُ الدينِ من هالاتِ التقديسِ والتعظيمِ والتبجيلِ على أنبياءٍ أو على نصوصٍ من كتبهم التي يُقدِّسونها وعلى رموزِ دينهم .

يعتقدُ معظمُ الناسِ (ويبدو أنت يا منير من ضمنهم) أن تعاليمَ أنبياءِ الدينِ الذي نشأَ عليه المرءُ وأن نصوصاً من الكتبِ التي يقَدِّسُها هي التي تحدِّدُ نوعاً ما سلوكه وتصرفه تجاهَ غيره .
 من دون شكُّ أن لهذهِ التعاليمِ والنصوصِ بعضُ التأثيرِ على أسلوبِ تعاملِ المرءِ مع الآخرين ولا يمكنُ نكرانها . لكن يهْمُنَا في هذا المقالِ موراً أشدُّ تأثيراً على حشدِ من الناسِ بحيثُ أن أيَّ لمَسِّ مُسيءٍ اليها يُخرجهم عن طورهم الإعتيادي الى طورٍ عنيفٍ .
 أرجو ، يا منير ، الإجابةَ عن السؤالِ :

ماذا تتوقعُ أن يحدثَ إذا صرَّحتَ أمامَ جمهورٍ من المسيحيين أو المسلمين أو اليهود أو البوذيين أو غيرهم قائلاً لهم "أنتم لستمُ مسلمين حقيقيين ، أو لستمُ مسيحيين حقيقيين أو لستمُ كذا... الخ لأنكم لا تنفذون تعاليمَ أنبيائكم؟" .

منير: إنني لا أتوقع أيَّ إعتداءٍ جسْميٍّ عليَّ بل مجرد سخريةٍ معظمهم مني ومن أقوالي وأتوقع مُساءلةً قلةٍ منهم عن كيفيةِ توصلي الى عدم تنفيذهم تعاليم أنبيائهم.

حسناً، منير، الآن أرجو الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ماذا تتوقع أن يحدث إذا مزقت القرآنَ عليّ أو نعتت رسول الإسلام بكلمة نابية، أمام حشدٍ من المسلمين؟

وماذا تتوقع أن يحدث أمام حشدٍ من المسيحيين المؤمنين إذا دنست الصليب أو الإنجيل أو نعتت العذراء بكلمة نابية؟

هل تتوقع أن يُجمع المسيحيون قائلين عنك: "لِنَتَذَكَّرَ ما عَلَّمنا يسوعُ المسيحَ ولنغفرَ نحن له أعماله وأقواله الشريرة، ولنصلي من أجل هدايته. وأن الله سيحاسبه؟".

منير: أجدُ صعوبةً في التوصلِ الى توقعاتٍ في مواقفٍ افتراضية. هل ترغبُ في أن أُجريَ تجربةً فعليةً؟!!!

هههههههه. لا بدَّ أنك تمزح. هل تتصور أني قاسٍ الى درجة أن أزجَّ بصديقي منير الى مخاطر جسيمة؟ كلا يا منير لا أريدُ ولا أتوقعُ منك إجراء تجاربٍ حقيقية. إذ يمكنُ التوصلُ الى قناعةٍ يُعَوَّلُ عليها بالإعتمادِ على ما يُسميه الفيزيائيون التجاربَ الفكريةً (Thought Experiment)⁵⁵. يمكنكُ التصوّرَ لما سيحدثُ في المواقفِ المذكورة، دون إجراء تجربةٍ حقيقيةٍ خطيرة، وذلك بالإعتمادِ على معلوماتٍ من خبرتك الشخصية ومن معرفتك التاريخية

منير: فهمتُ. تريدني إعتياداً على معرفتي ما جرى تاريخياً وما يجري على ساحة الواقع حالياً التوقع ما قد يحدث لي في حالة إساءتي لأحد الرموز الدينية. فهمتُ.

O.K. أتوقع حدوث إعتداءات جسدية عنيفة من تجمع إسلامي خاصة إذا علم التجمع أنني لست من دينهم.

كما أتوقع إعتداءات مشابهة الى حد ما من المسيحيين خاصة إذا كنت مسلماً في دولة ذات أغلبية مسيحية وأقلية كبيرة مسلمة (كدويلات يوغسلافياً السابقة). وأودُّ أن أضيف أن في كثير من الحالات يخرض رجال الدين المُسيِّسون ورجال السياسة "المستدينون" 56 جماعاتهم. عندئذ تصبح الإعتداءات أكثر وحشية.

إن هذا بالضبط ما أتمنى أن يدركه المستبسطون

بأن تعاليم الأنبياء وسلوكهم الشخصي ونصوص الكتب المقدسة قد يكون لها تأثير يُذكر على فردٍ أو أفرادٍ قليلي العدد، لكن حين تُواجه مجموعات كبيرة من البشر، يكون تأثيرها كبيراً.

إن المحرك الرئيسي للأعمال الغوغائية (سواءً كان الغوغائيون من المسيحيين أو من المسلمين أو من غيرهم) هو قدسيَّة الرموز الدينية مثل الصليب أو الإنجيل أو العذراء أو المسيح بالنسبة لمن نشأ مسيحياً، والقرآن والكعبة ومحمد لمن نشأ إسلامياً، والبقرة لمن نشأ هندوسياً، والى آخر ما هنالك من أديان.

بمناسبة الكلام عن الهندوس وتقديسهم البقرة أتذكرُ قرأتُ عن وقوع معركة سنة 2011 بسببِ بقرةٍ حين عثرَ الهندوسُ على بقايا بقرةٍ من قرونٍ وعظامٍ قربَ مجزرةٍ سريةٍ يمتلكها مسلمون. فهبَّ الهندوسُ للدفاعِ عن رمزهم الديني ونشبتُ معركةٌ داميةٌ مع المسلمين، سقطَ بسببها كثيرٌ من الجانبين بين قتيلٍ وجريحٍ. فأضطرُّ الى إستدعاءِ تدخلِ الجيش.

فقد تجذَّرَ تقديسُ وتبجيلُ الرموزِ الدينية في أعماقِ المراكزِ العصبيةِ لدى أغلبيةِ البشرِ منذ أن كانوا رُضعا في أحضانِ أمهاتهم.. ومثلما يُهَيِّجُ اللونُ الأحمرُ الثورَ، كذلك تُهَيِّجُ الإساءةُ الى الرموزِ الدينيةِ الغوغاءَ، ليغدو قطيعاً فاقداً العقلانيةِ ينهبُ ويقتلُ ويغتصبُ صارخاً إمَّا "اللهُ أكبرُ" وإمَّا "المجدُ للمسيح" في نشوةٍ وإبتهاجٍ معتقدين أنهم يلبون إرادةَ إلههم، (ومن المؤسف أني لا أعرفُ ما هي صرخة الهندوس).

يبدو أن المستبسطين يقعون في مآزقٍ فكريٍ بالخلطِ بين الصِغَرِ والكِبَرِ، أي بين مجموعةٍ ذاتِ عددٍ صغيرٍ من البشرِ، (لا يتجاوزُ عددها أصابعَ اليدين) وبين مجموعةٍ ذاتِ عددٍ كبيرٍ منهم. هذا الخلطُ يعيقُ المستبسطين من إدراكِ الفرقِ في النمطِ السلوكي العامِ لهاتين المجموعتين. إذ يمكنُ في أغلبِ الحالاتِ التفاهمِ مع أفرادِ المجموعةِ الصغيرةِ بمساءلتهم عن مدى إنسجامِ سلوكهم مع تعاليمِ وإرشاداتِ أنبيائهم ونصوصِ الكتبِ التي يقديسونها. بينما لا يمكنُ ذلك مع مجموعةٍ كبيرةٍ عددياً.

يمكنُ تقريبَ هذه الفكرةِ الى الأذهانِ الى حدٍ ما بالتذكيرِ بما يُسمى في الفيزياءِ النوويةِ بالكتلةِ الحرجةِ Critical Mass

منير: أنني متأسفٌ. لقد نسيتُ كثيراً ممَّا درستُ من الفيزياءِ في المدرسةِ الثانويةِ. فأرجو إنعاشَ

ذاكرتي بِشرح موجزٍ لمفهوم "الكتلة الحرجة" وربطَ علاقته بتأثير الرموز الدينية على الرعا عازيزي منير، لا يحتاج الموضوع دراسة الفيزياء، إنما معلومات عامة يمكن أن تقرأها في الصحف اليومية⁵⁷. على كل حال، أثرت وضع الشرح المبسط "منفياً" في الهامش أدناه. ومع ذلك هو جزء لا يتجزأ من المقال أملاً أن يكون شرحي المقتضب كافياً لينمذج السلوك البشري حين يُحرّض من قبل رجال الدين المُسيّسين. مثلاً لا يؤدي التسليط بالنيوترونات الى تحفيز الإنشطار الأول في العناصر ذوات الكتل دون الحرجة، كذلك لا يحدث تحريض رجال الدين المسيّسين تأثيراً يُذكر على التزام مجموعة من أفراد قلائل العدد بتعاليم أنبيائهم. وعلى الغرار نفسه، مثلاً لا تحتاج العناصر ذوات الكتل فوق الحرجة الى تحفيز خارجي لغرض توليد سلسلات متعاقبة من الإنشطار، كذلك لا تحتاج المجموعات البشرية كبيرة العدد الى تحريض خارجي لتنتفض غير مبالية بتعاليم أنبيائها نائرة هائجة فتدمر وتُحرق وتغتصب وتقتل بلا رحمة. فهي "قنبلة نووية" بشرية.

دعنا - لغرض مزيد من التوضيح - ترك العنان لخيالنا، لنتصور ظروفاً شاءت أن تجعل من كاتب كبيرٍ مثل تولستوي نبياً مبعلاً ذا أتباع كثرٍ ومن مؤلفاته كتباً مقدسة. لنتساءل ولنفكر معاً، كيف

تعريف الكتلة الحرجة لعنصرٍ مثل اليورانيوم 235 أو البلوتونيوم 239 هي الحد الأدنى من كتلة الكمية الكافية منه لإستدامة تسلسلات متعاقبة من الإنشطارات. وإذا تتطلب العنصر المستخدم في عملية الإنشطار النووي تسليطاً مستمراً بالنيوترونات لتحفيز الإنشطار الأول فتُسمى "الكتلة دون الحرجة". وإذا كان العنصر المستخدم ذا كتلة قادرة على توليد سلسلات متعاقبة من الإنشطار حتى من دون تحفيز خارجي فيطلق على هذه الحالة "الكتلة فوق الحرجة". وهي المرحلة المطلوبة لتصنيع القنبلة النووية.

سيتصرف الغوغاء التولستويون؟ ألا يُرجحُ القارئُ متفقاً معي أنهم سيتصرفون في أغلب الأحوال بطريقةٍ مشابهةٍ لغوغائي الأديانِ المعروفةٍ غيرِ مبالينَ ولا مقتدينَ بمبادئِ "النبيِ تولستوي" سواءً كانت متسامحةً أم لم تكن. وأنهم سيقومون بأعمالٍ وحشيةٍ وهم يصرخون "العزةُ لتولستوي الجيد".

الإِقتِدَاءُ بِالمَسِيحِ

منير: أودُّ العُودَةَ بِأسئلتِي الى موضوعِ شخصِ يسوعِ الناصري .

من الواضح أنك تشاركُ أغلبيةَ الناسِ في إعتقادهم بوجودِ إنسانٍ حقيقيٍّ عاشَ قبلَ حوالي ألفي عامٍ في فلسطينٍ إسمه يسوعُ الناصري . له أقوالٌ ومواعظٌ وحكمٌ أنصتَ إليها في حينه ناسٌ كثرٌ وقرأها ملايينُ البشرِ خلالَ الأعوامِ الألفينِ الماضيةِ . ويقرأها اليومَ من الأناجيلِ بلايينُ البشرِ ويجدُ كثيرٌ منهم فيها هدايةً رائعةً لهم .

سؤالِي : ألا تعتقد أن الإنسانَ الذي تصفه الأناجيلُ المُسمى يسوعُ يستحقُّ الإعجابَ والإقتداءَ به (سواء كان حقيقةً مبالغاً فيها أو أسطورةً)؟

مما لا شكَّ فيه أن بعضَ الحكَمِ التي تُعزى الى يسوعِ الناصري رائعةٌ ومفيدةٌ وتدُلُّ على فهُمٍ عميقٍ لِنفسياتِ البشرِ . وقد إقتبستُ في مقالاتي المنشورة في موقعِ "الحوارِ المتمدن" بعضاً منها ، على سبيلِ المثالِ المقولةُ الآتيةُ المنصوصُ عليها في إنجيلِ متى 7/5 ، التي أعتقدُ وجوبَ العملِ بها أفراداً وجماعات .

تنظُرُ الى القشَّةِ في عينِ أخيكَ ولا تبالي بِالخشبَةِ في عينِكَ؟

وهناك المقولةُ المسماةُ "القاعدةُ الذهبيةُ" التي تنصُّ حسبَ إنجيلِ متى 7/12 على ما يأتي:

فكلُّ ما تريدون أن بفعلَ الناسُ بكمِ إفعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم ، لأن هذا هو الناموسُ والآلِبياءُ .

لا إعتقدُ بإمكانية وجود حضارةٍ من دون هذه القاعدةِ سواءً عملَ بها ضمناً أم نُصَّ عليها صراحةً. وَيَعْتَبَرُهَا معظمُ الناسِ تعليماً أخلاقياً رائعاً من وَضَعِ يَسُوعَ الناصري. لكنه يُقَرُّ بنفسه أنها ليست له. إذ في الواقعِ قد أوصى بها كثيرون، منهم كونفوشيوس قبل الميلادِ بحوالي خمسمئة عام.

وينبغي ألا ننسى أو نتناسى أن هنالك مقولاتٍ لكبارِ المؤلفين والفلاسفة والشعراءِ تتضمَّنُ تعليماتٍ وتوجيهاتٍ أخلاقيةٍ ساميةٍ لا تقلُّ روعةً عن مقولاتِ يسوع، لكنها لا تنالُ التقديسَ والتبجيلَ مثل ما تنالُهُ مثيلاتها لِيَسُوعَ الناصري. وفي المقابلِ توجدُ مقولاتٌ وتعليماتٌ مشهورةٌ جاءتْ على لسانِهِ تتضمَّنُ مبالغاتٍ كبيرةً من أمثال مَنْ لطمك على ذكِّ الأيمنِ فحوَّلْ له الآخر.

و

أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيك.

التي أخشى أن لا يستطيعَ تطبيقها إلا قلةٌ من أشدِّ المؤمنين المسيحيين تديناً. ولستُ أدري هل قصدَ يسوعُ التأكيدَ عليهما بالمباغة، أم قصدَ تطبيقهما وأمثالهما حرفياً.

أودُّ من هذا المنطلقِ، إثارةَ سؤالِ ذي طبيعةٍ أكاديميةٍ محضةٍ عن موقفِ إفتراضيِ بحثٍ هو: لو قُدِّرَ لِيَسُوعَ الناصري العيشُ ثلاثين عاماً أخرى وأن يُنَّوِّجَ ملكاً على إسرائيل، أتساءلُ: هل كان سيبقى ملتزماً بتعاليمه السمحاء التي بثَّها على الناسِ قبلَ تسنمه العرشِ الملكي. فمثلاً هل كان سيديرُ خدَّه الأيسرَ لمن يلمُّه على الأيمن. أم كان سيأمرُ بجزِّ رقبةٍ مَنْ يجرؤُ على محاولةِ الإقترابِ منه؟ هل سيدعو الى محبةٍ أخويةٍ بين مؤيديه ومعارضيه؟ هل سيستمرُّ في

الدعوة الى مغفرة أعدائه أم سيُجيشُ جيوشاً لِدحرهم وإذلالهم؟⁵⁸
تساؤلي يهدفُ الى التذكير — بما يعلمه العارفون بنفسياتِ البشر
بأن لدى كثيرٍ من الناس نزعةً الى تغييرِ جذريٍ في أخلاقهم
وسلوكلهم ومبادئهم حين يجدون أنفسهم في مواقعٍ سلطويةٍ فيميلونُ
الى نسيانٍ أو تناسيٍ مبادئهم التي نادوا من أجلها، ويستغلونَ
مراكزهم المستجدةً لمصالحهم الذاتية أو الوطنية أو السياسية. ولعلَّ
أحسنَ نموذجٍ على هذه النزعةِ التغيُّرُ الذي طرأَ على أخلاقٍ ومواعظِ
محمدٍ نبيِّ الإسلام، بعد هجرته الى المدينة حيث قويت شوكتُه، وهو
تغيُّرٌ يتبينُ بوضوحٍ عند مقارنةِ الآياتِ المكيَّةِ مع المدينةِ.
تساؤلي الإفتراضي الأكاديمي هو: لو أُتيحتُ ليسوعُ الناصري
ظروفاً مثل ما ذُكرتُ، هل كانَ سيسمو فوق تلك النزعةِ أم لا؟
أعتقدُ، رغمَ علمي إستحالةِ الإجابةِ بموضوعيةٍ على سؤالٍ عن موقفِ
إفتراضي، أنه تساؤلٌ يستحقُّ التأملَ به.

من جهةٍ أخرى، يجدُ المرءُ تبايناً واضحاً بين صيغِ نصوصٍ مُحبيَّةٍ
ليسوعُ التي تُظهره عطوفاً محباً متسامحاً، وهي نصوصٌ تُسمعُ
عادةً من وعاظٍ على منابرِ الكنائسِ أو دُورِ العبادةِ وبين نصوصٍ
أخرى مناقضةٍ لها وردتُ في الأناجيلِ على لسانه أيضاً. إذ نسمعه،
على عكسِ ما يُدعى أنه جاءَ من أجلِ البشريةِ جمعاء، يُشبهه غيرَ
اليهودِ بالكلابِ إذ يقول، (حسبِ الإنجيل)

58

ربما يشكُلُ موضوعُ هذا السؤالِ وأمثاله مادةً خصبةً لأدبِ "الخيالِ الديني" (على غرارِ الخيالِ العلمي)
يتناولها أدباءٌ بارعونَ ذوو خيالٍ واسعٍ لتأليفِ رواياتٍ تحملُ عناوينَ مثيرةً مثل "لطمَةُ على خدِّ المسيح"
أو و "المسيحُ يُصلبُ من جديد" تأليفِ الروائي اليوناني نيقولا كازانتزراكس و "شفرةُ
دافنسي" تأليفِ دان براون و "آياتُ شيطانية" تأليفِ سلمان رشدي و "محمد" تأليفِ ديباك چوپرا
وغيرها من رواياتِ الخيالِ الديني.

ليس حسناً أن يؤخذَ خبرُ البنين ويُطرحُ للكِلاب.

كما يتضح من قراءة العهد الجديد أن يسوع يؤمن إيماناً راسخاً بعذابٍ في جهنمٍ أبديةٍ تلتهبُ فيها نارٌ حقيقيةٌ لمن يرفضُ تعاليمه. إذ يقولُ على سبيلِ المثالِ في مرقس 9: 47 من بين عشراتِ مقولاتٍ مشابهة:

إِذَا أَوْقَعْتَكَ عَيْنُكَ فِي الْخَطِيئَةَ فَاقْلَعْهَا، لِأَنَّهُ خَيْرٌ
لَكَ أَنْ تَدْخَلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ وَلَكَ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ مِنْ أَنْ
تَكُونَ لَكَ عَيْنَانِ وَتُرْمَى فِي جَهَنَّمَ حَيْثُ الدُّودُ لَا
يَنْتَهِي وَالنَّارُ لَا تَنْطَفِئُ.

لا تدعو هذه المقولات والآراء والتعليمات السادية الى عدم الإعجاب بها فَحَسَبُ بل الى الإستياء والإشتمزاز منها، إذ تقشعُرُ منها الأبدان. وأرى وجوبَ مَنْعِ تعرُّضِ الأطفالِ اليها منعاً باتاً. ولا بدُّ، يا منير أن تذكرَ حديثنا في مقابلةٍ سابقةٍ التي تناولتُ موضوعَ تشاؤمي ذكرتُ فيها مبلغَ ما أصابني من هلعٍ ورعبٍ بالتفكيرِ في أن أموتَ وأنا مرتكبٌ زلةً طفوليةً فيرمى بي الى نارِ جهنمِ الأزلية.

إضافةً الى كلِّ ذلك، هنالك سببٌ آخر في عدم جنوحى الى الإقتداء أو الإعجابِ الشديدِ بيسوع الذي تُصوِّره الأناجيلُ متمتعاً بقدرةٍ إلهيةٍ لامنتهية. فقد بددها تبديداً لا يُصدقُ بإجرائه "معجزات" من مستوى ألعابِ الجمبازية أو أعمالِ السحرة. مثلاً، لعنه شجرة تين، في غير موسمِ نضوجها فتبيستُ حالاً حَسَبَ قولِ الأناجيل، وإخراجه شياطينٍ من مريضٍ ثم إدخاله إياها في خنازير، وسيره على سطحِ الماء، وبصقه على قطعة طينٍ ووضعها على عينٍ أعمى فَشُفيَ حالاً، وتحويله الماءَ خمرًا.

ألم يكن الأجدرُ به، إذا كان حقاً ذو قدرةٍ إلهيةٍ لامنتهية، إجراء معجزاتٍ مفيدةٍ، لجمعِ البشرِ في كلِّ العصور لا أن يقصرها على يهود ذلك العصر. مثلاً: كان من الممكن أن يُزودنا بأساليبٍ عمليةٍ، لا مجردٍ وعظميةٍ، الى كيفيةِ إرساءِ المحبةِ والوفاقِ بين مختلفِ الشعوب،

وَأَنْ يُبَيَّنَ أَنَّ الْجراثِيمَ وَالفيروساتِ تُسبَبُ الأمراضِ، وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَتَمَلَّكُ أَجْسَامَ الْمصابِينَ بِأمراضٍ عقليةً، وَيَعْلَمُنَا كَيْفِيَّةَ تَخْفِيزِ مَعْدَلِ وفياتِ الأطفالِ والقضاءِ المبرمِ عَلَى الطاعونِ والسرطانِ وغيرهما من الأمراضِ والأوبئةِ، وَيَزَوِّدُنَا بِوَسائِلِ التنبؤِ بِحدوثِ الزلازلِ والأعاصيرِ والى آخره من أمور.

لعلّه لم يكن قادراً على ذلك.

ربّما سيعملُ على تنفيذِ هذه المقترحاتِ ومزيدٍ من أمثالها عند مجيئه الثاني.!!!!

هَلْ حَمَلَ الْمَسِيحُ سَيْفًا؟

منير: يُثارُ السؤالُ: "هل حملَ المسيحُ سيفاً؟
لإجراء مقارنةٍ غرضها تفسيرُ الأعمالِ الإرهابيةِ التي
يُنْفِذُهَا بعضُ المسلمين في الوقتِ الراهنِ. لأنَّ محمداً
رسولَ الإسلامِ إستعانَ بالسيفِ لنشرِ دعوته
هل تعتقدُ أن هنالك علاقةً وثيقةً بين الأعمالِ
الإرهابيةِ وإستعمالِ محمدٍ السيفِ؟

هنالك ثلاثُ منظوراتٍ مختلفةٍ وراءَ هذا التساؤلِ.

المنظورُ الأولُ إستفسارُ أكاديميٍ بحثٌ عن دلائلٍ تاريخيةٍ تؤيدُ أو
تنفي بأن يسوعَ الناصريَّ حملَ سيفاً. والثاني غرضه مقارنةُ سلوكِ
وتعاليمِ يسوعَ مع سلوكِ وتعاليمِ غيره من مؤسسي أديانٍ أُخرى،
ويسعى المنظورُ الثالثُ – من خلالِ الإجابةِ عنه – الى إستنباطِ
تفسيرٍ للأعمالِ الإرهابيةِ التي يقومُ بها بعضُ المسلمين في الوقتِ
الراهنِ.

لنناقشَ كلاً من المنظوراتِ الثلاثةِ على حدة

بالنسبةِ الى المنظورِ الأولِ، لا تشيرُ الأناجيلُ – وهي المصادرُ
الوحيدةُ لجميعِ معلومتنا عن حياةِ يسوعَ الناصريِّ – الى أيِّ
إشارةٍ أنه حملَ بنفسه سيفاً. غيرَ أنها تروي أنه غضبَ في أحدِ
الأيامِ على الصرّافينَ والباعَةِ المستبشرينَ حرمةً ساحَةِ الهيكلِ
فإنهالَ عليهم ضرباً بالسوطِ. ووردتُ في إحدى مواضعه كلمةُ
"سيف" على لسانه. إذ تنصُّ الأناجيلُ أنه قال:

ولا تظنوا أنني جئت لأحمل السلام إلى العالم، ما
جئت لأحمل سلاماً بل سيفاً. جئت لأفترق بين
الابن وأبيه والبنت وأُمّها والكنتة وحماتها ...
إلى آخره

من المرجح أن المقصود بحمل السيف في هذا السياق حمل مجازي.
لكن عند إقتراب محنة يسوع الكبرى قبيل إعتقاله حدث تلاميذه على
إقتناء سيوف. إذ وجّه كلامه إليهم قائلاً:

أمّا الآن، فمن عنده مال فليأخذه، أو كيس
ليحمله. ومن لا سيف عنده، فليبع ثوبه ويشتري
سيفاً ... فقالوا: يا رب، معنا هنا سيوفان،
فأجابهم "كفى". (إنجيل لوقا إصحاح 22 / 33
إلى 36).

ولم تمض على هذه الإيعازات سوى سويّعاتٍ حتى جاءت إليه
عصابة من رئيس كهنة اليهود لإعتقاله.

سؤال يطرح بصورة طبيعية، هل كان يسوع الناصري يفكر في
التخطيط للتصدي لمعتقله بالسيف؟ لا يدري أحدٌ ماذا كان يختلج
في ذهنه. لكن من الممكن القول بثقة إنه حتى ولو راودته فكرة
المقاومة فقد تراجع عنها بسرعةٍ ووآدها في مهدها بأمرٍ منه، وفق
ما تحدّث لوقا بإنجيله:

... فلما رأى التلاميذ ما يجري قالوا "انضرب
بالسيف، يا رب؟" وضرب واحدٌ منهم خادم رئيس
الكهنة فقطع أذنه اليمنى. فأجاب يسوع "كفى،
لا تزيدوا!" ولمس أذن الرجل وشفاها.

وأضاف متى في إنجيله مزيداً من التفصيل حول محاورّة يسوع مع
التلميذ (غير المسمى) الذي استل سيفه إذ يقول متى :

ومدّ واحدٌ من رفاق يسوع يده إلى سيفه وإستلّه
وضرب خادم رئيس الكهنة، فقطع أذنه. فقال له

يَسُوعُ: "رُدْ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. فَمَنْ يَأْخُذُ
بِالسَّيْفِ، بِالسَّيْفِ يَهْلِكُ. أَتَظُنُّ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ
أَطْلُبَ إِلَى أَبِي، فَيُرْسِلَ لِي فِي الْحَالِ أَكْثَرَ مِنْ
إِثْنَيْ عَشَرَ جَيْشاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ وَلَكِنْ كَيْفَ تَتَمُّ
الْكَتَبُ الْمَقْدَسَةُ الَّتِي تَقُولُ إِنَّ هَذَا مَا يَجِبُ أَنْ
يَحْدُثَ؟" (إنجيل متى، إصحاح 26 / من 51 إلى 54).

هل معنى هذا أن ممانعة يسوع الناصري في المقاومة درس في نبذ
العنف، أم هي "سماح" منه لتحقيق نبوءات العهد القديم؟ لا أعتقد
أن باستطاعة أحد الإجابة الموضوعية عن التساؤل.
يتضح مما سبق إمكانية الإدعاء بثقة أن يسوع الناصري — وفق
ما صورته لنا الأناجيل — لم يحمل بنفسه سيفاً حقيقياً، لكنه
شجع تلاميذه على إقتناء سيوف لهم. وكان بعض منهم يحمل سيفاً
عند اعتقاله.

منير: الآن. لنتناول السؤال:

"هل حمل المسيح سيفاً؟" لغرض المقارنة بين
المسيح ومحمد.

ينبغي التنبيه إلى أن المسيحيين يعتقدون أن المسيح إله وإنسان. من
الواضح أن المقارنة غير واردة مطلقاً في حالة إعتباره إلهاً. ولهذا
يجب أن تقتصر المقارنة على طبيعته البشرية فقط. وينبغي أيضاً
أن لا يغضب المسيحيون المتشددون إذا تكلمنا عن الصفات البشرية
ليسوع كأنسانٍ يجوع، ويأكل، يعطش، ويشرب، ينام ويستيقظ،
يفرح ويحزن، يحب ويبغض، يغاز ويحسد، يضحك ويبكي وإلى
آخر ما هنالك من خصائص ومشاعر بشرية. فيمكن من هذا

المنطلق إجراء مقارنة بين الإنسان يسوع الناصري المؤسس الرئيسي للمسيحية مع غيره أمثال موسى نبي اليهودية ومحمد رسول الإسلام.

نستطيع القول إن مقارنة يسوع مع محمد ليست عادلة. إذ لم تدم دعوة يسوع بتعاليمه سوى ثلاثة أعوام فقط، كان أثناءها، حسب وصف الأناجيل، إنساناً وديعاً مسالماً متسامحاً عطوفاً نابذاً العنف بأشكاله وألوانه. أمّا محمد فعاش ثلاث وستون عاماً ودامت دعوته أكثر من عشرين عاماً. كان خلال سني دعوته المكيّة قبل الهجرة مسالماً أيضاً. لكنه بعد الهجرة إنقلب 180 درجة فغدا في المدينة حاكماً مطلقاً مستبداً وقادراً على تبرير جميع أعماله بإنزال أو بتنزيل آيات يسكت بها معارضيه ومنسجمة مع أهوائه ونزواته.

بعبارة أخرى، إن الظروف وضعت محمداً على المحك في الوقت الذي لم تضع يسوع الناصري على المحك نفسه مما يجعل المقارنة بينهما
!!! Not fair

منير: دكتور ريمون، أتذكرك أنك قد أثرت في مقابلة سابقة موقفاً إفتراضياً ذا طبيعة أكاديمية محضة بأن لو قدر ليسوع أن يعيش ثلاثين عاماً أخرى وأن يتوج ملكاً على إسرائيل. تساءلت: هل كان سيقبى ملتزماً بتعاليمه السمحاء التي بثها قبل تسنمه العرش الملكي؟

ثم قلت إن هذا السؤال يشكّل مادة خصبة لأدب "الخيال الديني" على غرار الخيال العلمي. عندي فكرة رائعة أودّ عرضها عليك. أقترح تنفيذ مقترحك بنفسك بتأليف الرواية التي رشحت أن يكون عنوانها: "المسيح يُلطم على خده"؟

إذا أردت أن تبيع لي مقترحك فأنا لست على استعدادٍ للشراء. أمّا

إذا كنت تودُّ عَرَضَ فكرةٍ كي أتبناها، فلا أجدُ نفسي مؤهلاً لكتابةِ
رواية. إنك تعلمُ أنني مختصُّ في الرياضياتِ والمنطقِ ولي إهتمامٌ في
الفيزياءِ والفلسفةِ، فكيف، يا منير، أن تتوقعَ مني بعد أن بلغتُ من
العمرِ عتياً أن أتحوَّلَ روائياً؟

منير: لا أتفقُ معك د. ريمون. أرى في كتاباتك
قابليةً يانعةً للتأليفِ والكتابةِ وقد صقلتَهُما سني
تدريسِ الرياضياتِ والمنطقِ والفيزياءِ والفلسفةِ.
وأودُّ إنعاشَ ذاكرتكِ بأن الفيلسوفَ البريطانيَّ برتراند
رسلُ بدأً بكتابةِ قصصٍ وقد جاوزَ الثمانينَ عاماً.
سأفكِّرُ في موضوعِ الروايةِ قبلَ سنةٍ 2100 !!!
أمَّا الآنَ فأرجو تركيزَ معظمِ إهتمامنا على المنظورِ الثالثِ.

لقد أبديتُ رأيي في مقابلةٍ سابقةٍ حولَ الموضوعِ المتعلقِ بالتصرفاتِ
الهمجيةِ لِرعاغٍ من معتنقي الأديانِ.

أرغبُ الآنَ إعادةَ تأكيدي بأن التصرفاتِ الهمجيةَ التي يقومُ بها أتباعُ
دينٍ ما هي ليست إقتداءً بسلوكياتِ أنبيائهم أو إتباعاً لمقولاتٍ وردتْ
في كتبٍ يقدسونها. أُعبِّرُ عن رأيي بدقةٍ - مستعملاً مصطلحَ علمِ
الإحصاءِ إن:

مُعاملُ الإرتباطِ بين - التصرفاتِ الغوغائيةِ من جهةٍ
والإقتداءِ بالأنبياءِ من جهةٍ أخرى - من الصِغَرِ بحيث لا
يكونُ له شأنٌ كبير.

وأدعو مؤسساتِ إستطلاعِ الرأيِ إجراءً بحوثٍ لتحديدِ دقيقٍ لمُعاملِ

الإرتباط المذكور أعلاه.

أبرر رأيي بالأدعاء أن القطعان البشرية التي تقوم بأعمال همجية ووحشية لا تمتلك القدرة على التفكير والتأمل المستقل. فهي غير قابلة بالإقتداء بأحد لا بموسى ولا بعيسى ولا بمحمد ولا بغيرهم. هم لا يفكرون. والرعا ع الذين بقدسون البقرة لا يقتدون بها !!

إذا قام رعا ع من معتنقي الإسلام بأعمال فظيعة فلن تكون إقتداءً باستعمال محمد سيف، بل لأنهم يقدسون ويجلون محمداً والقرآن وهم يدافعون عما يقدسون ويجلون.

كما أن عزوف يسوع الناصري عن استعمال السيف لم يمنع رعا عاً وقادة دينيين وسياسيين من معتنقي المسيحية من القيام بأعمال وحشية والإبادة الجماعية لأعدائهم.

الإقتداء بالآخرين يحتاج الى عقليات متفتحة ونضوج فكري، وهما خاصيتان تفتقر اليها القطعان البشرية، لأنهم نشؤوا — وهم رضع في أحضان أمهاتهم على:

- تقديس وتبجيل وتعظيم لأنبيائهم وغيبياتهم .
- إعتقاد جازم بوضوح معتقداتهم ووضوح الشمس الساطعة .
- شحن بالحقد والإشمزاز من جميع ما يخالفهم من معتقدات .
- تحجر فكري يجعل إعتبار كل من يخالفهم الرأي أعمى القلب فاقد الضمير
- إستنبات فيهم إستعداداً ذهنياً لمعاقبة من يعتبرونهم ذوي قلوب متحجرة وضمائر ميتة .

إذن من الطبيعي أن من نشأ مثل هذه النشأة لا يحتاج إلا الى

شرارة بسيطة كي يستجيبَ الى مَنْ ينادي الى عقابٍ أو تصفيةِ المختلفين عنه. وهكذا يسهلُ — على رجالِ السياسةِ المستغليِ الدينَ لغاياتهم الخاصةِ وعلى رجالِ الدينِ المسييينَ — مناورةَ وتحريكَ تلكِ القطعانِ البشريةِ لتحويلِها الى رعا ع متوحشةٍ تُقادُ إمَّا الى حروبٍ مَنْ يخالفونهم الرأيِ وإمَّا الى إرهابٍ مَنْ يتصورنهم عميانَ قلوبٍ فيفتكونَ بهم ويغتصبونَ نساءهم ويدمرونَ معابدهم وينهبونَ منازلهم.

إن ما أُصِبو اليه من هذا النقاشِ أنه — بالنسبةِ الى المنظورِ الثالثِ — لا أهميةٌ للبحثِ عن جوابٍ سواءً بالنفىِ أو بالإيجابِ للسؤالِ المطروحِ "هل حملَ المسيحُ سيفاً؟".

فأقولُ مكرراً رأيي أن رعا عاً وقادةً سياسيين من أتباعِ يسوعِ الناصريِّ تصرفوا وسوف يتصرفونَ بالأسلوبِ نفسهِ سواءً حملَ سيفاً أم لم يحملْ ما داموا قد قدسوا أقوالهَ وجلّوا أعمالهَ.

فمن يؤلّهُ ويقدّسُ شخصاً ينفقدُ عنده المنطقُ السليمُ وليس بمقدوره التفكيرُ باقتداءٍ أو عدمِ إقتداءٍ أحدٍ ما دام مصاباً بفيروسِ الدينِ. وأن الرعا ع من مسلمينَ الدينِ يقومونَ في هذه الأيامِ بشتى الأعمالِ الوحشيةِ مصابةً بفيروسِ الدينِ، ليست قادرةً على التفكيرِ السليمِ لتقتديَ بسيفوفٍ أو بأعمالِ محمدٍ إنما يحركها هوسٌ بقدسيةِ النصوصِ القرآنيةِ وبقدسيةِ محمدٍ.

إِنْجِيلُ يُوْحَنَا يَرْوِي قِصَّةَ إِحْيَاءِ يَسُوعَ لِعَازِرَ مِنَ الْمَوْتِ

منير : تتضمنُ القِصَّةُ التي إنفردَ يوحنا بالكتابةِ عنها
في الإصحاحِ الحادي عشر من إنجيله "معجزة"
إحياءِ لعازر على يد يسوع الناصري .
من الواضح أن التصديقَ بها لا يتركُ أيَّ مجالٍ للشكِ
في ألوهية يسوع .
لكن من الغريبِ جداً خُلُوَ أناجيلَ متى ومرقس ولوقا
من أيِّ كلمةٍ عنها .
سؤالِي : ماذا يترتبُ على خُلُوِ أناجيلِ متى ومرقس
ولوقا من ذِكرِ أيِّ كلمةٍ عن "أعظم معجزة" .

إن إحياءِ العازر من الموتِ قصةٌ مذهلة.

إذا صدقتُ ما روته الأناجيلُ عن معجزاتِ يسوع الناصري، فإن
إحياءَ إنسانٍ متوفٍ مدةً أربعةِ أيامٍ يفوقُ جميعَ معجزاتهِ إعجازاً
ويُفجِّمُ كلَّ مَنْ يشكُّ بالوهيةِ يسوع ويُسكِّتهُ ببرهانٍ بينٍ ساطعٍ . لكن
المفارقةَ الكبرى عدمُ ورودِ في أناجيلِ متى ومرقس ولوقا⁵⁹ أيِّ إشارةٍ
الى هذا الإعجازِ، وينفردُ يوحنا فقط بتسجيله في الإصحاحِ الحادي
عشر من إنجيله وإبسترسالٍ مطوَّلٍ لتفاصيلٍ وقوعه . إن حقيقةَ خُلُوِ
الأناجيلِ الإزائيةِ من أيِّ كلمةٍ عن إحياءِ لعازر تُحتمُّ على المؤمنِ وعلى
غيرِ المؤمنِ أن يتساءلَ : هل أن قصةَ إحياءِ لعازر روايةٌ أُخْتُلِفَتْ (أو
أُقْتَسِستْ من مصادرٍ تاريخيةٍ قديمةٍ ونُسِبَ بطلها الى يسوع ثم أقممَ

يوحنا الرواية في إنجيله خدمةً للدين المسيحي الناشئ آنذاك. أم أن يسوع الناصري قد أحيأ لعازر فعلاً، غير أن روح القدس قد نسي الإحياء بحدوثها الى كتبة الأناجيل الإزائية!!؟

ليس هذا فقط. إذ أن الصورة لشخصية يسوع الناصري التي يرسمها الإصحاح الحادي عشر من إنجيل يوحنا تختلف عن شخصيته المعهودة التي رسمتها الأناجيل الإزائية.

يرى الناس وحتى كثير من الملحدين أن يسوع نموذج لفضيلة والشفقة والإيثار. ويزخر كتاب العهد الجديد بقصص إشفائه المرضى ومواساته المعذبين. لكننا نجد في إنجيل يوحنا (وبصورة خاصة في الإصحاح الحادي عشر)، يتصرف كسياسي مناوئ يوازن حسابات الفائدة الشخصية التي يجنيها من عمله، مستغلاً البشر كبيادق في لعبة يتعاون فيها هو وأبوه في السموات كي يبدوا صالحين كريمين.

وتوخياً للإختصار سأضع خطأً تحت إسم "يسوع" كلما أكتب عن يسوع كما رسمه إنجيل يوحنا، كي أُميّزه عن يسوع الذي رسمته الأناجيل الأخرى. وأرجو أن لا يتهمني القراء المؤمنون أنني أسئى الى يسوع بوصفه أنه يتصرف كسياسي محترف. إنها مجرد وصف للصورة التي يرسمها يوحنا (وليس أنا) عن يسوع.

دعنا الآن ننظر ملياً الى أهم فقرات ذلك الإصحاح التي تروي ما يُفترض أنها أعظم وأنبأ معجزة قام بها يسوع الناصري.

يوحنا 11 / 1-3

مرض رجل إسمه لعازر من بيت عنيا، قرية مريم وأختها. مرتا. ومريم هذه هي التي سكبت الطيب على قدمي الرب يسوع ومسحتهما بشعرها. وكان لعازر المريض أخاها. فأرسلت الأختان الى يسوع تقولان: يا سيد، الذي تحبه مريض.

هكذا نجد رجلاً مريضاً، من المفروض أنه صديق مقرب من يسوع الى درجة أن أختيه إستنجدتا به للمساعدة.
دعنا نرى كيف إستجاب يسوع المفروض أنه متسم "بالرأفة اللامنتهية" الى إستغاثتهما.

يوحنا 11 / 4 - 6

فلماً سمع يسوع قال: "هذا المرض ليس للموت، بل لأجل مجد الله وفيه سيمجد ابن الله" ... وكان يسوع يحب مرتا وأختها ولعازر ... لكنه بقي في مكانه يومين، بعدما عرف أن لعازر مريض.

نعم، بدلاً من أن ينطلق يسوع مسرعاً لإنجدة صديقه العزيز فضل البقاء يومين في مكانه قبل الإستجابة الى صرخة الإستغاثة.
ما السبب الذي جعله يؤخر نفسه عمداً؟

يدعي إنجيل آخر أن يسوع أجرى معجزتي إقامة من الموت. لكن كانتا حالتين قيامة من الموت مباشرة بعد الوفاة، لا يُعترف بأتهما دليلين قاطعين بأن يسوع أجرى معجزتي إحياء من الموت (إذ يُقال ربّما لم تكونا موتتين إنما إغماءتين). ولهذا لم يستجب بسرعة لإستغاثة الأختين وحرص على تأخير نفسه كي يضمن أن تكون الوفاة مؤكّدة لا يشك في حدوثها وأن يُشاهد عمله الإعجازي ناس كثيرين.

إذن لم يكن تأخر يسوع من دون سبب. كلا، إنه كان يُخطئ الى هدف "أكثر سمواً" من إشفاء صديقه المريض بأن يبت دعايةً لنفسه كي يؤمن به حشد من الناس. فقال قولته بصراحة إن هذا المرض ليس للموت، بل لأجل مجد الله وفيه سيمجد ابن الله.

تصوّر أنك في حالة من حالات الطوارئ، وتتصل بالإسعاف لإنجذتك. لكن لم يأت المسوؤل إلا بعد يومين!!! ألا تقدّم شكوى عليه ليُحال الى المحاكمة؟ ولكن من يجزؤ أن يقدم شكوى على ذلك الرب الرووف

بما لانهاية من الرأفة؟ وكيف تُقدّم الشكوى؟
إذا كان هنالك أيّ شكّ في أن يسوع يتصرف كسياسي محترف،
دعنا نعرّج مؤقتاً الى (يوحنا 9 / 1 - 7) حيث يجري يسوع ما يدعى
أنها معجزة إبصارٍ لأعمى، فنجد ما يلي:

وبينما هو يمشي في الطريق، رأس أعمسٍ منذ
ولده. فسأله تلاميذه "يا معلّم، مَنْ أخطأ؟،
هذا الرجل أم والداه، حتّى وُلِدَ أعمس". فأجاب
يسوع: "لا هذا أخطأ ولا والداه. ولكنه وُلِدَ
أعمس حتّى تظهر قدرةُ الله وهي تعمل فيه. ...
أنا نور العالم ما دمت في العالم".

تصوّر أن مهندساً جينائياً Genetic Engineer عبثٌ بجينات جنين
كي يولد أعمى. الغرض من عبثه أن تظهر قدرته في إبصار الأعمى،
ليُكرّم بجائزة نوبل. ألا يستحق أن يُحكّم على المهندسِ
بالإعدام؟!!!!
ثم يتابع يوحنا روايته

قال هذا وبصق في التراب، وجبل من
ريقه طيناً ووضع على عيني الأعمس
... فأبصر.

لا يحتاج مَنْ يمتلكُ لعباً إلهياً إجراء الأعيبِ السحرة من بصق
وطين!!!

والآن دعنا نعود الى قضية لعازر.

من المثير للإهتمام (حسب يوحنا 11 / 11 - 14) أن يسوع أخبر تلاميذه
أن لعازر (الذي وصفه "حبيبنا") قد نام. وأنه عازم على الذهاب

لإيقاظه. وكان يقصدُ، في الحقيقة، أنه قد مات. فقال له تلاميذه، إن كان قد نامَ فهو يُشفى. فعندئذٍ قال لهم صراحةً أن لعازر قد مات.

كيف علم يسوع أن لعازر مات؟ إن إنجيل يوحنا يختلفُ عن الأناجيل الإزائية، فهي لم تدَّعِ بامتلاك يسوع قابلية التنبؤ. لكننا نجدُ في إفتتاحية إنجيل يوحنا قوله الصريح:

”في البدء كان الكلمة ... والكلمة صارَ جسداً وحلَّ
فينا“

بعبارةٍ أُخرى، إن يسوع هو الله. فهو إذن يعلمُ كلَّ شيءٍ. ولهذا عرفَ بأن لعازر قد مات.

من المثير للإهتمام أيضاً قوله الواضح لتلاميذه:

يوحنا 11 / 15-16

ويسرنني، لأجلكم حتّى تُؤمنوا، أني ما كنتُ
هناك. قوموا لنذهب إليه ... فقال تو ما
الملقب بالتوأم لرفاقه التلاميذ: ”تعالوا نذهب
نحن أيضاً ونموتُ معه“.

مما يدلُّ أن يسوع لم يكن كثيرَ المبالاة بمعالجة مرضِ صديقه لعازر بقدرِ مبالاته تعزيزَ إيمانِ تلاميذه به. بعبارةٍ أُخرى كان يسوع يريدُ إنتهازَ مرضِ لعازر لرفعِ مكانته وسمعته عندَ تلاميذه. أليست هذه أساليبَ محترفي السياسة؟

يوحنا 11 / 17

فلما وصل يسوع وجد أن لعازر في القبر من أربعة
أيامٍ.

وهكذا، علم يسوع عند وصوله القرية أن لعازر قد مات قبل أربعة أيام وقد دُفن. وأن الأختين منكسرتا ومسحوقتا القلب من شدة الحزن على فقدان أخيهما، ولأن يسوع لم يعمل على أن يحول دون وقوع الكارثة. وكان كثيرٌ من اليهود قد جاؤوا الى مرتا ومريم ليعزوهمما عن

أخيهم

يوحنا 11 / 20-28

فلما سمعتُ مرثا بجيءِ يسوعَ خرجتُ لِإستقباله،
وبقيتُ مريمُ في البيتِ. فقالتُ لمارثا ليسوعَ
”لو كنتُ هنا، يا سيد، لما ماتَ أخي. ولكني
ما زلتُ أعرفُ أن اللهَ يعطيكَ كلَّ ما تطلبُ
منه“. فقالَ لها يسوعُ: ”سيقومُ أخوكَ“.

لكن مارثا تصوَّرتُ أنه يقصدُ القيامةَ الأخيرةَ فقالتُ له.

”أعرفُ أنه سيقومُ في القيامةِ، في اليومِ
الآخرِ“... قالَ لها يسوعُ ”أنا هو القيامةُ والحياةُ.
مَنْ آمَنَ بي يحيا وإن ماتَ، وكلُّ مَنْ يحيا
مؤمناً بي لا يموتُ أبداً، أتؤمنينَ بهذا؟“...
أجابتُ ”نعم يا سيد، أنا أو مَنْ كلُّ الأيمانِ، بأنك
المسيحُ، ابنُ اللهِ الآتي اللى العالمَ“.

إن إنتزاعَ إقرارِ علنيٍّ من مرثا بأن يسوعَ هو المسيحُ المنتظرُ هو
المطلوبُ من سياسةِ المناوراتِ التي – حسبَ إنجيلِ يوحنا –
إتبعها يسوعُ. وبعد أن أقرتُ هرعتُ داعيةً أختها مريم
همساً أن المعلمَ قد حضرَ وهو يدعوها.

يوحنا 11 / 29-34

فقامتُ مريمُ حينَ سمعتُ هذا الخبرَ، وأسرعتُ اللى
يسوعَ. وما كانَ يسوعُ وصلَ اللى القريةَ، بل
كانَ حيثُ إستقبلتهُ مرثا. فلما رأى اليهودُ
الذين كانوا في البيتِ مع مريمَ يعزونها، أنها
قامتُ وخرجتُ مسرعةً، لحقوا بها. وهم
يحسبونَ أنها ذاهبةٌ اللى القبرِ لتبكي. ووصلتُ
مريمُ اللى المكانِ الذي فيه يسوعُ، فما أن رأتُه
حتَّى وقعتُ على قدميهِ قائلةً له ”يا سيد لو كنتُ
هنا لما ماتَ أخي“. فلما رآها يسوعُ تبكي،
وببكي معها اليهودُ الذين رافقوها، توجعتُ

نفسه وإضطرب... وقال: "أين دفنتموه؟".
قالوا: "تعال يا سيد، وأنظر."

يوحنا 11 / 35

بكس يسوع.

لماذا بكى؟ لا يمكن أن يعلم أحدُ السببَ الحقيقي. ربّما (أقولُ ربّما لا أكثر) أنه شعرَ بشيءٍ من تأنيبِ الضميرِ لقسوته في ممارسة "الدعاية" لـتمجيدِ نفسه مستغلاً مرضَ لعازر كحجرٍ شطرنجٍ في حين كان بؤسعه - حسبَ قصصِ الأناجيل - الوصولُ في الوقتِ المناسبِ لمنعِ وفاةِ صديقه ولتسبیبِ معاناةِ الأختين. من المضحكِ أن أحدَ المصادرِ الكاثوليكيةِ يُعللُ بكاءَ يسوعٍ لعلمه أن لعازر الآن ينعمُ في جنةِ ملكوتِ السماءِ وأن يسوعَ حزينٌ لإجبارِ المسكينِ لعازر على تركِ سعادته في الجنةِ والعودةِ الى هذه الأرضِ التافهةِ والساقطةِ!!!!

يوحنا 11 / 35 - 37

قال اليهودُ: "أنظروا كيف كان يحبه". لكن بعضهم قالوا: "هذا الذي فتح عيني الأعمى أما كان يقدرُ أن يردَّ الموتَ عن لعازر؟". يبدو أن كلامَ اليهودِ الناقدِ أثارَ إنزعاجَ يسوع.

يوحنا 11 / 38

وتوجعتُ نفسُ يسوعِ ثانيةً، وجاءَ الى القبرِ. وكان القبرُ مغارةً وعلى مدخلها حجر.

فقرَّرَ يسوعُ إفحامَ منتقديه اليهودِ.

يوحنا 11 / 39

فقال يسوعُ: "أزيحوا الحجر". فأجابتُ مرثا أختَ الميت: "إنَّنا يا سيد، فله أربعة أيام".

يُرجى ملاحظةُ التأكيدِ الإطنابيِّ بأن لعازرَ قد ماتَ منذ أربعةِ أيامٍ وقد

نتن. الهدف من التأكيدِ إزالةً أيّ شكٍّ بأن لعازر كان مغمياً عليه. وهو السبب الرئيسي — حسب إنجيل يوحنا — الذي جعل يسوع يتلكؤ عمداً في نجدة الأختين.

يوحنا 11 / 40 — 43

فقال لها يسوعُ: "ألم أقل لك إن آمنتِ نَجديينِ مجدَّ الله؟". ... فأزاحوا الحجرَ، ورفعَ يسوعُ عينيه إلى السماء وقال: "أشكرُك يا أبِي لِأَنكَ استجبتِ لي... وأنا أعرفُ أَنكَ تستجيبُ لي في كلِّ حينٍ. ولكني أقولُ هذا من أجلِ هؤلاءِ الناسِ حولي حتَّى يؤمنوا أَنكَ أنتِ أرسلتني. ... وصاحَ بأعلى صوتِه:

"لِعَازَرَ أُخْرِجُ".

ألا يدقُّ، منظرُ خطيبٍ يصيحُ بأعلى صوتِه أمامَ حشدٍ من الناسِ، أجراسَ الذاكرةِ عندك يا منير؟ ألم تشاهدُ صوراً لهتلر مثلاً، أو لغيره من السياسيين الذين يُثيرون الجماهيرَ لمصالحهم الخاصة. كذلك كان يسوعُ يسعى مثلهم إلى إقناع "أولئك الناسِ حوله" بأن يؤمنوا به وبأبيه في السماء..... فصاحَ بأعلى صوتِه !!!
ألا تكفي أن تصدرَ من الربِّ القادرِ على كلِّ شيءٍ همسةٌ خافتةٌ كي ينصاعَ المدفونُ لعازر إليها؟ ليس من المعقول أن يتصورَ يسوعُ أن الميتَ سيسمعُ صياحَه ويستجيبُ إليه. كلا بالتأكيد كلا.... فلماذا إذن صاحَ بأعلى صوتِه؟

صاحَ لحرصه على أن يسمعه جميعُ أولئك الذين حوله وأن يشدَّ على أعصابهم بالانتظارِ إلى النتيجة، وأن ينبهروا فيؤمنوا. فصاحَ بملءِ رئتيه "لِعَازَرَ أُخْرِجُ".

يوحنا 11 / 44

فخرجَ الميتُ مشدودَ اليدينِ والرجلينِ بِالْأَكْفَانِ ...

خرجَ مشدودَ اليدينِ والرجلينِ، هل خرجَ لعازر زاحفاً على بطنه!!!

يوحنا 11 / 45

فلما شاهد اليهود آمن كثير منهم ...

وهذا هو المطلوب الذي سعى اليه يسوع. وإن ما يسترعي الإنتباه عدم ذكر يوحنا أن شكر لعازر وأختاه يسوع على معجزته الفذة التي أجراها من أجلهم. يبدو أن المهم الى يوحنا هو مجرد أن "آمن بيسوع كثيرون". فلا داع الى مزيد من الكلام.

منير: ربما يقول بعض المؤمنين من المسيحيين "حسناً، إن بعض ما قام به يسوع يحاكي تصرفات محترفي السياسة، لكن ما هو الخطأ في ذلك ما دامت أعماله تصب في خير أعم وأشمل وتؤول الى تمجيد الرب."

لقد أطر المؤمنون أفكارهم بأن تمجيد الرب واجب مستحسن ورائع، لكنهم لا يدركون أن تمجيدهم إياه مناقض لمعتقداتهم مع فيما يفترض من سمات يمتلكها إلههم، وينتقصون منه بجعله شبيهاً بدكتاتور مستديم المطالبة من رعاياه الى إجلاله وتبجيله.

منير: أعتقد أن الإجابة عن التساؤل: أحقا أقام يسوع لعازر من الموت، أكثر أهمية من النقاش فيما إذا كان أم لم يكن تمجيد الرب مستحسناً ومهماً.

أصبت، يا منير. نعم ينبغي تمحور نقاشنا حول مرضوع تساؤلك. أقول مؤكداً وأؤكد قائلاً إن يسوع لم يقيم لعازر من الموت.

وأفضل برهانٍ على ذلك خلُوُّ أناجيلٍ متّى ومرقس ولوقا من أيِّ كلمةٍ عن موضوعٍ إحياءٍ يسوعٍ لميتٍ مدفونٍ أربعةٍ أيامٍ.
يزودنا الفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم David Hume بِمحكٍ عقلانيٍّ لتصديقٍ إدعاءٍ حدوثٍ معجزةٍ، فيقول:

من الممكن تصديقُ إدعاءٍ وقوعٍ معجزةٍ ، فقط
في الحالة التي تُشكلُ مجموعةً الأدلَّةِ
وشهاداتٍ تكذيبها ، قضيةً يكونُ تكذيبها
أصعبَ من تكذيبِ إدعاءِ حدوثِ
المعجزةِ .نفسها .

ويعبِّرُ العالمُ الفلكيُّ الأمريكيُّ كارل سَيِّگن Carl Sagan عن الموضوعِ نفسه بإختصارٍ:

إدعاءاتٍ إستثنائيةٍ تحتاجُ أدلَّةً إستثنائيةً .

Exceptional Claims need Exceptional Evidence

لا يمكنُ أن يُشكَّ أن الإِدعاءَ ”بإعادةِ الحياةِ لإنسانٍ ميتٍ ومدفونٍ طوالِ أربعةٍ أيامٍ“ إدعاءٌ إستثنائيٌّ. ما هي الأدلَّةُ على حدوثه؟
الدليلُ الوحيدُ لهذا الإِدعاءِ فوقِ الإستثنائيِّ هو الروايةُ الواردةُ في إنجيلِ يوحنا. وهي، ممَّا لا ريبَ فيه، ليستُ دليلاً إستثنائياً. إذ حتَّى الأناجيلُ الثلاثةُ الإزائيَّةُ، التي دأبتُ في ذِكْرِ أفعالِ يسوعِ الأقلِّ إعجازاً، خلتُ من أيِّ كلمةٍ عن الموضوعِ.

ولو وقعَ هذا الحادثُ فعلاً لكانَ يهزُّ ليس فلسطينَ فقط بل لوصولِ صدى الإهتزازِ سريعاً الى بلدانِ الإغريقِ والرومانِ ولكتبَ عنه الكتابُ آنذاك. لكن هناك خواءٌ مطلقٌ عن الإِدعاءِ الإستثنائيِّ المزعومِ؟ لا أستطيعُ تصوُّرَ إنسانٍ عاقلٍ على كوكبِ الأرضِ يُفسِّرُ خلوها إلا بتكذيبِ روايةِ يوحنا.

أضافةً الى ذلك نجدُ في الروايةِ حشراً للأُمورِ غيرِ ذاتِ أهميةٍ للقصةِ: مثلاً مريم سكبَت الطيبَ على قدَمَي الربِّ ومسحتَهما بِشعرِها،

وتعليقُ توما تلميذِ يسوع، وعتابُ الأختينِ لیسوعِ بِالعباراتِ نَفْسِهَا،
والكلامُ بِالهمسِ، وبكاءُ يسوع.
من المرجحِ، حسبَ رأيي، أن سببَ الحشرِ الإطنابيِّ محاولةً لِإضفاءِ
مصدقيةٍ على قصةٍ مختلفة.

منير: إن السؤال الذي يحيرني الآن.

لماذا إختلقَ يوحنا قصةَ "معجزة" لعازر في إنجيله؟

لا يُخفى عليك وجودُ أساطيرٍ موهلةٍ في القِدَمِ حولَ آلهةٍ أقامتُ بشرًا
من الموت.

من المرجحِ وصولِ إحداها من مصادرٍ قديمة⁶⁰ الى سماعِ بعضِ
المؤمنينِ فَحُورَتْ بِجَعْلِ بطلها يسوع "وُدبِلِجَتْ" كي تتناسبَ وتتواءمَ
مع الثقافةِ والتقاليدِ المرعيةِ عند اليهود. فشاعَ تداولُ الأسطورةِ مع
تنامي أعدادِ معتنقي الدين الجديد. ومن المرجحِ أن صدقَ كثيرٌ من
المؤمنينِ بِحدوثها. إذ كان ولا يزالُ كثيرٌ من البشرِ ميالينِ الى
التصديقِ السريعِ بِالمعجزاتِ.

إن يوحنا، حسبَ رأيي الشخصي، لم يخلقَ بِنفسِهِ "معجزة" لعازر.
بل طرقتُ الروايةُ سمعه وطربَ لها. وإرتأى إدخالها في إنجيله بسببِ
ما فيها من تمجيدٍ للربِّ يسوع. وهو مرتاحُ الضميرِ لأنه يقدمُ خدمةً
للدينِ المسيحيِّ الناشئِ آنذاك. فألصقها في إنجيله، أي أعمل لها
!!!paste

إننا نقعُ في خطأٍ إذا تصوّرنا الأناجيلَ قد كُتبتْ لِغرضِ توثيقِ تاريخيِّ
للحوادثِ، إنما كانت - كما ذكرنا سابقاً - نشرَ بشرىٍ مجيئِ
المسيحِ المنتظرِ أوسعَ ما يمكن. أي أنها كانت آنذاك، بمثابةِ الدعايةِ
التلفزيونيةِ المعروفةِ في عصرنا الهادفةِ تسويقِ البضائعِ الى أوسعِ

ما يمكن، فَتَسَوَّعُ المبالغة المفرطة في وصفِ مزايا وفوائد البضاعة المراد تسويقها. كذلك كان يشعرُ كتبةُ الأناجيلِ أن المبالغة وإختلاقَ القصصِ مقبولان ما داموا يساعدان في تسويقِ "بضاعةِ البشرى"، وما دام "روحُ القدس" لا يُمانع. ولماذا يُمانع، ألا يُطْرَبُ الى سماعِ التبجيلِ والتمجيدِ له!!!.

منير: إذن يتحولُ سُؤالي الى :

لماذا بالغَ يوحنا ولم يبالغَ أيُّ من متَّى ومرقس ولوقا؟
سؤالٌ ذكيُّ. يجرُّنا مضطرينَّ الى الإستعانةِ بِآراءِ المختصينِ ومؤرخي الدراساتِ الأتجيلية. من المعلومِ أن أناجيلَ متَّى ومرقس ولوقا تتشابهُ الى حدِّ كبيرٍ في المفرداتِ المستعملةِ وفي تسلسلِ القصصِ، ولذا نعتوها بِالإزائية. ويُخَمَّنون أنها كُتبتْ بين سنة 50 الى 65. ويعلمُ أولئكُ المختصونَ أن يوحنا هو الوحيدُ من بين كتبةِ الأناجيلِ الذي كان شاهداً عياناً لأفعالِ يسوع، ولكنه كتبَ إنجيله متأخراً عنهم بفترةِ ثلاثين عاماً، شهدتْ خلالها الحركةُ اليسوعيةُ نمواً واسعاً.

لايكنُ الفرقُ بين الأناجيلِ الإزائية من جهة، وإنجيلِ يوحنا من جهةٍ أُخرى في زمنِ الكتابةِ فقط، بل أن الثلاثةَ الأوّلَ كتبوا عن يسوع كما سمعَهُ ورآه، أتباعُهُ ومحبوهُ، معلماً يهودياً ذا حكمةٍ ومنادياً الى تجديدِ روحيِّ لليهودية، والى إنهاءِ تسييسِ المعبد، والى إرساءِ قيمِ أخلاقيةٍ أكثرَ سمواً ونقاوةً. ولم يكنُ أتباعُهُ ومحبوهُ سوى يهود لا غير. كما لم يُسجَلْ أولئكُ الكتبةُ في أناجيلهم أن أتباعَ يسوع كانوا يقدِّسونه أو يعبدونه أو يؤلِّهونه. بِعبارةٍ أُخرى أن حينَ كُتبتْ تلكِ الأناجيلِ، لم تكنِ المسيحيةُ، كعقيدةٍ منفصلةٍ عن اليهودية، قد تبلورتْ بعدُ. لكننا عندما نقرأُ الإنجيلَ الرابعَ نلمسُ بداياتِ لسيرورةِ إستقطابِ تعملُ على فصلِ عقيدةٍ في أدوارها الجنينية عن "رَحْمِ"

اليهودية. إذ نجد أن هناك يهود لم يؤمنوا، وأن هناك قلة من يهود، يُفهم من السياق، أنهم آمنوا، ونشعرُ ظهورَ بوادرِ تكراره بين الفئتين. ومع أن يوحنا كان أحد تلاميذ يسوع المقربين وشاهد عيانٍ لأفعاله، لكن إنجيله يختلف عن الأناجيل الإزائية في محتواه⁶¹ وفي أسلوبه وفي الجمهور الموجه إليه.

عندما نقرأ ما كتب يوحنا عن الأحداث، لا نراها كما بدت له عند حدوثها، بل كما تبدو له بعد أن مرَّ عليها كذا عددٍ من عشرات الأعوام ومن خلال منظارٍ عدسة العقيدة الجينية النامية بإطراد. على سبيل المثال تبدأ الأناجيل الإزائية بميلاد يسوع وطفولته. لكن يوحنا يفتتح إنجيله مؤكداً من الوهلة الأولى على ألوهية يسوع قائلاً: "في البدء كان الكلمة..... والكلمة صار جسداً وحل فينا.....". ويصل الذروة حين يُقرُّ توما أحد التلاميذ المعروف بشكوكه مخاطباً سيده بقوله: "رَبِّي وإِلَهِي".

ويتكلم يوحنا بإصرارٍ على نعمة الحياة الأبدية بالمسيح، وهي نصيب الذين يؤمنون بأن يسوع هو الطريق والحق والحياة.

قلتُ قبل قليل إن الأناجيل الإزائية دعايةٌ موجهةٌ الى جمهورٍ متجانسٍ من اليهود لتسويقٍ بشريٍّ مجيء المسيح المنتظر. كذلك إنجيل يوحنا الذي كُتِبَ بعدها بحوالي ثلاثين عاماً، يُشكّل دعايةً موجهةً الى جمهورٍ من اليهود أيضاً، لكنه جمهورٌ غيرُ متجانسٍ بل منشطرٍ بالاستقطابِ شطرين متكارهين، ويهدفُ يوحنا في دعايته تسويقٍ بضاعةٍ مختلفةٍ هي "ألوهية يسوع الناصري الذي يتوجبُ تمجيدُه وعبادته لأنه إلهٌ وابنُ الله". والشعارُ التعويذي لدعايته:

لا يمكن الحصول على الخلاص والحياة الأبدية إلا بالإيمان بالرب يسوع.

وكي يُروِّجَ يوحنا الدعاية المتمادية في المبالغة "لبضاعته" سَوَّغَ لنفسه

أن يروي في إنجيله القصة المبتدعة التي زعم فيها إحياء لعازر من الموت على يد يسوع. وهو (أي يوحنا) واع أنها قصة مختلفة.

بإختصار

إن قصة لعازر ليست معجزة، إنما هي أشبه بدعاية تلفزيونية لتسويق بضاعة "الوهية" يسوع الناصري.

مُحَمَّدُ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ

منير سمعتُ رأيك في يسوعَ الناصريِّ والآنَ أسألكُ
عن إنطباعاتك وتصوراتك عن محمدٍ نبيِّ الإسلامِ.

هذا موضوعُ خَطِرٍ. أُحْمَلُكُ — يا منير — مسؤوليَّةَ ما قد يقعُ عليَّ
من جرَّاءِ الإجابةِ عنه. من الممكنِ أن يهدَرَ المسلمونَ دمي إذا قلتُ ما
لا يعجبُهم، وأن يثرمَ المسيحيونَ لحمي إذا قلتُ ما لا يدغدغُ
عواطفهم.

منير: أوافقُ على تحمُّلِ المسؤوليَّةِ.

يَعْتَبِرُ بعضُ المؤرِّخينَ أنَ مُحَمَّدًا واحدٌ منَ أعظمِ الشخصيَّاتِ أثرًا في
التاريخِ بسببِ نجاحِه الباهرِ على المستويينِ الدنيويِّ والدينيِّ. يعتقدُ
المسلمونَ أنه مرسلٌ من الله للبشريَّةِ جمعاءَ كي يعيدها إلى التوحيدِ
الإلهيِّ المطلقِ بلا تعقيداتِ التثليثِ المسيحيِّ.

مُحَمَّدٌ شخصيَّةٌ مفرطَةٌ التعقيدِ ومتعددةُ الأبعادِ. فهو بإضافةِ إلى
أنه مؤسسُ دينٍ واسعِ الانتشارِ (سواءً آمنًا به أم لم يؤمن)، وقائدٌ في
المعاركِ دفاعًا عن الدينِ الذي جاءَ به، وثائرٌ مصلحٌ إجتماعيٌّ،
وسياسيٌّ بارعٌ، ومدركٌ لنفسياتِ قومِه، وقادرٌ على توظيفِ كلِّ بُعدٍ من
أبعادِ شخصيَّتهِ في تعاونٍ متناغمٍ مع الأبعادِ الأخرى لخدمةٍ وتعزيزِ
هدفِ نشرِ دينِه وتوحيدِ قبائلِ الجزيرةِ العربيَّةِ وبناءِ دولةٍ أنشأها من
الصفريِّ.

إن هدفَ هذه الإجابةِ مقصورٌ على التمحورِ حولِ رأيي الخاصِّ
بشأنِ العواملِ النفسيَّةِ والإجتماعيةِ والإقتصاديَّةِ المؤثرةِ على تكوينِ
وتطورِ شخصيَّةِ وتصرفاتِ مُحَمَّدٍ وعلى النظرِ إليه من خلالِ عدساتِ
سايكولوجيةٍ وسوسيولوجيةٍ متجنبًا اللجوءَ إلى ما يؤمنُ به أغلبيةُّ

المسلمين من وحي إلهي ينزل عليه. أسارعُ لئلا يُساء فهمي بالقول إن كلامي عن سماتِ محمدٍ لا يدلُّ على إيماني بما جاء من عقائد دينية ولا على إعجابي بها. إذ أنها — كباقي العقائد الدينية — تركزُ على غيباتٍ فوقطبيعيةٍ التي أرفضُ قبولها رفضاً باتاً.

شاعت، عند سكنة شبه الجزيرة العربية، في فترة التكوين لحياة محمدٍ فكرةُ "المنتظر". فكان يهودُ الجزيرة كباقي اليهود ينتظرون قدومَ مسيحهم، والنصارى يتوقعون المجيءَ الثاني للمسيح الذي كان قد وعدَ بقرب مجيئه، وسادت أفكارٌ عند وثنيي الجزيرة بقرب ظهور نبي كأنبياء بني إسرائيل خاصٍ بالعربٍ يحققُ توحيدَ قبائلهم.

يبدو — إستناداً الى كتب السيرة — أن محمداً إتسم منذُ شبابه بأخلاقٍ عاليةٍ. فكان أميناً وصادقاً ونزيهاً في جميع معاملاته مع الناس، ممّا جذبَ إعجابَ الأرملة الثرية خديجة، فوظفته عندها لقيادة قوافلها التجارية الى الشام واليمن. ثمَّ عرضتُ عليه الزواجَ منها، فوافق. ولم يتزوج من غيرها خلال حياتها ممّا يشيرُ الى توافرِ أوامرٍ قويةٍ تربطهما رغمَ فارقِ العمرِ بينهما.

يظهرُ أن خديجةً أقنعتُ نفسها أن محمداً هو النبي أو الملكُ "المختارُ المنتظر".⁶² فأخذتُ على عاتقها وبمساعدة وإرشاداتِ ابن عمها القس الحنيف ورقة بن نوفل تدريبَ وتثقيفَ محمدٍ كي يتبوأَ المركزَ الذي تعتقده لائقاً به. فكانت تقرأُ له نصوصاً من الإنجيل والتوراة وتحثه على حفظها. وكانت في السنين الخمس الأولى من زواجهما تصاحبه مع ابن نوفل الى غارِ حراء الواقعة قرب مكة، كي يتدارسوا سويةً الكتب المقدسة ويستمعوا من القس الى شروحيها.

من جهة ثانية، كان الإطارُ الفكريُّ لمحمدٍ منذُ صباه يَنشحنُ بأمورٍ غيبية فوقطبيعية تُروى له من قِبَلِ رجالِ الدينِ النصارى واليهودِ والصابئةِ والراهبِ النسطوريِ بحيرةٍ وغيره من الرهبانِ الذين إتقى بهم مراراً، بدءاً من أولِ زيارةٍ له الى الشامِ في صباه بصحبة عمِّه أبي طالبٍ وثم زيارته اللاحقة المتكررة، وكان يستمعُ منهم الى قراءاتٍ وشروحاتٍ من كتبهم التي يسمونها مقدّسة. ولا بدُّ أنه تعلّم كثيراً من الأفكارِ والمبادئِ والطقوسِ الدينيةِ وأصغى الى الأساطيرِ المرتبطةِ بها والى شروحاتٍ عن بدائعِ الكونِ المذهلة، ومِمَّا لا زَبَّ فيه أنه تعرّفَ على الفروقاتِ المذهبيةِ بين الطوائفِ والشيعِ المسيحيةِ ذاتِ المواقفِ المتباينةِ بشأنِ طبيعةِ يسوعَ الإنسانيةِ والإلهيةِ.

وربما إستزرعوا في ذهنِ الصبيِّ محمدٍ فكرةَ التعاونِ معهم على العملِ في مشاريعٍ لِنشرِ أديانهم في الجزيرةِ العربيةِ لمعالجةِ أوضاعِها المتردية. إذا صحَّ ظنِّي فأرجحُ أن محمداً الصبيَّ اليتيمَ سُرَّ في قرارةِ أعماقهِ بفكرةِ تلكِ المشاريعِ كي تُتاحَ له ظرفٌ يستطيعُ بها أن يبيزَ أولادَ أعمامه الذين نالوا عنايةً ورعايةً أفضلَ ممَّا نالَ هو لكونه يتيماً.

إضافةً الى ذلكِ أعتقدُ أن تلكِ الزياراتِ تركتُ أثراً آخرَ عليه وهو الإحساسُ بالبوْنِ الشاسعِ بين الوضعِ الحضاريِ في الشامِ وما يماثلُه في الجزيرةِ العربيةِ ذاتِ القبائلِ المتعددةِ والمتقاتلةِ التي تُسيرُها التقاليدُ العشائريةُ المتسمةُ بسفكِ الدماءِ وبالأخذِ بالثأرِ وبوَأدِ البناتِ وغيرها من مستهجنِ العاداتِ.

وليس من بُدِّ أن تراكمَ إرشاداتِ إبنِ نوفلٍ وشروحاته وآراءِ وأفكارِ الكهنةِ والرهبانِ التي تعرّضَ محمدٌ اليها خلالَ سفراته العديدةِ اللاحقةِ الى الشامِ واليمنِ رسّختُ وجذّرتُ في ذهنِ محمدٍ معلوماتٍ وافرةٍ عن الأديانِ وعمّقتُ أيضاً في شخصيتهِ الحسَّ بضرورةِ معالجةِ حالةِ قومه العباديةِ والقبليةِ، فأخذتُ تعصفُ في ذهنه بتعجيلِ متزايدٍ

مع مرور الزمنِ دَوَّامَاتُ متلاطمةٌ من أفكارٍ حولَ الأديانِ والمذاهبِ المختلفةِ المتصارعةِ التي يدَّعي كلُّ منها أنه على الحق، ومن خيالاتٍ فوقطبيعيةٍ عن جنةٍ وجنِّهم وملائكةٍ وشياطينٍ وجن، وعن أساطيرٍ أنبياءٍ من محطمي الأصنامِ مثل إبراهيم وعن قديسينَ وحوادثٍ وقوعٍ معجزاتٍ تخرقُ نواميسَ الطبيعةِ، ومن تأملاتٍ تثيرُ دهشتهً عن جمالِ الكونِ من الشمسِ والقمرِ والنجومِ وغيرها من الأمور.

إعتادَ محمدٌ وهو في تلك الأطوارِ النفسيةِ من تضارباتِ الأفكارِ والخيالاتِ والتأملاتِ الى الإعتكافِ سنوياً لأيامٍ تدومُ قرابةً شهرٍ يقضيها في غارِ حراءٍ، شأنه شأنُ بعضِ الرجالِ المتزوجينَ من نساءٍ يكبرهنهُمُ سنأً، يَنوونَ بأنفسِهِم عن بيوتِهِم بعضَ الوقت. من المعروفِ أن الإبتعادَ عن الناسِ لِلتأملِ والصلاةِ من واجباتِ وعاداتِ النَّسَّاكِ المسيحيينَ والبوذيين. ومن الجديرِ بالتذكيرِ ما تخبرنا الأناجيلُ بقضاءِ يسوعَ الناصريِّ مدَّةَ أربعينَ يوماً في بريةِ الأردنِ صائماً ومعتزلاً الناسَ قبلَ البدءِ برسالتِهِ.

لا يعلمُ أحدٌ دوافعَ محمدٍ لإختلاءِتهِ السنويةِ. هل كان يُهيئُ نفسه بالتشبيهِ بيسوعَ وبأنبياءِ العهدِ القديمِ؟ ولا يُعرفُ كيفيةَ قضائهِ أوقاتِ "إجازتهِ" من البيتِ في تلكِ المغارةِ. إذن لا نستطيعُ سوى التكهنِ ببعضِ منها:

- ربَّما كان يغربلُ في معلوماتهِ بين الأديانِ والشَّيخِ المختلفةِ ويوازنُ بينها للتوصلِ الى أيِّ منها أكثرَ صلاحاً وملاءمةً له ولقومِهِ.
- ربَّما كان يستمتعُ بتذكيرِ الأساطيرِ التي رُويتَ له في الشامِ.
- ربَّما كان - في سكونِ الليلِ - ينظرُ مندهشاً الى السماءِ متأملاً النجومَ اللامعاتِ ونورِ القمرِ الخافتِ وأدامَ

النظر إلى الأرض والجبال والبحر والصحراء والغيوم
والطر.

● ربما كان يهيمن عليه شعور بالحزن على قومه الجهلة
وعبادتهم الأوثان.

مما لا ريب فيه أنه مهما كان أسلوب محمد في قضاء أيام طويلة في
المغارة إنفرادياً، ومهما كانت مشاغل ذهنه الحساس فلا بد أن تترك
الإعتكافات والإعتزلات الطويلة عن الناس أثراً عميقاً في نفسيته
وأفكاره وسلوكه وتطلعاته مما يحتم إنبثاق لحظة تفرع فذة تفصل بين
ماضيه ومستقبله.

في إحدى الليالي، إنبثقت اللحظة المحتمة التي لم تفصل بين ماضي
وحاضر محمد فحسب إنما بين ماضي جميع البشر ومستقبلهم
وبدأت الملحمة المحمدية التي غيرت مجرى التاريخ.

تروي كتب السيرة أن محمداً ذا الأربعين عاماً عمراً كان في ليلة من
الليالي معتكفاً كعادته في المغارة وحيداً ومستغرقاً في تأملات عميقة
وإذا به يصعق بصعقة كأنها ضربة مطرقة نزلت على الرأس، حين
توهجت المغارة فجأة بنور ساطع ورنت جدرانها بصدى هدير صوت
يأمر محمداً بصرامة وحزم بكلمة "اقرأ"!! لم يستطع محمد القراءة
إمّا لهلعه وإمّا لعدم معرفته القراءة، لكن الصوت ارتفع هديره
وصرامته أمراً بالقراءة مراراً وتكراراً ومضيئاً الخناق عليه. وأخيراً
بعد أن ردد محمد المرتعش من الخوف العبارة التي أمر بقراءتها (وهي
الآية الأولى التي ظهرت بعدئذ في القرآن)، إظلمت المغارة وإختفى
الصوت مباشرة.

هرع محمد راکضاً إلى البيت — إستناداً إلى الروايات الواردة في
كتب السيرة — ظاناً أن الجن أو الشيطان يخدعون، لكن زوجته
خديجة وابن عمها بن نوفل عملوا على تهدئته من روعه وأقنعاها أن ما

جرى له كان وحيًا إلهيًا وأن الزائر الليلي هو جبريل.⁶³ المشهور في أوساط الغيبيات الدينية المسيحية واليهودية. إذ أنه الملاك جبرائيل نفسه الذي قبل قرابة ستة قرون، قيل عنه إنه بشرَ مريمَ بحبلها بيسوع⁶⁴. تلك هي لحظة إنفلاقٍ عن شيءٍ جديد⁶⁵. اللحظة التأسيسية لبزوغ دينٍ جديدٍ وظهورٍ "نبي" جديد⁶⁶.

بعد أن طمأنت نصائح خديجة وورقة محمدًا، لما جرى له في غار حراء، ما إنقطع الوحي من "النزول" عليه مدة ثلاثٍ وثلاثين عامًا حتى وفاته (باستثناء فترةٍ وجيزة بعد وفاة ابن نوفل حين فتر الوحي). لا داعٍ بالنسبة إلى هدف المقال إلى الدخول في تفاصيل ما جرى من هجرة محمدٍ ومعاركهِ مع قريش وإحتلالهِ مكة.



المحصلة النهائية لتراكم جميع خبر محمد التي ذكرنا قسماً منها هي عقلٌ مشحونٌ بشحنةٍ عالية، بل مفرطة في العلو والكبر بأفكارٍ

63

لا أريدُ إطالة مقالِي بالتساؤل عن الكيفية التي توصلنا إلى هذه النتيجة.

64

هكذا نجدُ نموذجاً لتناضحٍ غيبيات الأديان.

65

ظاهرة الإنفلاقٍ نظرية في رياضيات النظم الدينامية تسمى Bifurcation Theory.

66

لا أقصدُ عند إستعمالي في هذا المقال كلمة "نبي" والمفردات المشتقة منها معناها المتداول. إن النبي بمفهومي هو ذلك الإنسان الذي يستشعرُ بعقله الواعي أو الباطن بثقلِ أعباءٍ ومشاكلٍ شريحةٍ من مجتمعه بإحساسٍ أعمقٍ مما يحسُّ به معظمُ أفرادها، ويمتلكُ القابلية على الإفصاحِ بجلاءٍ وإقناعٍ عن تطلعاتها وله رؤيا في سبيل تحقيقِ أمانيتها ويشعرُ بتحمُّله المسؤولية باستحضارِ جملةٍ من غيبياتٍ لغرض الوصولِ إلى أهدافه، فيختلقُ بوعيٍ أو من دون. وعيٍ إلهياً ملائماً ومتوائماً مع متطلبات مجتمعه، إلهياً له بعضُ الصلاتِ والسماتِ (أو إذا صحَّ التعبيرُ "الجينات") لواحدٍ أو أكثرٍ من الآلهة السابقين.

متلاطمة عن التوراة والإنجيل والجنة جهنم والأساطير الدينية ومعجزات المسيح وقصص القديسين والملائكة والجن والشياطين وتحطيم الأوثان وروعة النجوم والكون. فتشبع عقله الباطن بل طفح وتعدى الإشباع بأشواط وأشواط، فهيمنت الغيبات على وعيه وغدت قراراته المهمة وحتى نزواته الخاصة تنعكس إما أحلاماً ليلية ينصورها مرسله إليه إيعازات من الله، وإما كلمات جبريلية يسمعها ويرددها وهو في وضع شبيه بما يحدث للمصابين بالصرع⁶⁷ يتخيلها وحيأ مرسلأ إليه من الله.

منير: ألا يعني قولك إتفاقك مع إدعاءات بعض

معاصري محمد بأنه كان مصاباً بهلوسات جنونية أو

كان يتصنع الصرع أثناء " نزول الوحي " عليه؟

كلا، لا يعني كلامي أن محمداً كان مصاباً بهلوسات جنونية. ولا يمكنني أن أقول هذا الكلام، فأني قبل كل شيء لست مؤهلاً لأقوله.

إنني أرى ما هو أقرب الى القبول أن محمداً ظاهرة فريدة من نوعها. لم تظهر من مثلها خلال عشرات آلاف السنين أقل من أصابع اليد الواحدة

67

راجع

Muhammad and Temporal Lobe Epilepsy (TLE)By Ali Sina

في الرابط

<http://www.faithfreedom.org/Articles/sina41204.htm>

و

Was Muhammad an Epileptic?By F. W. Burleigh

في الرابط

http://www.americanthinker.com/articles/2015/05/was_muhammad_an_epileptic.html

و

حالات صرع الفص الصدغي عبر التاريخ/ محمد: سيرة سيكولوجية إبراهيم جركس - في الرابط

<http://www.m-ahewar.org/s.asp?aid=419670&r=0>

إن الخزين المتضارب من خبر أفكار محمد المحفوظ في عقله الباطن فوق طاقة الاستيعاب أخذ يتدفق متجسداً بصيغة أصوات يسمعها ويعتقد إعتقاداً راسخاً وبإصرار لا ينثني وبإخلاص وصدق وبإلاء مرآت أنها كلام الله، ومن دون أي تدخل أو مساهمة من جانبه. كلام يصدر إليه كأمر إلهية ليُبشِّرَ ويُذَرَّ الناس. كما كان يدافع عن إعتقاده دفاعاً مستميتاً ويردُّ على منتقديه الذين كانوا يبينون تبايناً مع كتبهم المقدسة بأنهم هم المحرِّفون لأقوال الله.

تلك الأصوات التي كان يسمعها محمد شكَّلت القرآن !!!! والتي تليت خلال الألف وأربعمئة سنة الماضية ويتلوها اليوم بلايين البشر بخشوع

منير: يتهم المسلمون المستشرقين الذين يشخصون
الرهصات التي كانت تنتاب محمداً أثناء "نزل
الوحي" عليه، - يتهمونهم - بالطعن الشخصي
بمحمد ورسالته.

سأتناول موضوع الصرع بعد إعطائي أمثلة قليلة من آيات تدعم وتوضح رأيي.

ليس من الضروري ولا من الممكن مسح جميع آيات القرآن كي نبين أنها إنعكاسات للعقل الباطن لمحمد. إذ يكفي عرض ثلاث أو أربع منها تُفصح بوضوح أنها صادرات من أعماق اللاشعور.

هنالك عدد من آيات "تأنيبية" لمحمد بسبب عمل غير مرضٍ قام به. هذه الآيات - حسب رأيي المتواضع - مجرد صدق لوخزات ضميره في عقله الباطن لسوء تصرفه. أمّا الآية المشهورة عن عمه أبي لهب فلا بد أن تكون إنتقاماً صادراً من عقل محمد اللاواعي بسبب ما لاقى من عمه من إساءات بالغة لا تُطاق. وهنالك آيات أخرى يُسمح فيها لمحمد بما يحلو له من منافع شخصية وشهوات وعلاقات حميمة بزوجاته التي تعكس ما في بواطن عقله من رغبات

وشهوات. كما يدلُّ ورودُ في القرآنِ كلماتٍ أعجميةٍ غيرِ متداولةٍ عندَ سكنةِ الجزيرةِ دلالةً على إختزانِ محمدٍ لها في عقله الباطنِ عندَ سماعه إياها في المناطقِ المجاورة للجزيرة العربية.

الآن أتناولُ الموضوعَ الذي طرحته عن الصرع.

إستناداً الى ما وردَ في كتبِ السيرة، يأتي "الوحي" الى محمدٍ كصلصلةِ الجرسِ يسمعُها الى درجةٍ يتفصدُ جبينه عرقاً في يومٍ شديدِ البردِ ويحتقنُ وجهه وهلوساتٍ سمعيةٍ وبصرية. من جهةٍ أخرى نجدُ مقالاتٍ في المصادرِ المتوافرةِ على الإنترنت تتناولُ موضوعَ الصرعِ وأنواعه وأعراضه التي يمكنُ القارئُ الإطلاعُ عليها.⁶⁸

من أعراضِ حدوثِ نوبةِ صرعٍ إحساسُ المصابِ، بساعاتٍ قبلَ حدوثها، بخوفٍ ممَّا يجعله يجري هرباً، أو يحسُّ بطعمٍ غريبٍ أو يرى أشياءً أو يسمعُ أصواتٍ غريبة. من الواضح أن هنالك بعضَ الشبهِ بين أحاسيسِ محمدٍ عندما يأتيه "الوحي" وبين أعراضِ المصابينِ بالصرع، ممَّا يجعلُ بعضَ المختصينَ المعاصرينَ في العلومِ العصبيةِ يدَّعونَ إنطباقَ الأعراضِ على محمدٍ، لكن المسلمينَ ينفونَ إنطباقها عليه نفيًا بإعتبارِ التطرقِ الى هذا الموضوعِ تشويهاً متعمداً الى سمعةِ ورسالةِ محمدٍ.

أنا لستُ — بطبيعةِ إختصاصي — مؤهلاً بالبتِّ في موضوعِ هذا الخلاف. لكن بعد إثارتيك — يا منير — له راجعتُ الموسوعاتَ فظهرَ لي أنه يبدو وجودَ ما يُسمَّى في العلومِ الإحصائيةِ "معاملَ ترابطٍ عالٍ" بين العبقريَّةِ والإصابةِ بالصرعِ، إذ هنالك عددٌ ليس بِقليلٍ من العظماءِ المعروفينَ عالمياً مصابينَ بِأحدِ أنواعِ الصرع. واليكُ أسماءً بعضِ مَنْ هم أكثرهم شهرة

- على المستوى الديني :
القدیسُ پولصُ المؤسسُ المشاركُ للمسیحیة، البابا
پیوس التاسع، مارتن لوتر المصلح الديني .
- على المستوى الأدبي :
دوستوفسكي، تولستوي، تشارلس ديكنز،
آگاثا كرسطي .
- على المستوى الفني :
ليوناردو دافنشي، الرسّام فون كوخ، الموسيقار
هاندل، ميخائيل آنجيلو .
- على المستوى العلمي والفلسفي :
إسحق نیوتن، فیثاغروس، سقراط، أرسطو .
- على المستوى العسكري :
ناپليون، إسكندر الكبير، یولیوس قيصر،
هانيبال، جان دارك .

أعتقدُ إستناداً الى هذه المعلومات، عدمُ وجوبِ إعتبارِ الكلامِ عن إصابَةِ محمدٍ بالصّرعِ إساءةً الى سمعتهِ أو إنتقاصاً منه. سواءً كان محمدٌ مصاباً أم لم يكنُ فهو واحدٌ من بين أعظمِ عظماءِ التاريخ.

ربّما يُفسّرُ كلامي عن منزلةِ محمدٍ الساميةِ في التاريخِ بِتحوّلي مؤمناً بما جاءَ محمدٌ من عقائدَ دينية. إنني لا أترددُ مطلقاً في التأكيدِ على نأيِ المطلقِ عن الإيمانِ بِالغيبياتِ الفوقطبيعيةِ ولا أكفُّ عن الإستنكافِ في تبديلِ خرافةٍ بِخرافةٍ. وأُصرِّحُ موضحاً وأُوضِّحُ مصرحاً أن إعجابي بِشخصيةِ محمدٍ نابعٌ من حقيقةِ قدرتهِ الهائلةِ على توظيفِ ما يمتلكُ من قابلياتٍ في بثِّ وتحقيقِ أحلامه وفي نجاحه الباهرِ في إستنهاضِ قومهِ وتأسيسِ دولةٍ من الصفر.

الْقُرْآنُ

منير: يتضح من حديثك أنك تعتبرُ محمدًا من عظماء التاريخ بناءً على تَرَكَّته للبشرية التي نالتُ تقديسَ بعضِ الناسِ وكرهية آخرين. نعلم أن الملحدين لا يؤمنون بأيِّ مبادئ مبنية على غيبات فوقطبيعية، ولا يؤمنون، كحاصل حاصلٍ بالقرآن الذي ادَّعى محمدٌ أنه مُنزلٌ عليه من الله كمعجزةٍ كبرى في البلاغة العربية فتحدى الأُنسَ والجنُّ بأن يأتوا بآية من مثله. دعنا نتجاهلُ ادِّعَاتِ مُحَمَّدٍ والمسلمينَ عن معجزةِ الهية، ولنتعاملَ معه معاملة أيِّ كتاب أدبي. فهل ترى أن القرآنَ حقاً معجزةٌ في البلاغة وبلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ بحيث يكونُ الدعامة الرئيسيةً للدين الإسلامي؟

يُثيرُ بعضُ زملائي من ذوي ثقافةٍ عاليةٍ إستغرابي من إيمانهم بما يُزعمُ إعجازُ بلاغةِ القرآنِ وباحتوائه على حقائقٍ علميةٍ حديثة الإكتشاف. أستغربُ من أولئك المثقفين لِعدمِ وعيهم أن الإِدعاءَ بإِعجازه خرافةٌ.

من المهم الإدراكُ أن البلاغة موهبةٌ بشريةٌ وليست معجزةً. إن الأعمالَ الرائعةَ لِشيكسبير وتولستوي، والجواهري، وقولتير، والمتنبي، والمعري، وطه حسين، وأحمد شوقي، وآلافٍ من غيرهم ليست معجزاتٍ وهم ليسوا أنبياء. ينطبق هذا القولُ على القرآن. إذن لا يمكنُ إعتبارُ القرآنَ معجزةً حتَّى ولو كان أروعَ عملٍ أدبيٍّ ظَهَرَ الى الوجود.

لكل مؤلفٍ أو شاعرٍ أسلوبٌ متميزٌ خاصٌ به يمكنُ تحديدهُ بالإستعانةِ بطرائقٍ إحصائيةٍ. إذن أسلوبُ الكاتبِ (أيّ كاتبٍ) يصعبُ — بل يستحيلُ — محاكاته على نطاقٍ واسعٍ. بناءً على هذه الحقيقة يستطيعُ أيُّ كاتبٍ أو شاعرٍ أو روائيٍّ أن يتحدّي الأُنسَ والجنَّ مجتمعين كي يأتوا بِمثلِ عمله.

أعترفُ بِجهلي التامِ ”بِقابلياتِ الجنِّ وبِمنجزاتهمِ الأدبية!!!“ أمّا بالنسبةِ الى الأُنسِ فالأمرُ مختلفٌ. إذ يُمكنُ لِشيكسبيرِ مثلاً أن يتحدى بصيغةٍ مماثلةٍ لِتحدّي محمدٍ قائلاً:

قُلْ لئنِ الإنسُ (والجنُّ) على أن يأتوا
بمثلِ هذه المسرحيات لا يأتونَ بِمثلها
ولو كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظهيراً.

لا أظنُّ بِإمكانِ نجاحِ أيِّ إنسانٍ في الإستجابةِ لتحديه. إذن يفقدُ، على المنوالِ نفسه، التحديَّ المحمديَّ أهميتهَ ومعناه.

لكن دعنا نفترضُ جدلاً — إستزادةً في النقاشِ — أن شخصاً ما أخذَ تحديَّ محمدٍ بِجديةٍ وصاغَ فعلاً ما يشبهُ سُوراً قرآنيةً. أتساءلُ مَنْ سيحكمُ بِمعاييرَ موضوعيةٍ على مستوى البلاغةِ لِلسُورِ المُقلّدةِ؟ أهُمُ المؤمنونَ المسلمونَ أم الإختصاصيونَ في اللغوياتِ؟ وهل سيقبلُ المسلمونَ النتيجةَ إذا أجمعَ اللغويونَ أن التقليدَ مكافئٌ لبلاغةِ القرآنِ؟ أُرَجِّحُ أن يتفقَ القارئُ معي أن الجوابَ سيكونُ بالنفي

منير: هل يمكنك إعطاء رأيك الشخصي بالقرآن،

إذا كنتَ قد قرأته؟

نعم، قرأتُ القرآنَ. أذكرُ أني قرأته لأول مرة سنة 1953. وإطلعتُ على عددٍ من الكتبِ والدراساتِ القرآنيةِ بالعربيةِ والإنكليزيةِ. وجدتُ سُورَ القرآنِ على نوعين. سُورٌ تُشكّلُ قطعاً أدبيةً رائعةً وسُورٌ أُخرى تعوزها البلاغة. وكانت سورتا ”نوح“ و ”يوسف“ على ما أذكرُ

رائعتين حقاً، ومن أبلغ⁶⁹ ما قرأت من السور وهما مسجعتان بسجعٍ موسيقيٍ راقٍ يطربُ الأذان.

ومما يلفتُ نظرَ وإنتباهَ دارسِ القرآنِ الى أن كلاً منهما مقصورةٌ على موضوعٍ واحدٍ من دون تشعبٍ هو قصة وردت في التوراة والعهد القديم عن أحدِ "الأنبياء".

لكني لم أجدُ جميعَ السورِ بنفسِ ذلكِ المستوى. فقد وجدتُ — حسبما أذكرُ — في عددٍ غيرِ قليلٍ من السورِ فقدان وحدة الموضوع والمعنى. ترى الآياتِ تقفزُ من موضوعٍ الى آخر. مثلاً من تمجيدِ الله... الى خلقِ السمواتِ والأرضِ وخلقِ الإنسان... ثم الى الحديثِ عن الكفار... ثم الى مواساةٍ لمحمدٍ للأعداءِ عليه... والى الكلامِ عن المشركين... ثم الى مواساةٍ محمدٍ مرةً أخرى... تعليماتٍ أخلاقيةٍ، ... والى طفرةٍ قصصيةٍ دون أيِّ روابطٍ منطقيةٍ تشدُّ ما بين الفواصل وكأنه كلامٌ أت من شخصٍ مصابٍ بحمى مرتفعة.

إذن، حسب رأيي الشخصي، القرآنُ خليطٌ غيرُ متجانسٍ في البلاغة.

وقد ذكرتُ في مقابلي السابقة عن محمدٍ، أن القرآنَ هو تجميعٌ للكلمات التي كان يسمعُها وتنبعثُ على لسانه وهو في حالةٍ نوبيةٍ شبه صرعٍ "كتفريغٍ" تلقائيٍ لتراكماتِ خبره وأفكاره وتأملاته المخزونة في عقله الباطنِ المفرطِ بالإستيعاب. وعند وعييه يُصرُّ إصراراً لا ينتهي أن ما سمعه هو كلامٌ مُنزَلٌ عليه من مُنزَلٍ غيبيٍّ فوقطبيعي. فأُسبِغْتُ على تلكِ الكلماتِ ما لا نهايةٍ من القدسيةِ وصارتُ تُتلى منذ ذلك الزمن الى اليوم وينصتُ اليها بخشوعِ آلافِ البلايين من البشر من آلافِ المدنِ والقرى في جميعِ أنحاءِ العالمِ.

إذا آمنا مؤقتاً، لغرض النقاش، أن الله أنزل القرآن على محمد، وأما أيضاً أن الكتاب المُنزَل إعجازٌ في البلاغة، فلا بُدَّ أنه شديد الإهتمام بالبلاغة. أتساءل: لماذا إذن لم يُعلِّمنا ذلك المُتْرَل قواعد اللغة وأساليب البلاغة؟! ولماذا لم يُؤنِّب محمدًا على زلاته اللغوية بدلاً من تأنيبه على سوء معاملة محمدٍ لأعمى؟ ولماذا أنزل الآية المشهورة عن أبي لهب الذي أساء لمحمدٍ أساءاتٍ بالغة لا تُطاق؟ لماذا أنزل آياتٍ يَسمحُ فيها لمحمدٍ بما يحلو له من منافع شخصية وشهواتٍ وعلاقاتٍ حميميةٍ بزوجاته.

أليس هذه أدلة على أن ليس هنالك مُنزلٌ ولا مُنزلٌ ولا هم يحزنون. بل مجردُ إنعكاساتٍ لعقلِ محمدٍ الباطنِ المخزوناتِ بتلقيقاتٍ عن قصصِ وأساطير... وقيمٍ ومبادئٍ ومُثلٍ عامة... وتعليقاتٍ على الغزواتِ والحروبِ التي خاضها،... وإجاباتٍ عن أسئلةٍ كان يُسألُ عنها،... وحل مشاكل مع زوجاته.

منير: لم يدع أن القرآن إعجازٌ في بلاغة اللغة العربية فحسب بل أيضاً أنه نزل هدايةً للبشرية جمعاء.

صحيح، من حقنا أن نسأل المُنزَل المُزعوم الأسئلة:

- إذا كنتَ جاداً في هداية جميع البشر، فلماذا إقتصر إنزالُك الهداية على العرب من سكرة الجزيرة العربية وبلغتهم؟!!!!
- ألم يكن الأجرُ بك إنزالها باللغات الأخرى أيضاً؟
- هل تهدفُ الى مكافأة من خدعتهم بقولك لهم كنتم خير أمة أُخرجت للناس؟

منير: يدرك مَنْ يدرس القرآن متوخياً الموضوعية أنه يعاني من تناقضات داخلية وأخطاء علمية وتاريخية. لا بُدَّ أنك واعٍ اليها. نعم، تعشعش في القرآن تناقضات علمية وتاريخية. وقد سألتني عنها، يا منير، في مقابلةٍ سابقة. فلا داعٍ لإعادتها.

منير: إضافةً الى التناقضات والأخطاء العلمية، يُقالُ أن هناك مجموعةً من كلماتٍ أعجميةٍ في القرآن؟

إعتماداً على الإحصاءات التي قامَ بها المهتمون بدراسة القرآن، وبالأخص الإمام جلال الدين السيوطي، توجدُ في القرآن أكثرُ من مئة كلمةٍ من اللغات الأرمية والعبرية والفارسية والآشورية والحبشية والقبطية واليونانية، مثل دينار، فردوس، تنور، جهنم، الصراط، ياقوت، ... الى آخره.

من المرجح أن تلك الكلمات كانت متداولةً بين سكنة المناطق المجاورة للجزيرة العربية نتيجةً لتجارة المتبادلة. لم يكن يعرف حتى بعض أصحاب محمدٍ وربما محمدٍ نفسه معانيها. أتساءل متعجباً هل نضحت تلك الكلمات من خلال العقل الباطن لمحمدٍ الى قرآنٍ وُصِفَ بأنه نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ؟ (يقولُ المثلُ إن الإناءَ ينضحُ بما فيه).

أدى التزامُ القرآنِ بالسجعِ الى كثيرٍ من اللبسِ في بعضِ آياته. مثلاً: دُعِي "إيليا" أحدُ أنبياءِ العهدِ القديمِ في إحدى السُورِ "الياسين" ودُعِي في سورةٍ أُخرى "الياس". لا أودُّ إثقالَ القارئِ بمزيدٍ من أمثلة. وأشيره الى الرجوعِ الى مقالٍ على الإنترنتِ للكاتبِ كامل النجارِ بعنوان "أخطاءٌ قرآنيةٌ لزوم السجع".

ملخّص رأيي:

القرآنُ كلامٌ غيرُ متجانسٍ بلاغياً، نُطقُ بِلِسَانِ مُحَمَّدٍ
إِنْعَاساً لِخَزِينِ عَقْلِهِ الْبَاطِنِ. وَلَمْ يَأْتِ كُلَّهُ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ
مُبِينٍ، وَلَا هِدَايَةً وَهْدَى لْجَمِيعِ الْبَشَرِ.

مسيحيو الشرق الأوسط بعد الفتوحات الإسلامية

منير: تدلُّ الإحصائياتُ على التناقصِ المطردِ، منذُ الفتوحاتِ الإسلامية لأعدادِ مسيحيي (ويهود) الشرق الأوسط. إذ كان يُقدَّرُ تعدادُهم آنذاك بين سبعة إلى تسعة ملايين. أما اليوم فغدتْ نسبتُهُم إلى مجملِ سكانِ المنطقة أقلَّ من 10 بالمئة، أين تبخروا؟!!! هلِ إعتنقَ معظمُهُم الإسلامَ طوعاً، حسبما يدَّعي المسلمون؟ أم هربَ بعضُهُم إلى جبالِ نائية، وأبيدَ بحدِّ السيفِ مَنْ تبقَّى منهم الذين أبوا إعتناقَ الإسلامِ، كما يدَّعي المسيحيون؟

يتعلَّقُ موضوعُ السؤالِ بالصراعِ والتعايشِ بين الأديان. ولهذا أرى أن من المفيدِ للقارئِ المتوخى الموضوعيةَ أن يُكوِّنَ له إطاراً فكرياً عن التكاثرِ والتباعدِ والتخاضِ بين الأديانِ وأساليبِ إنتشارِها وعن تصرفاتِ كلِّ دينٍ نحو دينٍ آخر. ولهذا أقترحُ على القارئِ الإطلاعَ على الملخصِ التالي لكتابِ "God`s Virus" تأليفِ داريل دبليو ربي.⁷⁰

يتخذُ المؤلفُ من سلوكِ الفيروساتِ البيولوجيةِ في أساليبِ إنتشارِها وتطورِها نموذجاً لسلوكياتِ الأديانِ (خاصةً التوحيدية). تصيبنا الفيروساتُ البيولوجيةُ بالأمراضِ،

كذلك الأديانُ (أيُ دينٍ مهما كان) تصيبُ المجتمعاتِ
"بالأمراض".

يُسلطُ المؤلفُ الأضواءَ على أن إضطهادَ دينٍ لمعتنقي دينٍ
آخر صفةٌ مشتركةٌ لجميع الأديانِ الكبرى. ينتهزُ فيروسُ
الدينِ كلَّ فرصةٍ متاحةٍ كي يستغلَّها لهدفِ الإنتشارِ
والهيمنةِ والإستحواذِ على مفاصلِ المجتمعِ والدولة.
وحيثُ تتطلبُ ظروفُ عصرٍ ما تسامحاً أخوياً بين الأديانِ
فَينهجُ فيروسُ الدينِ نحو التسامحِ، لكن عندما يشعرُ
بجدوى إستعمالِ القوةِ أو التهديدِ بها فَلَئِن يترددَ
بِإستعمالِها أو التلويحِ بها. هذا شأنُ فيروساتِ جميعِ
الأديانِ.

إن الأربعةَ عشرَ قرناً الماضيةَ حقبةٌ زمنيةٌ طويلة. حدثتُ خلالها
شَتَّى الأحداثُ في جميعِ المجالاتِ والاتجاهاتِ. إمبراطورياتُ قامتِ
وأخرى إنهارت، قاراتُ أُكتشفتُ، علومٌ تطورتُ، أسلحةُ الحروبِ
تبدلتُ.

سأكونُ خارطةً عقليةً على سيرورة التناقصِ المطردِ لأعدادِ
المسيحيين، المتزامنةِ والمترافقةِ مع تنامي الدينِ الإسلامي. وسوفِ
أُقصرُ الإهتمامَ بالإنعطافاتِ الرئيسيةِ للسيرورة، بدلاً من الولوجِ الى
حوادثِ الإحتكاكاتِ الإعتياديةِ بين الأديانِ التي لا بدَّ منها ما دمنا
لسنا في يوتوبيا — المدينةِ الفاضلة. سوفِ لا أهتمُ في المقالِ

بإحصاءٍ عددِ المراتِ التي إقترَفَ أحدُ الأطرافِ فظائعَ ضدَّ الآخرِ وما هي الضحاياها ونتائجها.

نظرتي نظرةً نسرٍ مُحلِّقٍ في أعالي السماء، يرى من علوه قممَ الجبالِ وأعماقِ الوديانِ وسعةَ الغاباتِ، ولا تسترعيه الصخورُ المبعثرةُ ولا الروافدُ الصغيرةُ ولا الأشجارُ المنفردة.

دعنا الآن نحدِّق من ذلك البُعدِ على أُطرِ تفكيرِ الطرفين.

يدَّعي المسيحيون المعاصرون أن إنتشارَ الدين الإسلامي قد تمَّ بتأثيرِ عواملٍ عديدة، والسيفُ هو العاملُ الحاسمُ في إخفاقِ المسيحيةِ في الصمودِ أمامَ المدِّ الإسلامي. ويدَّعون حدوثَ كثيرٍ من الإباداتِ الجماعية، ويعتقدون أنها (أو الخوفُ من حدوثِ مزيدٍ منها) السببُ الرئيسي في التناقصِ المطردِ لأعدادِهِم. وهم يحرصونَ - صوناً لكرامةِ إيمانِهِم - على غرسِ تبريراتِهِم في أذهانِ صغارِهِم. ممَّا يُصعِّبُ إجراءَ مناقشةٍ موضوعيةٍ لمواضيعٍ مثل هذه.

أمَّا المسلمون فمعظمُهُم ينفونَ الإدعاءَ بأن قدامَهُم إستخدموا القوةَ في تحويلِ - ما يسمونَهُم أهلَ الكتابِ - عن أديانِهِم، مؤكدينَ أن أسلمةَ هؤلاء قد تمَّ بِمحضِ إراداتِهِم. وهم (أي المسلمون) لا يعززونَ نفيَهُم سوى بالإستشهادِ بأوامرِ النهيِ القرآنيَّةِ عن الإكراهِ في الدين. ونجدُهُم حين يُفحِّمونَ بحقائقٍ تاريخيةٍ في مخالفةِ قدامتِهِم وأمرِ القرآن، يسعونَ إمَّا الى التعتيمِ عليها، وإمَّا الى تبريرِ أفعالِهِم بِحملةٍ مضادةٍ بالتذكيرِ بما إرتكبَ المسيحيون من فظائعَ ضدَّ المسلمينَ عندما إحتلَّ الصليبيون فلسطينَ وبما إرتكبتْ محاكمُ التفتيشِ الإسبانيةِ من أعمالٍ وحشيةٍ ضدَّ مسلمينَ في الأندلس.

في الوقتِ الذي لا أنكرُ بل أقرُّ بأن المسيحيينَ إقترفوا فظائعَ يندى لها الجبينُ ضدَّ ليس فقط المسلمينَ بل أيضاً اليهودَ والموثنيين والأفارقةِ

والسكنة الأصليين في أمريكا وأستراليا، لكنني أفضل عدم التعرّيج في هذا المقال إليها، لا تغاضياً عما إقترفوه، بل كي يقتصر النقاش على موضوع واحد هو:

العوامل المؤدية الى الإستنزاف المطرد في أعداد مسيحيي منطقة الشرق الأوسط منذ الأربعة عشر قرناً الماضية.

لو كنتُ أؤمن بوجودِ الله خالقِ الكونِ لإتهمتهُ بأنه يلهو بالبشرِ كأنهم بيادقُ شطرنج. إذ أجده بين حينٍ وآخر يُنزلُ عليهم فيروس دين يُهيمنُ على أجهزتهم العصبية فيتكارهون ويتباغضون ويتخاصمون وهو يتمتع بالتفرّجِ عليهم.

يُذكرُني تبادلُ التهمِ والإدعاءاتِ بأبياتٍ خفيفةٍ ولطيفةٍ باللغة الإنكليزية تصفُ تراشقاُ كلامياً على لسانِي قَدْرٍ وغلايةٍ (أي كيتلي بالعامية "الفصحى !!!") ملوثينِ بالسُخامِ ممّا يجعلُ كلاهما يسخرُ من الآخرِ بسببِ رؤيةٍ غيره و عدم رؤيةٍ نفسه.

Oho,said the pot to the kettle !
You are dirty and ugly and black,
Sure no one would think you a metal
except when you are given a crack
Not so ! not so ! kettle said to the pot
T's your own dirty image you see
For I am so clean without blemish or blot
That your blackness is mirrored in me

الترجمة:

ينادي القدرُ الغلايةَ قائلاً "أوه، أنتِ قذرةٌ وقبيحةٌ وسوداء.

ومن المؤكّد لا يتخيلُكِ أيُّ أحدٍ أنكِ مصنوعةٌ من معدنٍ إلا

إذا طُطّقَ عليكِ".

تَجِيبُ الغَلايَةُ القَدِرَ: "كلا، كلا. ليس هذا صحيحاً إذ أنا
نظيفة، لا شائبة تشوبني ولا عيب يعنني، أنا كَمِراً ساطعة.
وأنتَ حينَ تنظرُ اليَّ تشاهدُ سوادك منعكساً في".

يبدو أن مصمّم فيروسات الأديان قد إكتسب مهارةً من خِبره السابقة.
فأحكّم تصميمَ فيروس جديدٍ بحذاقَةٍ أكسبه قدرةً على العُورِ الى
أعماقِ المراكزِ العصبية للمصابين به والسيطرة عليها بالكامل فأغداهم
يعتقدون أن نبيهم خاتمُ الأنبياء وأن قرآنهم نزلَ مصححاً لما ادّعي من
إنحرافاتٍ في الكتبِ المقدّسة عند الآخرين وأوهمهم بأنهم خيرُ أمةٍ
أُخرجتُ للناس. وصاروا، حين تحتلُّ عساكرهم بلداً ما، يعتقدون أنه
غدا ملكهم يتصرفون به كما يشاؤون ويتعاملون مع مواطنيه بعنجهيةٍ
ويتعالٍ عليهم. ولعلّ كلماتِ الخميني:

الذين يدرسون الجهاد سوف يفهمون الأسبابَ لماذا
يريد المسلمون فتحَ العالمِ بكامله . كلُّ البلادِ
التي فتحها الإسلامُ ، وكلُّ التي سيفتحها الإسلامُ
مستقبلاً ستنالُ الخلاصَ الأبدي لأنها ستكون
تحت قانونِ الله .

توضّحُ تماماً تصرفاتِ المسلمين.⁷¹

من الجديرِ بالملاحظةِ عدمَ إستطاعةِ الأوروبيين والأمريكيين
والأستراليين فهمَ جرأةٍ ووقاحةٍ كثيرٍ من المهاجرين المسلمين الى تلك
البلدانِ بالمطالبةِ تطبيقِ نظمِ الشريعةِ الإسلاميةِ في البلادِ التي
هاجروا اليها، أو أن يُعاملوا معاملةً خاصةً ويُسْتثنوا من بعض
الأنظمة. من جهةٍ أُخرى لا تسمحُ الدولُ ذاتُ الأغلبيةِ الإسلاميةِ

إعطاء امتيازات خاصة لغير المسلمين فيها. لكن الأوروبيين والأمريكيين والأستراليين سيفهمون إذا علموا أن عقول أولئك المطالبين مصابة بفيروس دين يُوهمهم بوجوب إنصاع الجميع الى توجيهاتهم وتنفيذ مطالبهم لأن القرآن، كتابهم المقدس، منزل من الله على نبيهم مُنسخاً التوراة والإنجيل.

يرى أغلب المؤرخين المحايدين الصورتين المتضادتين التي يرسمهما الجانبان المسيحي والمسلم أنهما تعكسان بعض المصادقية وبعض المبالغة. ويرونهما شبه كاريكاتيريتين لما حدث فعلاً.

يتضح لمن يتتبع أخبار الأديان عبر وسائل التواصل الاجتماعي أن هنالك تنازحاً مستمراً بين معتنقي الأديان⁷². فيبقى مجمل نسب أعداد المعتنقين ثابتاً تقريباً، طوال عشرات السنوات، لا تُغيّره تغييراً كبيراً وسائل التبشير، ولا طرائق الإغراء ولا حتى اعتماد الإكراه إلا إذا توافرت ظروف سياسية - اقتصادية - إجتماعية - دينية متوائمة مع متطلبات طبقات المجتمع. على سبيل المثال: إنتشر الدين المسيحي في بلاد وادي الرافدين بسرعة في القرن الأول الميلادي بالتبشير لأن سكّانه كانوا يعانون من إضطهاد المحتلين الفرس. لكن لم يكن للمسيحية نجاح يُذكر في بلاد فارس المجاورة بنفس التبشير.

يبدو لي أن كلا الجانبين المسيحي والمسلم يناورُ في سوقِ مفرداتِ اللغةِ مثل "سيف" و "إكراه" كي يُموِّها على أنفسِهِم ويُوهموها بصوابِ آرائِهِم⁷³.

لِلسيفِ، في سياقِ كلامِنَا في هذا المقالِ معنيان. سيفُ القوةِ الغاشمةِ التي تمتلكُها الدولةُ من عساكرَ وأسلحةٍ، وسيفُ أنظمةِ وقوانينِ للإذلالِ والتهميشِ التي تسنُّها الدولةُ أيضاً، وأعتقدُ أن هناكَ عاملَ آخر. لا أجدُ مصطلحاً مناسباً يصفُه تمامَ الوصفِ. فسأكتفي بِـ "سيفِ الإهتزاز".

[أرجو أن تُذكِرني، يا منير، لأتكلّم عنه لاحقاً].



إستعملَ المحتلون المسلمون مصطلحاتِ أمثالِ "ذمِّي و أهل الذمة" وغيرهما كي يُميِّزوا بها "أهلَ الكتابِ" (أي المسيحيين واليهود والصابئة) عن المسلمين، ويترفعوا عن إسباغِ صفةِ المواطنةِ عليهم في بلدهم المحتلِ الذي تحكّمه حكومةٌ مصدرُ قوانينِها الشريعةُ الإسلامية. أُرَجِّحُ أن أغلبيةَ المسلمينِ الحاليينَ قد تجاهلتُ، بِوعيٍ أو من دونِ وعي، أن الإكراهَ في الدينِ كان سياسةً جميعِ الدُولِ الإسلاميةِ المتعاقبةِ في تعاملِها مع "أهلَ الكتابِ".

نعم، كانت سياسةُ إرغامِ ليس فقط بِحدِّ سيفِ بئارٍ يجرُّ الأعناقَ، بل أيضاً بِسيفِ آخرِ يفلُ الإرادةَ ويسحقُ العزائمَ. سيفُ كليلِ بطيءِ التأثيرِ، لكنه على المدى البعيدِ، شديدُ الأثرِ، هو سيفُ الإذلالِ والتهميشِ.

منير: كنتُ أعرفُ أن السيوفَ تُصنَّفُ حسبَ منشئِها. لكنني تعلمتُ الآن أنها تُصنَّفُ أيضاً حولَ سرعةِ تنفيذِ وظائفِها!!! فظهرتُ لي سيوفٌ لجزِّ خاطرِ الفعاليةِ، وسيوفٌ أخرى بطيئةُ الفعاليةِ، هي سيوفُ الإذلالِ والتهميشِ.

سؤالي: كيف تمكَّنتُ السيوفُ البطيئةُ الفعاليةِ من كسرِ إرادةِ وعزمِ أهلِ الذمةِ وإستطاعتِ إستنزافهم عددياً؟

لا يُخفى أن كلمةَ "ذمِّي" حُبلى بالتفرقةِ الدينيةِ وهي مشحونةٌ بعنجهيةٍ وإستعلاءِ المسلمينَ وإنتقاصِ من مواطني البلادِ الذين ينعنونهم بـ "أهلِ الكتابِ". ولا يمكنُ أن يُشكَّ في أن لفظَةَ "ذمِّي" تُغيظُ كلَّ مَنْ يُنعتُ يها بغيظٍ مكبوتٍ وتجرُّ مشاعره.

وكأنما جرحُ المشاعرِ لا يكفي، فهناك غيظٌ من فيض. إذ يُلزمُ نظامُ "العهدِ العمريَّة"، الذمِّيَّ بإرتداءِ زيِّ خاصٍ مميز. 74 وبِعدمِ التشبهِ بِملابسِ وبِسروجِ وحتى بِنعالِ المسلمين، كما يمنعه من الشهادةِ ضدَّ مسلمٍ، ممَّا يجعلُ من الصعوبةِ بِمكانِ على كثيرينَ من "أهلِ الكتابِ" الدفاعَ اللائقَ في نزاعاتِ قانونيةٍ مع المسلمين. ومع أن نظامَ العهدِ لا يمنعُ "أهلَ الكتابِ" من ممارسةِ شعائرهم الدينية بل يسمحُ لهم ذلك تحت شروطٍ قاسيةٍ، من أقساها أنه يمنعهم

أمَّا جبرائيل بن بختيشوع فكان مستثنى من إرتداءِ الزيِّ الخاصِ لكونه الطبيبِ الخاصِ لإهرونَ الرشيدِ. يُحكى أنه دخلَ في أحدِ الأيامِ على الخليفةِ بقصره مرتدياً اللباسَ الخاصَ للمسيحيين. فتعجَّبَ الخليفةُ معترضاً. فأجابَه الطبيبُ بِنبغي عليَّ كمسيحيٍّ إرتداءَ زيِّ رفاقي في الإيمان. فألقى هارونَ الوشيدَ نظامَ الزيِّ الخاصِ. لكن الخلفاءَ اللاحقينَ أعادوه!!

من بناء دُور عباداتهم وحتى من ترميمها إلا بموافقة أعلى السلطات في الدولة⁷⁵.

إضافةً الى كل تلك القيود الإجتماعية المهينة، هنالك ضريبة الجزية المفروضة على "أهل الذمة" كي يُعفوا من واجب المشاركة في حروب الجهاد الإسلامية. وهي تضغطُ ضغطاً اقتصادياً قاسياً يسحق طبقاتهم الفقيرة وتُرهقهم الى درجة لا يتمكن كثير من الإستمرار في دفعها.

من المحتم أن تراكم معاناة المواطنين من إستدامة القيود الإجتماعية المهينة والضرائب المرهقة سيصل - عاجلاً أو آجلاً - الى ذروة يغدو من المستحيل بعدها على بعضهم الإستمرار في تحملها إلا برفع الراية البيضاء والتخلص منها كلياً بإعلان إسلامهم. ثم يدعى على أثر ذلك أن إسلامهم قد تم بمحض إرادتهم. حقاً، أن إسلامهم قد تم فعلاً بمحض إرادتهم. لكنها أرادة قد سُحقت وسُلِبَت بسيوف الإذلال والتهميش.

إذا لم يكن هذا إكراهاً، فأرجو أن يزيدنى المسلمون إدراكاً: كيف يمكن أن يكون الإكراه إذن !!؟

أرجح أن جوابهم عن سؤالي سيكون أن إستخدامهم سيوف الإذلال والتهميش ليس إكراهاً بل واجباً دينياً أمرهم به مُنزل القرآن لنشر دينه الحق. وهم يفهمون المصطلح القرآني "الإكراه في الدين" على أنه الإرغام بإتباع أساليب من أمثال أن يُسلط سيفٌ على رقبة إنسان ويأمر بإعتناق الإسلام وإلا جُزَّتْ رقبته!! أو أن تُحاصر

قريةً ويُلزَم ساكنوها بالإسلام ديناً وإلا أُبيدوا جميعاً.

يعلل المسيحيون المعاصرون ظاهرة التناقص المطرد في أعدادهم، الى عوامل عديدة منها، طبعاً نظام العهدة العمرية والنوع المهنية، لكنهم يدعون أن العامل الحاسم، السيف البتار، سيف القوة الغاشمة الذي أباد تدريجياً على مرّ السنين معظم من تبقى منهم. لكن المسلمين المعاصرين بدورهم ينفون الإدعاء جملةً وتفصيلاً بحجة أن الله منعهم عن ذلك مفترضين ببساطة إفتراضاً تعسفياً أن مجرد وجود نهي قرآني يكفي لردع كل مسلم عن مخالفة الأوامر الإلهية، متغافلين عن حقيقة أن مخالفة الناس عموماً لأمثال تلك الأحكام، ليست نادرة الحدوث، خاصة حين تكون السلطة في أيادي متطرفين.

أودُّ إكمال هذا الموضوع من الجانب المقابل، لأقول رغم إنني شخصياً أفتقر الى مثال عن حادثة إبادة مؤتقة تاريخياً، إلا أنني أعتقد جازماً بوجود حوادث أُجبر فيها فرادى أو جماعات من "أهل الكتاب" على إعتناق الإسلام بحد سيف القوة الغاشمة مسلطاً على أعناقهم. إن... (وهنا قاطع منير كلامي).

منير: د. ريمون، أرجو السماح لي

بمقاطعتك.

إنني متعجبٌ كيف يمكن أن يتواءم الإقرار بإفتقار

الى مثال لحالة إكراه بحد السيف، وينسجم مع الجزم

بإعتقاد وجود عدد من أمثال تلك الحالات؟

لك كل الحق، يا منير، في أن تتعجب لو كنت قد إنتهيت من كلامي

عند الجملة التي قاطعتني.

في الحقيقة كنت أنوي الإستمرارَ في الكلام لأقول إن إعتقادي لم يكن مبنياً كقصورٍ على الرمالِ، إنما بالعكسِ على أساسِ أن جميعَ أدبياتِ المسيحيينَ وأحاديثِ معارفي لا تنفكُ أبداً من التأكيدِ على أن العاملَ الرئيسيَّ في ظاهرةِ إستنزافِ أعدائهم هو الإستشهادُ زرافاتٍ ووحداناً بِحدِّ السيفِ القاطعِ.

منير: ممَّا لا ريبَ فيه، إن إدِّعاءاتِ المسيحيينِ مبالغٌ فيها مبالغةً كبيرة. (أتمنى أن لا أكون قد كررتُ مقاطعةً كلامك قبلَ إكمالك إياه).

نعم، أتفقُ معك أنها إدِّعاءاتٌ مبالغٌ فيها وأُضيفُ قائلاً إنها أقراطٌ في المبالغة. لكن من جهةٍ أُخرى، إن أغلبيةَ المسلمينِ ينفون نفيًا قاطعاً بحدوثِ أيِّ تصفيةٍ جسديةٍ لِمَن أبى من المسيحيينِ (وغيرهم من أهلِ الكتاب) الدخولَ الى الإسلام. وكأنهم يجهلون أو يتجاهلون حقيقةً أنه لا يوجدُ دخانٌ من دونِ نار.

ويعللُ المسلمون نفيهم بِمثلِ القولِ الآتي:(المقتبس من أحدهم)

”يملكُ الدينُ الإسلاميُّ الإحكامَ والوثوقَ العالیَ بالنفسِ ممَّا يجعلُه ليس بحاجةٍ الى الإستعانةِ بالقوةِ كي يدخلَ الناسَ فيه ، إنما الناسُ هم يسعونَ نحوه وينجذبون اليه . وقد تجلَّى التفوقُ الفكريُّ والأخلاقيُّ للإسلامِ على جميعِ الأديانِ الأخرِ تجلياً واضحاً في التاريخِ الإسلاميِّ“ !!⁷⁶

لكن يعلم المسلمون ذوو الفكر المتفتح أن ليس في الواقع دخان بلا نار. فمن غير المعقول أن تكون إدعاءات المسيحيين جميعها تلفيقات لا أساس لها من الصحة وأنها ابتدعت لمجرد الإساءة الى الإسلام. وعليه يستوجب المنطق السليم على أن يدرك المسلمون ويُقرّون أن الغزاة الفاتحين قد ارتكبوا على الأقل بعض الوقائع المروعة لإرغام أعداد من المسيحيين على إعتناق الدين الإسلامي التي أفرعتهم وأرهبتهم بحيث تركت ندباً نفسيةً لن تنساها ذاكرتهم الجماعية. أمّا الذي يرى دخاناً ويتعامى مُصراً أو يُصرُّ متعامياً على أنه مجرد دخان بلا نار، فهو يوهّم نفسه ويخدعها.

دعنا الآن ننتقل الى مناقشة الطرف الآخر (أي المسيحي). قالوا قديماً "كلُّ شيء زاد عن حده إنقلب ضده" ويقولون أيضاً "الزائد أخو الناقص". مثلما أن من غير المعقول أن جميع إدعاءات المسيحيين تلفيقات لا أساس لها من الصحة، كذلك ليس من المعقول تصديق كامل الفولكور المتداول بين المسيحيين المعاصرين بأن الذين تمسكوا بإيمانهم وصمودوا تحت وطأة مصاعب سيوف الإذلال والتهميش ورفضوا إعتناق الإسلام، كان مصير أغلبهم الإبادة بالسيف.

أتمنى إتساع صدور المسيحيين لتقبّل حقيقة عامة:

إن من المستحيل تحويل ملايين من البشر عن أديانهم بالاعتماد فقط على سيف القوة الغاشمة.

ينبغي أن تُدرَك حقيقة أن مهما بلغ إتساع إستخدام السيف في تحويل ناس من دين الى آخر لن تنجح في تحويل الملايين. ربّما قد تنجح في عددٍ صغيرٍ نسبياً، قُل مثلاً مئة، مئتين أو، حتى ألف،

لكن بالتأكيد ليس بالملايين، إلا إذا — كما ذكرتُ قبلَ قليلٍ —
توافرتْ ظروفٌ سياسيةٌ — إقتصاديةٌ — إجتماعيةٌ — دينيةٌ
ملائمةٌ ومواتيةٌ.

أتمنى من القارئِ المترددِ في قبولِ مقولتي التفكيرِ بالأسئلةِ التاليةِ
بفكرٍ متفتحٍ وبموضوعيةٍ. لعله سيقتنعُ بمصداقيتها:

- لو كانت أمريكا تسعى الى تحويل مسلمي العراق عن دينهم، هل كان الجيش الأمريكي الذي احتل العراق قادراً بإمكانياته الهائلة على ذلك؟
- هل تمكن الصليبيون تحويل المسلمين عن دينهم بعد إحتلالهم القدس وأجزاء أخرى من فلسطين رغم إستمرار إحتلالهم عدة قرون؟
- هل كان في قدرة البريطانيين الذين كانوا يحتلون الهند تحويل أكثرية الهنود عن الديانة الهندوسية؟
- هل تمكن المسلمون الذين كانوا يحتلون الأندلس من تحويل أغلبية مسيحييها الى الإسلام؟

ومن المفارقاتِ المعروفةِ تاريخياً أن ليس من النادرِ والغريبِ أن يعتنقَ
المضطهدون (بِكسرِ الهاء) المحتلون دينَ المضطهدين (بفتحِ الهاء)
المحتلين.

وأودُّ أن أذكّرَ المسيحيينَ — ليس حباً بالإسلام ولا دفاعاً عنه —
الى حقيقةٍ تاريخيةٍ وهي أن الدينَ الإسلامي لم ينتشرَ فقط في أعقابِ
إحتلالِ عسكري، كما يتصورُ بعضُ المسيحيين، إنما إنتشرَ ولا يزالُ
ينتشرُ بوسائلٍ سلميةٍ أيضاً.

- بعد أن عانى سكنةُ الجزر الأندونوسية طويلاً من المستعمرين الهولنديين تحوّلَ سكانها الى الإسلام دون دخولِ عساكرِ المسلمين إليها، إنما تمَّ تحويلهم على

أيادي التجار المسلمين. ومن المعلوم اليوم أن أندونيسيا أكبر دولة إسلامية سكاناً.

- وإبتداءً من أواسط القرن الماضي أخذ الدين الإسلامي بالانتشار السريع على المستوى العالمي عن طريق إستغلال الأموال النفطية في بناء مساجد ومدارس دينية في مختلف أنحاء العالم، وفي إنشاء فضائيات تلفزيونية لبث برامج دينية إسلامية والإنفاق عليها بسخاء.

- وفي العقود الأخيرة من القرن الماضي وجد المسلمون أجواء الحرية السياسية والدينية المفقودة في بلدانهم متوافرة في دول أوروبا وأمريكا وأستراليا. فعولوا على الهجرة إليها. وانتشر الدين الإسلامي بواسطتهم في تلك الدول. وقد لاقى نجاحاً كبيراً خاصة في أوروبا بحيث غدا من المتوقع أن تصبح القارة الأوربية ذات أغلبية إسلامية بعد قرابة نصف قرن.

- يتبنى الدين الإسلامي في هذه الأيام كثير من الأمريكيين من أصول أفريقية. أعتقد أن دافعهم هو أن يميزوا أنفسهم عن من اضطهدوهم طويلاً، ليس فقط بلون الجلد بل وأيضاً بهوية دينية مختلفة.

أأمل أني وضحت أن الدين الإسلامي قد إنتشر في السنوات الأخيرة من دون إحتلال عسكري بل بطرائق سلمية متفرقة.

منير: أعتقد أن الوقت قد آن لأستجيب الى الطلب بتذكيرك بمصطلحك "سيف الإهتزاز" الذي وصفته أنه عامل ذو طبيعة دينامية. لا أود أن أخفي

منير: فهتُ الآنَ أنَ "سيفَ الإهتزاز" ليس سيفاً ولا مقصلةً. إنه أشبهُ بالصعقةِ الكهربائيةِ التي يُعالجُ بها المصابونَ بأمراضٍ عقليةٍ.

هنالك بعضُ الصحةِ في تشبيهك "سيفَ الإهتزاز" بالصعقةِ الكهربائيةِ، ومع ذلك توجدُ فروقٌ عديدةٌ بينهما. إن الصعقةَ التي تكلمتَ عنها يُعالجُ بها مريضٌ واحدٌ، وينتهي الأمر. لكن ليس "سيفُ الإهتزاز" عمليةً منفردةً لها هدفٌ محددٌ مسبقاً يُؤمّل الوصولُ إليه وينتهي الأمر. إنما هو سيرورةٌ ديناميةٌ مستمرةٌ عملتُ على زعزعةِ العقائدِ المتجذرةِ في نفوسِ ملايينٍ من مسيحيي الشرق الأوسط، حركتها معاناتهم من وطأةِ الإحتلالِ الإسلامي، وبلغتُ السيرورةُ إحدى ذروتها في القرنِ العاشر، وهي مع ذلك لم تتوقف. إذ لا زالت Still Going Strong كما يقولُ المثلُ الإنكليزي.

منير: فهتُ أنك ترى أنَ "سيفَ الإهتزاز" عاملٌ مهمٌ في تناقصِ أعدادِ المسيحيين بعد "الفتوحاتِ الإسلامية" من جرّاءِ الإهتزازاتِ في إيمانهم اليقينيِ المسببةِ بتوالي نجاحاتِ الدولةِ الإسلاميةِ في المجالاتِ العسكريةِ وغيرِ العسكريةِ. لكنني أُقربُ بأن فهمي ما زال يكتنفه بعضُ الغموضِ الضبابي. فأرجو الإسترسالَ لتوضيحِ أكثرَ للكيفيةِ التي أدتُ بـ"سيرورةِ الإهتزاز" إلى التضاؤلِ العدديِّ لمسيحيي الشرق الأوسط.

أعتقدُ أن من المفيدِ لغرضِ تلبيةِ طلبك الإطّلاعُ على تلكِ الحقبِ التي للمسلمين تسميتها "الفتوحاتِ الإسلامية". لذا إرتأيتُ أن أضعَ في نهايةِ هذا المقالِ ملحقاً يُزودنا بصورةٍ مصغرةٍ أي Bird`s - eye view عن تلكِ الحقب.

لم يحظ مسيحيو الشرق في أيّ من الأوقات بكيانٍ مستقلٍ يذودُ عنهم، مثلما كان متوافراً لهم في الغرب. إضافةً الى هذا، فقد عاشوا داخلَ كَماشةٍ بين دولتين عظيمتين متعاديتين إضطهدتاهم بالمظالم وأرهقتاهم بالضرائب. وممّا زاد الطينَ بِلَّةً على مسيحيي وادي الرافدين إتهامُهم من قِبَلِ المحتلِّ الفارسيِّ الزارديشتيِّ بالتجسس لِصالح البيزنطيين الرومان، فأضطُهدُوا إضطهاداً مضاعفاً لِسنينٍ متواصلةٍ خاصةً أثناء حُكْمِ الملكِ الفارسيِّ شابور الثاني

لاقى مسيحيو الشرق الأوسطِ المهاجمين العرب بالترحابِ والبهجة. إستقبلوهم كعربٍ وليس كحملةٍ دينٍ جديد. إذ نظروا اليهم كقومٍ ساميينَ تربطُهم بهم روابطٌ قريبي، وذوي لغةٍ لها أواصرٌ بلغتهم الآرامية.

وقد تصوّر مسيحيو ذلك الزمنِ أن المهاجمين جاؤوهم محررينَ من مظالمِ المحتلين. لكن سرعانَ ما أدركوا حقيقةً أن لا يُرجى تحريرٌ على أيادي الغزاةٍ مهما كانوا. إذ شرعَ المهاجمون مباشرةً، بعد إنتصارِهِم بتبني إستراتيجياتٍ لِسياسةٍ تؤوّلُ الى تحويلِ أهلِ البلادِ الى الدينِ الجديدِ بِشَتَّى الأساليبِ الإستعبادية التي تكلمنا عنها قبلَ قليل. فشعر المسيحيون بإحباطٍ شديدٍ لأنهم خذِلوا لِمساندتِهِم المهاجمين.

مَنْ خذَلَهُمْ؟

من بين أعتقاداتِ المؤمنين بِوجودِ الله، أنه لا يحدثُ أيُّ شيءٍ إلا بِإرادتِهِ وحكمتِهِ. المرضُ عقابٌ من الله، والصحةُ بركةٌ من الله، و النجاةُ نعمةٌ من الله، والفتنُ مُقاصصةٌ من الله!!!. ومن المؤكّد أن الإنتصارَ في الحربِ دليلٌ رضا الله على المنتصرين. وبالطبع أن الخذلانَ إشارةٌ لغضبه.

مِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ الْأَسَالِيبَ الَّتِي إِتْبَعَهَا الْمُحْتَلُونَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ تَسْتَفْزُ أَوْلَئِكَ الْمَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ صَمَدُوا سَيُوفَ الْإِذْلَالِ وَالتَّهْمِيشِ بِأَنَّ يُسَائِلُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلْتُ اللَّهُ يَتْرُكُهُمْ تَحْتَ رَحْمَةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ بِجَمِيعِ الْوَسَائِلِ الْمُتَاحَةِ لَهُمْ تَبْدِيلَ دِينِهِمُ الْمَسِيحِيِّ. فَأَخَذْتُ تَتَوَارَدُهُمْ طَوَالَ قَرْنَيْنِ أَفْكَارٌ وَمَسَاءَلَاتٌ لِأَنْفُسِهِمْ عَلَى نَمَطٍ مَا يَلِي

- أَلَسْنَا مُؤْمِنِينَ بِمَا يَكْفِي؟
- لَا بَدَأُ أَنَّ هُنَاكَ حِكْمَةً إِلَهِيَّةً وَرَاءَ كُلِّ ذَلِكَ.
- رَبَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ إِشْعَارَنَا بِمَعَانَاةِ الْيَهُودِ، مِنْ مِظَالِنَا وَإِذْلَالِنَا لَهُمْ.
- وَالْآنَ نَعْمَلُ بِالْمِثْلِ، نُدَلُّ وَنُهَمِّشُ عَلَى أَيَادِي الْمُسْلِمِينَ
- لَكِنْ لِمَاذَا إِضْطَهَدَ الْمَسِيحِيُّونَ الْيَهُودَ؟
- أَلَيْسَ لِأَنَّهُمْ صَلَبُوا يَسُوعَ الْمَسِيحَ؟
- هَلْ مِنْ الْعَدْلِ تَحْمِيلُ جَمِيعِ الْيَهُودِ وَزَرَ جَرِيمَةِ أَسْلَافِهِمْ؟
- كَيْفَ نُمَيِّزُ بَيْنَ مَا هُوَ الْعَدْلُ وَمَا هُوَ لَيْسَ عَدْلًا؟
- مَنْ نَحْنُ لِنَتَطَاوَلَ عَلَى تَعَالِيمِ الْكَنِيسَةِ؟
- لَكِنْ اللَّهُ نَفْسَهُ حَمَلَ خَطِيئَةَ آدَمَ وَحَوَاءَ عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ.

منير: أَشْكُرُكَ دَرِيمُونَ عَلَى الْإِسْتِجَابَةِ لِطَلْبِي بِالْإِسْتِرْسَالِ. قَدْ أَدْرَكْتُ الْآنَ سَبَبَ تَسْمِيَتِكَ "سَيْفَ الْإِهْتِرَازِ" سَيْفًا. لِأَنَّ الْإِهْتِرَازَ بِالْيَقِينِ الدِّينِيِّ

سيزدادُ سعةً وشدةً مع مزيدٍ من النجاحات العسكرية وغيرِ العسكرية للدولة الإسلامية. و عندئذ سيدركُ مسيحيو ذلك العصرِ في نهاية المطاف أن الله الذي يؤمنون بوجوده والذي يتشبهون به ليساعدَهم على المسلمين، سوف لن يساعداً أحداً (كان قادراً أم لم يكن) فيجدون أنفسهم في مفترق الطرق .

نعم، كان مسيحيو العصورِ الممتدة من القرنِ الثامن الى منتصفِ التاسع، يتوقعون، بإيمانٍ مبنٍ على أُسسِ عقائديهم، حتميةً مُجانبيةً الله لهم في إنقاذهم. من ظلم المسلمين. ومن المرجح أن رجال الدين كانوا يعملون على إنعاشِ ذاكرةِ رعاياهم بقربِ تحققِ نبوءةِ المسيح بِمجيئه الثاني، ويُطمئنونهم أنه سيأخذُ الأمورَ على عاتقه وينصرُ المؤمنين بِطريقته الإلهية.

ومن جهةٍ أُخرى، كانت المؤشّراتُ جميعها تُشيرُ الى التقدمِ المطردِ للدولة الإسلامية عسكرياً وإقتصادياً وإجتماعياً، بحيث أن العاصمةَ بغدادَ غدت مغناطيساً يجذبُ، من شتى أنحاءِ العالمِ، علماءً وفلاسفةً وأدباءً وأطباءً ومترجمين.

منذُ ذلك العصرِ، إستبان للمسيحيين حقيقةً أن الدولة الإسلامية باقية، وعدم وجودِ في المدى المنظورِ أيِّ مؤشّرٍ على وهنها. وإنبهتوا بِالواقعِ الذي كان الإسلامُ يتركه على نفوسِ معتنقيه من مجوسِ وهندرسِ وزاردشتانيين. ومن جهةٍ أُخرى طالَ إنتظارُهم للمجيءِ الثاني للمسيح، فأخذَ الواقعُ كما هو، يتجسّدُ أمامهم وبدأت أحلامهم بالخباءِ، والضبَابُ العقائديّ بِالزوالِ، وإيمانُ كثيرٍ منهم بِالفتورِ. . وتحولتْ إهتزازاتهم الإيمانيةُ الى شكوكٍ ووساوسَ.

منير: إسمح لي أن أقطعك كي أسألك ” هل أن المعلومات التي تكلمت عنها حول فتور إيمان

المسيحيين بعقائدهم وتحول الإهتزازات الإيمانية عندهم الى شكوك ووساوس، هي مجرد فرضية من عندك أم هي موثقة تاريخياً؟“ .

نعم، هي فرضية من عندي. إن الفرضيات لا تعني تأملات فارغة. إذ ينبغي أن يفهم أن التصور عما يحدث في بواطن النفوس لا يمكن أن يكون سوى فرضية. ويجب أن يفهم أيضاً أن تفسير أي ظاهرة علمية أو إقتصادية أو إجتماعية أو نفسانية لا بد أن يؤسس على فرضيات. نظرية الجاذبية، على سبيل المثال، مبنية على فرضيات لتفسير سقوط الأجسام، ودوران الأرض حول الشمس فرضية لتفسير الفصول الأربعة.

أما الفرضية التي نحن بصددنا فتهدف الى تفسير التناقص المستمر لمسيحي الشرق الأوسط في عصر تعاظم الدولة العباسية. وتستند فرضيتنا على الدراسات حول التأثير النفسي الذي تتركه الإنهزامات في الحروب. ولا تهدف، كما قد يتصور البعض، الى الإدعاء بأن مسيحيي ذلك العصر كانوا ضعيفي الإيمان بدينهم.

والآن دعنا نعود الى الى إستئناف موضوعنا الرئيسي.

قلت قبل قليل إن الواقع كما هو، أخذ يتجسد أمامهم وبدأت أحلامهم بالخباء، والضباب العقائدي بالزوال، وإيمان كثير منهم بالفتور، وتحولت إهتزازاتهم الإيمانية الى شكوك ووساوس مثل ما يأتي:

— إذا صدقت تعاليم الكنيسة بأن المسيح قد أرسل خصيصاً لفداء البشر من الخطيئة الأصلية الموروثة من جدينا الأكبرين، فتقع مسؤولية صلبه على من أرسله مخلصاً البشر من تلك الخطيئة.

— نحن نؤمن بإله واحد. لكن رغم وحدانيته هو ثلاثي الأقانيم، ويصرف النظر عن أقانيمه الثلاثة، هو

واحد . وعلينا الإيمان بهذه العقيدة على الرغم من صعوبة هضمها .

— من الجهة الأخرى، يُؤمن المسلمون بإله واحد لا شريك له . الوجدانية الخالصة أسهل "هضمًا" على العقل من عقيدة التثليث .

— يا تُرى، هل أن الله يعاقبنا لأننا أشركنا

— مريم حبلت من أُنوم روح القدس فولدت يسوع . هذا الإنسان المولود عَلِمَ وبشَّرَ ووَعظَ وقيل إنه أجرى معجزات وإدعى (أو ادَّعى) أنه إله . أمّا محمد فلم يدع سوى أنه بشرٌ مرسلٌ من الله .

— لكن يسوع حين أُعتقل وأُهين لم يُحرِّك ساكنًا بمعجزةٍ يخلصُ بها نفسه ويفحمُ معتقليه .

على الرغم من محاولات المسيحيين الواعية كبح تلك الشكوك وأمثالها لكنهم لم ينجحوا . إذ إستحوذت على أفكارهم تمامًا . ومع مرور الزمن إشتدت وتآثرها، فصارت تتقفر تلقائياً الى أذهانهم .

هنالك عاملٌ آخر، إضافةً الى عامل الإنبهار بالدولة الإسلامية، هو إمتلاك الدين الإسلامي نوعاً من الصلابة التي تُمسكُ معتنقيه على البقاء به . إنني لا أقصدُ تلك التعليمات المعروفة لدى الجميع التي بموجبها يُعقابُ المرتدُّ عن الإسلام بالموت . إنما أقصدُ ظاهرةً أن كثيراً من الذين يدخلون الإسلام تخلصاً من الجزية أو أملاً في الحصول على منصبٍ رفيع يتصرفون عند بداية الأمر، في أوساط أقربائهم وأصدقائهم ومعارفهم أنهم مجرد متصنعين ومنتظاهرين بالأسلمة لكسبِ بعضِ الفوائد لا أكثر ولا أقل . لكن نجدُهم، بعد مضي زمنٍ كافٍ، إن لم يتحوَّلوا هم بالذات، فإن أبناءهم وأحفادهم يتحولون الى مسلمين بكل معنى الكلمة فيؤدون جميع فرائض الدين الإسلامي . إضافةً الى ذلك يوجّه كثيرٌ منهم إنتقاداتٍ لاذعةً عن

عقائدَ معارفهم من المسيحيين ويدعونهم صراحةً الى الإسلام.
وكأنني أسمع الآن صدى تهازئهم من المسيحيين فيقولون بسخرية:

— كيف تتوقعون أيها المسيحيون من السيد المسيح
تخليصكم من الإحتلال وقد عجزَ هو عن إنقاذ نفسه؟
نحن نعرفُ أنكم سوفَ تردونَ بقولكم إن المسيحَ -
لأنه إله يعلمُ مسبقاً أنه سيُجري معجزةَ المعجزاتِ
بقيامته فضحَى بنفسه طوعاً.
ثم يردفونَ قائلين:

— نتفق معكم بأن قيامةَ المسيح من الموتِ أعظمُ معجزةً
فيما لو حدثتُ فعلاً. لكن لن يُوقفَ حدوثها
الفعلي تساؤلاتٍ من له فكرٌ متفتح. إذ أنه من دون
ريبٍ يتساءلُ:

”ما الحكمةُ من هذا السيناريو
الملتوي المتعرج، ولادةٌ إعجازيةٌ،
إعتقالٌ وإهاناتٌ وصلبٌ وموتٌ
ودفنٌ ثم تتبعه معجزةُ المعجزاتِ
بالقيامة؟“

— إذا كان يسوعُ، كما تعتقدون، إلهاً حقاً، ألم يكنْ
في قدرته الإلهية غير المنتهية تخليصَ نفسه مباشرةً
وإفحامَ معتقليه دون لفٍ ودورانٍ؟

يكادُ من المؤكِّدِ أن أفكاراً وتساؤلاتٍ من أمثالِ هذه كانت تجولُ في
أذهانٍ كثيرٍ من المسيحيين أنفسهم. ولكن تلك الأفكارَ والتساؤلاتِ -
عندما تحولتُ الى أصواتٍ صادرةً من حناجرِ معارفهم الذين
كانوا مسيحيين قبل إعتناقهم الإسلام - صارتْ أشدَّ وقعاً وتأثيراً
عليهم وربما أصابتهم ”بصداعٍ“ فكري.

وحين إستفاق بعضهم من دوَّارهم (والإستفاقةُ قد تستغرقُ عشراتِ

(السنين) - يُرَجَّحُ - أَنْ تَوْصَلَ معظمهم الى الحقيقة الآتية:
 سَيَّانُ إِنْ وُجِدَ اللهُ أَمْ لَمْ يَنُوجِدْ، وَإِنْ كَانَ يَسُوعُ إِلَهًا أَوْ
 لَمْ يَكُنْ، وَإِنْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ لَمْ يَقُمْ، وَإِنْ
 كَانَ مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللهِ أَوْ لَمْ يَكُنْ، وَإِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مُنْزَلًا أَوْ
 لَمْ يَكُنْ، فَيَحِلُّوْا لِلْمُنْتَصِرِينَ الْإِدْعَاءَ أَنَّ اللهُ مُؤَاوِرٌ لَهُمْ وَأَنْ
 إِنْتَصَارَاتِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ دِينِهِمْ وَرِضَاهِ عَنْهُمْ.
 غَيْرَ أَنَّ اللهُ، إِنْ وُجِدَ، لَا يَنْصُرُ إِلَّا مَنْ إِمْتَلَكَ مِنَ الْأَعْتَدَةِ
 أَشَدَّهَا، وَمَنْ إِغْتَنَمَ مِنَ الْفُرْصِ أَفْضَلَهَا، وَمَنْ رَسَمَ مِنَ
 الْإِسْتِرَاتِيجِيَّاتِ أَوْفَقَهَا. أَيُّ أَنَّ اللهُ إِنْ وُجِدَ فَهُوَ يَتَصَرَّفُ
 كَأَنَّهُ لَمْ يَنُوجِدْ!!!

وممَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ أَدْرَكَ مِائِيْنَ مِنْ بَعْضِ الْمَسِيحِيِّينَ عِنْدَمَا
 تَوَصَّلُوا إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِأَنَّ لَا جَدْوَى مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ
 لِتَخْلِيصِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. عِنْدئذٍ غَدَتْ نَظَرَتُهُمْ إِلَى الْأُمُورِ نَظْرَةً
 وَاقِعِيَّةً، أَوْ - حَسَبَ التَّعْبِيرِ الْفَلَسْفِيِّ الْحَدِيثِ - نَظْرَةً بَرِغْمَاتِيَّةً.
 هَلْ نَخَسِرُ شَيْئًا لَوْ إِنْتَقَلْنَا إِلَى الْجَانِبِ الْمُنْتَصِرِ ذِي الْمَجْدِ وَالْأُبْهَةِ
 وَالْفَخَامَةِ؟ الْقُرْآنُ بَدَلًا مِنَ الْإِنْجِيلِ، الذَّهَابُ لِلصَّلَاةِ إِلَى الْمَسْجِدِ أَيَّامَ
 الْجُمُعِ، بَدَلًا مِنَ الصَّلَاةِ فِي الْكَنِيسَةِ أَيَّامَ الْأَحَدِ. إِلَاهُهُمْ هُوَ إِلَاهُنَا
 لَكِنَّا أَقَلُّ تَعْقِيدًا.

لا، ... لَنْ نَخَسِرَ شَيْئًا. بَلْ بِالْعَكْسِ سَنَرْبِحُ. نَعَمْ سَنَرْبِحُ تَخْلَصْنَا
 مِنْ مِظَالِمَ كَثِيرَةٍ. صَحِيحٌ، إِنْ مِظَالِمَ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَتْ بِقَلِيلَةٍ، اللهُ لَمْ
 يَسَاعِدْنَا. وَلَيْسَ بِوَسْعِنَا التَّخْلَصَ مِنْهَا إِلَّا بِالْإِنْتِقَالِ إِلَى الْجَانِبِ
 الْمُنْتَصِرِ. عِنْدئذٍ نَنَالُ مَكَانَةً مَرْمُوقَةً فِي الْمَجْتَمَعِ الْعَالَمِيِّ وَنَحْنُ
 مَرْفُوعِي الرُّؤُوسِ.

وَأَخَذَتْ تَنْتَقِلُ فَعَلًا أَفْوَاجٌ مِنَ مَسِيحِيِّ ذَلِكِ الْعَصْرِ وَإِنْصَهَرَتْ
 بِالْإِسْلَامِ. بِفِعْلِ عَوَامِلَ عَدِيدَةٍ. نَعَمْ، أَحَدُهَا السِّيفُ لَكِنَّا لَمْ يَكُنْ
 أَكْثَرُهَا مَعُوَّلًا عَلَيْهِ وَلَا أْبْلَغُهَا كِفَاءَةً.

عزيري منير، هل تذكرُ تساؤلكَ الافتتاحي: "هل تبخروا؟"

لا لم يتبخروا. البخارُ يتطايرُ في الجو.

المسيحيون لم يتطايروا إنما إنصهرَ معظمُهم في بوتقةِ المجتمعِ الإسلامي، مثلما ينصهرُ في هذه الأيامِ ملايينُ المهاجرين الى الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ لكونها أكثرُ الدولِ قوةً وتقدماً في عالمِ اليومِ رغمَ كُثُرِ سيئاتها السياسية.

لم يبقَ الآنَ مِمَّنْ أبى من المسيحيين الإنصهارَ سوى جيوبُ هنا وهناك في الشرقِ الأوسط، وهي جيوبُ أخذةُ بالإنكماشِ والتقلُّصِ بإطرادٍ تحت تأثيرِ تلكِ العواملِ نفسها وعاملِ الهجرةِ المستجدِّ. فأخذتْ ثقافاتُ الحضاراتِ الكلدانيةِ والآشوريةِ من لغاتٍ وعاداتٍ وتقاليدٍ بالإنحسارِ، وتحلَّ محلَّها ثقافةُ حضارةٍ تحملُ بعضَ قيمِ الصحراءِ والبدوةِ.

منير: بناءً على ما أشرتني المعلوماتُ المفيدةُ التي

أرشدتني بها أُخمنُ نسبةَ المسيحيين الذين إعتنقوا

الإسلامَ بسيفِ الإذلالِ والتهميشِ بحوالي 50٪،

وبسيفِ الإهتزازِ الإيماني بـ 30٪، وبالسيفِ البتَّارِ بـ

5٪ والجيوبُ المتبقية 15٪.

لا، لا أتفقُ معك ليس بسببِ خطأٍ في تخميناتِكَ بل لأن تخميناتِكَ عديمةُ المعنى. إن العواملُ التي تكلمتُ عنها ديناميةٌ في طبيعتها.

هي عواملٌ يتغيرُ شدَّةُ تأثيرها مع سياسةِ الدولةِ ومع الزمنِ الذي طَالَ أربعةَ عشرَ قرناً. كل ما أستطيعُ قوله بثقةٍ إن المعاصرين من

المسيحيين يُصوِّرون الأمورَ بتضخيمِ عاملِ السيفِ البتَّارِ وتهوينِ عاملِ سيفِ الإهتزازِ، والمسلمون يُصوِّرونها تماماً بالعكس.

مُلْحَقٌ

من المرجح أن يُقَرَّ المؤمنون بوجود ذلك الإله الذي إدعى محمدٌ أنه مرسلٌ من قبله قد أحسنَ إختيارَ الحقبة الزمنية المناسبة ليقذفَ على البشرِ بفيروس دينٍ جديدٍ يحملُ قِيمَ وتقاليدَ البداوة . إذ كانت فيها الإمبراطوريتان البيزنطيةُ والفارسيةُ العُظُمَتان آنذاك منهكتينِ عسكرياً وضعيفتينِ إقتصادياً من جرّاءِ حروبٍ متواصلةٍ بينهما لعشراتِ السنين ، وفي الوقتِ نفسه ، كان المسيحيونَ ، منقسمينَ الى طوائفٍ مذهبيةٍ متناحرةٍ ومتعاديةٍ .

دعنا الآن نتلمسُ الظروفَ التي سادتْ خلالَ حقبةٍ ما يُسمى الفتوحاتُ الإسلاميةُ في أوساطِ ملايينٍ من المسيحيين (وغير المسيحيين) في الشرقِ الأوسطِ .

هَبَّتْ عاصفةٌ من حوافرِ خيولِ جيوشِ مندفعةٍ من صحراءِ الجزيرةِ العربيةِ محمّلةٌ بفيروسِ الدينِ الجديدِ . وشقَّتْ طريقها بزخمٍ عنيفٍ بين الإمبراطوريتين . فإِنْهَارَتْ الإمبراطوريةُ الفارسيةُ تماماً وخسرتْ البيزنطيةُ مناطقَ شاسعةً كانت تحت سيطرتها .

تقتضي الموضوعيةُ التنويهَ الى المساندةِ التي لقيتها الحملاتُ العسكريةُ لِحاملي الفيروسِ الجديدِ من قِبَلِ مسيحيي الشرقِ الأوسطِ . ومن الجديرِ بالذكرِ أن مسيحيي سوريا ساندوا العربَ ضدَّ مسيحيي بيزنطية .

يُقَسَّمُ بعضُ المؤرخين فترةَ الحكمِ العربيِّ الإسلاميِّ - فيما يتعلقُ بإعتناقِ الأَقوامِ من خارجِ الجزيرةِ العربيةِ الدينَ الإسلاميَّ الى حَقبَتينِ. الأولى فترةُ حَكمِ الخلفاءِ الراشدينِ والأُمويينَ، والثانيةُ فترةُ الحَكمِ العباسيِّ .

لم يَسعَ العربُ خلالَ الحَقبَةِ الأولى من إنتصاراتِهِم الى تحويلِ "أهلِ الكُتاب" عن أديانِهِم لا بالسيفِ ولا بِغيرِها . إذ نأى الغزاةُ بأنفسِهِم بعنجهيةٍ وتعالٍ عن الأَقوامِ المَغلوبةِ، لا يتخالطونَ معهم ولا يتزاوجونَ منهم ولا يحاولونَ تعلُّمَ لغاتِهِم وقراءةِ آدابِهِم، لأنَّهُم يشعرونَ أن نبيَّهُم خاتمُ الأنبياءِ وقرآنُهُم منزلٌ من اللهِ مباشرةً مصححاً تحريفاتِ الكُتبِ التي يُقدِّسُها أهلُ الكُتابِ . وأن إنتصاراتِهِم الخاطفةِ المتلاحقةِ أكبرُ دليلٍ على صحَّةِ دينِهِم .

في هذه الحَقبَةِ، لم يكنِ نشرُ الدينِ الإسلاميِّ من أهمِّ أولوياتِهِم . إنما السعيُّ الى مزيدٍ من التوسُّعِ الإقليميِّ وحصدُ غنائمٍ وفوائدٍ إقتصاديةٍ من المناطقِ المحتلةِ وجبيُّ الجزيةِ من المَغلوبينَ غيرِ العربِ . وحتَّى لم يُشجَّعَ غيرُ العربِ على إعتناقِ الإسلامِ كي يُطالبوا بِدفعِ الجزيةِ، وكان المَعتنِقُ منهم يُعاملُ من قِبَلِ عُليَّةِ القومِ العربِ كفردٍ من رعايا الدرجةِ الثانيةِ .

بِإختصارٍ، كانت تلك الحَقبَةُ متسمةً بِتسامحٍ دينيِّ الى حدِّ ما، إذ لم تشوبُها أعمالٌ تهديمٌ دُورِ عباداتِ الأديانِ الأخرى ولا القتلِ أو السجنِ لِمَن يرفضُ إعتناقَ الإسلامِ، لكنها كانت متصفةً بِإضطهادٍ إقتصاديٍّ مرهقٍ وإجتماعيٍّ مُذِلٍّ لِغيرِ المسلمينِ . وإذا كانت قد حدثتْ أعمالٌ هجوميَّةٌ على مساكنِ ودُورِ عبادَةِ المسيحيينَ واليهودِ فلم تكنْ تَهدِفُ الى نشرِ الدينِ الإسلاميِّ إنما كانت على أغلبِ الحالاتِ من عاداتِ وتقاليدِ

البدو، غرضها السلب والنهب (الفرهود كما يُقال في العامية العراقية).

لا يعني هذا الكلامَ عدمَ حدوثِ حالاتٍ على الإطلاقِ لإستشهادِ بعضِ المسيحيين واليهود بحدِّ السيف، بل أن الراغبَ بِنَبِّشِ كَتَبِ ووثائقِ التاريخِ من المَرَجِّحِ أن يجدَ بعضَ وقائعٍ على حدوثِها. إنما يعني أنه لم تكن هنالك سياسةٌ منمَّطةٌ ومبرمجةٌ لأسلمةِ المغلوبِ عليهم بالقوة.

جاءت الحقةُ الثانيةُ بعد أن وطَّدت الجيوشُ العربيةُ سيطرتها على المناطقِ الشاسعةِ المحتلةِ وإنتصارِ العباسيين على الأمويين وإنتقالِ عاصمةِ الدولةِ العربيةِ من دمشق إلى بغدادِ الأقربِ إلى بلادِ فارسٍ ممَّا يدلُّ على تنامي النفوذِ الفارسي.

تحوّلت الدولةُ العباسيةُ تحوُّلاً جذرياً من كونها ذات توجُّهٍ عربيٍّ إلى توجُّهٍ إسلاميٍّ. فبعد أن كان معتنقو الدين الإسلاميِّ من غيرِ العربِ رعايا من الدرجةِ الثانيةِ غدوا فيها مواطنينَ محترمينَ. كما طرأ تحوُّلٌ في نمطِ وسياسةِ الحكمِ.

ترعَّ الخلفاءُ العباسيونَ عروشاً مرصعةً بالجواهرِ ونظروا من عليائهم إلى إمبراطوريتهم المتراميةِ الأطرافِ بغطرسةٍ، وكان يجلسُ على قريتهم الوزيرُ⁷⁷ الذي يديرُ البنى الإداريةَ ويعملُ على جمعِ الضرائبِ من الولاياتِ الدانيةِ والنائيةِ، ويسعى إلى المحافظةِ على النظامِ وإحترامِ وتطبيقِ القانونِ على إمتدادِ البلادِ وعرضها فيؤفِّقُ للعباسيينَ مطالبَ عيشهم الرغيدِ، ذلك العيشُ الذي تعكسه كاركترياً قصصُ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ.

كان العصرُ العباسيُّ عصراً ذهبياً.

لم يكتفِ العباسيون بتوطيد حكمهم على البلدان المحتلة وبتشييد لأنفسهم مساجد ضخمة وقصوراً فخمة، إنما إهتموا أيضاً بإجراء إصلاحات داخلية مفيدة لرعاياهم كإنشاء المدارس والمكتبات والمستشفيات (التي كانت أحسن المستشفيات في عالم ذلك العصر). كما شجّعوا التجارة بين المحافظات المترامية الأطراف ونظّموا البريد وشقّوا الطرق، ونفّذوا إصلاحات زراعية وأسسوا ديواناً للإشراف على الأعمال الإنشائية. فعدت الدولة العباسية أكثر دول عالم ذلك الزمن تقدماً.

ولم تكن بغداد مجرد عاصمة الدولة بل صارت مغناطيساً يجذب من شتى أنحاء العالم علماء وفلاسفة وأدباء وأطباء و مترجمين. وهؤلاء وأمثالهم بدورهم إنجذبوا إليها كي يستفيدوا مما تُسبغ عليهم الدولة من عطايا مادية ومعنوية، وفي الوقت نفسه يُتاح لهم إثراء العالم بنتائجهم.

إن من أهم ما يهمننا في هذا المقال - كما قلنا سابقاً - تحوّل الدولة من كونها بدوية - عربية إلى إسلامية - متحضرة تُشجّع إعتراف الإسلام.

فلم يعدّ الدين الإسلامي دين أقلية عرب متعالين ومتفاخرين بانتصاراتهم بل أصبح ديناً عالمياً يسعى إلى الدخول إليه آلاف من القارات الثلاث. وحين كان يُعتبر معتنقوه مواطنين من الدرجة الثانية عند الأمويين، غدوا محترمين عند العباسيين.

حُجَجُ مَزْعُومَةٍ عَلَى وُجُودِ خَالِقِ الْكَوْنِ

مُغَالَطَاتُ مَنْطِقِيَّةٌ

الإِيمَانُ الدِّينِي

مَبْدَأُ الْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ إِدَّعَى

أَلْفُ إِلَهٍ وَ إِلَهٍ

الْحُجَّةُ السَّبَبِيَّةُ

الْحُجَّةُ الْوُجُودِيَّةُ

الْحُجَّةُ مِنَ التَّصَمُّيمِ الذَّكِّيِّ

الْحُجَّةُ مِنْ دِقَّةِ التَّنْغِيمِ لِثَوَابِ الْكَوْنِ

الْحُجَّةُ مِنَ التَّنْعِيدِ الَّلَاإِخْتِرَالِي

الْحُجَّةُ مِنْ ثَغْرَاتِ فِي الْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ

الْحُجَّةُ مِنَ الْإِنْفِجَارِ الْعَظِيمِ

الْحُجَّةُ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ

الْحُجَّةُ مِنَ الْإِسْتِجَابَةِ إِلَى الصَّلَاةِ

الْحُجَّةُ مِنَ الْأَخْلَاقِ

الْمَقَامَرَةُ الْيَاسْكَالِيَّةُ

مُغَالَطَاتُ مَنْطِقِيَّةٌ

منير: أنتقلُ بأسئلتِي إلى البراهينِ المزعومةِ على وجودِ خالقٍ للكونِ .
لكن أرغبُ، قبلَ البدءِ، إستيضاحَ أمرٍ حيرني منذ كنتُ أدرسُ اللاهوتَ في لبنان . كانَ أحدُ المقرراتِ كتابَ Apologetics باللغة العربية، كالذي ذكرتُ عنه سابقاً يهدفُ إلى البرهنةِ على وجودِ الخالقِ . ورُغمَ عدمِ إقتناعي بِالبراهينِ المعروضةِ فيه، إلا أنني لم أتمكنُ من تحديدِ مواضعِ الخللِ فيها، إذ كنتُ أشعرُ كأنها تمرُّ من بينِ أصابعي دونَ تمكُّني الإمساكِ بها .
سؤالِي : لماذا وكيف حدثَ ذلكُ ؟

إن تحديدَ مَوَاطِنِ الخللِ فيما يُزعمُ أنها براهينُ على وجودِ خالقٍ للكونِ، يتطلبُ تمريناً وممارسةً في المنطقِ . إذ غالباً يقعُ المرءُ في مطبِّ مغالطةٍ منطقيَّةٍ من دونِ أن يدركَ ذلكَ .

لا أعتقدُ أنه خاف عليك أن أيِّ برهانٍ على عبارةٍ (في أيِّ موضوعٍ مهما كان) هو سلسلةٌ من عباراتٍ تنتهي بِتلكِ العبارةِ، مرتبةً بِطريقةٍ بحيث تُستنتجُ العباراتُ المتأخرةُ من سابقتها إعتقاداً على قوانينِ المنطقِ .
يُحتَمُ الترتيبُ التسلسليُّ وجودَ

عبارةٌ أو أكثرٌ لا تُرتكزُ على أيِّ عبارةٍ لكن يُرتكزُ عليها في الإستنتاجِ .

سوف أطلقُ على أمثالِ هذه العباراتِ مصطلحَ "ركائزُ أولية"78 .

البراهين بُنِيَّ كَالْعِمَارَاتِ. الْعِمَارَاتُ تُشَيَّدُ بِمَوَادِّ إِنْشَائِيَّةٍ. كَذَلِكَ، الْبِرَاهِينُ بُنِيٌّ لَكِنْ عَلَى مَسْتَوَى الْفِكْرِ مُشَيَّدَةٌ بِعِبَارَاتٍ. الْعِمَارَاتُ تَسْتَنْدُ عَلَى أُسُسٍ تَرْتَكِزُ عَلَيْهَا. كَذَلِكَ الْبِرَاهِينُ تَسْتَنْدُ عَلَى رِكَائِزِهَا الْأُولِيَّةِ. وَكَيْ لَا تَنْهَارَ عِمَارَةٌ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْأُسُسُ الْمُرْتَكِزَةُ عَلَيْهَا مَتِينَةً. كَذَلِكَ كُلُّ بَرَهَانٍ يَجِبُ أَنْ تُعْتَبَرَ رِكَائِزُهُ الْأُولِيَّةُ صَادِقَةً ذَاتِيًّا لَا يُشَكُّ فِي صَدَقِهَا وَإِلَّا بَطُلَ الْبَرَهَانُ.

منير: من المعلوم توافق النظريات والمواصفات التي يعولُّ المهندسون عليها في حساب متانة الأُسُسِ الضرورية لتشييد الأبنية.

لكن كيف من الممكن معرفة أن تكون عبارة صادقة ذاتياً لا يُشكُّ بصدقها؟

يُقْتَبَسُ الرِّكَائِزُ الْأُولِيَّةُ الْمُعْتَمَدَةُ عَلَيْهَا الْبِرَاهِينُ الَّتِي نَحْنُ بِصِدْقِهَا مِنْ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ، وَلِذَا تَبْدُو وَاضِحَةً كُلَّ الْوَضُوحِ. عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ الْعِبَارَةُ "لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ" الَّتِي سَأَتَنَاوَلُّهَا بِشَرْحٍ مَفْصَلٍ بَعْدَ قَلِيلٍ.

منير: توضح لي الآن مصادر الرِّكَائِزِ الْأُولِيَّةِ الَّتِي تَسْتَنْدُ عَلَيْهَا الْبِرَاهِينُ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ. لَكِنِّي مَا زَلْتُ كَالسَّابِقِ حَائِراً. لِمَاذَا لَمْ أَكُنْ مُتَمَكِّناً مِنْ مُحَدِّدِ مَوَاضِعِ الْخَلَلِ فِي الْبِرَاهِينِ الَّتِي كَانَتْ تُقَدِّمُ لَنَا فِي الْمَدْرَسَةِ الْلَاهُوتِيَّةِ، عَلَى أَنَّهَا بَرَاهِينٌ عَلَى وُجُودِ الْخَالِقِ، إِذْ كُنْتُ أَشْعُرُ - كَمَا ذَكَرْتُ سَابِقاً - أَنَّ هُنَاكَ خَلَلٌ مَا إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ قَادِراً عَلَى الْإِمْسَاكِ بِهِ.

إِنَّ السَّبَبَ فِي إِنْفِلَاتِ الْخَلَلِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِكَ يَكْمُنُ فِي إِنْزِلَاقِ وَاضِعِي تِلْكَ الْبِرَاهِينِ بِوَعِيهِمْ أَوْ مِنْ دُونِ وَعِيهِمْ فِي مَطَبِّ مَغَالِطَةٍ أَوْ

أكثر التي يصعب إكتشاف أنها مغالطة.
ومن المغالطات التي يسهل الإنزلاق بها مغالطة أُسميها:
”تجاهل مدى التطبيق“.

لا توجد عبارة ذات صدقٍ مطلق. إذ لابد أن يكون لكل عبارة مهما بدت واضحةً، حدودٌ توطُرُ مصداقيتها بحيث تفقد العبارة صدقها وحتى معناها في خارج حدودها.
ولهذا نقول عن مناقشٍ إنه إنزلق في مطبِّ مغالطة ”تجاهل مدى التطبيق“ إذا إعتد في نقاشه على عبارة في مجال خارج حدود مصداقيتها.

ليس للعبارات وحدها حدودٌ، إنما هنالك حدودٌ أو قيودٌ على جميع الأمور. وفيما يلي أمثلة توضيحية:

- أساسُ بناية ذات طابقين لا تصلح موادّه الإنشائية ولا أبعاده ليكون أساساً لبناية ذات عشر طوابق. وأساسٌ مثل هذه البناية لا يصلح مطلقاً أن يكون أساساً لناطقةٍ سحاب.
- الأدوية التي ثبتت فائدتها للبالغين، ليست كلها مفيدة للأطفال، ربما بعضها مضر.
- المعلبات يُؤشّر عليها تاريخ نفاذ صلاحية محتوياتها للإستعمال، تكون بعده غير صالحة.

منير: إسمح لي، دكتور ريمون، أن أقول إنني

ألاحظ أنك تُكثّر من الأمثلة الواضحة.

ملاحظتك صائبة. لا شك في أن الأمثلة واضحة، إلا أن هدفي في

الإكثارِ منها تبيانُ الأسبابِ التي جعلتُ كثيرين يعجزون عن الإمساكِ
بِخَللِ البراهين التي تكلمتُ عنها.

يتقهُمُ المهندسون وغيرُ المهندسين، في حالة إنهيارِ بنايةٍ ذاتِ عشرِ
طوابقٍ أو أكثر، سببَ إنهيارِها هو أنها أُنشِئتُ على أساسٍ يصلحُ
لبنايةٍ ذاتِ طابقين فقط. ويُدركُ عمومُ الناسِ سببَ تفاقمِ المرضِ على
طفلٍ أُعطيَ جرعةً دواءٍ مخصصٍ للبالغين. ويُعزى سببُ إصابةِ أفرادِ
عائلةٍ بالتسممِ الى تناولهم طعاماً معلباً.

أي كان الأساسُ المنشأُ عليه البنايةُ خارجَ صلاحيتهِ لها فانهارتُ.
وكان الدواءُ المعطى خارجَ صلاحيةِ استعمالِه فتفاقمَ مرضُ الطفلِ.
وكان تناولُ أفرادِ العائلةِ الطعامَ المعلبَ بعد تاريخِ نفاذِ صلاحيتهِ
فحدثَ التسممُ.

إن هدفَ تأكيدي على هذه الأمورِ الواضحةِ والمفهومةِ، هو لفتُ
الانتباهِ الى أن ما يُدعى أنها براهينُ، تغدو فاسدةً منطقياً ولا يُعولُ
عليها إذا بُنيَتْ على ركائزٍ أوليةٍ في مجالٍ خارجِ حدودِ مصداقيتها.
ونصفُ الإعتمادِ على عبارةٍ خارجِ مصداقيتها، أنه "إنزلاقٌ في مطبِّ
مغالطةٍ تجاهلِ مدى التطبيقِ".

منير: بعدَ مضي قرابةِ عشرِ سنواتٍ من تَرَكي
الدراسةِ اللاهوتيةِ، بدأتُ أدركُ السببَ في شعوري
المضربِ بِخَللِ البراهينِ المقدَّمةِ للدارسين على وجودِ
الخالق، وعدمِ قدرتي الإمساكِ بها.

بدأ الضبابُ بالإنقشاعِ، حين أدركتُ الآن أن ركائزَ
تلك البراهينِ عباراتٌ من أمثالِ "لكلِّ شيءٍ مُسببٌ"
مُطبَّقةٌ على الكونِ بأسره، وهو مجالٌ ناءٍ عن
الممارساتِ الحياتِ اليوميةِ بحيثُ من الممكنِ أن تتقوضَ
بداهُةُ العبارةِ.

أحسنَت بِذِكْرِكُ مَبْدَأَ السَّبَبِيَّةِ. لَقَدْ وَقَعَ الَّذِينَ إِعْتَمَدُوا عَلَيْهِ فِي مَحَاوِلَتِهِمْ إِثْبَاتَ وَجُودِ خَالِقٍ لِلْكَوْنِ، فِي مَطَبِّ مَغَالِطَةِ "تَجَاهُلِ مَدَى التَّطْبِيقِ".

يَجِبُ الْإِقْتِدَاءُ بِأَسَالِيبِ الْعُلُومِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ لِتَجَنُّبِ الْوُقُوعِ فِي هَذِهِ الْمَغَالِطَةِ. إِذْ يَنْبَغِي، قَبْلَ تَبَيُّنِ أَيِّ عِبَارَةٍ تَبْدُو بِدِيهِيَّةٍ بِسَبَبِ إِقْتِبَاسِهَا مِنْ خِبْرِنَا الْحَيَاتِيَّةِ الْيَوْمِيَّةِ لِتُنْخَذَ رَكِيزَةً أَوْ أُسَاساً لِالْمَنْطِقِ فِكْرِي، عَلَيْنَا التَّأَكُّدُ مِنْ وَقُوعِ مَجَالِ ذَلِكَ الْمَنْطِقِ ضَمْنَ مَجَالِ الْعِبَارَةِ، وَإِلَّا يَتَوَجَّبُ عَلَيْنَا الْبَحْثَ عَنِ تَحْوِيلِ مَنَاسِبِ لَهَا وَعَنْ قَوَانِينِ جَدِيدَةٍ مُتَوَائِمَةٍ مَعَ ذَلِكَ الْمَنْطِقِ الْفِكْرِي. كَمَا مُوَضِّحُ بِالْأَمْثَلَةِ الْآتِيَةِ:

مثال:

كُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّنَا نَحْتَاجُ، لِغَرَضِ بِنَاءِ الْمَسَاكِنِ، وَتَشْيِيدِ الْعِمَارَاتِ، وَإِقَامَةِ الْجَسُورِ، وَإِنْشَاءِ الطَّرِيقِ وَغَيْرِهَا، الِى نَظَرِيَّاتِ الْهِنْدَسَةِ الَّتِي دَرَسْنَاهَا فِي مَرَاكِلِ الدِّرَاسَةِ قَبْلَ الْجَامِعِيَّةِ. فَتَجَاهُلُ ضَمْنًا، كَرُويَّةَ الْأَرْضِ فِي حِسَابَاتِنَا. وَهُوَ تَجَاهُلٌ "حَمِيدٌ" لِأَن لَيْسَ لِكُرُويَّةِ الْأَرْضِ تَأْثِيرٌ يَذْكَرُ عَلَى تِلْكَ التَّطْبِيقَاتِ بِسَبَبِ أَنْ كَلَّا مِنْهَا مَقْصُورٌ عَلَى مَنطِقَةٍ مِنَ الصِّغَرِ كَأَنَّهَا مَسْتَوٍ مُمَاسٍ لِلْكَرَةِ الْأَرْضِيَّةِ. وَفِي الْحَقِيقَةِ، إِنْ مِنَ الْمُمْكِنِ إِدْخَالَ عَامِلِ الْكُرُويَّةِ عَلَى تِلْكَ الْحِسَابَاتِ، لَكِنِ الْإِدْخَالَ يُعْقَدُ الْمَسَائِلَ تَعْقِيدًا كَبِيرًا مِنْ دُونِ أَيِّ فَائِدَةٍ.

لَكِنِ، لَوْ إِسْتَمَرَّ الْعَامِلُونَ فِي الْمَلَاخَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْجُويَّةِ وَعِلْمَاءُ صَوَارِيخِ عَابِرَةِ الْقَارَاتِ مَعْتَمِدِينَ عَلَى هِنْدَسَةِ الْمَرَحَلَةِ الثَّانِيَّةِ وَتَجَاهَلُوا حَقِيقَةَ عَدَمِ مَلَاءِمَةِ تِلْكَ الْهِنْدَسَةِ فِي مِيَادِينِ أَعْمَالِهِمْ، لَوَقَعُوا فِي مَطَبِّ مَغَالِطَةِ تَجَاهُلِ

مدى التطبيق، ولتأهت السفن والطائرات والصواريخ في
البحار والأجواء والفضاء.

مثال:

من المعلوم أن مدى تطبيق قوانين نيوتن للحركة هو المجال
المجاور لكوكب الأرض. أي أن مداه هو منظومة المجموعة
الشمسية. أما إذا رغب العلماء دراسة مناطق في
خارجها، وحتى إذا رغبوا في دراسة المجموعة الشمسية
نفسها بدقة أكثر، فلا يعولون على القوانين النيوتنية بل
يتبنون نظرية النسبية العامة ذات المدى الأوسع مجالاً

مثال:

عندما يتضرع كثير من الناس الى الله يرفعون رؤوسهم
وأيديهم الى الأعلى أي، الى الإتجاه العلوي للموقع
الذي يقفون عليه، حيث يتصورون أن الله "يسكن"
في مكان ما في ذلك الإتجاه!!!!. وربما لا يخطر ببال
أغلبهم أن الواقفين على الجهة المعاكسة من الأرض
يتضرعون الى الله بإتجاه معاكس لكنه الأعلى بالنسبة
اليهم.

إن كروية الأرض تجعل الكلام عن الأعلى والأسفل المطلقين
عديم المعنى. إنما لكل نقطة على سطحها اتجاه علوي
وآخر سفلي خاص بها. بعبارة أخرى: الإتجاه صفة محلية
وليست شاملة ومطلقة.

مثال:

من المعلوم عند الفيزيائيين أن الجسيمات دون الذرية
كالإلكترون والبروتون تتمتع بظاهرة تمكّنها تخلل الحواجز
والتسرب الى الخارج، تُسمى "التنفق الكمومي". لو

توهمنا إنطباق الظاهرة علينا وحاولنا إختراق الجدران دون هدمها وتجاهل الأبواب دون كسرها، سوف لن نقع في مطب مغالطة "تجاهل مدى التطبيق" فحسب بل لإنكسرت أطرافنا وتهشمت جماجمنا .

منير إسمح لي بأدلو بدلوي في إعطاء مثال متطرف لمغالطة تجاهل مدى التطبيق .

أذكر أنني شاهدت صورةً كاريكاتيرية لرجل في صحراء متصبب عرقاً تحت شمسٍ لاهبة وهو موجّه خرطوماً للمياه نحو الشمس لإطفاء لهيبها، متخيلاً أن بإمكانه إطفاء لهيب الشمس بنفس أسلوب إطفاء نارٍ صغيرة، وغير مدرك أن الحرارة المزعجة لم تتأت من نارٍ مألوفة لديه . إنما هي نتيجة إندماج نووي لا تطفئه كل مياه محيطات الأرض، (هذا بغض النظر عن إستحالة إيصالها الى الشمس !!!) .

هذا المغالط يوسع في خياله أسلوب إطفاء نارٍ صغيرة الى "نار" إندماج نووي يستحيل إطفائها بالماء .

أشكرك على هذا المثال التوضيحي بالرجل الكاريكاتيري المفرط بالسذاجة. واليك مثال متطرف لكنه أقل سذاجةً، ويبين إستحالة التنبؤ بالعواقب المترتبة على تجاهل مدى التطبيق.

من المعلوم أن من الممكن – بإستعمال عددٍ من المضخات – تحويل مجرى نهرٍ أو نقل موقع بحيرةٍ صغيرةٍ من مكانٍ الى مكانٍ قريب، لسقي أراضٍ زراعيةٍ أو لأغراضٍ سياسية.

لكن هل من الممكن توسيع مدى تلك التجارب لنقل بحرٍ كالبحر الأسود مثلاً الى الصحراء الأفريقية لهدفٍ إروائها، بإستعمال جميع ما يتزافر على الأرض من مضخاتٍ عملاقة؟

ربما يكون الجواب أن من الممكن – من الناحية النظرية البحتة –

نجاحٍ مثل هذه العملية العملاقة في ضحٍّ جزئٍ صغيرٍ من مياه البحر الى الصحراء. لكن سرعانَ ما يتأثرُ المناخُ العالميُّ، فيزدادُ تبخرُ الماءِ في بعضِ المناطقِ وقد ينقصُ في أُخرى. وقد تغرقُ مناطقٌ وتتصحَّرُ أُخرى. وليس من الغريبِ إحتمالُ تزايدِ الصحراءِ الأفريقيةِ تصحراً، ولا من العجيبِ إتساعِ حوضِ البحرِ الأسودِ مُغرقاً مدناً على سواحلِهِ بسببِ إزديادِ هطولِ الأمطارِ عليه !!!.

اختصاراً:

لا يمكنُ التنبؤُ بما سيحدثُ حتَّى ولو "نجحتُ" العملية الضخمةُ جزئياً. المغزى:

ينبغي الإحتراسُ من الوقوعِ في مطبِ مغالطةِ تجاهلِ مدى التطبيقِ.

أودُّ التأكيدَ مرَّةً ثانيةً بأنني مدركٌ أنَّ هذه الأفكارَ يفهمُها ويستوعبُها عظمُ المؤمنينَ إذ أنهم — من دون شكٍ لا يعوزُهم الذكاء. لكنني لستُ متأكداً أنَّ جميعهم يستوعبونَ عواقبها. إن هُدفي من إعطاءِ أمثلةٍ بسيطةٍ هو التنبيهُ الى ضرورةِ الإحتراسِ من الوقوعِ في مطباتٍ مشابهةٍ عند تأملاتهم في أمورٍ تخصُّ إيمانهم وعقائدهم التي برُمجتُ أدمغتهم عليها منذ طفولتهم.

الآن أنتقلُ الى عَرَضِ نموذجِ عباراتٍ تُتخذُ بديهاً في حججٍ كثيرٍ من المؤمنينَ لِعدمِ آرائهم ومعتقداتهم الدينية. ومن أكثرِ تلكِ العباراتِ إنتشاراً وإعتماداً عند المؤمنينِ المقولةُ التاليةُ التي ذكرتها، يا منير:

لكلِّ شيءٍ مُسببٌ.

من الواضحِ أنها مستقرأةٌ أو مستنبطةٌ من خِبرِ الحياةِ اليوميةِ

الإعتيادية من أمثال ما يأتي:

- ما سببُ تَهَشُّمِ الزجاجة؟
تزلزلت فوق قشرِ موزٍ وإرتطمتُ بها،
فسقطتُ.
- ما سببُ وفاةِ فلان؟
كان مصاباً بسرطانِ الرئة
- ما سببُ سقوطِ الطائرة؟
أصابَ أحدَ محركاتها عطبٌ.
- ما سببُ إنقطاعِ التيارِ الكهربائي في البيت؟
عدمُ قدرةِ التيارِ تحمُّلِ المقاومةِ لكثرةِ الأجهزةِ
الكهربائية

والى آخره.

إن بساطةً هذه الخبرِ وإنبثاقها من الحياة اليومية الإعتيادية تخدعُ كثيراً من البشرِ بجعلهم يتصورونها تنطبقُ في كل الظروفِ وفي كلِّ مكانٍ وزمان.

إن مبدأً السببية، في الحقيقة، أَعْقَدُ بكثيرٍ ممَّا يتصورُ معظمُ الناس⁷⁹. إذ هنالك أنواعٌ وأشكالٌ من السببية. أُشيرُ الى نوعين منها فقط وأوضحهما بأمثلة:

السببية الدوارانية: Cyclic Causation وتسمى أيضاً المفترس والمفترس Predator-Prey.

تعيشُ ثعالبٌ وأرانبٌ في حقلٍ كبير. الثعالبُ تصطادُ الأرانبَ طعاماً لها، ممَّا يؤدي الى تناقصِ حادٍ في عددِ الأرانب. هذا

التناقصُ بدوره يُحدِثُ — بعد فترةٍ من الزمن — شحةً في طعام كافٍ للثعالِبِ، فتتضاءلُ أعدادُ الثعالِبِ. عندئذٍ تُتاحُ لِلأرانبِ فرصةٌ أكبرُ لِلبقاءِ ومن ثمَّ لِلتكاثرِ بِسرعة. فيكثرُ عددها ممَّا يُيسرُ طعاماً للثعالِبِ. وهكذا دواليك.

السببية المتسلسلة (Chain-Causation).

أُصيبَ رجلٌ بِحادِثٍ عشوائيٍّ. الذي رغمَ خطورته كان من الممكنِ إنقاذُ حياته لو أُسْعِفَ بِسرعة. أُسرعتُ زوجتهُ لِلإتصالِ بِالطبيبِ تليفونياً لكن الجهازَ لم يكنُ مشحوناً. فهرعتُ الى مخبرته من الجيران وإستغرقَ وصولُها اليهم ثلاثَ دقائقَ ثمينةً، إلا أن الطبيبَ إعتذرَ بِسببِ مرضٍ شديدٍ ألمَّ به يمنعُه من مغادرة الفراش، فإتصلتُ الزوجةُ بِالْمستشفى لِإرسالِ سيارةِ إسعاف. لاحظَ سائقُ السيارةِ وهو في الطريقِ، نفاذها من البنزين فعرَّجَ لملئها من أقربَ محطة، ثم أُسرِعَ الى المصابِ ونقله الى سيارته. وفي منتصفِ الطريقِ الذي كان في غايةِ الإزدحامِ بِسببِ حادِثٍ مروريٍّ، فارقَ المصابُ الحياة.

يا تُرى أيعزى سببُ الوفاةِ الى الحادِثِ العشوائيِّ، أم الى التليفونِ غيرِ المشحونِ، أم الى مرضِ الطبيبِ، أم الى نفاذِ بنزينِ سيارةِ الإسعافِ، أم الى الحادِثِ المروريِ المسببِ للإزدحامِ في الطريقِ؟ من الواضحِ أن الجوابَ ليسَ بِالبساطةِ التي يتصورُها مَنْ يحاولُ تأسيسَ مبادئِ الدينِ على المنطقِ.

أَتوقَّعُ أن يدركَ المؤمنونَ من هذينِ المثالينِ أن الإستعانةَ بِمبدئِ السببيةِ الذي ينصُّ:

أن لكلِّ شيءٍ مسببٌ

لِدعمِ معتقداتهمِ الدينيةِ هو مطَّوعسفيُّ لمدى المجالِ لمصادقيتهِ

لمتأتية من مواقف حياتية مألوفة - دون أيّ تغييرٍ - ليغطي مجال الكون بأسره. وهو مجالٌ يشغلُ غموضه أفكارَ وبحوثَ العلماء والفلاسفة. أمّا إذا أصرَّ المؤمنون بسذاجةٍ على الإعتمادِ على مبدأ السببية للبرهنة على إيمانهم، فينبغي أن يدركوا أن برهانهم فاسدٌ.

منير: يبدو لي أن هنالك نموذجٌ آخر لمغالطة "تجاهل مدى التطبيق" يُعبّر عنها كثيرٌ من المؤمنين بصيغة سؤالٍ يُوجّه في معظم الحالات إلى اللادينين: ما الهدفُ من حياة الإنسان؟

سؤالي: ما رأيك في هذا السؤال؟

نعم. إن السؤال المذكور الذي يُوجّههُ المؤمنون إلى الملحدّين، ليس بسؤالٍ بريء، إنما هو من نوع الأسئلة الملعومة.

منير: لقد سمعتُ عن الغامِ يزرعُها عادةً جيشٌ منسحبٌ كي يُعرقَلَ تقدّمَ الجيشِ المقابل. لكني لم أسمع قطّ عن أسئلة ملعومة!!!

نعم هو كذلك. إذ أن المؤمنَ الذي يسأل: "ما الهدفُ من حياة الإنسان؟"، يفترضُ ضمناً أولاً، أنه يمتلكُ كباقي المؤمنين هدفاً سامياً لوجوده، وثانياً، إفتقارَ الملحدّين إلى هدفٍ مماثلٍ سمواً ممّا يُفرغُ حياة الملحدّين من معنى حسب رأي المؤمن، ثالثاً، يتصورُ أنه يُشعِرُ الملحدّين بخواءِ حياتهم.

هكذا ترى، يا منير، أن السؤالَ ملعوماً بعدةِ إفتراضاتٍ ضمنية. هنالك فرقٌ شاسعٌ بين هدفِ إنسانٍ عند إجرائه عملاً أو نشاطاً من الأعمال والأنشطة اليومية الاعتيادية وبين هدفِ وجوده في الكون.

من الواضح أن يكون لأنشطة البشر هدفاً أو أهدافاً. وفيما يأتي أمثلة توضيحية بسيطة:

- تناول طعاماً لهدف البقاء على قيد الحياة .
- نتبرع للفقراء لهدف مساعدتهم على العيش
- اشتريت دواءً وصفه لي طبيبي لهدف معالجة مريض .
- غيرتُ موقعَ كرسيي لهدف رؤية التلفزيون من زاوية أفضل .

لكن القفزة من أنشطة الإنسان اليومية الى مجمل حياته، تجاهلٌ لمدى التطبيق. إذ لا يبدو أن هنالك معنى للكلام عن هدف مجمل حياة إنسانٍ ما، إلا إذا حُوِّرتْ معاني الكلمات وأُضفيتْ عليها معانٍ جديدةً تختلف عن معانيها الإعتيادية.

أمّا وجودُ بعضِ الشخصياتِ الفذةِ مثل المهاتما غاندي، أو مارتن لوثر كنگ، أو نلسن مانديلا وغيرهم الذين يبدو كأنما وُلدوا من أجل تحقيق هدفٍ معينٍ في حياتهم. لكن هذا وهمٌ متأتٍ من نظرةٍ خلفيةٍ. إذ نجدُ عندَ دراسةِ سيرِ حياتهم أن تراكماتٍ لظروفٍ سياسيةٍ وإجتماعيةٍ وإقتصاديةٍ وسيكولوجيةٍ قادتهم الى الظهور كأن حياتهم هدفاً محددًا مسبقاً.

وصحيحٌ، أيضاً أن بعضَ الآباءِ والأُمهاتِ يرغبون أن يكونَ لأبنائهم أو لبناتهم هدفاً في الحياة (كأن يختصوا مستقبلاً في إختصاصٍ معينٍ أو يكونوا مثلاً رؤساءً لدولةٍ ما). لكن ينبغي ألا تُعَبَّرَ رغباتٌ أو تمنياتٌ الوالدين أهدافاً لحياة أبنائهم.

تدعي معظمُ الأديان أن الله خلق الإنسان على صورته ليعبد الله. ولعل الآية القرآنية الآتية خيرُ توصيفٍ لهدف حياة وجود الإنسان في

الكون حسب إعتقادِ المؤمنين من كلِّ الأديان.

يا أيها الناسُ عِبِدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

منير: أسئلةٌ لا بد أن تُثارَ:

ما هدفُ اللهُ من خَلْقِهِ الكونَ الشاسعَ، وخالقَهُ لنا
نحن البشر، هل يحتاجُ اللهُ الى وجودنا؟

ربَّما أصابه مللٌ من طولِ إنتظارِ!!!!!!!

منير: ولماذا يريدُ اللهُ أن يعبدَهُ بلايينُ البشر؟

لعلَّ اللهُ يريدُ التشبهُ بملوكِ وشيوخِ العربِ لإمتلاكِهِم عبيداً وخدمًا!!!!
تدَّعي الأديانُ التوحيديةُ أن الإنسانَ هو المحورُ والهدفُ من إنشاءِ
الكون. إذ يقولُ سفرُ التكوينِ عن هذا الموضوعِ في الإصحاحِ 1 / 26 -
27 إن اللهَ خلقَ الإنسانَ على صورته. ثم يُضيفُ في الأصحاحِ
8/3 - 5 أنه جعلَ الإنسانَ أدنى مرتبةً بِقَلِيلٍ من الملائكة.

منير: إن للفيزيائيَ المشهورَ ريتشاردَ فاينمان قولاً
مأثوراً:

أولُ مبدءٍ عليك إدراكُهُ ألاَّ تخدعَ
نفسك، وأنَّ أسهلَ مَنْ يقومُ
بخداعك هو أنت..

تجعلُ نرجسيةُ الإنسانِ سهلَ الإخداعِ الذاتيِّ بأنه
محورُ إهتمامِ كائنٍ وهميِّ يدعونه اللهُ.

ولهذا قد خدعَ المؤمنونَ أنفسهم بأنَّ لذلكِ الكائنِ الوهميِّ هدفٌ كونيٌّ
سامٌ لخالقِهِ النوعِ البشريِّ، ويفسِّرُ رجالُ الدينِ كيف ينبغي إسقاطُ
ذلكِ الهدفِ الكونيِّ على المؤمنينِ بِوَجوبِ أن يكونَ الهدفُ الشخصيِّ
لكلِّ منهم إرضاءَ الكائنِ الوهميِّ. ونتيجةً لذلكِ يُشفقُ كثيرٌ منهم على

الملحدين لإفتقارهم الى هدفٍ يُعطي معنىً لوجودهم.

منير: هل يُشفقُ الملحدون بِدورهم على المؤمنين؟

لستُ أدري بما وبما لا يشعرُ الملحدون، وأنا لستُ مخوَّلاً التكلّم بِإسمِ الملحدين جميعاً. لكنني أُرَجِّحُ معتقداً أن أغلبهم يشعرون بِالعطفِ على المؤمنين القابعين داخلَ نفقٍ مظلمٍ وهم غيرِ واعين أنه مظلم!!!

منير: هل للملحدين هدفٌ يُضفي على وجودهم

معنى مختلف عما يقصده المؤمنون؟

نعم، سأطرحُ رأيي الشخصي. إذ ليس بِالضرورة أن يشاركني به غيري من الملحدين، إذ أعتقدُ أن لكلٍ منهم رأيه الخاص:

الكونُ موجودٌ، وليس لوجوده أيُّ هدفٍ، الإنسانُ جزءٌ واعٍ من الكونِ وهونتيجَةُ سيرورةٍ تطوّرٍ إستغرقتُ بلايينَ السنين، وليس للنوعِ البشريّ تدبيرٌ فوقطبيعي، وكل إنسانٍ - سواءً كان مؤمناً أو ملحداً - لابدٌ أن ينتابه شعورٌ بِالرهبةِ عند تأمله الكواكبِ والنجومِ والمجرات، لكن عليه أن لا تجرُّه الرهبةُ الى الغيبيات، بل أن يؤمنَ بما يكشفُ العِلْمُ من نظرياتٍ عن نشأةِ الكونِ وتطوُّره. أُرَجِّحُ معتقداً أن أغلبَ الملحدين يتفقونَ معي في نظرتهم الى الحياةِ على أنها الفرصةُ الوحيدةُ ولا وجودٌ لغيرها لا في جنةٍ ولا في نارٍ، فيسعى أغلبهم الى إثراءِ حياتهم بِأفعالهم وسلوكهم وبِعطاءاتهم الفكريةِ والماديةِ، ومنتمينَ أن يتركوا عندإنقضائهم إرثاً من ذكرياتٍ حسنةٍ، لذويهم وأصدقائهم، وربما للبشريةِ جمعاء في بعضِ الحالات. ألا يعتبرُ المؤمنون أنها حياةٌ ذات معنى وهدف؟

دعنا نعود الى مقولة ريتشارد فاينمان التي أتيت يا منير على ذكرها
قبل قليل القائلة:

أولُ مبدء عليك إدراكه ألا تخدع نفسك ، وأن
أسهلَ مَنْ يقومُ بذلك هو أنت .

نعم، مفرداتُ اللغةِ من أسهلَ ما يخدعُ الإنسانَ . خُذْ مثلاً : عندما
يستعملُ كثيرٌ من المؤمنين عبارة "قوانين الكون" يخدعونَ أنفسهم
بالتفكيرِ كما يأتي:

بما أن القوانينَ المدنيةَ يسُنُّها مُشرِّعٌ فلا بد أن يكونَ لقوانينِ الكونِ
مُشرِّعٌ كونيُّ الذي لا يمكنُ أن يكونَ سوى خالقِ الكونِ . (وهو تجاهلٌ
مدى التطبيق)

يعتقدُ المؤمنُ بوجودِ مُشرِّعٍ كونيٍّ، أن الخالقَ، في لحظةِ صنعِهِ
الكونَ، أوعزَ اليه — بطريقةٍ أو بأخرى — تعليماتٍ للكيفيةِ التي
عليه إتباعها "طوعاً أو كرهاً" فاستجابَ الكونُ طوعاً!! ويرى المؤمنُ
أن الإنسانَ منذُ أقدمِ العصورِ ما إنفكَّ يسعى الى "الكشف" عن تلك
التعليماتِ بشتى الوسائلِ المتاحةِ له. لكن الخالقَ يبدو قد جعلَ
تعليماتِهِ الكونيةَ طبقاتٍ على هيئةِ حلقاتِ البصلة. كلما أَمَطَّ
الإنسانُ الغطاءَ "dis-cover" عن حلقةٍ تَظهرُ أخرى وهكذا دواليك.
ويحلو له أن ينعَتَ الحلقةَ التي يكشفُ عنها أخيراً بـ "قوانينِ الكون"
الى حين توافرَ ظروفٌ ملائمةٌ للكشفِ عن الحلقةِ التالية. بعبارةٍ
أخرى، يعتقدُ المؤمنُ بوجودِ مُشرِّعٍ كونيٍّ، أن قوانينِ الكونِ الكاملةً
ألغازٌ مخبأةٌ عند الخالقِ.

أمَّا الإنسانَ الذي لا يدَّعي بوجودِ مُشرِّعٍ كونيٍّ فينظرُ الى الأمورِ
نظرةً واقعيةً دون إقحامٍ لِمُشرِّعٍ كونيٍّ. فهو يرى أن الكونَ
موجودٌ وأن النوعَ البشريَّ جزءٌ من الكونِ، وليس بمتفرجٍ
خارجي وقد سعى الوسطُ العلميُّ، في كلِّ العصورِ، الى فهمِ
علميِّ وفلسفيِّ لِسيرورةِ الكونِ معتمداً في ذلك على ما يتوافرُ لديه من

آراء ومفاهيم علمية وأدوات فكرية (كالرياضيات مثلاً) مُعَزَّزَةً
مشاهداتٍ بواسطة أجهزةٍ تكنولوجيةٍ وفي كلِّ حقبةٍ من الزمن،
يتكوَّنُ، نتيجةً السعيِّ الدؤوبِ للوسط العلميِّ، تصوُّرٌ⁸⁰ عن سيرورةِ
الكونِ متوائماً مع واقعِ الأطرِ الفكريةِ والعلميةِ والفلسفيةِ والتكنولوجيةِ
في ذلك العصر

من الواضح أن هذا التصوُّرُ يتطوَّرُ كلياً أو جزئياً مع تطوُّرِ المفاهيم
والأدواتِ الفكريةِ والتكنولوجيةِ.

إذن كلمةُ "قوانين" الواردةُ في "قوانين الكون" غيرُ موفقةٍ
لأنها تدعو الى التباس.

قوانين الكون ليست قوانين بمعنى أن الكون يجبُ عليه
إطاعتها . إنما هي كياناتٌ فكريةٌ تتطوَّرُ مع تطوُّرِ
الحضاراتِ البشرية. وتعكسُ واقعها الفكري والتكنولوجي.

الإيمانُ الدينيُّ

منير: يتفقُ بعضُ المؤمنينِ بعدمِ وجودِ برهانٍ على وجودِ الله، مستنداً على العقلِ والمنطقِ، لكنهم يدعونُ أن لديهم إيماناً بوجوده. هل من تعريفٍ لمفهومِ الإيمان؟

الإيمانُ هو التصديقُ القاطعُ من دونِ أدلةٍ بوجودِ كائناتٍ أو أمورٍ فوقطبيعي، كالآلهة باختلافِ أنواعِها ومسمياتِها، والملائكة والجن والتنجيمِ والسحرِ والوحي. وهو ذريعةٌ يُقدِّمها المؤمنونَ لتَهْرُبَ من التفكيرِ العقلانيِّ ومن تقييمِ الأدلة. بِعبارةٍ أُخري، الإيمانُ إفلاسٌ فكري، الذي يجعلُ إستبعادِ الفكرِ فضيلةً. يُلخِّصُ القديسُ پولسُ المؤسسُ المشاركُ للمسيحيةِ تلخيصاً جيداً مفهومَ الإيمانِ الدينيِّ بقوله في (العبرانيين 11)

إنما الإيمانُ فهو الثقةُ بما يُرجَسُ والايقانُ بما لا يُرى.

هذا هو بالضبطُ ما يُفكِّرُ به المؤمنونُ في نقاشاتهم ومجادلاتهم، عندما يتكلمون عن الإيمانِ إذ عندما يُناقشُ معظمُ المؤمنينِ حولَ عقائدهم الدينيةِ ويُبَيِّنُ لهم جنوحَها وبطلانَها بأدلةٍ عقلية، يتجاهلونَ الحججَ المقدَّمةَ فيلجؤونَ بالتحصُّنِ بإيمانهم.

من المفروضِ أن تكونَ المعتقداتُ صوراً ذهنيةً عمَّا نعرفه عن العالمِ الواقعي، فيتوجبُ إنبثاقُها منه، وإلاَّ غدتُ مستقلةً عنه ونالتُ مناعةً ضدَّ الدحضِ بأدلةٍ علميةٍ ومنطقية.

ليس هنالك مثقفٌ في هذا العصر يقولُ بجديَّةٍ مقولاتٍ من أمثال ما يأتي:

● أُوْمِنُ أَنْ الْمَاءَ يَتَكَوَّنُ مِنْ إِتْحَادِ غَازِيِ
الْأَكْسِجِينِ وَالْهَيْدْرُوجِينِ .

● أُوْمِنُ أَنَّ الْأَرْضَ تَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ .

● أُوْمِنُ بِجَدْوَلِ الضَّرْبِ⁸¹ .

دُونَ أَنْ يُنَبَّهَ أَنَّهُ غَافِلٌ لِأَنَّهَا حَقَائِقٌ لَا تَتَطَلَّبُ إِيمَانًا .

مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، نَسْمَعُ الْمَسِيحِيِّينَ يَصَلُّونَ "قَانُونَ الْإِيمَانِ". وَفِيْمَا
يَأْتِي بَعْضُ فِقْرَاتِهِ الرَّئِيسِيَّةِ:

نُؤْمِنُ بِإِلَهٍ وَاحِدٍ اللَّهُ الْآبُ خَالِقُ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ نُؤْمِنُ بِرَبِّ وَاحِدٍ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، ابْنَ
اللَّهِ الْوَحِيدِ، الْمَوْلُودُ مِنَ الْآبِ ... مَوْلُودٌ غَيْرُ
مَخْلُوقٍ⁸² ... مَسَاوٍ لِلْآبِ فِي الْجَوْهَرِ ... وَصَلِبَ عَنَا فِي
عَهْدِ بِيلاطسِ الْبَنْطِي⁸³ ... نُؤْمِنُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ،
الرَّبِّ الْمَحْيِي الْمُنْبَتِقِ مِنَ الْآبِ نَسْجِدُ لَهُ وَنُجَدِّدُهُ مَعَ
الْآبِ وَالْابْنِ نُؤْمِنُ بِكَنِيسَةِ وَاحِدَةٍ
مَقَدَّسَةٍ جَامِعَةٍ رَسُولِيَّةٍ ... وَنَنْتَظِرُ قِيَامَةَ الْأَمْوَاتِ
وَحَيَاةَ الدَّهْرِ الْآتِي ... آمِينَ .

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَانُونَ الْإِيمَانِ عِبَارَةً مُوجِزَةً مِثْلَ "لَا سَلْفِيَّةَ وَلَا أُخْوَانَ
ثَوْرَتَنَا ثَوْرَةَ شَجْعَانَ"!! أَتَسْأَلُ أَلَا تَكْفِي الْأَنْجِيلُ الْأَرْبَعَةُ لِتَحْدِيدِ
الْعَقِيدَةِ الْمَسِيحِيَّةِ بِحَيْثُ يَحْتَاجُ إِلَى "جَنْجَلُوتِيَّةٍ"؟

81

إِقْتَبَسْتُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ التَّهْكِمِيَّةَ مِنْ رِيْتشارْدِ دُوكَنْزِ.

82

أَنْتِي أَقْرُبُ بِعَجْزِي عَنْ فَهْمِ كَيْفِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ "مَوْلُودٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ".

83

يَصْعَبُ عَلَيَّ فَهْمُ أَهْمِيَّةِ إِفْحَامِ الْعِبَارَةِ "فِي عَهْدِ بِيلاطسِ الْبَنْطِي" فِي قَانُونِ مَوْضُوعِ إِغْرَضِ إِيمَانِ دِينِي
وَلَيْسَ تَارِيخِي.. رُبَّمَا (أَقُولُ رُبَّمَا) يُرِيدُ وَاضِعُوه أَنْ يَنْأَوْنَ بِدِينِهِمْ عَنْ "إِلَهٍ" آخَرَ صُلِبَ أَيْضًا لَكِنْ فِي زَمَنِ
مُخْتَلَفٍ.

ونسَمِعُ كيف يُعَبِّرُ المُؤْمِنونَ عن إيمانهم:

- أَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له . أَشْهَدُ أن مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ . 84
- يُؤْمِنُ اليهودُ والمسيحيونَ والمسلمونَ أن موسى شقَّ البحرَ الأحمرَ بضربةٍ من عصاه
- يُؤْمِنُ اليهودُ أن اللهُ منحهم الأراضي الفلسطينية .

منير إنني لا أرى داعٍ للتخوفِ من إيمانِ المؤمنين فهو مقبولٌ كعكازٍ يتكعون عليه كلما شعروا بِافتقارِهِم الى أسلحةِ المنطقِ لمحاججةِ خصومِهِم الملحدين .

لا أتفقُ مع رأيك، يا منير . أليستَ المآسي التي نعيشُها اليومَ في فلسطينَ ناتجةً من إيمانِ اليهودِ أن اللهُ منحهم الأراضي الفلسطينية؟ ليستُ أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر ناتجةً من إيمانِ بعضِ المسلمينَ أن حورياتِ باكراتٍ ينتظرُنهم في الجنة؟ أليستُ جميعُ الكتبِ المسماةِ مقدَّسةً لدى الأديانِ التوحيديةِ ملأى بقصصِ مجازرٍ وحشيةٍ نُفِذتْ بِإِسْمِ اللهِ ورغم ذلك لا زال يُؤْمِنُ بِقدسيَّتها بلايينُ البشر؟ الإيمانُ الديني خطرٌ كخطرِ قنبلةٍ موقوتة . لا نعلمُ متى تنفجر .

منير: د. ريمون، بما أنك مختص في الرياضيات
أقترح عليك الصعود إلى إحدى المآذن وتعلن إيمانك
على الملء:

”أشهد أن لا عقائد إلا حقائق العلم، وأشهد أن
الرياضيات ملكة العلم وخادمتها“.

دَعَوْتُكَ من وساوس ”الشيطان“، يا منير. أتدري ماذا سيحدث لو
نفذت مقترحك؟. سيصعد الفيزيائيون مباشرة إلى المآذن ليشهدوا
أن الفيزياء أم العلوم. ثم ينهض الكيميائيون ليعلنوا أن الكيمياء
أصل العلوم. ويقوم البيولوجيون ولن يقعدوا إلا بعد أن يشهدوا أن
علمهم هو حياة العلوم. لست أدري من سوف يليهم في الصعود
إلى المآذن، ربّما الفلاسفة!. وربّما ستتنشب حروب طاحنة بين
”طوائف أهل العلم“. كلُّ يدعي وصلاً بليلى. وليلى تتضحك على
عقولهم المغيَّبة.

أكررت ما قلته قبل قليل. رغم أن الإيمان الديني، يبدو
للوهلة الأولى، بريئاً إلا أنه ليس كذلك. فهو مثل قنبلة
موقوتة لا نعلم متى تنفجر.

مَبْدَأُ الْبُيِّنَةِ عَلَى مَنْ أَدَّعَى

منير: يتحدَّى المؤمنون مناوئتهم بأن يأتوا ببرهانٍ
على عدم وجود الخالق. هل يوجد - حسب علمك
- أحدٌ مدعٍ إثباتَ عدم وجودِ خالقٍ؟

بالقدر الذي أعرفه لا يوجد مَنْ ادَّعى أن لديه برهانٌ على عدم وجود
الله خالقٍ لكون. (إلا إذا أُضفيَ على الكائن الخالق صفاتٌ
متضاربةٌ منطقيًا كأن يكون غير متناهٍ في القدرة والمعرفة والوجود).

كما ذكرت، إن كثيراً من المؤمنين يطالبون الملحدين بتقديم برهانٍ على
عدم وجود خالقٍ. ممَّا يدلُّ على عجز إدراك المُطالبين طبيعة القضية
حول الموضوع.

أولاً لا يدَّعي الملحدون أن سببَ إلحادهم ثبوتُ عدم وجودِ إله (أي
إله)، أو أن باستطاعتهم إثباتُ ذلك. إنمَّا من بين عديدٍ من أسبابِ
إلحادهم هو أنهم يرون قضية وجودِ الله غير مبرهنٍ عليها بالمنطق
والعقل. وأن جميعَ البراهين التي قدَّمها المؤمنون غير سليمةٍ ولا
تصمدُ أمامَ محكَّاتِ المنطق. وفي الوقتِ الذي يحترمُ الملحدون
مشاعرَ المؤمنين بإحساسهم بوجودِ الله في قلوبهم، لكن مشاعرهم
وأحاسيسهم لا تُشكِّلُ برهاناً منطقيًا

حين يُطالبُ المؤمنون أن يقدمَ الملحدون برهاناً ينفي وجودَ الله، يجهلون
أو يتجاهلون أن عبأ البرهان يقعُ على عاتقِ المدَّعي. إن هذا المبدأ
معروفٌ جيداً في أوساطِ المحاكم والنشر العلمي والمناقشات الفلسفية
والمناظرات ويُطبَّقُ فيها. إن المدَّعي في هذه الحالة هم المؤمنون.
إذن عليهم أن السعي إلى البرهنة على وجودِ الله.

كي أُبلورَ هذه النقطة دعنا نتصوَّر على - سبيل التوضيح - أني

أَدَّعِي وجودَ رجلٍ عملاقٍ ذي طولٍ عشرةِ أمتارٍ وعمرٍ يفوقُ ألفَ عامٍ، وهو لا يزالُ حياً يعيشُ في كهفٍ يقعُ بالقربِ من قمةِ أقرست. طبعاً أنت يا منير وغيرك لا تصدِّقون إدِّعائي. أيقن لي — إمعاناً في التأكيدِ على ما أدَّعِي — مطالبتكم أنتم بالبرهانِ على عدمِ وجودِ ذلك العملاقِ؟

منير: طبعاً لا. إنما عليك أنت المدَّعي تقديم أدلَّةٍ لا يتطرقُ شكُّ اليها للبرهنة على وجودِ العملاقِ. وعلينا — أنا ومن لا يصدِّق — دراسةٌ وتفحصُ الأدلَّةِ منطقياً وعلمياً وموضوعياً.

نعم، بالضبط. يجب عليّ تجهيزَ بعثاتٍ إستكشافيةٍ للعثور على العملاقِ.

إذن ليس على اللادينيين أو الملحدِّين وجوبُ السعيِ الى إيجادِ برهانٍ على عدمِ وجودِ الله، إنّما بالعكسِ على المؤمنِ أنفسهم تقديمُ البراهينِ على وجوده.

وفي الواقع لم يُقَصِّرِ المؤمنونَ في محاولاتِهم. إذ قدّمَ اللاهوتيون والفلاسفةُ المؤمنونَ، خلالَ آلافِ السنين منذُ نشأةِ الحضارةِ محاولاتٍ برهانيةٍ متعددة. لكن عليهم الإقرارُ أنه لم يصمدَ أيُّ منها أمامَ محكّاتِ المنطقِ.

أَلْفُ إِلَهٍ وَ إِلَهَ

منير: رغم رغبتني بالتعرفِ على مواطنِ ضعفِ البراهينِ المزعومةِ على وجودِ الخالقِ. لكن عليّ التريث. إذ أعلمُ بوجود أكثر من ستة بلايين من البشر الذين يمكنُ أن يُقالَ – على سبيلِ المبالغة – إن لكلِّ منهم مفهومهُ الخاصُّ عن الله. لهذا أعتقدُ أنك تتفقُ معي بضرورة البدءِ بتحديدِ مفهومِ ”الله“ قبلَ الشروعِ بمناقشةِ هزالةِ البراهينِ.

قد صدقتَ في قولك. إذ يكادُ أن يكونَ لكلِّ فردٍ من البشرِ مفهومٌ خاصُّ عن الله. تقتضُ بعضُ الأديانِ (كالبابليةِ والوثنيةِ والإغريقيةِ والرومانيةِ والهندوسيةِ الحاليةِ) وجودَ أكثر من إله، منها زيوس وقينوس وعشتار وأدونيس وألفٌ غيرهم. بعضهم ذكورٌ وبعضهم إناثٌ وقد يتزاوجون ويُنجبون. كما أن لكل من الآلهةِ مسؤوليةٌ يقومُ بها، مثل الخيرِ، والشرِّ، والنهارِ، والظلامِ، والحربِ، والمطرِ، والرعدِ، والحكمةِ، والحبِّ، والخصبِ، والأرضِ الأمِّ، والصيدِ، الى آخر ما هنالك من وظائفٍ آلهية. أمَّا في هذه الأيامِ فأُنيطُ المسؤوليةاتُ الى القديسينَ والقديساتِ أمثالَ مار أنطونيوس ومار جرجيس والقديسةِ تريزا ومار شمعون والقديسةِ برناديت ومار جبرائيل ومار ”عزرائيل“ !! والى آخره.

تدورُ كثيرٌ من أحلامي في ليالي يومِ الخميسِ حولَ الإلهِ تُور، إلهِ الأقوامِ الجرمانيةِ وهو مقاتلٌ لا مثيلٌ له بِقفازيه الحديديةِ ومطرقتهِ الضخمةِ التي يرمي الأعداءَ بها ويفنيهم بضربةٍ واحدةٍ ثم تعودُ المطرقةُ اليه. ومن الطريفِ أن نعلمَ أن يومَ ”الخميس“ قد سُمِّيَ

تقديساً له في بعضِ اللغاتِ Thorsdag = Thursday = Thor`s day

إن المقصود في هذا المقال بـ"الله God" الإله الذي يُؤمنُ به أتباع الديانات الإبراهيمية التوحيدية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام. من المفروض أن لا جنس له لكن تُستعمل عادةً ضمائرُ المذكر في معظم اللغات للإشارة إليه، ممَّا يُشيرُ الى هيمنة المجتمع الذكوري⁸⁵. وإلهُ المسيحيين، على الرغم، من أنه غيرُ مولودٍ لكن له أمٌ من البشرِ وأنه غيرُ متزوجٍ لكن له إبنٌ، والإبنُ هو الأب، والأبُ هو الإبن!!! من صفاتِ التي يتمتعُ بها اللهُ حسبَ ما يَعْتَقِدُ الْمُؤْمِنُونَ به: إنه خالقُ الكونِ ومصمِّمُهُ بإرادته الحرة وحاكُمُهُ المطلقِ والمتحكِّمُ بكلِّ ما فيه.

● إنه الكائنُ الأسمى الوحيدُ الفوقبشري المتسامي فوق المادةِ والمكانِ والزمانِ .

● إنه خالدٌ منذُ الأزلِ وسيبقى خالداً الى الأبدِ .

● إنه مالكٌ لصفاتٍ شبيهةٍ بالصفاتِ البشريةِ مثلَ الإرادةِ والذكاءِ والحكمةِ والحبِّ والبغضاءِ والغضبِ والانتقامِ والغيرةِ والحاجةِ الى راحةٍ بعد تعبِ .

● إنه متمتعٌ بصفاتٍ فوقبشريةٍ لامتناهيةٍ :

— كَلِّيُّ القُدرةِ (أي قادرٌ على كلِّ شيءٍ) 86

— كَلِّيُّ الوجودِ (أي موجودٌ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ) .

— كَلِّيُّ العَدالةِ وكَلِّيُّ الخَيْرِ والمحبةِ .

85

يستعملُ بعضُ الكُتَّابِ بالغةِ الإنكليزيةِ It والبعضُ يستعملُ She كضميرٍ للإشارةِ الى God .

86

كلي القدرة Omnipotent

كلي الوجود Omnipresent

كلي المعرفة Omniscience

كلي المعرفة Omnibenevolent

— كَلِّيَّ المعرفةُ أي عَلِيمٌ بِكُلِّ ما حدثَ في الماضي
وما يحدثُ في الحاضرِ و المستقبلِ عن أصغرِ
جزيئاتِ الذرةِ الى أكبرِ مجراتِ الكونِ وعند كلِّ
لحظةٍ من لحظاتِ الوجودِ وفي كلِّ واحدٍ على
بليون مليمترٍ مكعبٍ من الفضاءِ .

سأبينُ بعد قليلٍ أن تأملاً بسيطاً في صفاتِ هذا الكائنِ يكشفُ
عن تضارِبها وتناقضاتِها الذاتيةِ . ومثلما لا يوجدُ أعزبُ متروجٌ،
ولا دائرةٌ مربعةٌ، ولا مثلثٌ خماسيُّ الأضلاعِ، ولا ذهبٌ حديديُّ،
ولا عددٌ زنبقيُّ . كذلك لا يوجدُ كائنٌ كَلِّيَّ القدرةِ وكَلِّيَّ الوجودِ
وكَلِّيَّ المعرفةِ وكَلِّيَّ الخيرِ والمحبةِ وكَلِّيَّ العدالةِ . لأن هذه
الصفاتِ متناقضةٌ ذاتياً ومتضاربةٌ فيما بينها . وتنفي الواحدةُ
منها الأخرى . وفيما يأتي نماذجٌ لبعضِ من تناقضاتِها
وتضارباتِها:

- هل يتمكنُ كائنٌ كَلِّيَّ القدرةِ خَلَقَ حجرًا لا يتمكنُ من
رفعه؟ إمَّا أن يتمكنَ وإمَّا لا . إذا تمكَّنَ، تتبينُ
محدوديةُ قدرتهِ لأنه لا يستطيعُ رفعَ الحجرِ الذي خَلَقَهُ .
أمَّا إذا لم يتمكنَ، فتنقصُ قدرتهِ على الخلقِ . بعبارةٍ
أخرى، سواءً تمكَّنَ أم لم يتمكنَ، يظهرُ عجزٌ في كَلِّيَّةِ
قدرتهِ . إذن لا يمكنُ وجودُ كائنٍ كَلِّيَّ القدرةِ لأنه يؤدي
تناقضٌ منطقي 87 .

هذه المفارقةُ معروفةٌ من قديمِ الزمانِ .

لكن أول ما سمعتُ عنها من أحدِ طلابي . أتذكرُ في سبعينياتِ القرنِ الماضي أن بعد إنتهائي من
محاضرةٍ في الرياضياتِ في الجامعةِ المستنصريةِ في بغدادِ جاءني — وأنا ما زلتُ في قاعةِ المحاضرةِ
— أحدُ الطلابِ وهمسَ في أذني هذا السؤالَ بالذاتِ بصوتٍ مرتجفٍ ينمُّ عن خوفٍ . لكن عند مشاهدتهِ
قدومَ طالبٍ مسلمٍ معروفٍ بالتدينِ هربَ قبل أن أُجيبَ عن سؤاله ولو بكلمةٍ واحدة!!

- هل يمكن أن يكون كائنٌ كُلِّيُّ الوجودِ ومتسامياً عنه؟
(أي أن يكون خاضعاً للمادة ويسمو عليها في خارجها في الوقت نفسه). لا يمكن لأنه تناقضٌ منطقي.
- هل مكنٌ أن يكون كائنٌ كُلِّيُّ القدرةِ والمعرفةِ والخيرِ والمحبةِ؟ إذا وُجِدَ فكيف أخفق في منع حدوثِ مأسٍ عديدةٍ وإنحرافِ بعضِ البشرِ نحو إرتكابِ مجازرٍ شنيعةٍ؟
إمّا أنه لم يتمكّن من منعها، فهو ليس قادراً على كلِّ شيءٍ، وإمّا أنه لم يعلم بها، فهو ليس عليماً بكلِّ شيءٍ. وإمّا أنه لم يُبالِ لها، فهو ليس كُلِّيُّ الخيرِ والمحبةِ.
- هل مكنٌ أن يكون كائنٌ كُلِّيُّ الخيرِ والمحبةِ وكُلِّيُّ العدالةِ؟ إذا رُجِدَ فإنه لا يعاقبُ الخطأَةَ، بل يغفرُ لهم خطاياهم لأنه كُلِّيُّ الخيرِ والمحبةِ، لكن كائناً كُلِّيُّ العدالةِ ملزمٌ بمعاقبتهم.
- هل مكنٌ أن يكون كائنٌ كُلِّيُّ المعرفةِ؟ فيتعينُ مسبقاً قدرُ البشرِ. فلماذا يُجري كثيرٌ من البشرِ محاولاتٍ لتغييرِ قدرهم بالصلوات؟ ربّما يُقالُ إن ذلك الكائن زوّدَ البشرَ بإرادةِ حرةٍ. لكن كيف من الممكنِ إمتلاكهم إرادةً حرةً والكائنُ العليمُ يعلمُ تفاصيلِ مستقبلهم؟



منير: أظنُّ أن الأسبابَ التي عرضتها مقنعةٌ على عدم وجودِ كائنٍ كُلِّيِّ القدرةِ والمعرفةِ والعدلِ. لكن هنالك أناسٌ يعرضون عنه لإدراكهم تناقضاته. لكنهم يعتقدون بضرورة وجودِ "قوةٍ" ما خلقت الكونَ ووضعت قوانينه

نعم، هنالك آراءٌ أُخرى ترى وجودَ إلهٍ مختلفٍ كلياً عن إلهِ الديانات التوحيدية. هذا الإلهُ كائنٌ عظيمٌ خلقَ الكونَ ووضعَ قوانينه، ثم تركه يجري دون تدخلٍ منه بأيِّ شكلٍ من الأشكال. ويمكن القولُ إنه عندما إنتهى من خلقِ الكونِ بـ"الستةِ أيام" المعروفة أَنهكَ تعباً فنقاعَدَ مباشرةً !!! ويمكنُ تصوُّرهُ كصانعِ ساعاتٍ، صنعَ ساعةً ثم عبَّأها وتركها تعملُ بوحدها.

يُطلقُ على هذا الإلهِ بالإنكليزيةِ "Deus" وهي كلمةٌ مقتبسةٌ من اللاتينيةِ تعني اللهُ ويُطلقُ على الإعتقادِ به "Deism" وعلى مَنْ يعتقِدُ به "Deist". وتضَعُ المعاجمُ العربيةُ المصطلحاتِ "الرَّبُّ" و "الربوبية" و "ربوبي" على التوالي للدلالةِ عليها.

يَعْتَقِدُ الربوبيونُ أَن إلههم خلقَ الكونَ وقوانينه، لكنه لايتدخلُ بما خلقَ ولا يكشفُ نفسهَ للبشرِ عن طريقِ إرسالِ أنبياءٍ أو رُسُلٍ أو إنزالِ كتبٍ أو إجراءِ معجزاتٍ أو يُلبِّي صلواتٍ أو غيرها.

ينكرُ الربوبيونُ الثالثَ والإلهامَ الى ما كُتِبَ في الكُتُبِ المسماةِ مقدسةً. ويرفضون جميعَ النبوءات. لكنهم يعتقدونَ بإمكانيةِ البرهانِ على وجوده باستخدامِ العقلِ والمنطقِ وبمشاهدةِ العالمِ الطبيعيِ دون الحاجةِ الى أيِّ دينٍ ولا الى تجلياتٍ فوقطبيعية.

ظهرتُ وجهاتُ نظرٍ الربوبيةِ خلالَ الثورةِ العلميةِ في القرنِ السابعِ عشر. وكان لها تأثيرٌ كبيرٌ خلالَ عصرِ النهضةِ في القرنِ التالي على قطاعٍ واسعٍ من المفكرين الأوربيين وخاصةً البريطانيين والفرنسيين والألمان. ومن أهمِّ الشخصياتِ الربوبيةِ، المفكرُ الفرنسيُّ فولتير، والفيلسوفُ البريطاني ديفيد هيوم، والفيلسوفُ الألمانيُّ عمانوئيل كانط، والمفكرُ الأمريكيُّ بنيامين فرانكلين.

ومن الجديرِ بالذكرِ أن معظمَ زعماءِ الثورتين الفرنسيةِ والأمريكيةِ كانوا إماماً ربوبيين وإماماً ملحدين.

يبدو في الوقتِ الحاضرِ أن عددَ الربوبيين قد تقلَّصَ تقلصاً حاداً.

لعلَّ أحدَ أسبابِ ذلك تأثيْرُ مساهمةِ الربوبيةِ على الحركاتِ الدينيةِ
كحركةِ الموحِّدين التي إقتبستُ من الربوبيةِ كثيراً من

وهناك إله آخر "إلهُ سبينوزا". فقد إعتبرَ الفيلسوفُ الهولنديُّ
سبينوزا بعدَ تأملاتٍ عميقةٍ أن اللهَ هو الكونُ وأن الكونَ هو اللهُ. أي
أن:

اللهُ = الكونُ .

ليس المقصودُ بـ "الكونِ" الكواكبَ والنجومَ والمجرَّاتِ فقط، إنما كلُّ
المادةِ والطاقةِ وجميعِ قوانينِ الفيزياءِ والكيمياءِ وعِلْمِ الإِجتماعِ وعِلْمِ
النفْسِ وجميعِ الإنتاجاتِ البشريةِ من فلسفاتٍ وأدابٍ وفنونٍ
ومخترعات.

ومن الجدير بالذكرِ أن كثيراً من كبارِ العلماءِ مثل آينشتاين يُؤمنون
بإلهِ سبينوزا. وفي مقابلةٍ تلفزيونيةِ سنةَ 2010 سأل:

Larry King العالمُ المشهورُ Steven Hawking "هل تعتقد بوجود
الله؟" فأجاب:

نعم إنه جملةُ قوانينِ الكون⁸⁸ The totality of the laws of Nature
وأظنُّك، يا منير، تذكرُ عندما تناولنا مرحلةَ دراستي في كليةِ بغداد
أنني تطرقتُ من بين ما تطوَّقتُ إليه أن سألتُ فاذر كيلبي سنةَ 1948
عن فلسفةِ سبينوزا القائلةِ بتماهي⁸⁹ الله مع الكون، أجابني:
هذا يعني أنا جالسٌ على الله . هذا كفرٌ .

88

يقولُ ستيفن هوكنز في مصادرِض أخرى بصراحةٍ إنه ملحدٌ.

89

التماهي Identification هو التمازجُ أو الترابطُ أو الإنصهارُ بين شيئين بحيث يُعتبران شيئاً واحداً.

فَتَوَضَّحْتُ لِي سِذَاجَتَهُ الْفِكْرِيَّةَ، إِذْ لَمْ يَسْتَوْعِبْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْكُونُ هُوَ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ هُوَ الْكُونُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَبَدَّلَ مَفْهُومُ الْكُفْرِ تَبَاعاً لَذَلِكَ.

منير: أودُّ أولاً، تسجِيلَ إِعْتِرَافِي بِأَنِّي تَعَلَّمْتُ مفاهيمَ ومفرداتٍ جديدةً لم أسمعَ عنها سابقاً. فَأشْكُرُكَ د. ريمونَ عَلَى إِثْرَاءِ مَدَارِكِي الثَّقَافِيَّةِ وَتَوْسِيعِ مفرداتِ لغتي.

ثانياً أَثْنَاءَ إِسْتِمَاعِي إِلَى شَرْحِكَ عَنِ إِلَهِ الرَّبُوبِيَّةِ بَدَأَ لِي أَنَّ مَعْظَمَ مَا تَعَرَّفْتُ سَابِقاً عَنِ حُجْجِ الْبِرْهَانِ عَلَى وَجُودِ الْخَالِقِ، تَدَوَّرَ حَوْلَ بَرَاهِينِ عَلَى وَجُودِ إِلَهِ الرَّبُوبِيَّةِ وَليْسَ عَلَى إِلَهِ الْأَدْيَانِ التَّوْحِيدِيَّةِ. وَالْآنَ أودُّ تَوْجِيهَهُ أَسْئَلَةً حَوْلَ الْبَرَاهِينِ التَّارِيخِيَّةِ عَلَى وَجُودِ الْخَالِقِ.

منذ أقدم العصور، ثابر الثيولوجيون والفلاسفة المؤمنون وغير المؤمنين على قضية البرهنة العقلية على وجود خالق للكون. صنفت البراهين إلى أصناف وأبواب حسب أساليبها ومدخلها الفلسفية.

ونجد اليوم — حسب علمي — ما لا يقل عن ثلاثين محاولة برهانية رئيسية على وجود خالق للكون. وفيما يأتي جدول بأهمها والتي سنتناولها تباعاً:

- الحجَّةُ السَّبَبِيَّةُ.
- الحجَّةُ الْوُجُودِيَّةُ.
- الحجَّةُ مِنَ التَّصْمِيمِ الذَّكِيِّ.
- الحجَّةُ مِنَ التَّعْقِيدِ الْإِخْتِرَالِيِّ.
- الحجَّةُ مِنَ الشُّغْرَاتِ.

- الحجةُ من التنعيمِ الدقيقِ للشوايتِ الكونيةِ .
- الحجةُ من الإنفجارِ العظيمِ .
- الحجةُ من المعجزاتِ .
- الحجةُ من الأخلاقِ .
- الحجةُ من الإستجابةِ للصلواتِ .
- المقامرةُ الباسكاليةِ .

الحُجَّةُ السَّبَبِيَّةُ

إنَّ الحُجَّةَ السَّبَبِيَّةَ أَكْثَرُ الحُجَجِ رَوَاجاً وإِقْنَاعاً لَدَى مَعْظَمِ المُؤْمِنِينَ يُعْتَقَدُ أَنَّ أَرِسْطُو أَطْلَقَ عَلَيْهَا مِصْطَلَحَ "الحُجَّةُ الكُونِيَّةُ Cosmological Argument" وشرحها فيما بعد توماس أكيناس Thomas Aquinas .
يقولُ دِعاةُ الحُجَّةِ:

- 1 . يوجدُ لكلِّ شَيْءٍ مُسَبَّبٌ .
- 2 . يوجدُ للكونِ مُسَبَّبٌ . (بناءً على (1)) .
- 3 . لا يوجدُ شَيْءٌ مُسَبَّبٌ نَفْسَهُ .
- 4 . لا يمكنُ أَنْ يَكُونَ الكونُ مُسَبَّباً نَفْسَهُ .
(بناءً على (3))
- 5 . لا بد من وجودِ مُسَبَّبٍ للكونِ في خارجِ الكونِ . (بناءً على (2) و (4))
- 6 . يُطْلَقُ عَادَةً عَلَى المُسَبَّبِ فِي (5) إِسْمُ "اللهِ" .

الْخَلَلُ الْأَوَّلُ

هذه الحُجَّةُ أَحْسَنُ مِثَالٍ عَلَى المِغَالِطَةِ التِّي يَعْبُرُ عَنْهَا أَهْلُ الفِلسَفَةِ وَالْمَنْطِقِ بِمِصْطَلَحِ Passing the buck أي تَمْرِيرُ المَرءِ المَسْؤُولِيَّةِ الِى غَيْرِهِ. إِذْ لا بُدَّ أَنْ يُنْأَرَ السُّؤَالُ: مَنْ سَبَّبَ اللهُ؟
بِعبارةٍ أُخْرَى الإِسْتِشْهَادُ بِاللهِ لِحَلِّ مُشْكَلةٍ. ثُمَّ تَرَكِ المُشْكَلةَ نَفْسِهَا حَوْلَ اللهُ دُونَ حَلِّهِ. إِذْنِ عَلَى دِعاةِ الحُجَّةِ الإِقْرَارُ بِتِنَاقُضِ، إِمَّا فِي العبارةِ (1)، وَإِمَّا فِي العبارةِ (3)

إذ أن وجودَ الله إما مسببٌ... وإما غيرُ مسببٍ.
 إذا كان مُسبباً فلا مُسببٌ له سوى نفسه ممّا يتنافى مع العبارة (3).
 أمّا إذا لم يكن مُسبباً فيتعارض مع العبارة (1).

إذن يجبُ أن يقرَّ دعاةُ الحجّةِ السببيةِ أنه في أيِّ حالٍ من الأحوالِ
 هنالك على الأقلّ إستثناءٌ واحدٌ للعبارة (1) وأن الله هو الإستثناء.
 عندئذٍ تبرزُ مشكلةٌ لماذا يكونُ إستثناءٌ واحدٌ من الأفضل لدعاةِ
 السببيةِ تجاوزَ موضوعِ تبريرِ الوجدانيةِ إذ أن الإسترسالَ فيه يُوقِعُهُم
 في مطبِّ مغالطةٍ أُخرى هي: الإستعانةُ بلغزٍ لحلِّ لغزٍ آخر
 من جهةٍ أُخرى، يجبُ أن يتوقفَ تمريرُ التهمةِ في مرحلةٍ ما. حالما
 نقبلُ بوجودِ إستثناءاتٍ. يُثارُ التساؤلُ: لماذا لا يتوقفُ التمريرُ عند
الكون؟

لماذا لا يكونُ الكونُ نفسه - وهو وحيدٌ أيضاً - هو ذلك الإستثناء؟
 عندئذٍ يغدو الكونُ إما موجوداً دون مسببٍ أو أنه مسببٌ نفسه.

الخللُ الثاني

عندما يتبنى دعاةُ الحجّةِ العباراتِ (1) و (2) و (3) ينزلقون فكراً في
 مغالطةٍ تجاهلِ مدى تطبيقِ مفهومِ السببيةِ الذي ترتكزُ عليه الحجّةُ.
 فتفقّدُ العباراتُ الثلاثُ بدايتها. ممّا يؤوّلُ الى إنهيارِ الحجّةِ.
 ليس مفهومُ السببيةِ - كما يتصوّرُ دعاؤها - واضحاً وضوحاً
 بلورياً في كلّ الحالاتِ والأحوالِ وفي جميعِ أجزاءِ الكونِ ومكوناتِهِ
 ومع أنني شرحتُ ذلك سابقاً لكن لا ضرر من مزيدٍ من الشرح.
 لعلَّ أحسنَ تعريفٍ لمفهومِ السببيةِ هو:

علاقةٌ بين حادثين تربطهما القوانينُ المعروفةُ للطبيعةِ
في مجال تطبيقه⁹⁰

مثلاً إن سقوط إنسانٍ من إرتفاعٍ عالٍ عن سطح الأرض يُسببُ وفاته. لكن من الخطأ منطقياً الإستنتاجُ إعتياداً على هذه الحقيقة أن سقوطاً مماثلاً على كوكبٍ آخر، دون معرفة ظروفه الفيزيائية والجيولوجية يؤدي إلى الوفاة أيضاً. تعتمدُ نتيجةُ السقوطِ على عواملٍ عديدةٍ منها كتلةُ الكوكبِ والجو المحيطُ به والتركيبُ الجيولوجي والكيميائي لسطحه وغيرها من العوامل.

لعلّ دعاةَ الحجّةِ يُدركون - من خلال هذا المثال البسيط - أنهم، عند محاولتهم الإعتياداً على مبدأ السببية، يمتطون مجال تطبيقه مطاً تعسفاً بحيث يغدو مداه الكون اللامتناهي سعةً. وينبغي أن يُدركوا عدم توافر لدينا أي فكرةٍ عن كيفية التعامل مع الظواهر المتعلقة بالسببية في مجالاتٍ من ذلك الكبر.

بإختصار

تفقدُ العباراتُ من (1) الى (5) بدايتها، وتنهارُ الحجّةُ إنهاراً تاماً.

الْحُجَّةُ الْوُجُودِيَّةُ

يعتقدُ دعاةُ هذه الحجةِ بإمكانيةِ البرهانِ على وجودِ الله بالطريقةِ نفسها التي نعلمُ أن $2 + 2 = 4$ ، من خلال التفكيرِ العقليِّ المجردِ دون اللجوءِ الى أيِّ خبرةٍ أو مشاهدةٍ في الواقعِ المعاش. ولهذا تُنعتُ بالمصلح "أنطولوجية (Ontological Argument)"

تُعزى الحجةُ الى القديسِ أنسلم (1109 - 1133) رئيس أساقفةِ كانتربري. ويُقالُ إن العالمَ والفيلسوفَ والطبيبَ ابن سينا سبقَ أنسلم في حوالي سنة 1000 بتقديم دليلٍ شبيهٍ بهذه الحجةِ. على وجود الخالق.

تجري الصيغةُ الكلاسيكيةُ للحجةِ الأنطولوجيةِ كما يأتي:

- 1 . إن الله بالتعريف كائنٌ لا يمكنُ التصوُّرُ منهُ هو أعظمُ منه .
- 2 . إذن ، إذا تصوَّرنا أن الله غيرُ موجودٍ فيمكنُ تصوُّرَ كائنٍ أعظمَ منه .
- 3 . بما أن الوجودَ أعظمُ من اللاوجودِ فالتصوُّرُ بعدم وجودٍ لا يُشكِّلُ تصوُّراً عن الله .
(إِعتماداً على (1) و (2))
- 4 . من غير القابلِ للتصوُّرِ أن الله غيرُ موجودٍ . (إِعتماداً على (1) و (3)) .
- 5 . الله موجودٌ . (إِعتماداً على (4)) .

الْخَلَلُ الْأَوَّلُ

يمكننا البرهنة على وجود أي شيء نريد بمجرد محاكاة الخطوات الست أعلاه.. مثلاً: لنعرّف "فيلوف" بأنه كائن كبير الحجم شبيه بفيل ضخّم له جناحان يتكلّم اللغة الفرنسية بأذنه اليسرى. يُمكن البرهان على وجود هذا الكائن الخرافي بمجرد إستعاضة كلمة "الله" أينما وردت في العبارات أعلاه بكلمة "فيلوف"!!!

ومن الطريف أنه يمكن البرهان على عدم وجود الله بنفس الحجة بإختيار مناسب للكلمات!!!!

يتصرف بعض المؤمنين على أسس هذه الحجة بالرغم من إدراكهم أنها لا ترقى أن تكون برهاناً سليماً. من المعلوم تاريخياً أن بعض معاصري أنسلم كانوا واعين الى هزالتها.

الْخَلَلُ الثَّانِي

على الرغم مما معروف عن ضعف هذه الحجة، لكن ليس من السهل تحديد المواضيع التي جعلها تافهة برهانياً. غير أن الفيلسوف عمانوئيل كانط (1724 – 1804) وضع إصبعه على موضع الخلل فيها. وهو أن الحجة إعتبرت خطأً أن "الوجود" صفة يتمتع بها كائن، وهي في الحقيقة ليست صفة للكائن.

منير: المفاهيم الفلسفية صعبة على مداركي. إني

لا أُميز بين "الوجود" و "الصفة".

أرجو مساعدتي على فهم الفرق بينهما.

دعني أوضّح: هنالك فرق بين قولنا إن كائناً ما يمتلك عشرة أصابع أو له أربع قوائم أو أن لونه أحمر وقولنا إنه موجود. إن اللون وعدد الأصابع والقوائم صفات للكائن، أمّا الوجود فليس صفة له.

إن العبارة: "شكسبير موجود". معلومة تقول شيئاً عن العالم. أي

أن الكون يحتوي أو إحتوى على كائنٍ إسمه شكسبير. لا تُزودنا هذه المعلومة بأيِّ صفةٍ عن شكسبير، لا عن طولِه ولا وزنه ولا عن قابليّاته الأدبية ولا عن مكانته الإجتماعية.

تخلطُ الحجّةُ بين الوجودِ في الواقعِ الملموسِ من ناحيةٍ، والوجودِ على المستوى الإدراكي من ناحيةٍ أُخرى. على سبيل المثال: لا يُمكنُ مقارنةُ وجودِ الرئيس الأمريكي أوباما مع وجودِ العددِ المعروفِ برمزِه π.

الْخَلَلُ الثَّلَاثُ

من بين الأسئلة التي لا نجدُ لها أجوبةً بالحجّة الوجودية:
كيف نعلمُ أن الوجودَ أعظمُ من اللاوجودِ؟
وكيف تُقاسُ الـ"أعظمية"؟

الْحُجَّةُ مِنَ التَّصْمِيمِ الذَّكِيِّ

الْحُجَّةُ مِنَ التَّصْمِيمِ الذَّكِيِّ عَلَى عَكْسِ الْحُجَّةِ الْوَجُودِيَّةِ، تَعْتَمِدُ عَلَى الْخَبْرَةِ وَالْمَشَاهِدَةِ الْمُسْتَقْرَأَةِ مِمَّا يُلْمَسُ مِنْ أَدْوَاتٍ عَادِيَّةٍ. مِثْلًا صَانِعُ سَاعَاتٍ فِي سويسرا يَصْمُمُ سَاعَاتٍ، وَصَانِعُ سِيَارَاتٍ فِي ديترويت يَصْمُمُ سِيَارَاتٍ، وَصَانِعُ الْمَعْجَنَاتِ فِي إيطاليا يَصْمُمُ وَيَصْنَعُ السِّبَاكِيَّتِي.

تُنَعْتُ الْفَلَسَفَةَ الْمَوْجَّهَةَ لِهَذِهِ الْحُجَّةِ بِـ"الْغَائِيَّة" الَّتِي نَشَأَتْ مِنْذُ الْعَهْدِ الْإِغْرِيْقِيَّةِ Teleological Philosophy.

إِقْتَرَحَ بَعْضُ الْفَلَسَفَةِ مِثْلُ إِفْلَاطُونِ نَعَتْ مَصْمُمِ الْكُونِ بِالصَّانِعِ الْإِلَهِيِّ، وَرَفَضَ فَلَاسِفَةٌ آخَرُونَ مِثْلُ أَرْسَطُو تَكِ التَّسْمِيَةَ مَفْضَلِينَ تَسْمِيَةً أَقْرَبَ إِلَى الطَّبِيعَةِ. وَفِي الْعَصْرِ الْوَسْطَى سَاهَمَ آخَرُونَ مِنْ أَمْثَالِ إِبْنِ سِينَا وَتُومَا الْإِكْنِي فِي مَضْمَارِ الْفَلَسَفَةِ الْغَائِيَّةِ.

طَوَّرَ الْقَسِيْسُ الْأَنْكَلِيْكَانِي وَليْمَ پَالِي (1743 – 1805) William Paley فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ الْحُجَّةَ الْغَائِيَّةَ بِنَمْوْذَجِ الْمَشْهُورِ "السَّاعَةِ الْيَدِيَّةِ". لِتَبَاعِ الْآنَ مَحَاوَلَتُهُ الْبَرْهَانِيَّةَ:

- 1 . من المعروف أن كل أداة ذات شيء من التعقيد (مثل ساعة يدوية) تتكون من مجموعة مركبات مترابطة بعضها ببعض بحيث أن كلاً منها يعمل بانتظام ووثام مع غيره لتؤدي الأداة بكاملها وظيفة معينة أو تخدم هدفاً محدداً، (الهدف بالنسبة الى الساعة هو قياس فترة زمنية). من البديهي

إستحالة قيام حيوان غير عاقل مَهْمَا أُعْطِيَ من وقت ليقوم بتجميع وربط المركبات بصورة صحيحة ومُحَكِّمَةً منتجاً الأداة كاملةً وجاهزةً لتنفيذ مهامٍ وظيفتها المعروفة .

ومن البديهي أيضاً إستحالة إتمام كل ذلك التجميع والربط في لحظة واحدة بفعل ظاهرة طبيعية كإعصار يهب مصادفةً ضارباً مخزن "خردوات" .

2 . إذن لا بد من أن يتوافر للأداة مصممٌ ذكِّي (بشري أو غير بشري) يمتلك فكرةً مسبقةً وواضحةً عن الوظيفة التي ستؤديها الأداة أو عن الهدف الذي سيخدمه نتاج تصميمه .

3 . من جهة أخرى ، يتكون كل من الأجهزة العضوية للكائنات الحية كالعين والجهاز العصبي والقلب وجهاز الدورة الدموية... الخ . من مجموعة مكونات عضوية مترابطة فيما بينها . يعمل كلٌّ منها بإنسجامٍ ووثامٍ مع غيره من المكونات كي يؤدي الجهاز وظيفةً معينةً أو يخدم هدفاً محدداً يحتاجه الكائن الحي .

(بناءً على (1) و (2)) على سبيل المثال : يحتوي الجهاز البصري على عين وقرنية وعدسة وأعصاب بصرية وأجفانٍ

والى آخر الأجهزة الأخرى . تعمل تلك الأجهزة سوية بصورة متناغمة كي تتيح الإبصار للكائن الحي . ومن الواضح أيضاً إستحالة أن تلعب المصادفة المحضة في تجميع الأعضاء والأنسجة لتشكيل الجهاز العضوي الكامل .

4 . إذا تطلب وجود أداة كالساعة اليدوية مُصمماً ذكياً ، فالأحرى أن يتطلب كل جهاز عضوي (حيث أن كلاً منها أشد تعقيداً من الساعة ببلايين المرات) مُصمماً ذكياً يصممه بإدراك تام لغرض أداء وظيفة يعيها المصمم مسبقاً ويهدف الى الوصول إليها .

5 . من المعلوم أنه لم يكن للأجهزة العضوية مصمم بشري .

6 . يجب أن يكون للأجهزة العضوية مصمم ذكي لا بشري .

(بناءً على (4) و (5))

7 . الله هو المصمم الذكي .

الخلل الأول

تبدو العبارة (4) بالنسبة الى معظم الناس أنها ضربة قاضية على تفكير كل من يشك بوجود الله. لكن بالرغم من ذلك هي

إنزلاقٌ فكريٌّ لم يعِ إليه أحدٌ قبلَ ظهورِ نظريةِ التطورِ لِتشارلس دارون⁹¹.

إذ يكمنُ ضمناً في العبارة (4) افتراضٌ بوجودِ بديلينِ إثنيين لا ثالثٍ لهما في تفسيرِ وجودِ الأجهزةِ العضويةِ للكائناتِ الحيةِ هما:
إمّا مصمّمٌ ذكيٌّ، وإمّا مصادفةٌ محضة.

بطبيعةِ الحالِ لا يمكنُ الأخذُ بالمصادفةِ. لن يبقى تفسيرٌ لوجودِ الأجهزةِ العضويةِ سوى مصمّمٌ ذكيٌّ، وهو المطلوبُ والمبهِجُ الى دعاةِ هذه الحجّةِ.

لكن الإبتهاجَ لم يدمَ طويلاً.

منير: ماذا إستجدَ لوءدِ إبتهاجِ دعاةِ حجّةِ

التصميمِ الذكي في مهدها؟

عزيزي منير، ينبغي أن لا تنسى إنبثاقَ نظريةِ التطورِ في منتصفِ القرنِ التاسعِ عشر!!! إذ لم يَعدْ هناكُ - بعد إنبثاقِها - وجودُ أيِّ شيءٍ غيرِ مصمّمٍ بشرياً يتطلّبُ مصمّمًا فوقبشري. إذ يُنتجُ التطورُ بإلصطفاءِ الطبيعيِّ محاكاةً لتصميمٍ يرقى الى إرتفاعٍ مذهلٍ من التعقيدِ والأناقةِ.

هكذا أزالَتُ نظريةُ التطورِ الخلفيةَ الفكريةَ المفترضةَ ضمناً في العبارة (4) التي تُحتمُ وجودَ مصمّمٍ ذكي.

تحتاجُ هذه الآراءُ المتعلقةُ بنظريةِ التطورِ الى مزيدٍ من التوضيحِ:

- تُكوّنُ الكائناتُ الحيةُ بالتكاثرِ نسخاً من أنفسِها التي بدورها تُكوّنُ نسخاً من أنفسِها وهكذا دواليك.

- يؤدي التكاثرُ إلى إنحدارِ أسلافٍ ينمو عددهم باطرادٍ أُسِّي .
- تؤدي محدوديةُ مساحةٍ وحجمٍ أي بيئةٍ تعيشُ فيها الكائناتُ إلى تنافسٍ فيما بينها على الطعام والطاقةِ وضرورياتِ التكاثرِ .
- يستحيلُ بلوغُ سيرورةِ الإستنساخِ التكاثريِ درجةَ الكمالِ المطلقِ . ممَّا يؤدي إلى حدوثِ أخطاءٍ عشوائيةٍ أو إنحرافاتٍ عمَّا معهودٌ عند بعضِ الكائناتِ على نحوٍ غيرِ متوقعٍ . بعضٌ من تلك الأخطاءِ مفيدةٌ للكائنِ الذي تحدُّثُ عنده وبعضُها ليست ذات فائدةٍ . تساعدُ الأخطاءُ المفيدةُ الكائنَ الذي تحدُّثُ عنده في رفعِ كفاءتهِ على منافسيه في الحصولِ على الطعامِ أو على التكاثرِ أو على ديمومةِ بقاءِ النوعِ .
- يؤديُّ - على المدى البعيدِ - وقوعُ أيِّ خطأٍ مفيدٍ عند كائنٍ، إلى هيمنةِ أحفادهِ على منافسيه .
- وتؤدي هذه السيرورةُ خلالَ أجيالٍ عديدةٍ فيما يخصُّ الكائناتِ غيرِ المستفيدةِ إمَّا إلى إنقراضِها، وإمَّا إلى بقائها

ستظهرُ الكائناتُ المهيمنةُ بعد مرورِ أجيالٍ عديدةٍ كأن مصمِّمٌ قد صمَّمها في الأصلِ لكفاءةٍ أعلى . أمَّا في الواقعِ، فإنها لم تعملُ شيئاً سوى حفاظِها على تراكمِ "الأخطاءِ" التي حدثتْ قبل أجيالٍ وأدَّتْ في الماضي إلى إرتفاعٍ في كفاءتهم التكاثريةِ .

منير: لقد قرأتُ كثيراً عن التطورِ . غير أن هذه النقاطُ وضَّحتُ لبي التطورَ بفعلِ الإصطفاءِ الطبيعي . توضيحاً بلورياً، فغدوتُ مدركاً

أن سيرورة التطور تُحدثُ إنطباعاً خادعاً بوجودِ
تصميمٍ من قِبَلِ مصمِّمٍ فعليٍّ ذي تبصُّرٍ وحكمةٍ.
شكراً، يا منير، على هذا التلخيص الوافي.

كما أننا نتعلمُ من نظرية التطورِ الداروينيةِ وجوبَ عدمِ الافتراضِ بأنِ
التصميمَ هو البديلُ الوحيدُ للمصادفة.

الْخَلَلُ الثَّانِي

دعنا، لغرضِ العثورِ على مزيدٍ من النقاشِ، نُقرُّ بوجودِ مصمِّمٍ ذكيٍّ
غيرِ بشريٍّ. فستظهرُ مواطنُ خللٍ أُخرى.

من دون شكٍّ أن المصمِّمَ الذكيَّ المفترضَ وجوده، أكثرُ تعقيداً من
الأجهزةِ العضويةِ التي خطط لتصميمها ونفذَ مخططاته. إذن لأبدٍ
أن يُثيرَ بدوره سؤالاً لنفسه: "مَنْ صمَّمَنِي؟". ممَّا يتحتمُّ إستناداً
على الحجَّةِ نفسها وجودُ مصمِّمٍ ذكيٍّ له. هكذا حصلُ عليّ متتابعةٍ
إرتداديةٍ لامنتهيةٍ عنصرها الأولُ الأجهزةُ العضويةُ المعروفةُ وكلُّ عنصرٍ
آخرٍ فيها مُصمِّمٌ ذكيٌّ لما قبله.

أغفلَ دعاءُ الحجَّةِ تناولَ موضوعِ المتتاليةِ برميتهِ. فوقعوا في مطبِّ
مغالطةٍ أُخرى هي:

الإستعانةُ بـلغزٍ لحلِّ لغزٍ آخرٍ .

الْخَلَلُ الثَّالِثُ

سؤالٌ آخرٌ لا بُدَّ أن يُثارَ: أليس من الممكنِ وجودُ أكثرَ من مصمِّمٍ
ذكيٍّ واحدٍ؟

من الملفتِ للنظرِ أنه تمَّ تمريرُ أو تهريبُ وحدانيةِ المصمِّمِ الذكيِّ دون
برهانٍ من خلالِ أداةِ التعريفِ "الـ" في كلمةِ "الـ مصمِّمٍ".

الْحُجَّةُ مِنْ التَّعْقِيدِ لِلاِخْتِرَالِي

بعد إنهيار حجة التصميم الذكي بفضل ظهور نظرية التطور بدأ دعائها عند نهاية القرن الماضي ومطلع الحالي بمحاولة إنعاشها. فجاءوا بمفهوم جديد هو "التعقيد الإلختزالي Irreducible Complexity" إستحدثه عالم الكيمياء الحياتية، مايكل بيهي Michael Behe في كتابه "Darwin's Black Box" بوصفه بعض الأجهزة العضوية أنها مُعقدة لإختزالياً.

يكون جهازٌ عضويٌ لإختزاليٌ التعقيد — حسب بيهي — إذا كان مكوناً من أجزاءٍ متعددةٍ شديدة التماسق والترابط بعضها ببعض بحيث أن تحويلَ أو إزالة أيِّ جزءٍ من أجزائه يؤدي الى توقف الجهاز عن أداءٍ وظيفته.

يوضّح بيهي فكرته عن مفهوم الإلختزال بنموذج مصيدة الفئران، تلك الأداة البسيطة التي لا تخلو منازلنا منها، تتكون المصيدة من أربع قطع: القاعدة والطعم والنابض والماسك تتعاون بعضها مع بعض. يجب أن تكون جميع الأجزاء في مكانها كي تؤدي المصيدة وظيفتها. إذ أن إزالة جزءٍ من أجزائها يعطل وظيفتها كمصيدة فئران.

تستند حجة التعقيد الإلختزالي على أن بعض الأعضاء الحيوية المتوافرة لكائناتٍ معاصرة، تبلغ من التعقيد درجة بحيث لو كان العضو أقل تعقيداً لإستحال أن يكون له فائدةٍ لكائنٍ تطوّر بالأصطفاء الطبيعي الى كائنٍ معاصر.

يُقرُّ مؤيدو التعقيد الإلختزالي بإمكانية تطوّر أجهزةٍ معقدةٍ بالإصطفاء الطبيعي، لكنهم يعتقدون باستحالة تطوّر أجهزةٍ ذواتٍ تعقيدٍ لإختزاليٍ عبر الإصطفاء الطبيعي.

من الأمثلة التي يدعي بيهي أنها أجهزة لالآختزالية التعقيد: قرنيه العين وإنفعااتُ تخثرِ الدمِ وجهازِ المناعةِ التكيّفي والسياطِ في بكتريا السوطيات Flagellum.⁹²

لنتابع الآن خطواتِ المحاولة البرهانية لِحجة التعقيد الالآختزالي:

- 1 . تعترفُ نظريةُ التطورِ بعدمِ حدوثِ تغييراتِ جينية لخدمةِ هدفِ مسبقِ أو نتيجةِ تصمِيمِ مَحَدَد . فينبغي إذن أن تشكل كلُّ خطوةٍ تغييرية على الجينات تحسِيناً على سابقاتها كي تتيح للكائن الإستمرار في البقاء على قيد الحياة والتنافس الأفضل على التكاثر مع منافسيه .
- 2 . تتوافرُ للكائنات الحية المتقدمة في سلم التطورِ بعضُ الأعضاء الالآختزالية التعقيد .
- 3 . يستحيلُ تطوُّرُ الأعضاء ذواتِ التعقيد الالآختزالي من صيغة أبسط وأقل تعقيداً بسببِ عدمِ فائدةِ العضو الأبط تعقيداً للكائن الذي يملكه .
(بناءً على (2)) .
- 4 . تعجزُ نظريةُ الإصطفاء الطبيعي تفسيرِ وجودِ أعضاء عقدة لالآختزاليا .

- (بناءً على (1) و (3) .
- 5 . الإصطفاء الطبيعيُّ هو الوسيلةُ الوحيدةُ
لإبطال نتائج حجة التصميم الذكي .
- 6 . الله موجودٌ . (بناءً على حجة التصميم
الذكي وعلى العبارتين (4) و (5) .

الخلُّ الأولُ

لا تصحُّ العبارةُ (2) على جميع الأعضاء. مثلاً من الممكن أن تكون
رؤيةً مشوشةً⁹³ بعينٍ من دون عدسة.

الخلُّ الثاني

ربّما أن إزالة جزءٍ أو إجراء تحويلٍ على عضوٍ معقّدٍ لأختزالياً تجعلُ
الجهازَ غيرَ ذا فائدةٍ لوظيفته الراهنة، لكن من الممكن أن كانت له
فائدةٌ للكائن على شكلٍ وظيفيةٍ أخرى. على سبيلِ المثال، كانت
أجنحةُ الحشراتِ قبل تطورها إلى كبرٍ كافٍ لطيرانٍ كفوءٍ تُستعملُ
لتبادلِ الحرارةِ بالتهوية. ويصحُّ هذا القولُ على أغلبِ الآلياتِ
الجزئيةِ مثلُ محرِّكِ السوطياتِ المُستشهِدِ به كأحدِ الأعضاءِ المعقّدِ
لأختزالياً.

الخلُّ الثالثُ

تعتمدُ إستراتيجيةُ دعاةِ هذه الحجّةِ على التفتيشِ في عالمِ الأحياءِ
على أجهزةٍ عضويةٍ لأختزاليةٍ التعقيدِ، لتقديمها دعماً لآرائهم.

يكنم الخلل في الحجة بالافتراض المسبق أن مجرد وجود جهاز لا اختزالي في تعقيده يشير بالضرورة الى وجود مصمم فوق بشري. إن هذه الإستراتيجية أسلوب لا علمي لمنهج العمل في محاولة برهان من حالة خاصة مقتبسة من موقف جهل في المعرفة العلمية الراهنة من جهة أخرى يقر العلماء (غير المتحمسين الى هذه الحجة) بعدم صعوبة ولا غرابة في إكتشاف نماذج لأجهزة لا اختزالية في تعقيدها وربما يساهمون أنفسهم في إكتشاف بعض منها. ويقرّون بوجود أجهزة عضوية شديدة التعقيد التي لا زالوا حتي الآن يجهلون كيف كان يستفيد منها كائن سابق قبل تطوره وهي أقل تعقيداً. لكن — بناءً على النجاحات في ملء فجوات المعرفة العلمية الراهنة — يكون التعويل على التقدم المستقبلي في العلم أكثر عقلانية من الإستشهاد بمصمم فوق طبيعي لمجرد تفسير تلك الفجوات، فيستعان بالقدرة الإلهية لتغطية الجهل.

منير: أخشى أن الأستاذ بيهي يستعمل مفهوم التعقيد الالاهي كطعم في مصيدة. (شبيهة بطعم مصيدة الفئران) ليدعي في نهاية المطاف أن جميع الأجهزة العضوية معقدة لا اختزالياً فيعاد الإعتبار الى حجة المصمم الذكي.

هذا ما أخشاه أنا أيضاً

الْحُجَّةُ مِنْ ثُغَرَاتِ فِي الْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ

إن حجة إله الثغرات "God of the Gaps" قديمة. إستعملها المدافعون عن الدين وكبار العلماء معتمدين على وجود فجوات في المعرفة العلمية غير قابلة للتفسير إلا بتدخل إلهي وبالتالي تشكل برهاناً على وجود الله.

والحجة شكل من إستنباط غير مقبول علمياً حيث يُفترض وجود يد خفية لـ الله تُسيّر أمور الكون من دون دليل ولا برهان وغالباً يتجاهل تام إبدائل عقلانية ممكنة. هي حجة مبنية على الجهل بالصيغة الآتية:

1 . لا نعلم سبب حدوث X .

2 . إذن سبب X هو الله .

بعبارة أخرى يُتخذُ الله سداً للثغرات في المعرفة العلمية.

كانت هذه الحجة قبل القرون الأربعة الأخيرة من الحجج المألوفة، ربّما بسبب المساحة الكبيرة لفجوات المعرفة العلمية آنذاك وعدم توافر مؤشرات الى تقلصها. مثلاً: لما كان سبب نزول صاعقة مدمرة مجهولاً، فيعزى نزولها الى الله عقاباً على الخطاة.

أخذت حجة "إله الثغرات" تفقدُ فعاليتها بسبب ما تواجهه بمرور الزمن من التقلص المطرد في عددها.

الْخُلُّ الْأَوَّلُ

كي نلمس مغالطة هذه الحجة، دعنا نلقي نظرة سريعة على نماذج من حجج مشابهة كانت سائدة في عهود سابقة من تاريخ البشر.

- قبل 2000 سنة:
لم نكنْ نعلمُ سببَ البرقِ فإِذنْ أنْ إلهاً يُنزلُ الصواعقَ .
- قبل 1000 سنة:
لم نكنْ نعلمُ كيفَ تسيرُ الكواكبُ في مسالكِها
فيجبُ أنْ تدفعَها الملائكةُ .
- قبل 500 سنة:
لم نكنْ نعلمُ أسبابَ الأمراضِ فيجبُ أنْ تكونَ عقوباتٍ
مرسلةٌ من الله .
- قبل 100 سنة:
لم تكنْ لدينا نظرياتٌ عن نشأة الكونِ فيجبُ إذنْ أنه
من صنعِ الله .
- قبل 60 سنة:
لم نكنْ نعلمُ كيفيةَ إنتقالِ الجيناتِ من الأبوينِ الى
أطفالِهما فيجبُ إذنْ أنْ الله يطبعُها على أرواحِهم .

مع مسيرة التقدم العلمي تنبثق تفسيرات طبيعية، فتتكشف فجوات معرفتنا العلمية تاركَةً فراغاً يطرُدُ في الصغرِ حجماً وعدداً. وبما أن المعرفة البشرية مستمرة في التقدم والتوسع، فمن غير المعقول الافتراض ببقاء فجوة ما زماً طويلاً.

لعل أحسن مثال نموذجي عن غلق فجوة علمية هو موضوع إستقرارية المنظومة الشمسية (الذي تنازلته في مقابلة سابقة. لكن لا يوجد ضررٌ في الإعادة).

إستطاع إسحق نيوتن Isaac Newton (1642-1727) وهو من أعظم العلماء في التاريخ، — إستطاع — معتمداً على نظريته في الجاذبية وعلى المعادلات الرياضية إستنتاج قوانين مسارات الكواكب والتنبؤ الدقيق بها نظرياً.

من المؤكد أن نيوتن كان مدركاً أن التجاذبات المتبادلة بين الكواكب الدوارة حول الشمس توول - حسب نظرياته - الى اضطرابات بسيطة في مسار كل منها، ومدركاً أن تراكم تلك الاضطرابات خلال ملايين السنين من وجود المنظومة الشمسية كان لا بد أن يؤدي الى زعزعة النظام الشمسي بكامله، فتتصادم كواكب بعضها ببعض وتنهزم أخرى من سيطرة الشمس وتبتلع الشمس بعض توابعها من الكواكب. وأخيراً تبقى الشمس نجمة تكلى دون كواكب تدور حولها.

إلا أن هذا لم يحدث خلال تلك البلايين من السنين.

مما يدل على تمتع المنظومة الشمسية بالإستقرارية (أي أن هنالك سبب ما يمنع تلك الاضطرابات البسيطة من التراكم خلال العصور الفلكية).

من المؤكد أن نيوتن - بالتعويل على نظرياته وعلى الرياضيات التي إكتشفها والمتوافرة لديه - حاول البرهان على إستقرارية المنظومة الشمسية (أي حاول الوصول الى معرفة ذلك السبب إعتقاداً على نظرياته). لكنه بالرغم من عبقريته الفذة أخفق في مسعاه. مما اضطره أخيراً الى الإعتقاد أن سبب الإستقرارية الظاهرة يكمن في تدخل القدرة الإلهية بصورة دورية لإعادة النظام الشمسي الى نصابه⁹⁴

من مفارقات القدر أن نيوتن - ذلك العبقرى العظيم الذي أغلق بنتائج إكتشافاته وبحوثه المتعددة فجوات في المعرفة العلمية أكثر من أي عالم آخر - اضطر الى إقحام الله لتفسير مشكلة علمية لم يجد لها تفسيراً.

لكن بعد قرابة مرور قرن من ذلك الزمن تقدمت خلاله الرياضيات

النيوتنية وتطورتُ ببحوثِ رياضياتين كثيرين، إستطاع الرياضياتي الفرنسي پيير سيمون لاپلاس (1749-1827 Pierre-Simon Laplace) البرهنة رياضياتياً على إستقرارية المنظومة الشمسية. ونشرَ البرهانَ في كتابه ذي الأجزاء الخمسة والمعنون "الميكانيك السماوي"، فأغلقَ الفجوةَ في المعرفة العلمية (التي أفلقتُ نيوتن) بصمّامِ رياضياتي وليس إلهي.

ويُحكى أن لاپلاس أهدى كتابه شخصياً الى الإمبراطور ناپليون بوناپرت (المعروفُ عنه أنه ذو إطلّاعٍ واسعٍ في الرياضياتِ والفيزياءِ) فوجّه سؤالاً الى لاپلاس:

مسيو لاپلاس لا أجدُ في هذا المجلدِ الضخمِ أيّ ذكرَ لله .

فأجابَ لاپلاس: "سيدي لا أحتاجُ الى هذه الفرضية".

من الجدير بالذكرِ أن تعلّمَ بعضُ اللاهوتيين المتفتحين الى حدٍّ ما — من أمثالِ ديتريش بونهوفر⁹⁵ — درساً من قصة نيوتن ولاپلاس وغيرها من قصصِ مسيرة التقدمِ العلميِّ المطرّدِ والمتسارعِ بوجوبِ عدمِ إتخاذِ الله سداًداً للثغراتِ في المعرفة العلمية.

إذن يجبُ علينا — حسبما يرى أولئك اللاهوتيون — محاولة معرفة الله في مجالاتٍ ما نعرفُ وليس في مواضعٍ ما نجهلُ. فهم يريدون إدراكَ وجودِ الله ليس في مواقعِ المشاكلِ غيرِ المحلولة بل فيما هو محلولٌ منها. إن ما يُقلقُ لاهوتيونَ من أمثالِ بونهوفر حقيقةً أن تقلصَ الفجواتِ بتقدمِ العلمِ يُهددُ اللهَ في نهايةِ الأمرِ ببقائه بلا عملٍ ولا مكانٍ يختبئُ فيه!!!

أمّا غيرُهُم من دعاةِ حجةٍ إستراتيجيةٍ منطقيٍ إلهِ الثغراتِ فلا زالوا

متلهفين شوقاً الى العثور على فجوة في فهمنا الحالي للعلم. وإذا ما عثروا على ما ينشدون اليه فيُفترضون إفتراضاً مسبقاً وجوب ملئ الفجوة بوجود تدبير إلهي.

لكن العلميين لا تُقلقهم وجود ثغرات جهل في المعرفة العلمية. إذ يرون أن جزءاً جوهرياً من أسلوب الطريقة العلمية هو الإعتراف الصريح بالجهل الأتي ليكون محفزاً لإجراء مزيد من بحوث علمية التي ربّما تؤدي الى فتوحات مستقبلية.

الخل الثاني

إن إغلاق فجوة في المعرفة العلمية بحشر الله لا يحل المشكلة الأصلية بل مجرد تجاهلها. مثلاً إذا كان الجواب عن السؤال "ما سبب الانفجار العظيم؟" بأن السبب هو إرادة الله، فلم يُجب عن السؤال الأصلي، ولا السؤال قائماً والفجوة في المعرفة العلمية مفتوحة. إضافة الى ذلك، إن التفسير المقدم نفسه يحتاج الى تفسير.

الْحُجَّةُ مِنْ دِقَّةِ التَّنْغِيمِ لِثَوَابِتِ الْكَوْنِ

يَعْلَمُ الْعُلَمَاءُ الْمُخْتَصُونَ بِالْكَوْنِيَّاتِ وَجُودَ مَجْمُوعَةٍ صَغِيرَةٍ مِنْ ثَوَابِتِ
فِيْزِيَاءِيَّةٍ - كِيْمِيَاءِيَّةٍ الَّتِي تَحَدَّدُ نَسِيْجَ الْكَوْنِ، وَبِالتَّالِيِ تُعَيَّنُ إِنتَاجُ
المُرْكَبَاتِ الكِيْمِيَاءِيَّةِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْحَيَاةِ عَلٰى كَوْكَبِنَا الأَرْضِي⁹⁶.
يُقْصَدُ بِالْعِبَارَةِ: إِنَّ الْكَوْنَ مُنْعَمٌ تَنْغِيْمًا دَقِيْقًا لِإِنْبِتَاقِ الْحَيَاةِ

The Universe is Fine Tuned For Life

أَنَّ تِلْكَ الثَّوَابِتَ مُحْكَمَةً إِحْكَامًا فِي غَايَةِ الدَّقَةِ، بِحَيْثُ يَقَعُ كُلُّ مِنْهَا
ضَمْنَ هَامِشٍ ضَيِّقٍ مِنَ الدَّقَةِ الِى دَرَجَةِ أَنْ أَيْ تَغْيِيرٍ طَفِيفٍ، فِي أَحَدِ
الثَّوَابِتِ الِى خَارِجِ هَامِشِهِ يَمْنَعُ مِثْلًا تَكْوَنَ الْكَرْبُونِ الضَّرُورِي لِلْحَيَاةِ،
وَلَا يُتِيْحُ تَغْيِيرٌ فِي ثَابِتٍ ثَانٍ زَمَنًا كَافِيًا لِإِنْشِوَاءِ المَجْرَاتِ، وَيُؤَدِّي تَغْيِيرٌ
فِي ثَالِثٍ الِى إِسْتِهْلَاكِ كُلِّ الهِيْدْرُوجِيْنِ وَالهِيْلِيُومِ فِي لِحْظَاتٍ قَلِيْلَةٍ عِنْدَ
نَشْأَةِ الْكَوْنِ، وَالِى آخِرِهِ. وَيُؤَوَّلُ كُلُّ مِنَ التَّغْيِيْرَاتِ الِى كَوْنٍ غَيْرِ
صَالِحٍ لِإِنْبِتَاقِ الْحَيَاةِ وَدِيْمُوْمَتِهَا.

يُؤْمَنُ كَثِيرٌ مِنَ الثِّيُولُوجِيِيْنَ وَالمُؤْمِنِيْنَ (وَحَتَّى بَعْضُ الْعِلْمِيِيْنَ مِنْ ذَوِي
مِيُولٍ وَتَطَلَعَاتٍ دِيْنِيَّةٍ) أَنَّ الظَّرُوفَ الْكَوْنِيَّةَ مُنْظَمَةٌ لِأَجْلِ أَنْ تَنُوجِدَ
الْحَيَاةَ، وَليْسَ العَكْسُ، أَنَّ الْحَيَاةَ إِنْبِتَقَتْ لِأَنَّ الظَّرُوفَ غَدَتْ مُلَائِمَةً
لِجُودِهَا.

96

- يَعْدُ مَارْتِنُ رِيْسُ الثَّوَابِتِ الَّتِي يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا التَّنْغِيمُ الدَّقِيْقُ لِلْكَوْنِ هِيَ:
- N: النِّسْبَةُ بَيْنَ الْقُوَى الجاذبِيَّةِ الِى الْقُوَّةِ الكِهْرُومَغْنَطِيْسِيَّةِ.
 - E: إِسْبِيْلُون: الْقُوَّةُ الَّتِي تُرْبِطُ النُّوْكَلِيُونِ مَعَ نَوَاةِ الذَّرَةِ.
 - W: أُوْمِيْغَا: الأَهْمِيَّةُ النِّسْبِيَّةُ لِلجاذبِيَّةِ وَتَوْسُّعِ الطَّاقَةِ فِي الْكَوْنِ.
 - λ: لِامْبِدَا: الثَّابِتُ الْكُوْنِي لِإِيْنْشْتَايْنِ.
 - Q: نِسْبَةُ قُوَّةِ الجاذبِيَّةِ اللّازِمَةِ لِسَحْبِ مَجْرَةٍ كَبِيْرَةٍ الِى الطَّاقَةِ المِكَافِئَةِ لِكَلْتَلِهَا.
 - D: عَدْدٌ مِنَ الأَبْعَادِ المِكَانِيَّةِ فِي الزَّمَانِ.

يشكّل هذا الإطارُ الفكريُّ إنزلاقاً في المنطق نحو مطبّ مغالطةٍ، ذكرتها سربقاً وأُطلقتُ عليها مصطلحُ ”مغالطةُ الأذنين والنظارات“⁹⁷. وقلتُ إن هذا النمطَ من التفكيرِ يُذكرني بنكتةٍ سمعتها من ممثلٍ هزليٍّ يقول:

وُجِدَتِ الأذنان لتُثَبَّتَ عليهما النظارات .

ضحكُ المستمعون طويلاً. لكن لو كان أحدُ أولئك المؤمنين من بين المستمعين ووعى أن النكتةَ نموذجُ كاريكاتري لما يعتقد، لما إستطرفها، بل لعله كان يعلّقُ على غرارِ إعتقاده قائلاً:

الأمرُ يبدو معقولاً .

فالأذنان قد نُغمتا تنغيماً دقيقاً للنظارات

وقد صُنعتا مفصّلةً خصيصاً لتُثَبَّتَ عليهما

النظارات .

إن الإيمان بأن الظروف الكونية قد ”طُبِختُ“ لأجل أن تنوجد الحياة ينسجم ويستند على الإعتقاد بأن الله خلق الكون وكل ما فيه من أجل الإنسان. لكن الإكتشافات العلمية منذ القرن السادس عشر الى مقربة نهاية القرن الماضي تشير الى العكس بأن الإنسان، بالنسبة الى الكون، ليس سوى كائناً يقفُ على حبة رملٍ دوّارة حول نجمةٍ متوسطة الحجم، وهو حفيدٌ لقرودٍ منقرض.

لكن فيروسَ الإيمان الديني المهيمن على عقول المؤمنين قد غيَّبَ عنهم بعض الحقائق عن كوكبنا الأرضي غير المتوائمة مع إيمانهم. إذ لم تكن الأرض خلال ملايين السنين من وجودها نصيرةً للحياة، بل كانت

”مغالطة الأذنين والنظارات“ تُسمى، في الأوساط المنطقية والفلسفية، ”مغالطة سرير بروكرست“. بروكرست شخصية أسطورية إغريقية. كان، حسب الأسطورة، يهاجم الناس ويقوم بمطّ أجسادهم أو قطع أرجلهم كي تنطبق تماماً مع سريره الحديدي.

والمقصود بالمغالطة: فرضُ قوالب على الأشياء أو على لى الحقائق كي تنسجم مع نظرة معينة.

خصيماً لها. وأن الحياة، كما نعهدُها الآن تقفُ على حافةِ سكين. إذ أن 99٪ من الأنواع الحياتية التي وُجِدَتْ عليها قد إنقرضت. ومَنْ يدري قد نتبعُ نحن، النوعُ العاقلُ، الداينوصوراتِ بِالإنقراضِ، بسببِ غبائنا، إمَّا عاقبةُ كارثةِ حربٍ نوويةٍ شاملة، وإمَّا نتيجةُ الإحترارِ العالمي!!!!

ومما لا ريبَ فيه أن كلَّ مَنْ هَيَّمنَ على أُطرِ تفكيره الرأْيُ بأن الظروفَ الكونيةَ نُغمَتْ لأجلِ الحياة، قد طَرَبَ فرحاً حينَ عِلِمِ، عندَ أواسطِ تسعينياتِ القرنِ الماضي، أن الثوابتِ الكونيةَ الأساسيةَ تبدو مُنغمَةً تنغيماً دقيقاً لإنبثاقِ الحياة. تلقَّفَ الثيولوجيونَ والمؤمنونَ تلكَ المعلوماتِ العلميةَ لِيستغلونها في ترميمِ بُنى عقائدهم الغيبية. وفسَّروا أن التنعيمَ الدقيقَ يُحتمُّ وجودَ كائنٍ عاقلٍ عملٍ بوعِي — قبلَ أربعةِ عشرِ بليون سنة — على تحديدِ الثوابتِ⁹⁸ كي يغدو الكونُ الناتجُ صالحاً الى ظهورِ كوكبٍ تتيحُ ظروفُه إنبثاقَ الحياةِ عليه خصوصاً حياتنا نحن البشر. ولهذا إستبشروا لأن العِلْمَ الذي كانوا يُحاربونه بدأً أخيراً يدعمُ آراءهم الإيمانية. فأخذوا ينشرونها على نطاقٍ واسعٍ في مقالاتٍ وكتبٍ وفيديوات. والرابطُ الآتي واحدٌ من تلكَ الفيديوات: <http://youtu.be/UplilaC4kRA>

ولاقت آراؤهم قبولاً حسناً في الأوساطِ الشعبية وخاصةً الدينية لأنها تدغدغُ مشاعرهم وتُرسِّخُ نرجسيتهم بأن لهم مكانةً متميزةً في الكونِ الذي صُنِعَ بِالأصلِ كي يَنوجدوا. يُحاججُ أولئكِ الثيولوجيونَ ومؤيدوهم على النحوِ الآتي:

1 . توجدُ بناءً على الآراء العلمية السائدة الثوابتُ K ، التي بفضلها تشكَّل الكونُ بمجرات ونجومٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى وبكلِّ ما يكمنُ فيه من المكوِّناتِ الأساسية لظهور الحياة .

2 . لا يمكنُ أن يكونَ كونٌ صالحاً لبزوغ الحياة ما لم تكنْ ثوابته هي الثوابتُ K نفسها .

3 . تتطلبُ ظاهرةُ تنعيمِ كوننا بالثوابتِ K المعدةً لإنبثاق الحياة . تفسيراً .

4 . لا يوجدُ سوى تفسيرين ممكنين هما :

أ . حدوثُ التنعيمِ الدقيقِ الهادفِ الى الحياةِ بمصادفةٍ عمياء .

ب . وجودُ كائنٍ عاقلٍ يهدفُ بوعيٍ الى تصميمِ كونٍ شاسعٍ مزودٍ بالعواملِ المؤديةِ الى إنبثاقِ الحياةِ في بعضِ أجزائه . فوضعُ ثوابتِ كوننا K لتحقيقِ هدفه

5 . يُقدَّرُ احتمالُ حدوثِ التنعيمِ بمصادفةٍ بحته بالعدد $10^{(-130)}$.

6 . لا يمكنُ إعتِقادُ (4) لضالَّةِ احتمالِ المقدرِ في (5) .

- 7 . إذن إستناداً على (6) و (4ب) يوجد كائنٌ عاقلٌ نجحَ في تصميم كونٍ صالحٍ لإنبثاق الحياة في بعض أجزائه (نطلق في هذا المقال على هذا الكائنِ المفترضِ مصطلحَ "المنعم الكوني") .
- 8 . يماهى المنعم الكوني مع الله .
أي أن المنعم الكوني هو الله ،
وأن الله هو المنعم الكوني .

منير: اقترح على دُعاة هذه الحجّة المطالبة بإضافة "المنعم" الى أسماء الله الحسنى .
هل تُثني على إقتراحي؟
أُثني وأُثني عليه.

للوهلة الأولى، تبدو الحجّة البرهانية سليمةً، لا شأنبةً فيها. لكن عند وضعها على طاولة التشريح المنطقي نجدُها تعاني من أمراضٍ عديدة.

عند تناولي الخلل الأول، سأغض النظر عن عبارة التماهي (8) وأركّزُ إهتمامي على المنعم الكوني، وسأتناول النتائج المترتبة على (8) لاحقاً.

الخلل الأول

إن العبارة (6)، التي يركزُ عليها البرهانُ إرتكازاً كاملاً وبينها من دونها تُشكّلُ دعماً ليس لوجود منعم كوني، بل

دعماً لعدم ضرورة وجوده.

على عكس ما يدّعي ويتصورف دعاة الحجّة.

يستند دعاة الحجّة عند تبنيهم العبارة (6) على ضالة الاحتمالية الواردة في (5). متعافلين قانون الأعداد الكبيرة، فوقعوا في مطبّ مغالطة منطقيّة، تُسمّى في الأوساط المنطقيّة والفلسفيّة "مغالطة اليانصيب"

منير: قد سمعتُ عن كثيرٍ من المغالطات المنطقيّة. لكنني لم أسمعُ بـ "مغالطة اليانصيب". ولا بـ "قانون الأعداد الكبيرة". فأرجو أن تساعدني على فهمهما، كي أتمكن من متابعة نقاشك حول مواطن الخلل في الحجّة.

ينبغي كي ألبّي طلبك التعرّيج الى موضوع المغالطة والى ما يرتبطُ معها من مفاهيم، أملاً ألاّ تطول التعريجة.

تعريجة توضيحية هامشية

إذا سئلت: ما احتمال فوزك في اليانصيب؟ ربّما سيكون الجواب "ضئيلٌ جداً. لكن يجب أن يفوز شخصٌ ما. عن طريق المصادفة العشوائية لا غير".

أمّا إذا سئلت: كيف ينفعل معظم من يفوزن؟ فأرجح أنك ستجيب: "يصرخون إنها معجزة!!!...كم أنا محظوظ!!!"

يُعزى أحد أسباب تمسك عددٍ ليس بقليلٍ من البشر بعقائدٍ عجيبةٍ وغريبةٍ الى ضعفٍ في إحساسهم الفطريّ بالإحصاء. إضافةً الى هذا، يُساء غالباً استخدام وسائلٍ ومفاهيم الإحصاء،

إمّا تعمداً لإبتغاء الوصول الى هدفٍ ما، وإمّا لتضبيبٍ في إستيعاب المفاهيم.

إن قانون الأعداد الكبيرة من النظريات المهمة في علم الإحصاء، التي يجهلها وربما يتجاهلها كثيرٌ من الناس. إنه ينصُّ على أن التردد النسبي لحادثٍ عشوائي يقترب من احتمالٍ حدوثة محسوباً نظرياً مع إزدياد عدد مرات إعادة التجربة عشوائياً.

نسوقُ للتوضيح مثلاً بسيطاً في لعبة رمي النرد. حيث يكون احتمال الحصول على وجهٍ محددٍ مسبقاً $1/6$. يكون الانحراف عن $1/6$:

- في 60 رمية بمقدار 8٪ مثلاً.
- في 600 رمية بمقدار 5٪ مثلاً.
- في 6000 رمية بمقدار 2٪ مثلاً.
- في 6 مليون رمية بمقدار 0.003٪ مثلاً.

هكذا نرى أن كلما إزداد عدد الرميات كلما إقترب المعدل من الحساب النظري. لكن، من الواضح أن احتمالية الرمية الواحدة تبقى $1/6$ في كلِّ الحالات

لا حاجةً للتأكيد على أن نجاح شركات التأمين وكازينوات المقامرة ومؤسسات اليانصيب في أعمالها يعتمد على أسس من قانون الأعداد الكبيرة، أو بالأصح على صيغٍ منه تناسب أعمالهم.

كثيرٌ من الناس حين يواجهون ظاهرة عسيرة الفهم على مدار كهم وذات احتمالٍ لحدوثها ضئلاً من ضالة لا تتصورها عقولهم، عندئذ يستخدمون علم الإحصاء بسذاجة. فتظهر

المغالطات الإحصائية، وأن إحداها مغالطة اليانصيب التي نحن
بصددها .

يُقالُ عن شخصٍ إنه وقعَ بمغالطةِ اليانصيبِ إذا عَزِيَ حدثٌ
ظاهرةٌ ضئيلةُ الإحتماليةِ الى تدخلٍ خارجيٍّ من دونِ أدلةٍ كافيةٍ
ومن دونِ الرجوعِ الى قانونِ الأعدادِ الكبيرةِ .

مثلاً يَعْرِى ربحه بطاقةِ يانصيبِ الى معجزةٍ ربّانيةِ .

ولعلَّ أحسنَ مثالٍ واقعيٍّ هو أن يُعزى إنقطاعُ المطرِ لمدةٍ طويلةٍ
في المملكةِ العربيةِ السعوديةِ الى تدخلِ إلهيٍّ، ويؤمَّرُ بالتضرعِ
الى اللهِ بتلاوةِ صلاةِ الإستسقاءِ!!!! وكأنَّ ليس هنالك شيءٌ
إسمُه علمُ الأنواءِ الجويَّةِ ولا معطياتٌ وإحصائياتٌ عن حالةِ
الجوِ .

على السعوديينِ الإدراكُ أن أيَّ ظاهرةٍ مهما ضؤلَّ إحتمالُ
حدوثِها ستحدثُ إذا أُعطيَتْ الوقتُ الكافي .

يبدو أن كثيراً من المؤمنينَ يعتقدون أن لا مكانَ لعشوائيةٍ عمياءِ
فيتمسكونَ نتيجةً الى ذلكِ بضرورةٍ وجودِ مسببٍ خارجيٍّ
يُعزى اليه وقوعُ حادثٍ ضئيلِ الإحتمالِ، فيقعونَ في مطبِّ
”مغالطةِ اليانصيبِ“ .

لكن قليلاً من التأملِ يُظهِرُ أن الإحتماليةِ الضئيلةِ هي التي
تسيرُ وتتحكَّمُ بحياتنا ووجودنا .⁹⁹

سأبينُ أن وجودَ أيِّ إنسانٍ هو نتيجةٌ عشوائيةٌ من دونِ أيِّ
مصمِّمٍ أو منعمِّمٍ، من خلالِ سيناريوِ المثالِ الافتراضيِ التالي :

حدثَ عطبٌ مفاجئٌ في سيارةٍ تقودُها فتاةٌ على الطريقِ العامِ .
 نزلَ شابٌ شهيمٌ لمساعدتِها . ثم توثقتُ العلاقاتُ بينهما
 وأصبحا بعدئذٍ والديَّ شخصٍ نسميه X .
 ينطوي حادثُ السيارةِ وحدهُ على كثيرٍ من المصادفةِ . إذ لولا ه
 لما إلتقى والدا X ولما وُجدَ X على الإطلاقِ . لكن الحادثَ
 أصغرُ غيضٍ من فيضٍ . حتَّى إذا خططَ والدا X عمداً على
 إنجابِ طفلٍ فإن تلقيحَ الحيمنِ البويضة الذي نتجَ منه X
 إحتمالٌ واحدٌ على عدة ملايين . وينطبقُ شيءٌ مشابهٌ على
 أجدادِ X ، و ثم على أجدادِ أجداده ... وهلم جرا . إذن
 إحتمالُ ظهورِ X الى الوجودِ أقلُّ من (-150) 10^{\wedge} . ورغم
 ذلك وُجدَ X فعلاً من دون تدخلٍ مصممٍ ولا مُنعمٍ ، بل
 بإحتماليةٍ غبيةٍ عمياء . وينطبقُ القولُ عليّ وعلينا جميعاً .

الآن وبعد هذه التعريجة الطويلة، نعودُ الى إستنتاجِ معتركنا
 المنطقي مع دعاة التنعيم الكوني للحياة وقد تسلحنا بفهمٍ أعمقٍ لمفهومِ
 الإحتمالية وتحكمها في حياتنا .

قلنا إن الإعتمادَ على ضالةِ الإحتمالية الواردة في (5) عند إستنتاجِ
 (6) أوقعَ دعاة البرهانِ في مطبِّ "مغالطة اليانصيب" . وقلنا أيضاً إن
 العبارة (6) ، بعكسِ ما يدَّعي ، تُشكِّلُ دعماً ليس لوجودِ مُنعمٍ كونيِّ ،
 بل دعماً لعدمِ ضرورةِ وجوده . (مع التأكيد على كلمة "ضرورة") .

أمّا الآن فأودُّ أن أجلبَ إنتباهَ دعاة الحجّة الى تركيزِ تفكيرهم بِشأنِ
 ذلك الكائن الكوني الراغبِ في خَلْقِ الحياةِ والذي يسعون الى
 البرهانِ على وجوده ، فأوجّهُ الى عناية تأملاتهم السؤالِ الآتي:

لماذا صنعَ ذلك الكائنُ المفترضُ كوناً شاسعاً ذا ملايين
البلايين من المجرات والنجوم كي تنبثقَ عليها الحياةُ بعدَ
إنتظاره زمناً دامتْ أكثرُ من ثلاثِ عشرةِ مليارِ سنةٍ،
وهو لا يحتاجُ سوى الى خُلُقِ كوكبٍ واحدٍ
فقط لتحقيقِ رغبتِه؟

لا أرغبُ في الإجابةِ عن السؤالِ بدلاً عنهم. لكن ربّما أستطيعُ شحذَ
تفكيرهم إذا أضفتُ قائلاً:

كان من الممكنِ أن لا يسقطوا في مطبِّ مغالطةِ اليانصيبِ لو إستعانوا
بقانونِ الأعدادِ الكبيرةِ وتأمّلوا النتائجَ المترتبةَ من تطبيقه على
حقيقةِ واقعِ كوننا المترامي الأطرافِ، الواسعِ في الكبرِ،
والعتيقِ في القدمِ. إذ أن القانونَ يبيِّنُ إمكانيةَ إنبثاقِ الحياةِ من كونٍ
في ذلك الكبرِ والقدمِ، من دون ضرورةٍ يتحتّمُ بموجبها وجودُ كائنٍ
عاقِلٍ يهدفُ بوعيٍ الى تصميمِ الكونِ كي يحققَ مرماه.

وأقولُ إضافةً الى ما سبق:

لو سمحَ دعاةُ الحجّةِ إدخالَ في حساباتِ خياراتِهِم إمكانيةً أن تكونَ
الحياةُ قد ظهرتْ بمصادفةٍ عشوائيةٍ محضةٍ، فعندئذٍ سيتضحُ لهم أن
إتاحةَ إمكانياتٍ وفرصٍ كافيةٍ لتتكوّنَ العناصرُ الكيميائيةُ
الضروريةُ المكوّنةُ للمركّباتِ العضويةِ المفرطةِ في التعقيدِ،
تتوجبُ أن يكونَ إنبثاقُها بعدَ عشراتِ بلايينِ السنينِ من نشأةِ الكونِ.

ربما يُيسِّرُ المخططُ التالي لدعاةِ التنعيمِ للحياةِ، فهَمَّ سيرورةَ إنبثاقِها
إستناداً الى قانونِ الأعدادِ الكبيرةِ

كُونُ شَاسِعُ ذُو مَلَائِينَ الْبَلَائِينَ مِنَ الْمَجَرَاتِ وَالنَّجُومِ وَذُو عَمْرٍ يُقَدَّرُ
بِعَشْرَاتِ الْبَلَائِينَ مِنَ السَّنِينَ

يؤدي (إستناداً الى قانون الأعداد الكبيرة) الى أن

الْحَيَاةُ إِنْبَثَقَتْ بِمُصَادَفَةِ مُحَضَّةٍ (هَذَا مِكَافِئُ إِلَى أَنْ) لَا ضَرُورَةَ لَوْجُودِ
مُنْعَمٍ لِلْحَيَاةِ وَلَا وَجُوبِ الْإِنْزِلَاقِ إِلَى مَطَبٍّ مِغَالِطَةِ الْيَانِصِيبِ

إستناداً الى قانون الأعداد الكبيرة

يتطلبُ توافراً

عشراتِ البلايين من السنين لتتكوّن العناصرُ الكيمياءيةُ المكوّنةُ
للمركّباتِ العضوية المعقّدة

إستناداً الى قانون الأعداد الكبيرة

يتطلبُ أن يوجدَ

كُونُ شَاسِعُ ذُو مَلَائِينَ الْبَلَائِينَ مِنَ الْمَجَرَاتِ وَنَجُومٍ وَذُو عَمْرٍ يُقَدَّرُ
بِعَشْرَاتِ الْبَلَائِينَ مِنَ السَّنِينَ

الْخَلَلُ الثَّانِي

الآن أتناولُ النتائجَ المرتبةَ على "المُنْعَمِ الْكُونِي" من عبارة التماهي (8). التي بفضلها يُعتبرُ الكائنُ المُنْعَمُ هو الله، القادرُ على كلِّ شيءٍ والعالمُ بكلِّ شيءٍ والذي يؤمنُ بوجوده ويعبده دعاءُ هذه الحجة.

أُعيدُ سؤالي السابق:

لماذا صنعَ المُنْعَمُ الْكُونِي الإلهي كوناً شاسعاً ذا ملايين البلايين من المجراتِ والنجومِ كي تنبثقَ الحياةُ عليها بعدَ إنتظاره زمناً دامَ أكثرَ من ثلاثِ عشرة مليار سنة، وهو لا يحتاجُ سوى الى خَلْقِ كوكبٍ واحدٍ فقط لتحقيقِ رغبته؟

إن كائناً قادراً على كلِّ شيءٍ وراغباً خَلَقَ كونٍ صالحٍ لإنبثاقِ الحياة، لا تُفقيدهُ أيُّ ثوابت. بل أنه يستطيعُ خَلْقَ أيِّ شيءٍ بأيِّ ثوابت يشاء

وحتى من دون ثوابتٍ على الإطلاق. لكن العبارة (2) تنفي إمتلاك المُنْعَمِ الكوني تلك القدرة. إذ تنصُّ على عدم إمكانية وجود كون صالح للحياة إلا إذا كانت ثوابته نفس الثوابتِ الراهنة لكوننا مما يدلُّ على نقصٍ أو عَوَزٍ في قدرة ذلك الإله المُنْعَمِّ بعبارةٍ أُخرى.

إذا تحتمَّ على المُنْعَمِ الكوني الإلهي تَنْغِيمَ الكونِ بتركيبة الثوابت K لا غير، فيدل على أنه ليس كَلِّي القدرة.

إضافةً الى كلِّ ذلك، يُعتقدُ بعضُ المتشددين من دعاة هذه الحجة بتفسير العبارة (2) أنه يوجد قانونٌ فوق قوانين الكون الأساسية (أي سوپو قانون) يُحتمُّ بموجبه وجودُ تركيبةٍ وحيدةٍ للثوابتِ الكونية التي تُتيحُ على المدى البعيدِ إنبثاقَ الحياة.

دعنا نجدُ ماذا يترتبُ على هذا الاعتقاد.

إذا كان المُنْعَمِ الكوني الإلهي قادراً على تغييرِ الثوابتِ فلا يوجدُ أيُّ سببٍ للإعتقادِ أنه لا يستطيعُ أيضاً تغييرَ ذلك "السوپر قانون" الذي يُعيِّنُ شروطَ التنعيمِ الدقيقِ.

أمَّا إذا لم يكنِ المُنْعَمِ الكونيُّ الإلهي قادراً على تعديلِ التركيبةِ K فلا بُدَّ من وجودِ كائنٍ أعلى وأرقى منزلةً منه ويتحمَّلُ المسؤوليةَ عن وضعِ التركيبِ للثوابتِ الكونية وإتخاذِ القراراتِ بشأنها ويُوَعِزُّ الى المُنْعَمِ الكونيِّ الإلهي بتعليماته بخصوصِ التنعيمِ بعبارةٍ أُخرى:

بينَّا على أنه إذا لم يكن اللهُ قادراً فهناك مَنْ هو أقدرُ منه.

لا أظنُّ إنسجامَ هذه النتيجةِ مع معتقداتِ دعاة حجة التنعيمِ الدقيقِ وهي غيرُ مقبولةٍ من قِبَلِ معظمهم.

الْخَلَلُ الْثَالِثُ

إِن الْمُنْعَمَ الْكُونِيَّ - الْمُفْتَرَضَ وَجُودَهُ - كِي يَسْتَطِيعُ تَنْغِيمَ الْكُونِ
- لَا بَدَّ أَنْ يَمْتَلِكَ نِكَاءً مَفْرُطًا. لَكِنْ لَا يَبْدُو أَنْ دَعَاةَ الْبِرْهَانِ فَكَّرُوا
بِوُجُوبِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَصْمُومٌ أَوْ مُنْعَمٌ أَكْثَرَ نِكَاءً!!!!

منير: مثلما ينهكم ميكانيكي السيارات في تنظيم البنزين والهواء في محرك السيارة، كذلك يتصور دعاة حجة التنعيم الدقيق للحياة، أن الله، عند خلقه الكون، منهكم في تدوير عدد من المقابض كي يضبط بأحدها الكربون ويعدل بمقبض ثان سرعة إستهلاك الهيدروجين والهيليوم ويحدد بثالث سرعة الضوء. وهكذا يعين الثوابت كي يضمن إنبثاق الحياة - بعد مرور أكثر من ثلاث عشر بليون سنة - خاصة حياة البشر في ناحية نائية من نواحي الكون. يا له من مخطط ومنعم بارع!!!
شاهدت قبل يومين، تسجيلاً على الرابط الآتي لواعظ، أرجح أن يكون إنجيلياً.

<https://www.youtube.com/watch?v=CXi82qMQ9Cc>

على النمط نفسه من التفكير كان الواعظ بليغاً في كلامه لكنه مهوس في أفكاره. جعل "الكتاب المقدس" أعظم كتاب في الوجود لا يضاهيه أي كتاب آخر.

وحاكي حجة التنعيم الدقيق مقصورة على كوكب الأرض وموقعها في المنظومة الشمسية.

إذ قال: وضع الله الأرض على ذلك البعد المضبوط عن الشمس وبتلك الدقة بحيث لو كانت أقرب قليلاً إلى

الشمس لإرتفعت حرارة الأرض وتبخرت مياهها ولغدا العيش عليها مستحيلاً، من جهة أخرى، لو كانت أبعد بقليل عن الشمس من موقعها الحالي، لجمدت مياهها وإستحال وجود الحياة عليها. إضافة الى هذا فقد زوّد الله الأرض نسبة مساحة المناطق المغطاة بالمياه الى مساحة المناطق اليابسة لتكون ملائمة بالضبط لتلطيف جوها. كما جعل الله محورها يميل بمقدار 23.5 درجة كي تتكون الفصول الأربعة في السنة.

أتمنى أن يتاح لك بعض الوقت لمشاهدة الفيديو والتعليق عليه.

أشكرك يا منير على ملاحظتك القيمة. لا حاجة الى التمني فقد شاهدت هذا الفيديو بالذات. وقرأت عن أمثال تلك الإعوجاجات المنطقية وشاهدت عروضاً كثيرة على الفيديو لأشكال وألوان من إضطرابات في منهج التفكير.

صحيح، لو لم تكن الأرض على بُعد معين من الشمس ولو لم تكن نسبة مساحة جزء الأرض المغطى بالمياه الى مساحة اليابسة فيها هي النسبة الملائمة فلن تتوجد حياة على الأرض، ولما وجدت أنا ولا أنت يا منير ولا أنت أيها القارئ ولما كنا نندهش بالمنطق المعوج للواعظ لأنه لن يكون موجوداً هو أيضاً، ولن نصاب بالعجب للمعجزات التي أُجريت لأجل أن ينجد الواعظ المحترم!!!!

المنطق الصحيح هو أننا موجودون لأن الظروف صالحة للحياة على سطح الأرض وليس لأن الظروف هيئت مسبقاً لتكون صالحة لتوجد حياة عليها ونوجد نحن.

على الرغم من أن الواعظ إستعمل نفاقاً من مفردات علمية يأمل — كما يبدو — إضافاً على آرائه سموّاً وإحتراماً أكاديمياً، إلا أنه لم

يع أن الأرض وُجِدَتْ أولاً ثم ظهرت الحياةُ عليها بعد آلافِ الملايين من السنين.

إذا حدثَ وإلتقيتُ به مصادفةً سأقولُ له متهكماً:

أيها الواعظُ المبجلُ إن إلهك خلق أذنك - حسب منطقك كي تستطيع تثبيتَ نظاراتك عليهما. أليس هذا amazing. كما تُردُّ باستمرار، وخلقَ الهواءَ لتحلّقَ فيه الطائراتُ التي تسافرُ عليها، أليس هذا amazing. وخلقَ الأنهارَ كي تمرَّ من تحتِ الجسورِ أليس هذا amazing. وخلقَ المطرَ كي ينبتَ القمحُ أليس هذا amazing؟ إن الـ amazing الحقيقي هو منطقك المعوجُّ الذي لا تستطيعُ خداعَ به أحداً سواك.

الحُجَّةُ مِنَ الْإِنْفِجَارِ الْعَظِيمِ

الإنفجارُ العظيمُ The Big Bang¹⁰⁰ نظريةٌ ظهرتْ في نهايةِ عشرينياتِ القرنِ الماضي تتناول نموذجاً علمياً لنشوءِ الكونِ مبنياً نظرياً على نتائجِ نظريةِ النسبيةِ العامةِ لأينشتاين، وعملياً على مشاهداتِ فلكيةِ بالمرصدِ العملاقةِ التي بيَّنتْ أن جميعَ المجرَّاتِ تندفعُ مبتعدةً كلٌّ منها عن الأخرى وبسرِّعٍ هائلةٍ وبكُلِّ الإتجاهاتِ.

إذن الكونُ — حسبَ نظريةِ الانفجارِ العظيمِ — في توسعٍ مستمرٍ مثلٌ بالونٍ يزدادُ إنتفاخاً وتوسعاً مع مرورِ الزمنِ. يعتقدُ معظمُ المختصينَ في الكونياتِ أن مشاهداتِ علميةِ بوسائلٍ أُخرى تُعزِّزُ هذه الصورةَ عن إتساعِ الكونِ.

كي نفهمَ الأمورَ المترتبةَ على توسعِ الكونِ حسبَ هذه النظريةِ، لنتصوَّرَ أن لدينا فيلمٌ سينمائيٌّ عن نشأةِ الكونِ.

دعنا نستعرضُه بتشغيله الى الوراءِ بدءاً من اللحظةِ الراهنةِ.

سنشاهدُ المسافاتِ بين المجرَّاتِ تتقلصُ باستمرارٍ مطردٍ ممَّا يجعلُها بعد فترةٍ من الزمنِ الإرتدادي تدمجُ بعضها ببعضٍ فتغدو كرةً غازيةً تتقلصُ حجماً وتزدادُ كثافةً وترتفعُ حراوةً وهي تنحو مقتريةً أن تكونَ مجردَ نقطةٍ¹⁰¹ هائلةٍ في الكثافةِ والحرارةِ، يُسميها الرياضياتيون

100

أطلق بالأصل على النظرية لومنتغ Lemaitter مصطلحُ "الذرة البدائية Primordial atom". وضعُ مصطلحُ "Big Bang" السائدُ الآن الرياضياتي والفلكي البريطاني فريد هويل، Fred Hoyle، المناهضُ للنظرية إنتقاصاً لها وإستخفافاً بها في محاضرةٍ له في الإذاعةِ البريطانية سنة 1951.

101

أي يكادُ قطرها أن يكونَ معدوماً.

والفيزيائيون "نقطة فذّة أو متفردة Singularity Point" وهي نقطة تنهارُ عندها جميعُ مفاهيمنا عن الفضاءِ والزمانِ وعن جميعِ قوانينِ الفيزياءِ والكيمياءِ.

هذه قصةُ الإنفجارِ العظيمِ مختصرةٌ ومبسطةٌ جداً لسيناريو نشأةِ الكونِ التي إستغرقتُ زهاءَ ثلاثة عشر بليون سنة.

شكلَ ظهورُ نظريةِ الإنفجارِ العظيمِ في القرنِ الماضي إنعطافاً فكرياً فاصلاً عندَ المؤمنين المتدينين. إذ إعتبرَ معظمُهم، منذَ أزمنةِ كوبرنيكس ودارون، العلمَ معادٍ الى نظرتهم الى العالمِ. غيرَ أنَ نظريةَ الإنفجارِ العظيمِ عكستُ مواقفهم فإنقلبوا الى متعكزين بالعلمِ لنصرةِ آرائهم الدينية. أذ أنَ فكرةَ هذه النظريةِ منسجمةٌ معَ وجهةِ نظرهم. فلاغرابةٌ في ذلكَ لأنها تُبينُ أنَ للكونِ بدايةً إنسجاماً الى حدِّ ما معَ ما وردَ في سفرِ التكوينِ عن الخلقِ

لكن ينبغي على الساعين الى الإستنادِ على نظريةِ الإنفجارِ العظيمِ لدعمِ آرائهم الدينية الدينية أنَ يعوا أنها ليستُ النظريةَ الوحيدةَ عن نشأةِ الكونِ في الأوساطِ العلمية. فهناك نظرياتٌ أُخرُ منافسةٌ لها. لكن بفضلِ ما يبدو من نجاحاتِ هذه النظريةِ في إختباراتِ المشاهداتِ بشكلٍ أفضلٍ من مُنافساتِها، مالتُ آراءُ أغلبِ الكوزمولوجيين الى ترجيحِها على غيرها في الوقتِ الحاضرِ، على الرغمِ من المشاكلِ التي تُعانِيها.

والمؤمنون كعادتهم هذه الأيامِ يُحاولون بِعجالةٍ التشبثَ بِأيةِ قِشَّةٍ جديدةٍ في العلمِ لتعزيزِ معتقداتهم الدينية. على سبيلِ المثالِ، أستطارَ البابا پيوس الثاني عشر فرحاً سنة 1951 بِنظريةِ الإنفجارِ العظيمِ، فعلقَ قائلاً:

بدأتُ تتبينُ للعلماء أصابعُ الله في خَلْقِ الكونِ .
وأخذ العلمُ الصادقُ يكشفُ بِدرجاتٍ متناميةٍ
بإِطْرَدَ ، أن وراءَ كلِّ بابٍ يفتحه العلمُ يقفُ اللهُ
مَنْتظراً الدخولَ منه .

إلا أن لأب جورج هنري لُمَيْتَغ (Georges-Henri Lemattair)
الكاهنَ الكاثوليكيَّ الرياضياتيَّ والفلكيَّ ورئيسَ الأكاديمية البابوية
للعلومِ قَدَمَ نصيحةٍ حكيمةً الى الباباِ نبهه بِألا يجعلَ تعليقه الأَنفَ
الذِكْرَ عقيدةً منزهةً من الخطأِ تربطُ المذهبَ الكاثوليكيَّ إرتباطاً وثيقاً
مع نظرية الانفجار العظيمِ فينهارُ معها إذا ما دُحضتُ . (تجدُرُ
الإشارةُ الى أن لُمَيْتَغَ الكاهنَ العالمَ أو العالمَ الكاهنَ يُعتبرُ "أبو"
نظرية الانفجار العظيمِ لأنه أولُ مَنْ إكتشفها نظرياً بِحلِّ معادلةِ
النسبية العامة لِأينشتاين سنة 1927).

لكن ليس كلُّ رجالِ الدينِ ذوي حكمةٍ ومنطقيٍّ ودرايةٍ
مثل الأب لُمَيْتَغِ .

نضعُ ، بعد هذه المقدمة التوضيحية المبسطة ، الحجةَ على وجودِ الله
في سياقِ إستنتاجيِّ بناءً على الانفجار العظيمِ ، وندينُ بعدئذٍ مواطنَ
الخللِ فيها

1 . إنبثقَ الكونُ — المتضمنُ ليس المادةُ
والطاقة فقط ، إنما الفضاءَ والزمانَ أيضاً
— عند حدوثِ الانفجار العظيمِ The
Big Bang حسبَ الرأيِ العلميِّ
السائدِ .

2 . إذن للكونِ بداية .

- 3 . لكل ما له بدايةٌ لا بُدَّ أن يكون مُسبَّباً .
- 4 . يجب أن يكون المُسبَّبُ للإنفجار العظيم في خارج تلك النقطة البدائية¹⁰²
- 5 . يُسمي معظم الناس المُسبَّبَ الموصوفَ في (4) الله
- 6 . الله موجودٌ .

الخللُ الأولُ

لا يوجد إجماعٌ عند المختصين في علم الكونِ على التفسيرِ الواردِ في (1) و (2) للإنفجارِ العظيمِ. إذ — كما ذكرنا سابقاً — أن النظرية تعاني من مشاكل التي يمكنُ القارئُ الراغبُ في الإطلاعِ عليها مراجعةً الرابطِ الآتي:

<http://csep10.phys.utk.edu/astr162/lect/cosmology/bbproblems.html>

إضافةً الى ذلك إن كلَّ ما يعرفُهُ المختصون هو إستقراءً من المعلومات النظرية والمشاهدات الفلكية لإستدلالٍ على ماذا حدثَ خلالَ اللحظاتِ الفدَّةِ الأولى لإنبثاقِ الكونِ. ولا يعلمُ أحدٌ ماذا حدثَ قبلها¹⁰³. يبني دعاءةً هذه الحجةَ إعتقادهم على معلوماتٍ علميةٍ من الممكن أن تتبدلَ في المستقبل.

102

إني شخصياً لا أجدُ معنىً للكلامِ عن "وجودِ خارجِ النقطةِ البدائية".

103

يتهربُ الثيولوجيون من التطرقِ الى أمثال هذه المسائلِ بأساليبٍ لفظيةٍ لا منطقيةٍ. على سبيل المثال، يُقال إن أحدَ الخبثاءِ سألَ القديسَ أوغسطين: ماذا كان اللهُ يعملُ قبلَ خلقه الكونِ. أجابَ أوغسطينُ بغضبٍ أنه كان منشغلاً بتحضيرِ جهنمَ للذين يسألون مثلَ هذه الأسئلةِ!!!!

الخلُّ الثاني

تقعُ الحجَّةُ من الإنفجارِ العظيمِ في نفسِ مطبَّاتِ الحجَّةِ السببيةِ.
 أولاً: يقعُ الدعاةُ في مطبِّ مغالطةٍ "تجاهلِ مدى التطبيق" لمفهومِ
 السببيةِ (أي أنهم يمتطفون مجاله من الحوادثِ الإعتياديةِ المألوفةِ
 الخاضعةِ لقوانينِ الفيزياءِ والكيمياءِ الى مجالِ الكونِ بأسره وهو مجالٌ
 تنهارُ فيه قوانينُ الطبيعةِ ويفقدُ مفهومُ السببيةِ حتّى معناها).
 ثانياً: يقعُ دعائها في مطبِّ مغالطةٍ تكلمنا عنها سابقاً ألا وهي:
 "تمريرُ المرءِ المسؤوليةَ الى غيرهِ *Passing the Buck*". بعبارةٍ أُخرى
 الإستشهادُ بِاللهِ للجوابِ عن لغزِ نشأةِ الكونِ والإنفجارِ العظيمِ ثم
 تركُ لغزِ اللهِ من دون حل. كيف ولماذا أحدث اللهُ الإنفجارَ؟ وأسئلُهُ
 غيرها دون أيِّ جواب.

الخلُّ الثالثُ

لا تساعدُ الحجَّةُ تحديدَ مَنْ هو الإلهُ المُفجِّرُ من بينِ عديدٍ من الآلهةِ
 التي يَعْتَقِدُ بِوجودِها المؤمنون على إختلافِ معتقداتهم. أهو إلهُ
 المسيحيين ذو الأقانيم الثلاثة؟ أم هو إلهُ المسلمين؟ أم هو يهوا إلهُ
 اليهود؟ أم هو إلهُ الربوبيين القائلين "بتقاعده" مباشرةً بعد الإنفجارِ؟
 أم هو آهورامزد إلهُ الزارديشتانيين؟ أم هو زيوس؟ أيكْتَبُ الحرفُ
 الأولُ من إسمِهِ بالإنكليزيةِ بِحرفِ G أم بِg؟

منير: تتركُ هذه الحجَّةُ المؤمنَ وطائفتهُ مخدَّرين
 بنشوةٍ لأنهم يتصورون أن الإلهَ الذي يعبدُهُ هو الـ
 Big Bangor العظيم!!!

الْحُجَّةُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ

أكبرُ معجزةٍ هي أنه لا توجدُ معجزةٌ. — هنري پوانكاريه

تُستخدمُ كلمةُ "معجزة" بمعانٍ مختلفةٍ تُفهمُ عادةً من السياق، منها ما يأتي:

- إنجازٌ رائعٌ: بنى المهندسون اليابانيون جسراً يُعتبرُ معجزةً في الهندسة.
- وقوعُ حادثٍ ذي احتمالٍ ضئيلٍ لحدوثه: شفاءُ مريضٍ من مرضٍ مميتٍ.
- إعصارٌ أبادَ جميعَ سكَّانِ القريةِ باستثناءِ طفلٍ رضيعٍ.

يختلفُ مفهومُ "المعجزة والإعجاز" في هذا المقالِ عن الأمثلةِ السابقةِ. إذ يقتصرُ على ظواهرٍ غيرِ متوقَّعةٍ وغيرِ قابلةٍ للتفسيرِ بالقوانينِ العلميةِ المعروفةِ ويُعزى وقوعُها الى تدخلِ قوىٍ غيرِ منظورةٍ تَنْتَهِكُ أو تُعلِّقُ قوانينَ الطبيعةِ.

تزخرُ جميعُ الأديانِ بِأعدادٍ كبيرةٍ من ظواهرٍ أو حوادثٍ يُعتبرُها معتنقو تلكِ الأديانِ معجزاتٍ مُعززةٍ لمعتقداتهم اليقينية. فيما يأتي بعض ما يُزعمُ أنها معجزاتٍ معروفةٍ تاريخياً:

تُعزى الى المسيحية:

- المسيحُ أحيا نفسه من الأموات.
- المسيحُ وُلِدَ من عذراء.
- المسيحُ أحيا لعازر بعد موته بأربعةِ أيامٍ.

- المسيحُ صعدَ بجسمه الى السماء .
- المسيحُ حوّلَ ماءً الى خمر .
- المسيحُ أشفى كثيراً من المرضى .
- المسيحُ أوقفَ عاصفةً بحريةً بكلمةٍ آمرةٍ من عنده .
- المسيحُ أطعمَ آلافَ الناسِ بقليلٍ من أرغفةٍ وسَمَكٍ .

تُعزى الى اليهودية:

- موسى شطرَ البحرَ الأحمرَ شطرين ليعبرَ اليهودُ من مصرَ الى فلسطين .
- موسى حوّلَ عصاه الى ثعبان .
- يشوعُ بن نون أوقفتُ الشمسُ عن الحركةِ إستجابةً لصلاته .
- إيليا إنتقل الى السماءِ مباشرةً .
- نهرُ النيلِ تحوّل الى دم .

تُعزى الى الإسلام:

- محمدٌ تنزّلَ عليه القرآنُ الإعجازُ في البيان .
- محمدٌ أسرى وعرّجَ الى السماء .
- محمدٌ أُستحيبَ طلبه بانشقاقِ القمر .

تُعزى الى البوذية:

- بوذا تكلمَ ومشى مباشرةً بعد ولادته .
- بوذا أنتجَ لهيبَ نارٍ في جزءٍ من جسمه وتيارَ ماءٍ في جزءٍ آخرٍ وحرّكهما بالتناوب .

- بوذا دَجَّنَ فيلاً متهيجاً جنونياً بلمسةٍ من يدهِ .
- بوذا شَطَرَ مِياهَ نَهْرٍ فائِضٍ الى شَطْرينِ كِى يمشي على اليابسة بينهما .

تُعزى الى الوثنية

- ادبونيوس حوَّلَ الماءَ الى خمر .
- هرمز سارَ على الماء .
- آبولونيوس أحيا أمواتاً .
- آبولونيوس كان قادراً أن يكونَ في أمكنةٍ مختلفةٍ في نفسِ الوقتِ .
- آبولونيوس صعدَ بجِسمه الى السماء .
- ميثرا وُلدَ من عذراء .

لا أشكُّ أن القارئَ قد لاحظَ تشابهاً يكادُ أن يكونَ تطابقاً في بعضِ المعجزاتِ المزعومة. ممَّا يدلُّ على تناضحِ الغيبياتِ فيما بين الأديانِ، وهو موضوعٌ يستحقُّ دراسةً موضوعيةً من قِبَلِ مؤرخي الأديانِ، لكنه ليس موضوعنا الرئيسي.

نريدُ أن يقتصرَ نقاشنا مُتمحوراً حولَ ما يؤمنُ كُثُرٌ من الناسِ بأنِ المعجزاتِ إشاراتٌ إلهيةٌ مُرسَلةٌ اليهم لِتعزيزِ معتقداتِهِم بِبراهينِ ساطعة.

وأرجحُ أن القارئَ قد لمسَ من إطلاعاتِهِ أن الأديانَ تُعتمِدُ عن معتنقيها قصصَ المعجزاتِ التي تزعمُ أديانُ أخرى حدوثها أو تستهزئُ بها. وأوضِحُ موضوعَ التعظيمِ بمثالٍ على صيغةٍ تساؤلٍ:

كم مسيحي يُعلمُ أن المثرثيةَ دينٌ إنتشرَ في أوساطِ الإمبراطوريتينِ الفارسيةِ والرومانيةِ خلالَ الفترةِ من القرونِ الستةِ قبلَ الميلادِ الى الثلاثةِ بعدَ الميلادِ .
يؤمنُ معتنقوهُ أن إلهَهُم ميثراٌ وُلِدَ من عذراءٍ —
مثلما وُلِدَ يسوعُ!!!

منير: يظهرُ أن تركيزك على "المعجزاتِ" التاريخيةِ المرتبطةِ مع مؤسسي الأديان، قد أشغلكَ عن "معجزاتٍ" أُخرى زعمَ أنها حدثتْ خلالَ جميعِ القرونِ العشرينِ الماضيةِ .

لا أعلمُ كيف أشكركُ، يا منير، لتنبهني الى سهوي عن ذِكْرِ "المعجزاتِ" الكثيرةِ التي وقعتْ بعدَ إنتشارِ المسيحيةِ، والتي يمكنُ أن تُكوّنَ مجلداً ضخماً . ولعلَّ أوسعها إنتشاراً التقاريرُ عن ظهوراتٍ يُزعمُ أنها لمريمَ والدةِ يسوعَ الناصري .
يُقدَّرُ عددُ ما يُزعمُ أنها "ظهوراتٍ مريميةٍ" بالمئاتِ بحيثِ صارتْ تُنعتُ عادةً بإسمِ المدنِ التي يدعى حدوثُها فيها . مثلاً:

عذراءُ غوادالوبي (في المكسيك)
وعذراءُ لوردز (في قريةِ لُوردزِ الفرنسيةِ)
وعذراءُ فاطمة (وهي قريةٌ برتغالية)
وعذراءُ الزيتونة (في حيِّ من أحياءِ القاهرةِ)
وغيرها و غيرها .

تُصاحبُها إدعاءاتٌ بإستجابةِ العذراءِ مريمِ لِتضرعاتِ بعضِ المؤمنينِ لغرضِ الشفاءِ من أمراضٍ مستعصيةٍ، أو بِحدوثِ ظواهرٍ عجيبةٍ، كإنبثاقِ نبعِ ماءٍ في مدينةِ لُوردزِ بالقربِ من المكانِ الذي حدثَ فيه ما يُزعمُ أنه "ظهورُ مريمي" أو بوقوعِ "معجزةِ رقصةِ الشمسِ" في قريةِ فاطمة.!!!!

من الملاحظ أن المسؤولين الدينيين لا يطبلون وحدهم بالدعاية "للمعجزات"، بل تساهم السلطات المدنية فيهما بشكل فعال لأغراض سياحية وإقتصادية واضحة كي تغدو مدنهم محاجات تجذب مؤمنين إليها من كل صوب، وخير مثال على ذلك، مدينة لوردز الصغيرة، التي أضحت، بفضل ملايين حجّاجها، ثاني مدينة فرنسية بعد فنادقها بعد العاصمة باريس!!! حيث ادعت فتاة ذات ثلاثة عشر عاماً معروفة بسذاجتها ومريضة بالربو ومن عائلة فقيرة بظهور "العدراء مريم" لها.

وقد ادعى ثلاثة أطفال من رعاة الغنم تتراوح أعمارهم بين التاسعة والعاشر في قرية فاطمة البرتغالية، بـ "ظهور العدراء مريم" لهم وأودعتهم ثلاثة أسرار.

أتساءل، هل عجزت مريم في العثور على من هم أهلاً بثقتها للإخبار عن "الأسرار" فإضطرت الإعتماذ على أطفال رعاة جهلة؟

ولا تقتصر المعجزات على الظهورات بل هناك عجائب وغرائب أخرى، منها عرض جثث لم يصبها التحلل. وتسعى الكنيسة الى الإيحاء أن عدم التحلل إشارة إلهية لقدسيتها أصحاب الجثث — من دون دراسة إحصائية معمّقة.

وهناك أيضاً تماثيل للمسيح أو للعدراء مريم تبكي أو تدمي أو تنضح زيتاً!!!

أضع، بعد المقدمة التوضيحية، فيما يأتي صيغة برهانية لأفكار المؤمنين بالمعجزات:

- 1 . يتوافرُ حشدٌ من تقاريرٍ شفويةٍ وتحرييةٍ على حدوثِ معجزاتٍ .
- 2 . تعزُرُ كثرةُ التقاريرِ — التي تشهدُ بالشيءِ نفسه — صدقَ حدوثِها .
- 3 . لا يمكنُ تفسيرُ المعجزاتِ إلاَّ بوجودِ كائنٍ ذي سلطةٍ ونفوذٍ على تعطيلِ قوانينِ الطبيعةِ ، هادفةٍ إما إلى التعريفِ بوجوده وسلطته ومصداقية دعوتها ، وإما إلى تغييرِ مسارِ التاريخِ البشريِ .
- 4 . يمتلكُ اللهُ وحدهُ تلكَ القدرةَ ويعلمُ الغايةَ من إجرائه معجزاتٍ .
- 5 . إذن اللهُ موجودٌ

الخللُ الأولُ

ليس هنالك شكٌ في توافرِ تقاريرٍ عديدةٍ عن حدوثِ ما تصفه العبارةُ (1) أنها معجزاتٍ . لكن يُصرُّ كل دينٍ على الحادثِ المعززةِ والمثبتةِ لمعتقداته اليقينية . لكن لا تشهدُ التقاريرُ على الحوادثِ نفسها بالضبط بل على ما يضاهاها . بعبارةٍ أخرى، يُبرِّرُ كلُّ حادثٍ يُزعمُ أنه معجزةٌ على أنه يدعُمُ ديناً على حسابِ الأديانِ الأخرى .

كيف إذن يستقيمُ الإستنتاجُ على وجودِ اللهِ بالعبارةِ (5) وكأن كلَّ الأديانِ تشيرُ إلى الإلهِ نفسه؟ هل هو الإلهُ ذو الأقانيمِ الثلاثة؟ أم هو الإلهُ الذي أنزلَ قرآنَ الإسلامِ؟ أم هو يهوا الذي كان يتصرفُ كأنه مديرُ طابو يوزعُ الأراضي جزافاً؟ أم هو الإلهُ تُور صاحبُ المطرقةِ الكبيرة؟ أم هو زيوس؟ أم إلى آخرِ ما هنالك من آلهةٍ .

الخلل الثاني

وضع الفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم David Hume إصبعه بطريقة بارعة وحاسمة على مواطن خلل هذه الحجّة

في الفصل العاشر المَعنون "المعجزات" من كتابه المشهور "مبحث في الفهم البشري" يتضمن الفصل معالجات إنتقادية شاملة للحجّة. ويمكن قراءة الفصل كاملاً بالإنكليزية على الرابط الآتي:

/An_Enquiry_Concerning_Human_Understanding#Sect.X._Of_Miracles

<http://en.wikisource.org/wiki>

أعتقد أن من المفيد تلخيص الفصل هنا.

يقول هيوم: تتطلب دراسة حدوث معجزة ما يلي:

- أولاً: الإقرار أن حدوث معجزة يُشكلُ خرقاً لقانون معزز أدلّة متعددة مرتكزة على نتائج تجارب وإختبارات متنوعة وعلى شهادات قدّمها ناسٌ كثيرٌ يعولُّ عليهم من بلدان متعددة عاشوا في أزمنة مختلفة .
- ثانياً: لا يمكن التفكير بموضوع تصديق أو نكران قصص المعجزات إلاّ اعتماداً على ما يقدمه شهود على وقوعها وينبغي — كي يكون لشهادات الشهود وزن موثر — أن تستند الشهادات على مصداقية راسخة معولّ عليها. لكن شهادات البشر حول المعجزات قد تُقدّم في حالاتٍ كثيرٍ بحسن نية ، غير أنها بالتأكيد أبعدُ بكثير عن المعصومية عن الخطأ . إذ يشهد بعض الناس بالباطل لأنهم إما مخادعون ، وإما في أغلب الحالات سُذج يسهلُ خداعهم .
- ثالثاً: المعجزة — حسب تعريفها — إنتهاك قانون مدعوم بأدلة أقوى

بكثير من الأدلة المحدودة المؤيدة لقصة
المعجزة المزعمة حدوثها . وهي — علي
عكس قوانين الطبيعة — حادثة فذة
وقعت في زمان ومكان معينين وغير قابلة
للإعادة . حدثت وأنتهى أمرها . إذن من
المعقولة ترجيح عدم تصديق القصص
المروية .

سعى هيوم الى أن يكون نقاشه موضوعياً . فتساءل هل توجد ظروف
يتحتم فيها تصديق معجزة وتجاهل شهادات تكذيبها؟
أجاب عن سؤاله ببنفسه قائلاً: توجد مثل تلك الظروف في حالة أن
الوزن العلمي لجميع الأدلة على القانون المخترق أقل بكثير من وزن
الشهادات المتعددة والمصدقة حدوث المعجزة من قبل شهود متحليين
بالاستقامة 100٪ ويعول على شهاداتهم.
بعبارة أخرى يقول هيوم:

يمكن اعتبار حادث أنه معجزة فقط في الحالة
التي تشكل مجموعة الأدلة وشهادات
تكذيب الحادث قضية تكذيبها أصعب
من تكذيب الحادث نفسه .

منير : يبدو لي أن الفيلسوف هيوم، بدلاً من أن
يقول صراحةً بإستحالة حدوث معجزة، ووضَع شرطاً
تعجيزياً لتصديق حدوثها .

عزيزي منير، مما لا شك فيه أنه لم تخضع أي من "المعجزات"
التاريخية الى محك هيوم . ولا يمكنها الصمود أمامه لو أخضعت له،
ولكني لا أستطيع الجزم أنه تعجيزي.

وكي أَوْضَحَ المحكَّ، أقولُ لو إدعى زميلي وصديقي الدكتور برونو غروبر (وهو أستاذ الفيزياء من أصلٍ نمساوي يُدرِّسُ في جامعةِ إلينوي الجنوبية، مدينة كاربونديل، ولاية إلينوي الأمريكية. ومن المؤسفِ أن ذراعَه اليسرى مبتورةٌ) - لو إدعى - أنه إستعادَ ذراعَه المبتورةَ بعد أن غطس في نبعٍ لُوردز ملتمساً من العذراءِ مريمَ إستنباتَ ذراعٍ له.

منير: قد سمعتُ عن تقاريرِ حدوثِ معجزاتِ شفاءِ أمراضٍ مستعصية، كالسرطان أو الشلل أو بعض أنواع العمى. وتُعزى تلك الحوادثُ في الأوساطِ العلميةِ الى إمكانيةِ الشفاءِ العفويِ الذاتيِ من خلالِ جهازِ مناعةِ الجسمِ وقواه التنشيطية.

لكن لم أسمعُ أبداً عن معجزةٍ ظهرَ فيها عضوٌ مبتورٌ. أنني مثلك لم أسمعُ عن معجزةٍ أُدعى فيها إستنباتُ عضوٍ مبتور. وينبغي أن أُوكِّدَ لك أن الإدعاءَ المزعومَ للدكتور غروبر هو من "تأليفي وتلحيني" لغرضِ توضيحِ محكِّ هيوم لا أكثرَ ولا أقل. وهو ليس مسؤلاً عن الإدعاء.

إنك، بطبيعة الحال، لن تُصدِّق. ولهذا ستعملُ جاهداً الى تكذيبه بمساءلةٍ جميعِ الشهودِ وبالتدقيقِ بالخدعِ الممكنة. لنتابعَ مسعاك خطوةً خطوةً.

بدأتَ بموظفِ الإستقبالِ في الفندقِ الذي أقامَ فيه غروبر خلالِ مكوثه في لُوردز.

فأكَّدَ الموظفُ أنه شاهدَ الدكتورَ غروبر عند دخولهِ الفندقِ وهو مبتورُ الذراع، وأقسمَ أنه فوجئَ عند مغادرةِ غروبر الفندقِ بمشاهدةِ ذراعِه كاملاً. وأردفَ قائلاً إنها أولُ معجزةٍ إستنباتِ عضوٍ يراها طوالَ العشرةِ أعوامِ عملهِ في لُوردز.

وأقسم عشرات من الحجَّاج المصلين في لُوردز أنهم شاهدوه غاطساً في البركة المشهورة بفعَّاليتها الإعجازية وهو بذراعٍ واحدةٍ. وحلف بعضهم بأغلظ الأيمان بأنهم رأوه في صباح اليوم التالي مبتهجاً ملوحاً اليهم ومشيراً الى ذراعهِ اليسرى.

ثم عدت الى جامعة كاربوندل لمقابلة رئيسها ومئات أساتذتها وآلاف طلبتها.

ووجدت أنهم مجمعون على أن الدكتور غروبر غادر المدينة وكان مبتور الذراع اليسرى وعاد اليها وذراعيه سليمين.

ولم تكتف بهذه النتائج بل راجعت أطباء الأشعة الذين أخضعوا غروبر الى الفحص فطمأنوك أن الذراع المستنبتة ليست صناعية بل طبيعية بلحمها وعظامها وأعصابها وشرابنها وأوردتها.

وأخيراً قدح ذهنك بإحتمال وجود توأمٍ مطابقٍ لبرونو غروبر سليم الذراعين. وأن التوأمين يقومان بتمثيل مسرحية خبيثة في خداع الناس.

ولهذا توجهت الى النمسا مسقط رأس الدكتور برونو ووجدت بعد بحثٍ مضمّن أن له شقيقٌ وحيدٌ غير توأمٍ. ومع ذلك لم تكتف بهذا القدر من المعلومات فبحثت في السجلات الرسمية واكتشفت أن الشقيق لم يغادر الى لُوردز ولا الى كاربوندل، وفي الحقيقة لم يغادر النمسا مطلقاً.

يتضح أنك حاولت العثور على شهاداتٍ وأدلةٍ كي تُكذِّبَ إدعاء برونو لكنك وجدت أنها تُشكِّلُ قضيةً تكذيبها أمراً أصعب بكثيرٍ من تكذيب الإدعاء نفسه. وهنا ينصحنا الفيلسوف هيوم بتصديق حدوث المعجزة. ويطمئننا بقوله: قد تبرز أحياناً ظاهرةٌ يستحيل تفسيرها

علمياً في عصرٍ ما، لكنها، بفضل التطور في المعرفة العلمية، تغدو في عصرٍ لاحقٍ واضحةً وقابلةً للتفسير.

لكن هيوم يقرُّ أن شرطه لم يتحقق أبداً في الماضي فيما يخصُّ المعجزات الدينية.

ويذكرنا أن في الواقع لم يُوثق التاريخُ معجزةً دينيةً شهدَ على وقوعها ما يكفي من شهودٍ متسمين بالذكاء والثقافة ومتحلين بالاستقامة الكاملة وقادرين على معالجة موضوعية للأمور المتعلقة بالدين.

منير : أودُّ أن أسألَ لماذا لا يثقُ هيوم بشهاداتِ شهودٍ

إلا إذا كانوا ذوي ثقافة عالية.

أدعو هيوم كأن يجيبَ عن سؤالك :

● ينحو ناسٌ كثرٌ نحو التسرع في التصديق

بالحوادث الغريبة والعجيبة واللاعتيادية واللامعقولة والمثيرة للعواطف .

● يميلُ كثيرٌ من ذوي نيات حسنة وشديدي الإيمان

بعقائد دينية نحو أن يكونوا على استعداد للإدلاء بما يعلمون ببطلانه لهدف المساهمة في الترويج إلى معجزةٍ يعتبرونها عظيمةً في شأنها وقدسيتها .

● يُصابُ بعضُ الناسِ — عندما يواجهون شهوداً

ذوي بيان وبلاغةٍ وممن يبدو عليهم الصدق والاستقامة — إصابَةً بحالة سذاجةٍ إلى درجةٍ يسهلُ عندها خداعهم .

- تُعزى تلك الإصاباتُ الى التأثيرات السايكولوجية التي تتركها قصصُ المعجزات على النفوس .
- تجذرت في العصور المظلمة قصصُ المعجزات الدينية في أراضٍ كانت تقطنُ عليها شعوبٌ يسودها الجهل .
- إن تاريخ جميع الحضارات يعرضُ مواضيعَ الحوادث المذهلة والخارقة للطبيعة في نمط تظهر في بداية الأمر غزيرةً عددياً ، ثم تتناقصُ بإطرادٍ مع مرور الزمن ونمو المعرفة والفهم للعالم .
- إن كثرة التلفيقات الموثقة التي قصصُ معجزات تجعلنا نرجحُ أن يكونَ احتمالُ تلفيقِ أي معجزةٍ تُعزى الى تدخلِ إلهي أكبرَ من احتمالِ حدوثها الفعلي .
- لهذا يجبُ ألا تتخذَ أيُّ معجزةٍ أساساً تبريراً لدينٍ لتكونَ برهاناً على وجودِ إلهٍ .

من المعلوم أن لكلِّ دينٍ قصصُ معجزاتٍ يُزعمُ أنها تدعمُ وتعزِّزُ مصداقيتهُ. من جهةٍ أُخرى تتناقضُ الأديانُ فيما بينها. ممَّا يؤدي الى أن يكونَ بعضُ قصصِ معجزاتها (إن لم يكن جميعها) باطلاً. إذن يمكننا الإستنتاجُ

إن أغلبيةَ المعجزات المزعومة خُدعٌ .
والإحتمالُ عالٍ أن تكونَ جميعها خُدعاً .

الْحُجَّةُ مِنَ الْإِسْتِجَابَةِ إِلَى الصَّلَاةِ

يبلغُ حبُّ الذاتِ عندَ مجموعةٍ من كائناتٍ تدَّعي إمتلاكِ العقلِ وتعيشُ فوقَ سطحِ حِصاةٍ صغيرةٍ دَوَّارَةٍ حَوْلَ نَجْمَةٍ متوسطةِ الحجمِ — يبلغُ — مبلغاً من نرجسيةٍ بحيثُ أن يتصوَّرَ بعضُ أفرادِها أن الكائنَ المسمى "الله" الذي يعتقدُ أغلبُهم بوجوده مهتمٌ بهم إهتماماً خاصاً فيراقبُ حركاتِهم وتصرفاتِهم وأفكارِهم ونزواتِهم وحتى ما في داخلِ أجسامِهم ويتفاعلُ معهم متى ما شاء. ويعتقدُ بعضُهم أنه قد يستجيبُ أحياناً لصلواتِهم وتضرعاتِهم فيُجري معجزاتٍ بتعطيلِ قوانينِ الطبيعة.

يقولُ دعاةُ هذه الحُجَّةِ، بأن بعضَ المصلينَ يلتمسونَ من الله أن يحققَ لهم طلباً يستصعبُ تحقيقه. وبالرغمِ من صعوبةِ تحقيقِ الطلبِ، يُستجابُ أحياناً إلى الإلتماساتِهم. (مثلاً، تطلبُ والدَةُ شفاءَ طفلِها المصابِ بمرضٍ مميت. فيُشفى). ويُفكِّرونَ على النحوِ الآتي:

1. يتحققُ أحياناً الطلبُ الملتمسُ رغمَ الإحتمالِ الهائلِ ضدَّ تحقيقه .
2. يكادُ تحققُ الإلتماسُ عقبَ الصلاةِ أن يكونَ مستحيلاً .
3. يستحيلُ أن يعقبَ الصلاةَ تحقيقُ الإلتماسِ إلا إذا وُجدَ كائنٌ قادرٌ على الإستجابةِ إليها . وأستجابَ فعلاً .

- 4 . يُسَمَّى عَادَةَ الْكَائِنِ الْقَادِرُ عَلَى
الإِسْتِجَابَةِ إِلَى الصَّلَاةِ "اللَّهُ".
5 . إِذْنُ اللَّهِ مُوجُودٌ .

لا تختلف هذه الحجّة عن سابقتها المتعلقة بالمعجزات سوى أن الصلاة معجزة ذات طابع حميمي وشخصي. إذا إفترضنا - لغرض النقاش - وجود الله. فمن الملفت للتأمل أنه إله يُفَرِّقُ بين البشر. فمن جهة هو رحيمٌ تحرّكه نداءاتُ يأسه من بعض البشر فيعطّل لأجلهم قوانين الكون. لكنه من جهة أخرى لا يكتثّر مطلقاً لنداءاتٍ أُخرى لاتقل يأساً من السابقات. أجديرُ هذا الإله بالعبادة؟ لكن دعنا من هذا السؤال المثير للمشاعرِ والعواطف، ولنقتصر إهتمامنا على المنطق المحض كي نبرز مواطن الخلل في البرهان المزعوم.

الْخَلُّ الْأَوَّلُ

إن العبارة رقم (1) من دون أيّ شكّ صادقة. لكن الإعتماد عليها للإدعاء بحدوث معجزة يُؤدي الى عدم التصديق بها. إذ أن المعجزة - كما مرّ علينا - خرقٌ لقانونٍ من قوانين الطبيعة. وليس هناك ما هو أقلّ احتمالاً من حدوثه.

إذن من المعقول أكثر أن يُعزى إرتباط الصلاة مع تحقق الإلتماس الى تصادفٍ وتزامنٍ الحدثين من أن يُعزى الى معجزة.

الْخَلُّ الثَّانِي

إذا تناولنا عينه كبيرةً من اللمتسين المساعدة من الله بالصلاة، فيتحمّم أحياناً (حسب قانون الأعداد الكبيرة في علم الإحصاء) أن

إضافةً الى ذلك يميل البشرُ، بصورةٍ عامّةٍ، نحو التحيزِ الى آرائهم. فَتسترعِي المصادفاتُ والتزاماتُ ضئيلةُ الإحتمالِ إنتباهَ الميَّالين الى التدينِ فيُطَنَّبونَ بِالتأكيدِ عليها، لكنهم يخفقون (وربَّما يتجاهلون في عدَّ مرَّاتِ الصلواتِ غيرِ المُستجابةِ التي تعدادُها أكبرُ بكثيرٍ من المُستجابةِ).

الْخَلُّ الثَّالِثُ

هناك حالاتُ شفاءٍ موثَّقةٌ التي حدثتُ — كما يبدو — إِستجابةً الى صلاة. لكنها تنطوي دائماً على أمراضٍ معروفةٍ طبياً في إمكانيتها على الشفاءِ الذاتيِّ عفويًّا من خلالِ جهازِ مناعةِ الجسمِ وقواه التنشيطية، مثل السرطانِ أو الغيبوبةِ أو بعضِ أنواعِ العمى. أمَّا الصلواتُ التي يُلمَسُ منها المُصلي نموُّ أحدِ أطرافه المبتورة، أو بَعَثَ طفلٍ من الموت، فتذهبُ دائماً دونِ إِستجابة. يُوكِّدُ هذا أن الصلواتِ المُعتقَدُ مُستجابٌ لها هي في الواقعِ مجردُ حالاتٍ نادرةٍ من الانتعاشِ الطبيعي.

مُنير: د. ريمون أرجو أن تسمحَ لي أن أرويَ لك قصةً طريفةً عن مدى الإِستجابةِ الى الصلاة. سمعتُ صحفيةً من CNN عن أن في القدس رجلاً يهودي قد بلغَ من العمرِ عتياً، الذي كان يُصَلِّي عندَ حائطِ المبكى مرتينِ في اليوم، كلَّ يومٍ، منذُ سنواتٍ طويلة.

لذلك عندما زارتُ الجدارَ للحصولِ على قصته، أشارَ زميلٌ لها. الى الرجل. شَاهدتهُ يُصَلِّي قِرابَةً 45 دقيقة، ثم إلتفتَ عائداً. يتعكَّزُ ببطيءٍ على عصاه.

إقتربت منه لمقابلته قائلةً :

— أنا فلانة من CNN. سيدي، منذ متى بدأت تأتي

الى الجدار للصلاة؟

— حوالي ستون عاماً.

— **ستون عاماً!!!! هذا مذهل!!!**

ماذا تصلي ومن أجل من؟

— أصلي من أجل السلام بين المسيحيين واليهود

والمسلمين، وأصلي من أجل نبذ كل الكراهية،

وَأدعو الله أن يكبر أبناؤنا جميعاً في ضلال

السلامة والصدقة.

— كيف تشعر بعد تلك الأعوام الستين؟

— Like I've been talking to a f-wall.

عزيزي ،منير، لا أخفي عليك إعجابي بالقصة. فهي تُعبّر عن حقيقة الصلاة. لكن لا أعرف معنى f-wall.

منير: دريمون إبقى هكذا!!!

الْحُجَّةُ مِنَ الْأَخْلَاقِ

تناولتُ في إجابةٍ الى سؤالٍ في مقابلةٍ سابقةٍ موضوعَ "هل تشكّل الأديانُ المصادرَ الرئيسيةَ للأخلاقِ". بينتُ فيها أن القيمَ الأخلاقيةَ نشأتْ تلقائياً من الحسِّ الجماعيِّ بِضرورةٍ حمايةِ المجتمعاتِ من الإنهيارِ وضمانِ ديمومتِها. ثم صُقلتُ القيمُ خلالَ آلافِ السنينِ مع تطوّرِ المجتمعاتِ والحضاراتِ. أمّا هذه الحجةُ فتتناولُ موضوعَ الأخلاقِ ذاتِ طبيعةٍ شاملةٍ. يقولُ دعائُها إن الأخلاقَ مجموعةٌ أوامرٍ. ولا بدُّ أن يكونَ للأوامرِ كائنٌ يأمرُ بها ويمكُ قدرةً مطلقةً لإصدارِها. وليس هناك مَنْ يمتلكُ مثلَ هذه السلطةِ سوى الله.

لنتابعَ خطواتِ تفكيرِهم:

- 1 . توجدُ حقائقٌ أخلاقيةٌ موضوعيةٌ ، كالرق والتعذيب والإبادة العرقية ليست بغیضةً فحسب ، إنما يشعرُ المرءُ أنها فعلاً أخطاءٌ جسيمة) .
- 2 . هذه الحقائقُ الأخلاقيةُ ليست مبنيةً على تصرفاتِ البشرِ كما هم بل كما ينبغي أن يتصرفوا .
- 3 . لا تُزودُ قوانينُ العلومِ البشرَ بالكيفيةِ التي ينبغي عليهم أن يتصرفوا .
- 4 . التفسيرُ الوحيدُ للحقائقِ أن هناك كائنٌ يأمرُ بإنشاءِ الأخلاقِ .
- 5 . يُسمى الناسُ الأمرَ المذكورَ في (4) "الله" .

6 . الله موجودٌ .

الخلُّ الأولُ

يُظهِرُ تَارِيحُ الْأَدْيَانِ بَطْلَانَ الْعِبَارَةِ (4).

إِنَّ إِلَهَ «الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ» وَبِصُورَةٍ خَاصَّةٍ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَإِلَهَ الْقُرْآنِ لَمْ يُنْشِئَا مَا تُعْتَبَرُ الْيَوْمَ أَخْلَاقًا حَسَنَةً بَلْ بِالْعَكْسِ أَمْرًا بِالْإِحْتِفَاطِ بِالْعَبِيدِ وَذُبْحِ الْأَعْدَاءِ وَإِعْدَامِ الْمَجْذِفِينَ وَالْمُتَشَبِّهِينَ وَإِرْتِكَابِ أَعْمَالٍ شَنِيعَةٍ وَمَقِيَّتَةٍ

الخلُّ الثاني

ظَهَرَ خَلُّ هَذِهِ الْحُجَّةِ الرَّئِيسِيِّ بِوُضُوحٍ مِنْذُ الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِفَضْلِ الْكِتَابِ الْمَعْرُوفِ الْيُوثِيفَرُو «Euthyphro» لِإِفْلَاطُونِ الَّذِي يَعْضُ فِيهِ الْآرَاءَ بِصِغَةِ حِوَارٍ ثَنَائِيٍّ بَيْنَ مَعْلَمِهِ سَقْرَاطِ وَشَخْصٍ وَهَمِيٍّ يُوثِيفَرُو. يُثِيرُ سَقْرَاطِ السُّؤَالَ الْعَمِيقَ:

هَلْ أَمَرْتُ الْأَلْهَةَ بِمَا هُوَ خَيْرٌ لِأَنَّهُ جَيِّدٌ بِصَمِيمِ ذَاتِهِ

أَمْ

أَنَّ الْخَيْرَ جَيِّدٌ لِأَنَّ الْأَلْهَةَ أَمَرَتْ بِهِ؟

لِهَذَا لَا يُسَاعِدُنَا إِتِّخَاذُ اللَّهِ رَكِيزَةً لِإِقَامَةِ نَظْرِيَّةٍ مَوْضُوعِيَّةٍ حَوْلَ حَقِيقَةِ الْأَخْلَاقِ.

إِذْ نَسَأَلُ عَلَى غَرَارٍ سُّؤَالَ إِفْلَاطُونِ:

هَلْ يَمْتَلِكُ اللَّهُ مَبْرَرًا لِإِخْتِيَارِهِ مِثْلًا الْإِحْسَانَ كَخُلُقِ

جَيِّدٍ لِأَنَّ الْإِحْسَانَ جَيِّدٌ بِذَاتِهِ ، وَإِخْتِيَارِهِ التَّعْذِيبَ

كَخُلُقِ سَيِّئٍ لِأَنَّ التَّعْذِيبَ سَيِّئٌ بِذَاتِهِ؟

إِنَّ اللَّهَ إِمَّا يَمْتَلِكُ مَبْرَرًا وَإِمَّا لَا يَمْتَلِكُ.

إِذَا إِمْتَلَكَ فَتَصِبِحُ الْأَخْلَاقُ مُسْتَقْلَلَةً عَنِ اللَّهِ، وَيُمْكِنُ وَضْعَ أُسْوَاسِ الْأَخْلَاقِ عَلَى مَبْرَرَاتِهِ (مَهْمَا كَانَتْ). وَعِنْدَئِذٍ يَغْدُو اللَّهُ زَائِدًا عَنِ الْحَاجَةِ.

أَمَّا إِذَا لَمْ يَمْتَلِكْ فَتَغْدُو إِخْتِيَارَاتُهُ إِعْتَبَاطِيَّةً. إِذْ يُمْكِنُهُ بِكُلِّ سَهُولَةٍ

إختيار الإحسان كعملٍ سيءٍ والتعذيب والإغتصاب أعمالاً حسنة. إذن لا يمكن أن يكون الله مصدراً للأخلاق من دون جعل الأخلاق إعتباطية. وكما يُعتبرُ اللهُ كائناً خيراً يجب أن يكون الخَيْرُ مستقلاً عنه.

الحجة من حقيقة الأخلاق، مثال آخر للوقوع في مطب مغالطة "نقل المسؤولية على كتف الآخر The fallacy of Passing the Buck".

منير: أتذكرُ بهذه المناسبةِ مقولةَ أحدهم في تعبيرٍ

لاذع عن الفرق بين الأخلاق والدين.

الأخلاق تأمر بما هو صحيح بغض النظر عما يُقال

لك. والدين يأمر بما يُقال لك بغض النظر عما

هو صحيح.

هذه مقولةٌ دقيقةٌ في التعبير. لبد أنك تذكرُ أنني رويتُ سابقاً عن مثالٍ واقعيٍّ يشكّل نموذجاً لهذه المقولة الرائعة.

فقد ذكرتُ أن إستضافني زميلٌ لي وعند خروجي من منزله شكرته على حُسن ضيافته. أجايني:

هذا واجبُ يأمرني به نبينا محمدٌ رسولُ الله الذي

أوصى:

من كان يومٌ من باللهِ واليومِ الآخرِ فليكرم ضيفه.

قلتُ:

إذن إسمح لي أن أسحبَ شكري اليك. وأعيدُ

توجيهه إلى محمد الذي لو لم يأمر بما أمر، لما

أستضفتني.

ضحك صديقي عالياً معتبراً ردي نكتةً ذكية. لكنني لم أقصدُ مطلقاً أن يكون ردي نكتةً.

المُقَامَرَةُ الْبِاسْكَالِيَّةُ

منير: كنتُ أتحدّثُ قبلَ حوالي أسبوعٍ مع ابنِ خالي زهير الذي هاجر حديثاً الى الدانمارك . أُنْجَرْتُ أحاديثنا الى المحاولات البرهانية المزعومة لإثبات وجود كائن خلق الكون . وكيف أن جميعها لا تصمد أمام محكّات المنطق . بالرغم من أنه مؤمنٌ لكنه منفتحُ العقلِ الى حدِّ ما . إقتنعَ بهزلة تلك البراهين (أو هكذا بدالي) . وأكّد لي أنه سيتركُ ممارساته في الإلتزامات الدينية . لكنني فوجئتُ يومَ أمسٍ بمشاهدته "متلبساً" يصلي المسبحة . وحين شعرَ بأني تفاجأتُ، قال إنه لا زال معتقداً بأن الأديان أوهامٌ غيبيةٌ إلا أنه يسلكُ الآن إستراتيجية الإحتياط . فصرختُ في وجهه قائلاً: "مَنْ تريد أن تخذعَ؟ أتخذعُ إلهك المفروض أنه كُليّ المعرفة!!؟ أنت لا تخذعُ سوى نفسك" .

أيمكنك التعليقَ على أمثال أولئك الذين يتصرفون عقائدياً مثل زهير؟

الله غير موجود	الله موجود	
قد خُذِعْتَ وفقدتَ مباحج الحياة. V2	الخلاص الأبدي V1	إيمان
قد ربحتَ ويمكنك التمتع بكلّ مباحج الحياة V4	عقاب جهنم الأبدي V3	لا إيمان

أشكرك - يا منير - على مساهماتك . إنني أعرفُ كثيراً من

أصدقائي ينهجون نهجَ قريبِك. وعلى الرغمِ من أن هذا النهجَ لا يُشكّلُ محاولةً برهانيةً صريحةً على وجودِ الله، لكنني سأتناولُ الموضوعَ بالشرح.

يُسمى هذا النهجُ في الوسطِ الفلسفي "رهانَ پاسكال" Pascal`s Wager إذ يُعزى بلورتهُ الى الفرنسي بليز پاسكل الرياضياتي والفيزيائي والفيلسوفِ والمخترعِ والاثولوجي.

Blaise Pascal (1662-1623)

دعني أتناولُ أفكارَ پاسكال في مقامرته:

- 1 . هنالك احتمالان :
إمّا الله موجودٌ ، وإمّا أنه غيرُ موجود .
- 2 . أمامك إختياران :
إمّا أن تؤمنَ بوجوده وإمّا أن لا تؤمن .
- 3 . إذا إخترتَ سبيلَ الإيمان وكان الله موجوداً ، فستنالُ بعد وفاتك نعمةَ الخلاص الأبدى . أمّا إذا لم يكن موجوداً فقد إنخدعتَ وأضعتَ حياتك الأرضيةَ بممارساتٍ دينيةٍ وفقدتَ المتعَ بمباهجِ الحياة .
- 4 . إذا إخترتَ سبيلَ اللإيمان وكان الله موجوداً فالويلُ لك . ستكون خسارتك بعد وفاتك فادحةً جداً بعقابِ جهنم الأبدى . أمّا إذا لم يكن موجوداً فتريحُ أولاً التمتعَ بمباهجِ الحياة وثانياً الإمتناعُ

من ممارسات إلتزامات مملّة لدين باطل .
 هذه الحصيلةُ وإن كانت ربحاً لكنّه ربحٌ
 لا يقارنُ مع السعادة الأبدية .

5 . إدن الإيمانُ بوجودِ الله أكثرُ عقلانيةً من
 عدمِ الإيمانِ بوجوده .

تبيينُ المصنوفةُ الآتيةُ الفكرةَ بوضوح:

اللهُ غيرُ موجودٍ	اللهُ موجودٌ	
قد خُذتَ وفقدتَ مباحٍ الحياة .	الخلاصُ الأبدى	إيمان
قد ربحتَ وتمتعتَ بكلِّ مباحٍ الحياة	عقابُ جهنمِ أبدي	لا إيمان

إن من الواضح أن المقامرة الپاسكالية لا تُشكّلُ حُجّةً برهانيةً على
 وجودِ الله . إنما تنصُّ أن من العقلانية للمرء الحائرِ في موضوعِ وجودِ
 الله أن يؤمنَ بوجوده.

الخلُّ الأولُ

يمكنُ تفسيرُ كلمةَ "الإيمان" في الرهانِ الپاسكالي بطريقتين:
 الطريقةُ الأولى: يؤمنُ المراهنُ إيماناً حقيقياً وصميمياً بوجودِ الله.
 الطريقةُ الثانية: يكتفي المراهنُ بتلاوةِ الصلواتِ وحضورِ الطقوسِ
 الدينيةِ في دورِ العبادةِ والتفوّهِ بعباراتِ قانونِ الإيمانِ والإلتزامِ
 بمتطلباتِ الدينِ من دونِ إيمانٍ حقيقيٍّ صميمي.
 الخلُّ في المقامرة الپاسكالية هو عدمُ توفيرها دليلاً للمراهنِ الى إيِّ

إِلَهُ يُوجِّهُ صَلَاتَهُ وَبِأَيِّ عَقِيدَةٍ يَلْتَزِمُ. لِنَفْتَرِضَ، عَلَى سَبِيلِ التَّوْضِيحِ،
أَنْ قَرِيبَكَ زَهِيرٌ، إِخْتَارَ الْإِيمَانَ بِإِلَهٍ الْقَرَّانِ. غَيْرَ أَنْ إِلَهَ الْمَسِيحِيِّينَ
أَوْصَى بِالْأَنْجِيلِ. وَلِهَذَا بِالرَّغْمِ مِنْ إِيْمَانِ زَهِيرِ فَسَوْفَ يَسْتَجَلِبُ غَيْظَ
إِلَهِ الْإِنْجِيلِ عَلَيْهِ.

إِنِّي أودُّ التَّوَصُّلَ إِلَى أَنْ الْمَرْءَ الَّذِي يَخْتَارُ "الْإِيمَانَ" يَبْقَى تَحْتَ تَهْدِيدِ
مَسْتَمِرٍّ - حَسَبِ مَقَامِرَةِ پَاسْكَالِ - بِالنَّتَائِجِ السَّلْبِيَّةِ الْمَتْرَبَةِ
عَلَى عَدَمِ الْإِيْمَانِ بِالْهَيْةِ أُخْرَى عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِخْتِيَارِهِ
"الْإِيمَانَ" 104.

الْخُلُّ الثَّانِي

هناك تناقضٌ بين صورةِ إِلَهِ الْأَدِيَانِ التَّوْحِيدِيَّةِ وَصُورَةِ إِلَهِ الْمَقَامِرَةِ
الْپَاسْكَالِيَّةِ.

إِذْ تَفْتَرِضُ الْمَقَامِرَةُ أَنَّ اللَّهَ أَنَانِيٌّ وَحَقُودٌ وَيَعْتَبَرُ الْإِيْمَانَ بِهِ فَوْقَ كُلِّ
شَيْءٍ. يَمْنَحُ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ سِوَاءً كَانَ إِيمَانًا صَادِقًا
أَمْ مَتَصَنَّعًا، وَيَعَاقِبُ الْمَرْءَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِهِ مَهْمَا تَمَتَّعَ الْمَرْءُ مِنْ صِفَاتِ
الْصِّدْقِ وَالْإِسْتِقَامَةِ وَالْأَمَانَةِ وَالْعَدَالَةِ. لَكِنْ مَعْظَمُ الْأَدِيَانِ وَبِالْأَخْصِ
التَّوْحِيدِيَّةِ مِنْهَا، تَدَّعِي أَنْ الرَّحْمَةَ سَمَةٌ مِنَ السَّمَاتِ الْجَوْهَرِيَّةِ لِـ اللَّهِ
إِذَا صَحَّ هَذَا الْإِدْعَاءُ فَمَنْ الْمَوْكَّدِ أَنْ إِلَهًا رَحِيمًا يُمْكِنُهُ تَفَهُُّهُمْ أَنْ شَحَّةَ
الْأَدَلَّةِ عَلَى وَجُودِهِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ إِنْسَانًا مَلْحَدًا غَيْرَ مُؤْمِنٍ بِهِ.

وَمِنْ الْبَدِيهِيَّاتِ الضَّمْنِيَّةِ فِي الْمَقَامِرَةِ الْپَاسْكَالِيَّةِ أَنَّ الْأَدَلَّةَ شَحِيحَةٌ
فَعَلًا. إِذْ لَوْ لَمْ تَكُنْ، لَمَا فَكَّرَ پَاسْكَالٌ بِالْمَقَامِرَةِ الْمَشْهُورَةِ بِهِ. لِهَذَا
فَمَنْ الْمَتَوَقَّعِ مِنْ إِلَهٍ رَحِيمٍ أَنْ يَشْمَلَ الْمَلْحَدَ الْمَتَسَمَّ بِالصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ

السامية بِرَحْمَتِهِ الواسعة.

سُئِلَ الفيلسوفُ البريطاني برتراند رسل سؤالاً إفتراضياً:

دعنا نتجاهلُ إلحادك مؤقتاً . وتصورَ أن بعد وفاتك
وجدتَ نفسك وجهاً لوجه أمامَ الله وهو يسألكُ
عن سببِ عدمِ إيمانك بوجوهه . ماذا ستجيبُه؟

فردَّ برتراند رسل بقوله سوف أسأله:

لماذا يا سيدي لم تُوفِّرْ ما يكفي من الأدلة؟

ما دمنا في جوِّ الحديثِ عن المقامرات ، أدعوك يا منير أنتَ والقراء
الى المشاركة في مراهنه:

ماذا تُراهنُ . أيحكُمُ اللهُ (المفترضُ وجودُه) على الفيلسوفِ رسلِ بنارِ
جهنمِ لِإلحادِه ، أم ستشفعُ له شكوكُه الصادقةُ وحياتُه التي قضاها
بشجاعةٍ وإخلاصٍ في البحثِ الفلسفي والدفاعِ عن العدل والسلام
العالمي فيحكُمُ عليه بجنةِ السعادةِ الأبدية؟!!!!

الْخَلُّ الثَّالِثُ

أغفلتُ المقامرةَ الپاسكالية الإدخالَ الصريحَ لِنسبةِ إحتمالِ وجودِ الله
وأوزانِ لتقديرِ الربحِ لِلبدائلِ الأربعة . وهي معلوماتٌ ضروريةٌ
لحسابِ القيمتين المتوقعتين لكل من "الإيمان" و "الللايمان ن"
اللّتين على ضوءهما يتخذُ المرءُ قراراً عقلائياً كما مَوْضَحُ في المصفوفةِ
والمعادلتين أدناه حيث أن العددَ p يُمثّلُ الإحتمالَ الذي يضعُه المراهنُ
على وجودِ الله:

فحصلُ على:

القيمة المتوقعة لـ "الإيمان"

$$V_2 \times [1 - p] + V_1 \times p$$

والقيمة المتوقعة لـ "اللاإيمان"

$$V_4 \times [1 - p] + V_3 \times p$$

يبدو أن مقامرة پاسكال تفترض ضمناً أن الإحتمالية p تساوي $1/2$ وأن V_1 و V_3 تساويان ما لا نهاية وسالب ما لانهاية على التوالي وأن V_2 و V_4 عددين منتهيين لم يُحدداً.

بطبيعة الحال تكون القيمة المتوقعة للإيمان بهذه الافتراضات الضمنية أعلى من اللاإيمان مهما كانت V_2 و V_4 .

أما إذا إعتمدَ إنسانٌ ما — بناءً على تقديراته وتخميناته الشخصية — القيم التالية:

$$P = 0.2$$

وأن

$$V_2 = 100 \quad \text{و} \quad V_1 = 100$$

و

$$V_2 = 500 \quad V_4 = 700$$

فعندئذٍ تكون القيمة المتوقعة "الإيمان" و "اللاإيمان" 280 و 660 على التوالي.

فمن العقلانية بالنسبة الى ذلك الإنسان إختيار "اللاإيمان".

منير : يعتقدُ البعضُ أن عرضَ الخللِ في البراهينِ
المزعومةِ يعني البرهنَةُ على عدمِ وجودِ الخالقِ .
هل تعتقدُ هذا صحيح؟

كلا، نقول إن البراهينَ مزعومةً لأنها لا تستقيمُ مع المنطقِ السليمِ.
ولا نعني أبداً أنها براهينُ على عدمِ وجودِ الخالقِ للكونِ.
إنني أجزمُ معتقداً أنه لا يمكنُ مطلقاً إيجادَ برهانٍ يستندُ على العقلِ
والمنطقِ ينفي وجودَ الله.

الملاحق

قَصِيدَةُ الْخُلُودِ لِلشَّاعِرِ إِيْلِيَا أَبُو مَاضِي

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

المؤلف

قَصِيدَةُ الْخُلُودِ لِلشَّاعِرِ إِيْلِيَا أَبُو مَاضِي

كلُّنا بعد الردي هيُّ بنُّ بيِّ
لَعرفنا ما الذي بعد الفناء
لم تَخَفْ أَنْفسنا ريبَ القضاء
فكرةٌ أوجدها حبُّ البقاء
والأمانِي حَيَّةٌ في كلِّ حيِّ
خدعوننا . نحن والشمع سواء
فإذا ما احتُرقتُ باد الضياء
كيف ولَّى عندما زال البناء؟
آية تدفع عنهم كلَّ غيِّ
معه جاءت ومعه تعود
هذا حين يمضي تتبع
قولنا: الأرواح ليست تصرع
إذا ما ذهبَتْ لم يبق فيِّ
اجزعنا كلما جسم همد
لرأها مَنْ يرى هذا الجس
سوف ينحلُّ كما إنحلَّ الزبْد
جاز أن يعقب ذلك النَّشْرطيِّ
خبرونا أين تمضي الرائحة
أم تلاشى مثل صوت النَّائحة؟

غلطَ القائلون إننا خالدون
لو عرفنا ما الذي قبل الوجود
نحن لو كنا كما قالوا نعود
إنما القول بأننا للخلود
نعشق البُقيا لأننا زائلون
زعموا الأرواح تبقى سرمدًا
يلبث النور متقدًا
أين كان النور؟ أنى وجدنا
شمعتي فيها لطلاب اليقين
ليست الروح سوى هذا الجسد
لم تكن قبل وجد
فمن الزور الموشى والفند
تلبث الأفياء ما دامت الغصون
لو تكون الروح ما لا يضمحل
لو تكون الروح جسمًا مستقل
كلُّ ما في الأرض من عينٍ وظل
ولئن صحَّ بأننا منشرون
ليت مَنْ قالوا بأننا كالزهور
أترى تبقى كألحان الدهور

لبت شعري أي خلد للبذور
 قل لمن يخطب في الليل الظنون
 مثلما يذهب لون الورقة
 مثلما يفقد نور الحلقة
 كتلاشي الشمعة المحترقة
 أنا بعد الموت شيئاً لا أكون
 إليه أبناء الثرى نسل القروذ
 إلبسوا في صحوكم ثوب الجمود
 فسيأتي زمنٌ غير بعيد
 ويحل الله في ماءٍ وطنين
 بعد أن تلقى بنارٍ لافحة
 ليس بعد الموت للظالم ري
 عندما تيبس في الأرض الأصول
 حين أفضى ، هكذا نفسي تؤول
 تتلاشى بين ضحكٍ وعويل
 حيث أني لم أكن من قبل شيء!
 عللوا أنفسكم بالترهات
 وإحلموا في نومكم بالمعجزات
 تتهادى بينكم فيه أيّاه!
 فيراه الشيخ والشاب الأحي!

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

عزيزي القارئ

أَفْتَرِضُ أَنْ مَجْرَدَ وَصُولِكَ إِلَى هُنَا فِي قِرَاءَتِكَ إِشَارَةً إِلَى نَيْلِ الْكِتَابِ رِضَاكَ. كُنْتُ أَوْدُ الْإِدْعَاءَ بِأَنَّ الْفَضْلَ لِكُلِّ مَزَايَاهُ لِنَفْسِي. لَكِنِّي أَقْرُ أَنْ ذَلِكَ بَاطِلٌ. وَلِهَذَا يَتَوَجَّبُ عَلَيَّ الْإِشَارَةَ إِلَى مَنْ كَرَّسَ وَقْتَهُ وَعِلْمَهُ وَجَهْدَهُ وَصَبْرَهُ فِي مَسَاعِدَتِي إِخْرَاجِ كِتَابٍ أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ مِمَّا كُنْتُ قَادِرًا عَلَى إِخْرَاجِهِ بِجَهْدِي الْذَاتِيَّةِ.

أَوْدُ تَسْجِيلِ تَشْكُرَاتِي وَإِمْتِنَانَاتِي «الثَّلَاثِيَّةَ الْأَبْعَادِ» إِلَى ابْنِي نَبِيلِ شُكُورِي لِإِسْتِجَابَتِهِ الْعَاجِلَةِ إِلَى إِسْتِعَاثَاتِي. إِذْ كَلَّمَا مَرَّ الْكِتَابُ بِأَزْمَةٍ طِبَاعِيَّةٍ أَوْ إِخْتَفَى فِي الْكُومْبِيُوتَرِ كُنْتُ أَصْرَحُ مُسْتَنْجِدًا
وَإِنْبِيْلَاهُ!! وَإِنْبِيْلَاهُ!! عَجَلٌ لِإِنْفَازِ مَسْوَدَةٍ
الْكِتَابِ مِنَ الضِّيَاعِ أَوْ الْإِبْتِلَاعِ فِي بَطُونِ الْكُومْبِيُوتَرِ
وَتَذَهَبُ أَعْيَابِي هَبَاءً .

فِيأَتِينِي نَبِيلٌ مُسْرِعًا. وَبَعْدَ دَقَائِقٍ مِنْ «نَبِيْثِهِ فِي أَحْشَاءِ» الْكُومْبِيُوتَرِ بَطْرَائِقٌ لَا يُمَكِّنُنِي إِسْتِئْجَابَهَا يُخْرِجُ الْمَسْوَدَةَ سَلِيمَةً مَعَاوَةً.
وَتَعْجَزُ قَابِلِيَاتِي اللَّغْوِيَّةُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ شُعُورِي الْعَمِيقِ بِشُكْرِي وَإِمْتِنَانِي لَهُ عَلَى قِضَائِهِ سَاعَاتٍ وَلِيَالٍ طَوَالَ فِي إِخْرَاجِ الْكِتَابِ مِنْ تَنْمِيْطٍ وَتَنْسِيْقٍ لِفَقْرَاتِهِ وَتَصْمِيْمٍ جَمِيْلٍ لِغُلَافِهِ. فَظَهَرَ الْكِتَابُ بِفَضِيْلِ جُهْدِهِ أُنَيْقًا بِشُكْلِهِ وَمُنْتَسِقًا فِي أُسْلُوبِ طِبَاعَةِ فُقْرَاتِهِ. إِضَافَةً إِلَى كُلِّ ذَلِكَ فَقَدْ أَبْدَى مَلَاخِظَاتٍ سَدِيْدَةً أَزَالَتْ اللَّبْسَ مِنْ بَعْضِ الْفُقْرَاتِ فَأَسْجَلُّ لَهُ أَخْلَصَ شُكْرِي.

وَأَتَقَدَّمُ بِالشُّكْرِ الْجَزِيْلِ إِلَى ابْنِي وَسِيْمِ شُكُورِي لِقِرَاءَتِهِ بَعْضَ فُصُولِ الْكِتَابِ، وَتَقْدِيْمِهِ إِقْتِرَاحَاتٍ نَاقِدَةً بِنَاءً الَّتِي كَانَ لَهَا وَقَعٌ إِجْبَابِيٌّ عَلَى تَحْسِيْنِ أُسْلُوبِ عَرْضِ آرَائِي.

أودُّ تسجيلَ وتوثيقَ عجزِي عن إيجادِ ما يكفي من التعبيرِ لإبداءِ ما أشعرُ بِعمقِ شكري لِلدكتورِ ثائرِ البياتي لِقرائتهِ الْكتابَ فِي جميعِ مراحلِهِ، رَغْمَ مشاغلهِ الْكثيرَةِ، ولِإبدائهِ تقييماتٍ ومقترحاتٍ بِناءةٍ وسديدةٍ أَفادتْ فِي بَلُورَةِ وتوضيحِ المفاهيمِ. وإضافةً الى ذلكِ لو لا ملاحظاتهِ الثاقبةُ لكانتْ الأخطاءُ المطبعيةُ والإملائيةُ كثيرةً فِي الْكتابِ.

من الْحَقِّ أَنْ أُسَجِّلَ الشكرَ الْعَميقَ للدكتورِ علاءِ الدينِ الظاهرِ لِقرائتهِ الْكتابَ بعينِ فاحصةٍ، فَجَنَّبَ الْكتابَ من مطبآتٍ أخطاءٍ فِي التاريخِ الإسلاميِّ وتاريخِ الْعراقِ السياسيِّ الْحديثِ، ولِتصحيحِهِ التهجويِّ لِبعضِ أسماءِ الأعلامِ الْغربيةِ.

أمَّا صديقي طلعتِ ميشو الَّذِي ما فَتِيَّ يمدُّني بِقيتامينِ تَلتسنتسجيجِ على المثابرةِ وبقيتامينِ ص لِلصصصصصص، كلما شعرَ أَنِّي أُصِبتُ بِوهنٍ يَخفُضُ من كفاءتي الْإنتاجيةِ فِي الْكتابةِ. له مني أَلْفُ أَلْفِ شُكْرٍ.

وينبغي عليَّ أَلَّا أنسى تقديمَ الشكرِ الى منيرِ، المؤلفِ الْمشاركِ، الَّذِي أَثَرَ لَبَسَ طاقيةَ الإخفاءِ وأدارَ بِمِهارةٍ دفةَ المقابلاتِ ولطفَ الأجواءِ بتعليقاتِهِ ونكاتِهِ الجميلةِ من كوينهاگنِ على بُعدِ أَلْفِ الكيلومتراتِ بواسطةِ Remote Control. فحق لي وصفه بِأنه المؤلفُ الْمشاركِ

المؤلف



ريمون نجيب شكوري

أستاذ متقاعد من جامعة بغداد إختصاصه الرياضيات. درّس أيضاً في الجامعة المستنصرية في بغداد، والجامعة الهاشمية في الأردن، وجامعة ولاية إيلينوي الجنوبية وجامعة كاليفورنيا في فريزنو، وجامعة ويزلي في بلومنگتن إيلينوي.

وُلد في بغداد سنة 1931. درّس الهندسة المدنية في جامعة بغداد وإشتغل مهندساً مدة عامين. لكن لم تستهوه مهنة الهندسة فدخل كلية العلوم / جامعة بغداد لدراسة الرياضيات.

حصل على بعثة دراسية الى الولايات المتحدة. نال شهادة الدكتوراه سنة 1963 من جامعة ولاية أيوا في التوبولوجيا الجبرية. عاد بعد تخرجه مباشرة الى العراق لخدمة الوطن. عُيّن في كلية العلوم / جامعة بغداد. درّس فيها مختلف المواضيع الرياضية إضافة الى تاريخ وفلسفة الرياضيات والفيزياء. وأشرف على رسائل حوالي أربعين طالب ماجستير ودكتوراه. إستمر في التدريس الى حين تقاعده سنة 1996.

إلتقى أثناء دراسته في جامعة أيوا بنورية أوكيم طالبة تدرس الرياضيات التي أصبحت بعدئذ شريكة حياته. وهي أيضاً درست الرياضيات في كلية التربية في جامعة بغداد.

من إهتماماته غير التدريسية قراءة الآداب الكلاسيكية، وقراءة الشعر العربي والإنكليزي بصوت عالٍ، وقراءة مواضيع في الفلسفة، ومتابعة الأخبار العالمية، والتواصل عبر الإنترنت مع زملائه وطلبة السابقين. يعيش الآن بالقرب من عائلتي إبنيه في مدينة ناشفيل / ولاية تنسي الأمريكية.

يكشفُ مؤلّفُ « صحوتي الفكرية » كيف ولماذا تحوّل خلال نشأته من صبي متدينٍ في مرحلة الدراسة الابتدائية الى غير مؤمنٍ في المرحلة الجامعية. ومن خلال سرده لِسيرة تحوّلِهِ، تطرّق الى المشكلة الرئيسية التي واجهت العالمَ قرونًا مديدةً وما أنفكّت تواجههُ اليومَ، ألا وهي العنف. وأعتاداً على حججٍ منطقيةٍ وعلى أمثلةٍ نابعةٍ من الواقع، عزى ظاهرةَ العنفِ الى الدينِ أو على الأقل الى التطرفِ الديني. إن أسلوبَ وعرضِ الدكتور شكوري في كتابه واضحٌ ومقنع. وقد أڪسبت قدرته في التحكمِ الرائعِ بِاللغةِ العرضَ إمتاعاً للقراءة. أوصي كل من يصبو من المثقفين لفهمٍ صحيحٍ الى خطرِ الإرهابِ الماثلِ أمامَ البشرية بقراءة « صحوتي الفكرية ».

الدكتور عادل غسان نعم / أستاذ الرياضيات / كلية العلوم / جامعة بغداد.

وجدتُ عند قراءتي « صحوتي الفكرية » أنه كتابٌ يعالجُ محاورَ عديدةٍ تدورُ جميعها حولَ معاناة البشرية منها منذ القدم وما زالت تعاني منها. وقد نجح المؤلفُ الدكتور ريمون شكوري في اختيارِ المحاورِ وكان موضوعياً في نقاشه وأكاديمياً في حوارهِ. فجاءَ كتابه غزيراً بمادته وممتعاً بأسلوبهِ الأدبي الرفيع. وأودُّ أن أوصي كل من يسعى الى الخروجِ من الأنفاقِ المظلمةِ الى النورِ أن يكونَ « صحوتي الفكرية » رفيقاً معه.

إبراهيم ناصر شاهينيان / أستاذ الفيزياء / كلية التربية / جامعة بغداد

« صحوتي الفكرية » كتابٌ لمن يريدُ التحررَ من الخرافاتِ الدينية. صوحةُ الدكتور ريمون شكوري مبنيةٌ على المناقشةِ والتحليلِ العلميِ والمنطقيِ للنصوصِ والمفاهيمِ الإنجيليةِ والقرآنيةِ وتبيّنُ التناقضاتِ الرهيبةَ فيها. تنهارُ قصصُ الخلقِ والحججِ والمعجزاتِ التي بُنيتَ عليها أو بررتها، تنهارُ أمامَ مفاهيمٍ مثل (تجاهلُ مدى التطبيقِ) أو مفاهيمٍ من حسابِ الإحتمالية. يذكرُ « صحوتي الفكرية » ما جلبتِ الأديانُ من حروبٍ وكوارثٍ على البشرية. قراءةٌ شيقَةٌ لعقولِ الباحثةِ عن إجابات.

د. علاء الدين الظاهر / أستاذ الرياضيات / جامعة تونته / هولندا

لا يفهم ظاهرة الدين من اعتنق ديناً بل من إنعتق من الأديان